نذير حمدان

حكمة القرآن والحضارة

الماهيّة - الخصوصيّات - الجماليّة - الآثار والنّتائج الحضاريّة

دار الكلم الطّيّب
دمشق - بيروت

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

« .. ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ »

[الإسراء: ٣٩]

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« هو الذِّكرُ الحكيمُ، والنُّورُ المبينُ، والصِّراطُ المستقيمُ »

رواه الدارمي (٢/٤٣٦)

وعن كعب قال:

عليكم بالقرآن، فإنَّه فهمُ العقلِ، ونورُ الحكمةِ وينابيعُ العلمِ، وأحدثُ الكتبِ بالرحمن عهداً.

رواه الدارمي (٢/٤٣٣)

حكمة القرآن

والحضارة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

الكلم الطيب
دمشق - حلبوني - شارع مسلّم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢
بيروت. ص.ب: ١١٣/٦٣١٨

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٣٠٢٠٤٤٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الدراسة

اللهم ارزقنا حكمة البيان والفعل والحال، وعلمنا حكمة القرآن والسنة، وفقهنا فيهما ودلنا على صحة الكلمة وصدقها، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب الحكيم .

وبعد : فهذا الكتاب هو خامس خمسة قامت بمسؤولية الدراسة الحضارية المتعمقة في الآيات البينات، وتناولت قيم الحضارة القرآنية من صميم الذكر الحكيم تكشف عنها وتدعو لها وتوجه الى الالتزام بها في عالم الحوار والتحديات الحضارية العالمية . وتتجلى حكمة القرآن في كل سوره وآيه المترابط المتناسب وأحيانا في مقاطعه وكلماته للتعبير عن قضايا الحياة وما فوق الحياة وماوراء الحياة، فللتشريع حِكَمه، وللكون حِكَمه، وللإنسان حِكَمه وللماضي حِكَمه وللمستقبل حِكَمه، وهي على عمقها وتغلغلها في شعاب الحياة تشمل الوجود الحاضر والغيبي، والقواعد الحضارية المؤسسة لها، والمطورة لفعالياتها، والمتنامية لعطاءاتها، والإنسانية لمداها ومجالاتها .

وهي إذ تضم حقائقها ومواقعها وموضوعاتها وأصالتها وعالميتها فإنها تشمل في رحابها المسائل الهامة : الإلهيات والطبيعيات والبشريات في التشريع والحكم والإبداعات العلمية والجمالية، كما تبحث عن ميادين الحوار الحضاري المتكافئ بالتي أحسن، وتضع في حسبانها مواجهة التحديات بالتي هي أحكم، فالحكمة لاتعني الاستخزاء في الحقوق مثل ما أنها لاتعني الاستعلاء الغاشم والتفوق الشرير لفئة أو طبقة .

وكانت الفلسفة (الحكمة) القديمة تحمل ظلالاً وثنية سواء كانت يونانية إغريقية غربية أو بابلية وكلدانية وهندية شرقية، وإن حاولت فئة من الحكماء أن تسمو ويسمو معها لواء القيم المطلقة والمضامين التجريدية جاهدين في التفكير حول الإلهيات بما هو فوق عقولهم ومقولاتهم، وبعد موت أرسطو (٣٢٢ ق.م) ... ذوى مجد اليونان ببزوغ فجر الرومان ، ولكنّ عظمة روما قامت على عظمة القوة لا على ضوء الفكر، واندثرت عظمة روما بعد

ذلك وساد أوربا ظلام طويل استمر ألف سنة انتظر العالم فيها بعث الفلسفة من جديد وزاد انتشار الديانات الخرافية الغامضة التي كانت قد تأصلت في نفوس الهيلنيين الأكثر فقراً، وانتشرت في كل جانب ووجدت روح الاستسلام والجمود الشرقية تربة خصبة صالحة في اليونان المضمحلة اليائسة، ولم يكن استقدام الفلسفة الرواقية أو الزينونية التي جاء بها التاجر الفينيقي زينون الى أثينا حوال عام (٣١٠ ق.م) سوى وجه واحد للتسرب الشرقي الواسع الذي دخل الى اليونان، لقد كان المذهب الرواقي والأبيقوري استسلاماً وقبولاً للهزيمة، وجهوداً لمحاولة نسيان الهزيمة في أحضان اللذة والسرور، ونظريات حول كيفية بلوغ الإنسان السعادة على الرغم من ذلك الاستعباد والخضوع . تماماً كما كانت فلسفة شوبنهور الرواقية الشرقية المتشائمة، وفلسفة رينان الأبيقورية اليائسة في القرن التاسع عشر شعارات للثورة المبعثرة وفرنسا المحطمة(١) .

وهكذا فإن شحوب الفكر الفلسفي بعد عصر الحكماء وعمالقته الأقدمين المشهورين : سقراط وأفلاطون وأرسطو، والمدارس والتيارات السابقة جعل ينابيع الحكمة المتجددة تنضب حتى عاشت على رواسبه العصور الوسيطة وأوائل العصر الحديث الذي تأثر قليلاً أو كثيراً بالفلسفة القديمة، وبالغت الصوفية الهندية في الانسلاخ من الحياة واعتزال فلاسفتها عنها معتمدة بشكل مباشر وغير مباشر على حشد كبير من الآلهة والمعابد الوثنية التي كانت تغذي بالوهم الجانب الروحي في الإنسان على حساب الجانب المادي فيه .

وانعدمت التيارات المذهبية والمدارس في حكمة العرب ضمن نظريات كلية ومفاهيم عامة، واقتصرت على نظرات ثاقبة وتجارب فردية هنا وهناك لدى بعض الخطباء والشعراء والحكماء من أمثال زهير بن أبي سلمى وقس بن ساعدة وأميّة بن أبي الصلت ولبيد، ولدى بعض الحكام أمثال : أكثم بن صيفي وعامر بن الظرب وعبد المطلب(٢) .

---

(١) ول ديورنت : قصة الفلسفة ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨ ثم تحدث عن مصير الفلسفة أنها أصبحت معدة لدين جديد ويقصد به المسيحية بينما لم يتحدث بشيء عن الإسلام وحكمته طول أ لف سنة عاشتها أوربا في عصر الظلام .

(٢) انظر بقيتهم في القاموس المحيط ، مادة : حكم

ومع جفاف ينابيع الحكمة ونشوئها في بيئات وثنية، وغلبة جانب فيها على الجوانب الأخرى اقتضت الحاجة الى حكمة جديدة مستوعبة حِكَم الماضي والتاريخ وأزلية الوجود، الى حِكَم الممارسة والواقع بعيدة عن الشطحات وعالم المثل والخيال.

فكان مولد الحكمة القرآنية يؤذن بروح جديد ومعايير محكمة ونفعية خاصة وعامة .

ومع طغيان المادية في الفلسفة الحديثة سوى لمعات ودفقات علوية، وترويج الوجودية الانعزالية تحت وطأة هذه المادية، وشيوع الخرافة ومحاولة التحليق النفسي فوق هذه وتلك للتعويض عن الخواء الروحي، وإعلان مفكرين عن قصور الفلسفة وتحيزها وتخبطها وإفلاسها كان من الضروري إبراز حكمة القرآن التي أثبتت وجودها ومدت على العالم ظلالها وتجاورت مع الحضارات الأخرى مع ملاحظة أسبقيتها زماناً وجوهراً .

ومع صرعات هذه المذاهب الفلسفية وصراعاتها يبدو اختلاف الشعوب وتعدد الثقافات عاملاً قوياً لتأخذ حكمة القرآن العامة الشاملة المتوازنة مكانها في العقل والقلب والسلوك والفردية والجماعية والعالمية لتصيغ الإنسان صياغة حكيمة، وتكونه تكويناً إنسانياً حرياً بإنسانيته . ومع بروز نظام عالمي واحد أو متعدد تتفرّد رؤية بالسيادة وتستقطب لها فعاليات العالم لتضعها في إطارها العالمي الأوحد، مثل : قطبية المال الغاشم والقوة المادية والتقانة المدمرة وتحكم فئة (الحكماء) بحكمتهم وتسويد تصورهم العنصري، وبالتالي أخلاقياتهم واقتصادهم لابد من حكمة تتقبل كل حكمة ، ولابد للأمة التي تحمل هذه الحكمة (الحكم) أن تقبل الحياة مع كل أمّة تؤمن بالحق وتعمل بالخير وتقدس العمل النافع وتبادل الحكمة معها . تلكم هي إنسانية الحكمة القرآنية ﴿يُؤتي الحِكمةَ مَنْ يشاءُ ومَنْ يُؤتَ الحِكمةَ فقدْ أُوتي خيراً كثيراً﴾ .

إن واحدية الثقافية وفردانية النظام تجعل منها منهجاً نظرياً وعملياً لتسيس الناس إليه، وإن كان نابعاً من فوقية مستعلية مرفوضة، لأنه عاجز عن استيعاب الإنسانية وإن حاول سيادتها وتسييرها والتصرف بمقدراتها .

فلا فئوية في الحكمة ولاطبقية في احتكارها فأينما وجدت فإن المؤمن أحق بها، والبحث عنها شيء من وجوده الثقافي وحكمته العامة .

ومع تطلع العالم الى مستقبل أفضل قائم على حكمة وفلسفة مثلى وثقافة إنسانية مجدية في المستقبل القريب أو البعيد فإن في ثبات حكمة القرآن ورسوخ قيمها من ناحية واستعدادها للتلقي والقبول المختارين ترفع حكمة القرآن الى مقدمة الحكم والفلسفات لابالقول والادعاء وإنما بالجوهر والحقيقة والصلاحية .

إن المسلمين اليوم يقدّمون القرآن حكمة الله البالغة التي لم أجد أحداً يبرزها جامعة ويعرضها تصوراً وعملاً حضارياً كلياً على خطورة موقعها ومضمونها في عالم المادة والتنافس الثقافي الفلسفي المختلف .

فعسى أن يحقق هذا الكتاب (**حكمة القرآن والحضارة**) بعد جهدٍ كبير وجودَه الحكمي وحضورَه الفكري في المكتبة الإسلامية والعالمية . ومن ثم ينشط الباحثون لتحليل أدق ودراسة أشمل في ميادين الفكر والعمل البنائين .

اللهم اعصمنا من الزلل وجنبنا الزيف والخطل، وانفعنا وانفع بنا، وأعذنا من فتنة القول والعمل، ووفقنا لأن نحمل حكمة القرآن حتى نكون أمة القرآن في حضارة القرآن .

المؤلف

مدخل
في عموميات الحكمة والفلسفة

مفهوم الحكمة

الحكمة والفلسفة

الحكمة والعلوم

تعارض الفلسفة واختلافاتها

الحكمة الإسلامية والفلسفة الإسلامية

الإلهام والحكمة والنبوة

الحِكْمة لغةً واصطلاحاً وتطوراً

(حكم) الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحُكْم، وهو المنع من الظلم، وسميت : حَكَمة الدّابة لأنها تمنعها، يقال حكمتُ الدّابة وأَحكمتها، ويقال حكَمت السفيه وأَحكمته، إذا أخذتَ على يديه ، قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

والحِكْمة هذا قياسها ، لأنها تمنع من الجهل، وتقول : حكَّمت فلاناً تحكيماً، منعته عما يريد، وحُكِّم فلانٌ في كذا، إذا جعل أمره إليه(١) . وإذاً فهو يخص الحكمة بالمنحى السلبي دون سواه .

وفي اللسان إضافة لما سبق : أنها معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . فهو يربطها بالعلوم العملية التي تنتج أفضل الأشياء .

ويربطها آخرون بالمنحى النظري الفلسفي فيقول : علمٌ يُبحث فيه عن حقائق الأشياء، بينما يربطها آخرون بالقوى النفسية والملكات الشخصية المعتدلة في معان عديدة : فهو هيئة القوة العقلية العلمية المتوسطة بين الجرْبزة التي هي إفراط هذه القوة، والبَلاَدَة التي هي تفريطها .

وتجيء على ثلاثة معان :

الأول : الإيجاز، الثاني : العلم ، الثالث : الأفعال المثلثة : كالشمس والقمر وغيرهما .

وقد فسَّر ابن عبَّاس رضيَ الله عنهما، الحكمةَ في القرآن، بتعلُّم الحلال والحرام .

وأقوال أخرى ربطت المعنى اللغوي بالاصطلاحي والعرفي .

فقد قيل : الحكمة في اللغة : العلم مع العمل .

وقيل : الحكمة يستفاد منها ما هو الحق في نفس الأمر بحسب طاقة الإنسان .

وقيل : كل كلام وافقَ الحقَّ فهو حَكْمة .

وقيل : الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو .

---

(١) ابن فارس : المقاييس

وقيل : هي ماله عاقبة محمودة .

ويتابع (المناوي) هذه التعاريف نقلاً وتلخيصاً واستيعاباً ويربطها بمتعلقاتها من المعارف المختلفة مستفيداً من (الجرجاني) وغيره .

فيقول :

الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعمل .

الحكمة الإلهية : علم يُبحث فيه عن أحوال الموجودات الخارجية المجردة عن المادة التي لابقدرتنا واختيارنا .

الحكمة المنطوق بها : علوم الشريعة والطريقة .

الحكمة المسكوت عنها : أسرار الحقيقة التي إذا اطّلع عليها علماءُ الرسوم والعوام تضرّهم أو تهلكهم(١) .

وتضم (المعاجم) المتخصصة عدداً من التعاريف السابقة التي تشمل المعاني اللغوية والمصطلحة وتعدّد مجالاتها ونظرياتها .

الحكمة : العلم والتفقه، (وهي) العدل والكلام الموافق للحق، وصواب الأمر وسداده، ووضع الشيء في موضعه، وما يمنع من الجهل . وهي الكلام الذي يقلّ لفظه ويجلّ معناه، والجمع حِكَم كالأمثال وجوامع الكَلِم، والحكمي : المنسوب الى الحكم، والحكميون : الفلاسفة أو الشعراء الذي يؤْثِرون التكلم بالحكم(٢) .

والحكمةُ الإلهية : كل نظرية تعوّل على الإشراق والاتصال با لله لكي تستمدّ منه قوى خارقة، ومن أشهر ممثليها : جاكوب بوهم، وتسمى تيوسوفيا .

والحكيم الرواقي : هو الذي يرى أن كل شيء في الطبيعة إنما يقع تبعاً لقدرة وإرادة أزلية، وإذاً لامناص من تقبُّلِه والتسليمِ به . فالحكيم عندهم يُخضع حياته لسنن الوجود، ويعدّ

---

(١) انظر : تعريفات ابن الكمال : ٦٨-٦٩، والمفردات للأصفهاني : ١٨١ وقبلهما الجرجاني في التعريفات من ص ١٢٤، وانظر زاد المعاد ١٩٨/٣ في العلاقة بين الحكمة (الفهم) وأنواع الأطعمة .

(٢) د/ جميل صليبا في المعجم الفلسفي .

نفسه مجرد ترس في الآلة الكبرى يسير معها ولايشذّ عنها، وشعاره : العيش وفاقاً للطبيعة (للعقل)(١) .

الحكمةُ صفة العقل المتبصر : الحكمةُ معرفةٌ، و علمٌ :

الحكمة هي النفاذ الى باطن الأمور، والغوص على أسرار الأشياء، للتميز بين الصواب والخطأ في الأعمال والأفكار والاختيارات . هنا تدل الحكمة على حسن تدبّر الأمور، والمعرفة الأتمّ، والتبصّر الناضج بالعواقب . فالحكمة صفة العقل المتعمّق المنغرس في الواقع ليقود الى المعرفة والعلم أو الى "الإحاطة" [المعرفة] المجردة بنظم الأمور ومعانيها الدقيقة والجليلة . (الغزالي ، " الاقتصاد في الاعتقاد"، ص ١٦٧) وهنا أيضاً المعنى الشائع والأعم الذي يقول للحكيم عاقلاً . فالشخص الحكيم هو في الاستعمال اليومي الدارج ، العاقل(٢). وفي التفريق بين الحكمة والحسّ والعقل ووصف الأخير بالنورانية .

يقول أبو الحسن العامري : إنَّ المغمض من أرباب الحكمة يدرك بفكره مالايدرك المحدق ببصره من غير فهم، وذلك أن الحسّ محطوط عن سماء العقل، والعقل مرفوع عن أرض الحس، فمجال الحس في كل ما ظهر بجسمه وعرضه، ومجال العقل في كل ما بطن بذاته وجوهره، والحس ضيق الفضاء، قلق الجوهر، والعقل فسيح الجو واسع الأرجاء هادئ الجوهر قارّ العين واحد الصورة، راتب الرسم، متناسب الحلية، صحيح الصفة، والفكر من خصائص النفس الناطقة، والنطق في النفس تصفح العقل بنور ذاته، والحس رائد النفس بالوقوع على خصائصه ... والحس يفيدك مايفيد في غرض الآلة التي أصلها المادة، والعقل يفيدك ما يفيد على هيئة محضة لأنه نور .

وفي الغاية الإصلاحية يقول التوحيدي :

الإنسانيةُ أفقٌ، والإنسان متحرك الى أُفقهِ بالطبع ودائر على مركزه، إلاّ أن يكون موقوفاً بطبيعته مخلوطاً بأخلاق بهيمية .

---

(١) المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية القاهرة .

(٢) علي زيور في الموسوعة الفلسفية .

(وهذا) وعظ بحكمة وإيقاظ برأفة ... وقد اتفقت آراء الأوائل كلّها على إصلاح السيرة وتصحيح الاعتقاد والسعي فيما يراه أثمر وأجدى، الإعراض عن كل شغل البال وأثار الشهوة لتبلغ النفس غايتها وتسعد في عاقبتها(١) .

ويربطها الغزالي بالمعرفة الربانية ويضرب لذلك أمثلة تاريخية :

... رئي صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد، وفي يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنتَ كل شيء فلا تظنّنَ أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى، وتعلَم أنه مسببُ الأسباب ومُوجد الأشياء، وفي يد الآخر : كنتُ قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفتُه رُويت بلا شرب(٢) .

ولكنه يظهر تطوراً عملياً ومعرفياً للحكمة ولايفوته ما تعارف عليه بعض الناس . فيقول : اللفظ الخامس : وهو الحكمة، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجّم، حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوداية في شوارع الطرق . والحكمة هي التي أثنى الله عزّ وجلّ عليها فقال : ﴿ يُؤتي الحِكمةَ منْ يشاءُ ومنْ يُؤْتَ الحِكْمةَ فقدْ أُوتي خيراً كثيراً﴾ . ويتابعه (ابن خلدون) ولكنه يوسع مناحي التطور الى معرفة السّحر وعِلمَي الكيمياء والعلوم عامة .

... والطغرائيّ من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء، وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه (رتبةُ الحكيمِ) وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلمسات الذي سماه (غاية الحكيم) وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة، وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع .... وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها وليس بصحيح ، لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون إليه حتى ينتحله .

---

(١) أبو حيان التوحيدي المقابسات ١٤٥، ١٤٤

(٢) الغزالي : الإحياء ٨٨/١ ومابعد

وينقل عن أبي بكر بن بشرون قوله : والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون، واقتصّ جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلّق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن، فمنعنا اشتهارها من ذكرها .. وهكذا الى تمام رسالة بن بشرون .

ولذا يذكر صاحب اللسان أنه يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم(١) .

وفي كتب (الحكمة) بالمفهوم الصناعي والطبيعي والرياضي يقول (الخازني)(٢) :

فإن العدل نظام الفضائل جملة وملاك الخيرات أجمع .

لأن الفضيلة التامة هي الحكمة، وهي في شقّي العلم والعمل وشطري الدّين والدنيا، علم تام وفعل محكم، والعدل مجمع بينهما، وملتقى كماليهما، به تنال قاصيه كل مجد، وبسببه يحاز قصب السبق في كل خير، ولاعتلائه ذروة الكمال عرَّف الباري تعالى نفسه الى خُلَّص عباده باسم العدل، وبنوره صار العالم مستوفياً أقسام الكمال والتمام، ومستولياً على الأمد الأقصى في النظام، وبعد أن يذكر أهمية (الميزان) وصلته بالعدل يبين أن المقصود بالحكمة : دقة الوزن، وصحة الفلز من المغشوش ووزنه، وجواهر الشيء الموزون وبخاصة الأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد واللؤلؤ، ثم البراهين الهندسية وبيان العلل الطبيعية، وقبل هذا وذاك وضع ميزان الماء وأسماء المتكلمين فيه وطبقاتهم ... مقتبساً من كتاب مانالاوس الى ذوماطيانوس ...

الحكمة هي الأشمل والأخصّ معاً :

فهي الأقوال الوجيزة النافعة، والعلوم الحكمية المتعددة سواء لفظ فيها بالحكمة صراحة أو لم يلفظ، بل الغالب أن تتجرد منها لفظاً وتشتمل عليها معنى ودلالة . وعلى هذا فإن تعاليم الأنبياء هي حكمتهم، ونشاطات الفلاسفة الذهنية المفيدة هي حكمتهم، كما أن حكمتهم المبثوثة في أعمالهم وأقوالهم هي فلسفتهم، ومن ينطق بالحكمة من الحكماء والفلاسفة فهو

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ١١٨/٤ ت د/علي عبد الواحد وافي ، ويلاحظ أن ابن خلدون عقد بعد (علم الكيمياء) فصل : إبطال الفلسفة وفساد منتحيليها .

(٢) هو أبو الحسن الخازني من رجال القرن السادس الهجري في كتابه : ميزان الحكمة (المقدمة) ط حيدر آباد الدكن ١٣٥٩ هـ .

الحكيم أو الفيلسوف، ومن يتصرف بسلوكياته من خلالها ومن مقتضياتها وآدابها، وبخاصة من كـان في تفكيره عمقاً وفي كلامه نبوغاً وجدة وفي سلوكه التعقل والحلم وحسن التصرف فهو الحكيم أو الفيلسوف، ومن كان ذا اختصاص بالرياضيات أو الطبِّ أو المنطق مبدعاً فيها متمذهباً لمذهب سابق أو مبتكراً له، سائراً على مذهب أستاذه مع تعديل أو تبديل أو معاكساً له مع جودة رأي وإبداع علم فهو الحكيم أو الفيلسوف . فإن أيّ مجلس يُنشر فيه العلم النافع فهو مجلس حكمة، وإن أيّة كلمة نافعة تستوعب موقفاً أو سلوكاً متميزاً فهي حكمة . وإن أيّ مؤلف يسمو بأفكاره ومعارفه الى الإبداع الفكري والمعرفي فهو حكمة، و لافرق عندئذ في أن يصرّح بمصطلح الحكمة أو الفلسفة أو لم يصرح بهما . فالدّارميّ ومالك وابن عبد البرّ وغيرهم مثلاً يدمجون الحكمة في كتاب (العلم) ويجعلونها من فروعه ومن معانيه وفضائله . مثلاً رُوي عن وهب بن منبّه قال : إن الحكمة تسكن القلب الوادع الساكن(١) .

وستأتي أحاديث أخرى :

بينما يخصّ ابن ماجه باب (الحكمة) في جزء من كتاب الزهد ويسوق في هذا الباب أحاديث خالية من لفظ الحكمة ولكنها في عقلانيتها، إنها الحكمة العملية نتاج الفكر الفذّ والرؤية الشمولية والنظرة العامة . فالصحة والفراغ حالتان عامتان، وإن من الحكمة الحفاظ عليهما بسلوكية حكيمة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نِعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناسِ الصّحة والفراغ(٢) .

ومن أهمها تعلم الآداب الشاملة بألفاظ موجزة عامة . وهو مما يحرص على طلبه المسلمون.

---

(١) الدارمي : علم، صيانة العلم ١/١٤٣ .

(٢) ابن ماجه : الحكمة (٤١٧٠) .

ومعنى مغبون فيهما : أي ذو خسران فيهما، قال ابن الخازن : النعمة مايتنعم به الإنسان ويستلذه، والغبن أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل، فمن صح بدنه، وتفرّغ من الأشغال العائقة، ولم يسعَ لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع، والمقصود بيان أن غالب الناس لاينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير محالّهما فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالاً، ولو أنهم صرفوا كل واحد منهما في محلّه لكان خيراً لهم أيَّ خير .

فقد جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله علّمني وأَوْجِزْ ، قال : إذا قمت في صلاتك، فصلِّ صلاة مودّع، ولاتكلّمْ بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس(١) .

وهذا يعني أن تعلُّمها ليس بالضرورة تعلم العلوم العقلية قصراً وحصراً، وإنما تشملها وتشمل كل مجلس علم نافع وفقه مستبصر وخلق نظري وعملي . كما يجدر التنبيه الى أنه ليس أي مجلس علم ديني أو دنيوي من الحكمة، وليس جميع العلماء والقضاة والمؤلفين فلاسفة وحكماء فإن في الحكمة مزيّة ذاتية ودرسية وحياتيّة لايتّصف بها كثير منهم . فالحكمة مثل ما أنها عمق في الفكر والقول والسلوك فإنها تشمل المسلمين وغيرهم ممن يتفيئون ظلالها ويستقون من ينابيعها وينشرونها بين الناس .

قال برتراندرسل متسائلاً وناقلاً : ما الفيلسوف ؟! إنّ الكلمة حرفياً تعني محبُّ الحكمة، ولكن ليس كل شخص حريص على المعرفة فيلسوفاً، فلابدّ إذاً من مزيد من التحديد للتعريف بحيث يصبح : الفيلسوف هو ذلك الذي يحب رؤية الحقيقة . إن جامع الأعمال الفنية يحب الأشياء الجميلة، و لكن هذا لايجعل منه فيلسوفا، فالفيلسوف يحب الجمال في ذاته، وعلى حين أن محب الأشياء الجميلة حالمٌ فإن محب الجمال ذاته يقظ، وعلى حين أن

---

(١) ابن ماجه : الحكمة (٤١٧١) .

وفي الزوائد : اسناده ضعيف، وعثمان بن جبير (أحد رواته) قال الذهبي في الطبقات : مجهول، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال البخاري وأبو حاتم : روي عن أبيه عن جده عن أيوب . قلت: لكن كون الحديث من أوجز الكلمات وأجمعها للحكمة يدل على قربه للثبوت، فليتأمل . ومعنى : وأوجز أي اقتصر على خلاصة الأمر ليكون أسهل للضبط، أو أدّ ذلك العلم المطلوب بكلام مختصر، موجز لفظاً، جامع للعلم الكثير معنى . ومعنى : مودّع أي كن كأنك تصلي آخر صلاتك. ومعنى يعتذر منه : يحتاج منه الى الاعتذار . ومعنى اجمع : اعقد و اعزم .

محب الفن لايملك إلا ظناً، فإن محب الجمــال ذاتــه لديــه معرفــة . علــى أن المعرفــة ينبغــي أن يكون لها موضوع ، وينبغي أن تكون معرّفة بشيء موجود، وإلا لما كانت شيئاً(١) .

الحكمة والفلسفة

والفلسفة ـ وتقدم شيء من الحكمة ـ مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلا سوفيا، وتفسيرها : محبة الحكمة، فلما أعربت قيل : فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منــه ..... ثــم أصبــح معناهــا علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح .

وتنقسم قسمين : أحدهما الجزء النظري والآخر الجزء العملي، ومنهم من جعل المنطق جزءاً ثالثاً(٢) .

وقد أخذ العلماء والفلاسفة يفلسفون الفلسفة بداية من تعريفها، وأبرز كل منهــم وجهــاً أو جانباً منها من غير أن يتعارض بعضها مع بعض (في التعاريف) .

في القديم :

الفلسفة : كما تقدم، العلم بحقائق الأشياء والعمل بمـا هـو أصلـح (وهـو قريـب جـداً مـن تعريف الحكمة الآتي والذي يجمع بين الحقائق والأعمال) .

ووضح بعضهم ذلك فقالوا : العلم والعمل جزْءا الفلسفة، وكل منهمـا بـين ضدّيـن فـالعلم بين الصدق والكذب، والعمل بين الخير والشر(٣) .

وقديماً قال أرسطو : العلـم بالأسـباب القصـوى، أو علـم الوجـود بمـا هـو موجـود، (علـم الأسباب العميقة للوجود والموجودات) .

---

(١) حكمة الغرب ١١٢/١ عالم المعرفة (٦٢) في مشلكة ارتباط الفلسفة بالحضارة الغربية الذي يؤكده المؤلف في هذا الكتاب الذي يدل عليه عنوانه بعيداً عما عرف من (حكمة الشرق) أو (حكمة العرب) ...

(٢) مفاتيح العلوم ص ١٦١ الخوارزمي .

(٣) المقابسات ٢٢٩ التوحيدي .

وتأثّر ابن سينا به فقال : الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه (تأثر بتعريف أرسطو ولكن حسب الطاقة البشري) .

وأبرز الجرجاني التمثل بالكمال والمنطق والغاية : التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية .

وتعاريف أخرى لاتخرج عما سبق، ولاتبتعد كثيراً عن تعريف الحكمة، وبذلك لابدّ من أن تكون الفلسفة أو الحكمة عندهم أساس المعارف والعلوم، أو تشملها وتشمل سائر العلوم، ولذا كان الفيلسوف حكيماً ورياضياً وفلكياً وفيزيائياً وطبيباً ...

وفي المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية في القاهرة : حيث لايذكر (الحكمة) بشيء عند مادة (الفلسفة) ويوازن بينهما، يقول :

(١) يدل اللفظ في الأصل اليوناني على (محبة الحكمة)

(٢) اصطلاحاً : أُطلق قديماً على دراسة المبادئ الأولى، وتفسير المعرفة عقلياً، فتشمل عند أرسطو الفلسفة النظرية والعملية، وقصرها الرواقيون على المنطق والأخلاق والطبيعة .

(٣) أُخذ بهذا المعنى في القرون الوسطى والتاريخ الحديث . وضرب أمثلة لذلك ابنُ سينا، وديكارت ...

(٤) منذ القرن التاسع عشر أخذت العلوم تستقل شيئاً فشيئاً، وأصبحت الفلسفة تقتصر اليوم على المنطق، وعلم الجمال، ومابعد الطبيعة وتاريخ الفلسفة .

وفي العصور الحديثة : نزيد على ما سبق تعاريف خاصة بالفلسفة كعلم مستقل يتضح من خلالها الفروق بينها وبين العلوم المختلفة .

فقد تطلق على : دراسة المبادئ الأولى التي تفسّر المعرفة تفسيراً عقلياً كفلسفة العلوم، وفلسفة الأخلاق، وفلسفة التاريخ، و فلسفة الحقوق ... ولذا فهي تدلّ على الدراسة النقدية لمبادئ الموضوعات وأصولها . مثلاً : **فلسفة العلوم** : الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وأصولها العامة (الإبستمولوجيا)، **وفلسفة التاريخ** : دراسة المبادئ والقوانين العامة المؤثرة في تطور التاريخ ... وتُطلق على كل معرفة تامّة التوحيد، بخلاف المعرفة العلمية المشتملة على توحيد غير تام، والمعرفة العاميّة التي لاتوحيد فيها (سبنسر) .

وتُطلق على مجموع الدراسات المتعلقة بالعقل من جهة ماهو متميز عن موضوعاته، أو من جهة ماهو مقابل للطبيعة وهذا يعني تخصصها بالدراسات العقلية في مقابل الدراسات العلمية التطبيقية .

.... وهي (الحكمة) كما تقدم في الفلسفة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ....

ولها في عُرْف الفلاسفة عدّة معان .

١ـ عند اليونان العلم . ثم أُطلق على إحدى الفضائل الأصلية : الحكمة، الشجاعة، والعفة، والعدالة، ثم أُطلق بعد ذلك على العلم مع العمل، لذلك قيل : الحكمة : هي استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدر الطاقة البشرية، وقيل : الحكمة معرفة الحقائق على ماهي عليه بقدر الاستطاعة، وهي العلم النافع المعبَّر عنه بمعرفة ما للإنسان وما عليه، أو هي معرفة الحق لذاته، ومعرفة الخير لأجل العمل به(١) .

الحكمة مرادفة للفلسفة :

تقدمت شواهد عديدة على ترادف الحكمة والفلسفة فحيثما أُطلقت الفلسفة يراد منها الحكمة والعكس بالعكس .

يقول حاجي خليفة (٨٤/٣) الحكمة : علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية، وقد أصبحت هذه الكلمة مرادفةً لكلمة فلسفة، وأُطلقت في الأصل للدلالة على الفلسفة اليونانية التي نُقلت الى اللغة العربية (انظر مقدمة ابن خلدون ط بولاق (٣٩٩/١) و(حاجي خليفة ٨٩/٣)(٢) .

ويمكن أن نضيف إلى ماسبق أن الكلمة اليونانية ϕLROOϕLa تُرجمت بلفظ حكمة في النصوص الأولى التي نقلت الى اللغة العربية من منطق اليونان، وكان العرب يستعملون كلمة فلسفة الى جانب كلمة حكمة، وهي في العادة تستعمل مرادفة للحكمة، وإن كان المشّاءون

---

(١) المعجم الفلسفي د/جميل صليبا في مادتي : الحكمة والفلسفة من غير عزو .

(٢) هيوار : دائرة المعارف الإسلامية .

على اختلاف درجاتهم يُؤْثرون كلمة فلسفة، أما أؤلئك الذين يقولون بالفلسفة التي توفّق بين المدارس المختلفة فيفضلون استعمال لفظ (حكمة) والى هؤلاء ينسب الإشراق(١) .

ومن معانيها (الفلسفة) . اطلاقها على الاستعداد الفكري الذي يجعل صاحبه قادراً على النظر الى الأشياء نظرة متعالية، قادراً على تقبل طوارق الحدثان بكل ثقة وسكينة واطمئنان، والفلسفة بهذا المعنى مرادفة للحكمة(٢) .

وأُطلقت الحكمة قديماً على مايرادف الفلسفة فتبحث بوجه عام في الله والعالم والإنسان كما سبق قول الجرجاني : وحكيم :

(أ) بوجه عام، من تصدر أعماله وأقواله عن روية ورأي سليم .

(ب) أُطلق قديماً على العالم، ومنه : حكماء اليونان السبعة، ومنهم : سولون المشرّع، وطاليس أول الفلاسفة(٣) .

وكانت الحكمة، في الفكر اليوناني، العلم؛ المعرفة . إلا أنها دلّت أيضاً على الفطنة، والتثمين الرزين السليم للأمور، وعلى التوسط والاعتدال، وأخذت للدلالة على صفة المحقق للفضائل في سلوكه وفكره .وفي البدء، كانت الحكمة تسمية للفلسفة . وقد وضع محبّ الحكمة في مقابل السفسطائي الذي كان يُدعى أنه حكيم وكان يعلّم الحكمة للنّاشئة . وهكذا فإن في محبّ الحكمة، الفيلسوف، تواضعاً وتمييزاً عن السفسطائي، الحكيم . وحصرت الحكمة بالآلهة وحدها فقط؛ وأُخذت الفلسفة على أنها حبّ الحكمة، والرغبة فيها، والسير في طريقها(٤) .

ويمكن التفريق بينهما : أن الحكمة أقدم حياة من الفلسفة، فهي على الأقل كانت تطلق على (حَكَمة) الدّابة، وإذا أحب الإنسان الفلسفة فإنه قد يصل الى الحكمة، حيث إنها محبة الحكمة كما قالوا، وكذلك فإن تغليب العلم النافع على الحكمة ممايفرق بينهما حيث تغلب

---

(١) بوير السابق معلقاً .

(٢) المعجم الفلسفي : د/جميل صليبا .

(٣) عن المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية القاهرة وسبق قريب منه عن ابن سينا في الفلسفة .

(٤) علي زيور في الموسوعة العربية الفلسفية .

العلوم النظرية على الفلسفة، ويتبع هذا إن العلوم العملية إذا حققت مفهوم الحكمة فإنها تفترق عن الفلسفة باختصاص هذه بالعلوم العقلية واختصاص الحكمة (بالعلوم العملية). كما يغلب على الحكمة القديمة اقترانها بالعلوم المختلفة وبخاصة الطبية والرياضية(١)، والحكيم وصف مقبول عموماً حيث يلتزمُ بالمضامين الشرعية واعتبار الوحي والنبوة أهم مصادره بينما الفيلسوف يمكنه في الغالب أن ينأى قليلاً أو كثيراً عن مثل هذه المصدرية. ونفصّل الكلام نوعاً على أبرز الفروق الأسلوبية التعبيرية.

إن الحكمة قد تصاغ بلغة شعرية ومجازية واسطورية مختلفة عن لغة المقال البرهانية، فهي لاتقيم وزناً للطريقة الاستدلالية، ولاتقيم حقائقها بالمنطق الصارم القياسي. وإن الأصول مشتركة في التفكير الفلسفي والحكمي، بيد أن طريقة النظر والاستكناه الروحي مختلفة وكذلك الاختلاف في الغاية، فإن الفلسفة اليونانية في معظم عصورها ومدارسها ترف ذهنيّ ولمجرد النظرية الفلسفية، ولذا أُحيطت الحكمة بإطار أوسع معنى وأكثر إبهاماً من (الفلسفة) المحددة بتاريخها العقلي والمنهجي والزماني منذ اليونان الى اليوم. وإذا قدمت اللغة اليونانية المصطلح الجديد (الفلسفة) بعد أن لم يكن فإنه قد يُطلق عليها الحكمة أحياناً كما يطلق على فلاسفتها بالحكماء محتفظين بالمنهج الفلسفي الخاص بهم مع أن تفكير الناس قبل اليونان كان تفكيراً فلسفياً وحكيماً، فقد سبقت الحكمة البابلية وغيرها (المشرقية) عموماً الفلسفة اليونانية بقرون كثيرة حسب ماجاء في تاريخ الفكر السوري والمصري والعراقي والصيني والهندي. ويغلب أن تكون المسألة اصطلاحية أقرب مما تكون معنوية فكرية مع اختلاف في الرؤى من حيث الشمول، ومن حيث الطريقة والأسلوب، ومن حيث التصاقها بالجذور الوثنية أو تعبيرها عن المطلق والقيم، والتوسع فيها حتى تشمل المجردات والعقليات الدنيا والعليا سواء تجردت من رواسب الوثنية أو التصقت بها أو تطورت من مرحلة الوثنية المادية الى التجريدية، أو تحولت من الطقوس الأسطورية الى ممارسات روحية وعملية حتى صارت تلك الآراء والمذاهب مع تباعد الزمن صوراً فكرية منطقية ورمزية، وربما أخذ بها

---

(١) انظر ابن خلدون في : إبطال الفلسفة ومنتحليها، وابن تيمية في الفتاوى والرسائل، والغزالي في المنقذ والإحياء.

أهلها الى دائرة الفلسفة الغربية بمسائلها الكونية والإنسانية وذلك باستخدام منهج البحث المعتمد على القياس والتمثيل والتحليل والتركيب والاستدلال والاستنتاج والحدود والقضايا المنطقية، حتى أضحت الحكمة علم الفلسفة بالتنظير والتشبيه. وهنا تبرز القيمة الكبرى في تفرّد حكمة القرآن من حيث المنطلق والمضمون والمنهج التي اختص بها : صفاء في العقيدة ووحدة للألوهية، وقضايا وجودية متميزة للإلهيات والإنسانيات والحياة والموت والمصير في طريقة (جامعة) للبرهنة العقلية الممتزجة بحرارة العاطفة والمشاعر مما سنفصل فيه .

ومن ذلك أيضاً تأثرُ الفلسفة المعاصرة بالفلسفة القديمة، حيث امتزجت الفلسفة والحكمة في الدراسات الحديثة مع استقلال الفلسفة عن سائر العلوم والمعارف، وهكذا فإنها (الفلسفة اليوم تبدو على الأقل فيما يخصّ المشكلات الكبرى، أقرب الى فكر اليونان وفلاسفة العصر المدرسي الوسيط منها الى فكر مائة عام مضت في الحضارة الأوربية في مذاهب ومدارس كثيرة ومختلفة النزعات والمقاييس والمناهج (أي عام ١٨٥٠ انتصار النزعة العلمية والمذهب المادي والتوجيه الميكانيكي) . وهكذا فإن أفلاطون يعود الى الحياة مع (دايتهد) الإنكليزي أحد زعماء فلسفة الميتافيزيقا، وأرسطو مع (دريش) و (هارتمان) وأفلوطين مع بعض الفلاسفة الوجوديين، والقديس (توما الأكويني) (ت ١٢٤٧م) مع المدرسة الجديدة التي تحمل اسمه، والفلسفة المدرسية المتأخرة (في القرن ١٤ و١٥ ميلادي) مع الفيزلوجيا ـ الماهية والحياة) ، و (ليبتنز) (ت ١٧١٦) المنطقي الوضعي، مع (رسل) (ت ١٩١٦) أستاذ الفلسفة الرياضية والنحو الفلسفي .. حتى إن الأهمية النسبية للمذاهب الآن تأتي في المحل الأول بالاتّجاه الأفلوطوني والأرسطي فيما يعرف بالميتافيزيقا والوجودية، ثم تليهما وإن يكن بشكل غير مباشر عن طريق التأثير على مدارس أخرى فلسفة الحياة والفينومينولوجيا، وفي المحل الأخير، وبعيداً تأتي (فلسفة المادة)، أما المثالية فإنها تحتل أبعد الصفوف(١) .

(١) المذاهب الفلسفية ٦٧، ٧١ بتصرف طفيف .

الحكمة هي الاسم الأقدم للفلسفة :

ففي البدايات كان يطلق على الفلسفة اسم هو الحكمة (صوفيا، باليوناني) . وتلك الفلسفة [الحكمة] كانت تعني أيضاً العلم بل العلوم مجتمعة في وحدة، وغير متميزة(١) .

ومن قبل تقدمت الحكمة البابلية والسورية والمصرية والصينية والهندية على الفلسفة اليونانية، بقرون، وكان لهذه الأقدمية تأثير على الفكر الفلسفي اليوناني فيما بعد حتى تفجّرت الروح الشرقية عند أفلاطون الأصل السامي لمعظم الفلاسفة الرواقيين، والجو الديني الخاص الذي نمت فيه الأفلاطونية المحدثة، وغزو المذهب المانوي والثنائية الزرادشتية من قبله للعهود الأولى من الفكر الغربي (ومن ثم يكون من السذاجة الظنُّ بأن كل هذا مرجعه الى تقدم العبقرية الإغريقية تقدماً منطقياً حتمياً)(٢) .

وكانت الحكمة البابلية وقبلها السومرية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة وقبلها في الحضارات الأقدم حتى ما كان منها من أصل ديني أو وضعي خرافي في العصور البدائية والحضارية هي مواقف فلسفية أو حكمية باعتبار أن الإنسان له تطلعاته وتصوّراته الحقّة أو الباطلة .

فالمقصود بكلمة الحكمة في الأدب البابلي (نيميقي) بوجه عام هو البراعة في طقوس السحر والعبادة، والحكيم هو الخبير بالمعارف والشعائر المتصلة بهما، .... ويمكن أن تتسع معانيها من خلال النصوص البابلية لِمعانٍ أخلاقية وتأملاتٍ كونية ومشكلاتٍ عقلية تنطوي عليها رؤية الإنسان في حضارة وادي الرافدين للوجود والإنسان والمجتمع، وللخير والشّر والعدل والمصير(٣) .

وإذا كانت الحكمة في العربية من أصل مادّي كسائر المصطلحات المعنويّة (المجازية) من (حَكَمة) الدّابة وذات أصلٍ لغوي عربي واحد كما تقدّم عن ابن فارس في (المقاييس) فإن فضل القرآن اللغوي والمعنوي هو نقلها من الماديات الى الفكريات والمعنويات، ووظّفها الحديث النبوي بالوظيفتين نفسهما، فهي من مصطلحات القرآن الغزيرة التي تشعّبت الى

---

(١) علي زيور السابق .

(٢) جذور الاستبداد ٢٩ نقلا من : الفلسفة الشرقية : مارسل .

(٣) السابق ١٣٣ .

دلالات ذهنيّة وعملية مختلفة عميقة التعقّل والفهم غائرة في أسرار الأشياء والأحكام . وإذ أن الأصل اليوناني المستخدم في كتب اليونان وأحاديثهم الفكرية والمنطقية أجنبية أصلاً عن العربية ولم تردْ في كثير من مؤلفات المسلمين القديمة فإن فئة قليلة منهم كان يتخذها في رسائله متأثراً بالفلسفة الإغريقية لفظاً ودلالة، من كان منهم موفّقاً بين الشريعة والفلسفة، ومن كان منهم مواجهاً لها معتمداً على فلسفة الإشراق الصوفية، والمنطق الصوري . بيد أن الاختلاف الأصلي والجذري والاشتقاقي اللغوي ومن ثم التوظيف الدّلالي والمعنوي دفع بكثير منهم الى التفريق بينهما وذلك على الرغم من تساويهما عند الأقل منهم .

ومن غرائب أقوال الفلسفة التي قد لا نجد نظيرها في الحكمة من زعيم الفلاسفة الأقدمين .

قال أرسطو : إن من ينكر الميتافيزيقا يتفلسف ميتافيزيقاً .

وقال : فلنفلسفْ إذا اقتضى الأمر أنْ نتفلسف، فإذا لم يقتضِ الأمر التفلسفَ وَجبَ أن نتفلسف لنبثت أن التفلسف لا ضرورة له(١) .

---

(١) نقلها الغزالي في : تهافت الفلاسفة .

ففي الحكمة علم وفي العلم حكمة وهي بنصّ القرآن مما يتعلمه الأنبياء من الله الحكيم ويتعلّمها الناس منهم، وهي أيضاً مما يعلّمُه ويتعلمه أصحاب الاختصاص في كلّ جيل، والقرآن يبرز خاصيّة التعلم والتعليم في الحكمة سواء كانت علم الحلال والحرام أو كانت السنّة أو كانت الكتب السماوية أو العمل بها لابدّ أن يسبق العملَ العلمُ . وما من نبيّ خصّه الله بالحكمة إلاّ وجعلها في إطار العملية التعليمية، ومع هذا فليس في كل علم حكمة حين يكون سبباً للأذى والضرر . وليس كل حكمة علماً مثل حكمة الشعوب وإن كان أصلها مما يتعلمه الناس عادة . وحكمة العلم تتجلى في ثلاث نواح :
في العلم ذاته الذي قالوا عنه بأنه العلم النافع فإذا لم ينفع فليس من الحكمة في شيء، وفي العمل به، والالتزام بفضائله هو التزام بفضائل الحكمة عموماً، وفي الأسلوب ونوعية الاختصاص العلمي الحكمي ووقته فليس من الحكمة تعليم غير المؤهب له وتجاوز رغباته فيه.

١ـ الحكمة والعلوم في التاريخ :

فالحكمة صناعة نظر كما قال ابن سينا الذي جعل أقسام العلوم العقلية في تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، وقسموها الى نظري وعملي، والحكمة عنده الاحاطة بمعرفة الموجودات بالمقدار الذي له أن يحيط بها .
وسبق قول ابن كمال : الحكمة : علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء ما هي عليه في الوجود بقدر الطّاقة البشرية، فهي علم نظري غير آلي(١) .
وقيل هي العلم بحقائق الأشياء على ماهي عليه والعمل بمقتضاها، ولهذا انقسمت الى : علمية وعملية(٢) .
ويعدّها علماء أنها أم العلوم وأصل المعارف والمعرفة الكاملة كما قال (ديكارت) .

---

(١) التعريفات ١٢٣،١٢٤ .
(٢) ذكره المناوي في التوقيف ...

إنّ الفلسفة أشبه شيءٍ بشجرة جذورها علم ما بعد الطبيعة، وجذعها علم الطبيعة، وأغصانها العلوم الأخرى كالطّبِّ وعلم الميكانيكا وعلم الأخلاق . فهي معرفة شاملة للمعارف والسلوكيّات والصّناعات كما قال في موضع آخر :

ليس المقصود بالحكمة الاتصاف بالحيطة أو الأخذ في الأمور بالأحزم فقط، وإنما المقصود بها المعرفة الكاملة بجميع ما يمكن أن يُعرف لتدبير الحياة، وحفظ الصحة، واختراع الصناعات (مبادئ الفلسفة، المقدمة : فقرة ٢) . وسبقت فلاسفة إخوان الصفا بالشمولية العلمية للفلسفة ومحبة هذه العلوم بداية فقالوا :

وأولُ الفلسفة عند إخوان الصّفا، محبّة العلوم، وأوسطُها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطّاقة الإنسانية وآخرُها القول والعمل بما يوافق العلم(١) .

ولذا فإن الصفات التي تتميز بها الفلسفة هي الشمول، والوحدة، والتعمّق في التفسير والتعليل، والبحث عن الأسباب القصوى والمبادئ الأولى .

والفرق بين الفلسفة والعلم : قد تقدّم معنا اعتماد الفلسفة على العقل، ونقدُ المبادئ والأصول العامة للعلوم ... ومن أجلّ هذه الفروق أن العلم يتقدَّم ويتسع نطاقه بازدياد الحقائق التي يحصل عليها، على حين أن الفلسفة تظلّ محصورة في دائرة واحدة من الحقائق، وإن كانت الصور التي تعبرِّ بها عن هذه الحقائق مختلفة ومتفاوتة . ولذلك قيل : إن الفلسفة نظرية القيم وتشتمل على ثلاثة أقسام : **المنطقُ** وموضوعه البحث في قيمة الحقيقة ، **وعلمُ الجمالِ**: وموضوعه البحث في قيمة الفن، **وعلمُ الأخلاقِ** : وموضوعه البحث في قيمة العمل(٢) .

ويمكن الاعتراض على ماسبق بأنَّ التقدّم العلمي والتوسع المعرفي يقتضي تقدماً في فلسفتها وتوسعاً في دلالاتها وتناولاً معرفياً خاصاً حسب المستجدّات العلمية المطروحة وإن كانت الأصول واحدة والقضايا الفلسفية متشابهة في الأساس، ومختلفة ومتفاوتة في الطرح والتناول والعمق .

---

(١) البيهقي : تاريخ الحكماء ١٩ .

(٢) صليبا : المعجم الفلسفي .

فقدْ كانت تُعلّم مع علوم أخرى على يدِ الفلاسفة الكبار أمثال أرسطو والمشّائين والرواقيين، وامتدت الفلسفة المدرسية أو (الاسكولائية) أحياناً من القرن العاشر الى السادس عشر الميلادي، وسُمّيت بذلك من مفكري عصر النهضة حيث كانت تُعلّم وتتعلم في (مدارس) كانت تحت سيطرة الكنيسة، وسادت فيها فلسفة أرسطو بوجه خاص، وأهم سِمةٍ للفلسفة المدرسية منهجها الذي كان يهتم بالتعريفات والأقيسة المنطقية معتمدة في ذلك عليه ابتداءً من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، بعد أن جعلتها كتابات القديس (توما الأكويني ت ١٢٧٤ م) على توافق عقلي مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية(١) .

وبينما عُرفت الحكمة بالحكمة الرياضية في أقسامها الأصلية والفرعية وقُسمت الى : علم العدد، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم الموسيقا، فإنَّ (الحكيم) يُطلق على الطبيب حتى الآن وأُلفت تراجم الفلاسفة على أنهم الأطباء كما أُلفت تراجم الأطباء على أنهم الحكماء والفلاسفة كما تقدّم بعضها . وعموماً فإن الفيلسوف القديم كان ينزع الى أن يكون حكيماً وعالماً، وهو أحد الفروق الهامة بين الحكمة القديمة والحديثة بعد أن غلب مصطلح (الفلسفة) على الحكمة المعاصرة .

٢ـ الفلسفة والعلوم في العصر الحديث(*) :

إن استقلال الفلسفة كعلم من بين سائر العلوم وتخصصه بالمسائل الفكرية الشاملة بعد أن كان جامعاً متربعاً على رئاستها يضعنا في مواقف مختلفة لهذه الفلسفة، من هذه العلوم ما هو ضديّ ومنها هو مؤيدٌ وداعم . وعلى الرغم من حطّ العلميين من درجة الفلسفيين إبَّان القرن التاسع عشر فإن استرداد قيمتها وانتعاش مكانتها في القرن ٢٠ يطلعنا على مواجهات متعارضة باحتكاك الفلسفة والعلوم . فإن من النادر أن يُعثر على فيلسوف مهندس أو فيزيائي أو رياضي سوى (برنشفيك) الفرنسي الرياضي و (وليم جيمس) الأمريكي النفسي و(وايتهد) الإنكليزي الذي سيأتي ذكره ، وأندرهم ذلك الفيلسوف الطبيب الذي يجمع بين حكمة البدن وحكمة العقل . والتأرجح المكاني في المجالات الفكرية والاجتماعية بين

---

(١) الفلسفة المعاصرة ٢٢ حاشية .

(*) معظم الأقوال من : الفلسفة المعاصرة في أوربا، السابق : إ.م. بوشنسكي .

الصعود والهبوط والقوة والضعف نتيجة لقوة التيار العلمي التطبيقي من حيث الإنتاج المدني الهائل الذي يتربّع مكانة مرموقة للعلماء المنتجين أعظم من مكانة الفلاسفة المذهبيين . ومع هذا كلّه يمكن أنْ تتعانق معطيات العلم مع الفلسفة أحياناً فتكون الفلسفة علمية، والعلم متفلسفاً بغض النظر عن وضعهما القيمي والديني المتدني غالباً . وسنعرض نقاطاً محددة لهذه المواقف من غير تعليق على الشّاذّ منها فإن في تعارض بعضها بعضاً أَبْين تعليق وبرهان.

- الواقعيون الجدد يتجهون بصفة عامة ناحية علوم الطبيعة، ويرى معظمهم أنَّ المنهج العلمي منهج فلسفي حقيقي، وهم يهتمون على الأخصّ بالفيزياء والرياضيات .... ولايهتمون كثيراً بالمشكلات النظرية الخالصة، أي بالمنطق وبنظرية المعرفة، ويحصرون أنفسهم في تناول المشكلات المخصوصة، ويبدون للناظر خصوماً للنظم الفلسفية، وينقدون نقداً عاتياً، وكثيراً ماكان نقداً غير محقّ كذلك، كلَّ التراث الفلسفي في الفكر الغربي (ص٨٣) . مدّعين : أن واجب الفلسفة أنْ تحصرَ نفسها في تحليل لغة العلم باستخدام المناهج التطبيقية، وماعدا ذلك فهو (ميترفيزيقا) أي خارج عن ميدان الطبيعة فهو إذاً فارغ من المعنى (ص ١٠٠) .

وأخصُّ بالذّكر :

(برتراندرسل) (١٩٧٢) رأس الفلسفة الواقعية الإنكليزية التي كان مقدمة للفلسفة المادية الجدلية فيما بعد، إذ إنه يرى أن على الفلسفة أن تكون علمية في جوهرها، فهي ينبغي أن تستخرج أحكامها من علوم الطبيعة، وليس من الدين أو من الأخلاق، كما يتوجب أن يكون المثل الأعلى للفلسفة علمياً، وفي الأخير فإن ميدان نشاط الفلسفة يقتصر على المشكلات التي لم يتوصل العلم بعد إلى دراستها دراسة علمية، فهي تقوم بدور فاتح الطريق أمام العلم، وعلى هذا فينبغي أن تُنزع من الفلسفة كلُّ نزعة (رومانتيكية) وكلُّ نزعة (تصوفية) انتزاعاً كاملاً، فليست الفلسفة مستودعاً (لدواء بطولي يخفف من الآلام العقلية) إنما الواجب هو أن يتعمق الفيلسوف في هدوء وصبر، في سبر أغوار كل مشكلة بتفاصيلها، ولم يعتقد (رسل) منذ البداية أن بإمكان الفلسفة أن تقدّم إجابات مؤكدة كثيرة، وحيث أن وظيفتها هي أن تفتح مجالات أمام العلم، فإن عليها أن تثير المشكلات لا أن تجد حلاً لها، إنَّ المهمة الرئيسية للفلسفة مهمة نقدية، فينبغي على الفيلسوف أن يوضح المفاهيم والقضايا

بالبراهين العلمية، وذلك بطريق وضعها جميعاً تحت مجهر التحليل المنطقي المفصّل . ومن مزايا هذه الطريقة في التناول أنها تنبّه العقل، ولها من القيمة مايفوق الإجابات الفلسفية التي تحمل الشك بين طياتها الى الأبد (ص٨٧) .

- الفلاسفة المثاليون أمثال كروتشيه يقولون بمذهب متسق في التصورات ونظرية في التركيب الجدلي القَبْلي . يقول كروتشيه : إن هناك نوعين وحسب من المعرفة : المعرفية الحدْسية (الإدراك الفوري المباشر عقلياً كان أم حسياً)، والمعرفة التصورية أو المنطقية (وهي التي تتم عن طريق مفاهيم العقل وباستخدام القياس على الخصوص)، وموضوع النوع الأول الجزئي أو الفردي بينما موضوع النوع الثاني هو نوع المعرفة العقلية وموضوعها الكليات (ص١٣١)، وعُرفت مدرسة (ماربورج) خاصة بالمنطقية واهتمامها بالعلوم الطبيعية الدقيقة مثل علم الفيزياء والطبيعة والفلك وغيرها (ص ١٥٩) .

- فلاسفة الحياة المعارضة بشكل قوي للمثالية السابقة الذين يعتمدون على تصوّر ديناميكي (حركي) وتعددي للوجود، فليس كياناً واحداً مفرداً، ويذهب جيمس خاصة الى إظهار نوع من التعاطف مع القول بتعدد الآلهة، ومعارضة المذهب العقلي أشدّ المعارضة معتمداً على نظرية المصادفة أو الحظّ مهاجماً (الحتمية العقلية) من خلال نقد العلم، ولكن البراجماتية الأمريكية على يد (جون ديوي ١٩٥٢) أمكنه أن يجمع بين المادية العلمية وآراء جيمس الدينية ويتجه باهتمامه كله ناحية العلوم الطبيعية، ويأخذ بالمذهب السلوكي الذي يقول : إن العقل ما هو إلاّ ما يفعله الجسم . وانتهى الى أنه لاتوجد معرفة حقيقية خارج المعرفة التي ينتجها منهج العلوم الطبيعية، وينبغي رفض كل الأفكار التي تتعالى على الطبيعة والاتجاه بالكلية الى الخبرة (ص ١٩٩) .

- وفي الاتجاه الفلسفي الألماني خاصةً تبرز حركتان مختلفتان جوهرياً كما أشرت، ولكنهما تشتركان بِسِمة إنكارهما أية قيمة للمنهج العلمي الطبيعي حينما يتصل الأمر بفهم الحياة، والمذهب التاريخي أهم هاتين الحركتين، وقد نشأ في إطار العلوم التاريخية في ألمانيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويهتمُّ خاصة بالتطوّر العقلي والروحي كمركز للنشاط الفلسفي عبْر التاريخ، ويرى أتباع هذه المدرسة التاريخية أنه لايمكن إدراك جوهر

التاريخ لا بمناهج العلوم الطبيعية ولا بأيّة طريقة عقلانية . والتاريخ عندهم يحتوي على الفكر ويضمُّه بين جوانبه في أثناء مسيرته . والحركة الأخرى هي حركة الفلسفة البيولوجية وهي أقل من الأولى اهتماماً بالتاريخ(١) ويتجه بعضهم الى أن العقل خصم للنفس وخصم للطبيعة وخصم للإخلاص ولكل ما هو ذي قيمة، لذلك ينبغي أن نرفض العقل ونعود الى حياة (البلاجيين) وهم قوم سبقوا اليونان وكانوا يعيشون في سلام في حياة تتمتع بالروح البدائية . ص(٢٠٥-٢١١) .

- وتشترك فلسفة (الماهية) مع سابقتها فلسفة الحياة بأن كليهما يتجهان الى قطع الصلة والانفصال عن الفكر السائد في القرن ١٩ في الحضارة الغربية، وهو منهج ينحصر في وصف (الظاهرة) أي ماهو معطى مباشرة، وبهذا الاعتبار تغضّ النظر عن العلوم الطبيعية ولاتنتبه الى نتائجها، وبالتالي فإنها تتعارض مع المذهب التجريبي، وتتعارض كذلك مع المثالية باعتبارها (الماهية) بصرف النظر عن تقديم نظرية للمعرفة كخطوة أولى في الموقف الفلسفي، ولكن (هسرل) الذي يشبه (أرسطو) وهو أحد أقطابها ينطلق من دراسة الرياضيات دراسة فلسفية، ثم يبدع منهجاً ذا طابع موضوعي وعقلي ينتهي الى المثالية ، وفي كتابه (بحوث منطقية) ضرب في الصّميم المذهب الوضعي والمذهب الاسمي اللذين كانا يسيطران على أوربا خلال القرن ١٩ وتأثر كثيرون بآرائه حتى عُدَّ رائداً لمدرسة ألمانية وأوربية عظيمة الأهمية (ص ٢٢٣) .

- وبينما لايحدد الفلاسفة موقف (الوجوديين) من العلم معارضة وتأييداً فإن فلسفة (الوجود) التيار (المتيافيزيقي) المنطلق نحو الغيبيات وماوراء الحواس والذي لايعتمد على أيّ برهان مضبوط أصلاً فإنه على العكس يعتمد على معطيات العلوم الطبيعية ويتخذ الوسائل العقلية لبراهينه المختلفة، حتى إن (وايتهد ١٩٤٧) الإنكليزي الرياضي المنطقي الشهير

---

(١) ومن أشهر فلاسفة الماهية دلتاي (١٨٣٣-١٩١١) الذي يؤكد على أن الفلسفة نسبية مثل أي شيء آخر في الحياة الإنسانية ويقول : إن فصل الخطاب في التصور التاريخي للعالم هو نسبية كل تصور إنساني، وكل شيء يتحرك ويتغير ولايبقى شيء ثابتاً . على عكس ماكان يقوله (شلر الألماني ١٨٧٤-١٩٢٨) الذي يعتبر القيم مطلقة وثابتة .

بفلسفته العضوية كان يقدِّر التاريخ والعلم تقديراً عظيماً . من كتابه : العلم والعصر الحديث (ص ٣٥٨) ولكنه يحذِّر الفلاسفة من استخدام مناهج العلوم الطبيعية حيث لايمكن لهم أن يحققوا نَقْد التجريدات بوسيلة التعميمات التجريبية على حدِّ قوله .

وهكذا يتضح وجهة كلّ مذهب من العلوم التطبيقية وبخاصة أولئك الفلاسفة الذين شهدوا ويلات التقانة الحديثة في تدمير الحضارة البشرية الشامل، فرفضوا المادية الطاغية وإنجازاتها المدمرة، على حين أن قِلَّة منهم استطاعوا أن يهذِّبوا طغيانها العلمي المادي بطروحات كنسيّة تأثَّرت مسائلهم العقلية بها فانحرفت كثيراً عن الموضوعية والتجرد من شوائب تعاليمها ورواسب مبادئها .

ـ وأخيراً : فإن الفلسفة التوماوية نسبة الى القديس توما الأكويني أصبحت تُعتبر في منتصف القرن ٢٠ واحدة من أهم الحركات الروحية وبخاصة في فرنسا وبلجيكا بسبب ما عقد التوماويّون من مؤتمرات مثل مؤتمر ١٩٣٣ وخُصّص لما يسمى بالفلسفة المسيحية، ومؤتمر ١٩٣٥ الذي درس العلاقات بين الفلسفة والعلوم الطبيعية، حيث إنهم يقبلون كل الأفكار الجزئية التي تقدمها المدارس الأخرى . وإذ أنهم يعترفون بنتائج العلوم باعتبارها جزءاً حقيقياً من المعرفة الإنسانية فإنهم يتعمّقون في دراسة الفلسفة ويؤلفون فيها بما يؤيد وجهة نظرهم ودعوتهم الكنسيّة، وفيما عدا ذلك فلا نجد لهذه الفلسفة نشاطاً علمياً ولامشاهير في العلوم سوى ما عُرف عن (بوشنسكي) الكاثوليكي المهتم بالمنطق الرياضي ومؤلف كتاب: الفلسفة المعاصرة في أوربا، الذي أُخذتْ منه المعلومات السابقة مع ما فيها أحياناً من انحيازات كنسية مرفوضة .

ونتيجة لما سبق : فإن انتعاش الفلسفة اليوم وقع على حساب تخلِّيها عن العلوم العقلية والتطبيقية في قضاياها المحدودة ونظرياتها المختلفة التي أضحت أشبه بالصّرعات المتوالية ليس وفق تعارضها وتباينها وحسب، وإنما بانحرافات كبيرة في حالات التطبيق والالتزام ومايكتنفه من التشويه المقصود وغير المقصود .

تعارض الفلسفة واختلافاتها

لايكاد متتبّع الدراسات والمذاهب الفلسفية التي أخذت دلالات ومفاهيم (الحكمة) يعثر على دراستين ومذهبين فلسفيين متفقين ونظرات فلسفية واحدة في المذهب الواحد أيضاً حتى نظّرها بعضهم (بالصّرعات) الحديثة المتتالية وأحياناً قليلة المنبثقة عن بعضها، قال (بوشنسكي) عن فلسفة الحياة : إنها كانت موضة العصر في أواخر القرن ١٩ (١) .

وهذا راجع الى اختلاف العقلية والثقافة والبيئة والظروف الإقليمية والعالمية والتأثّرات التيارية في عصر التواصل السريع الى جانب اختلاف مواقفهم من (العلوم) في العصر الحديث.

ومن المؤسف أن بعض الفلسفات الخارجة عن سيطرة الثقافة اليهودية، قصد واضعوها جانباً من الإصلاح المادي والمعنوي بيدَ أنّ (زبانية) السوء و (تجار) الإنسان وبخاصة (الرق الأبيض) كانوا يزيفون أهدافهم ويحرّفونها لصالحهم التجاري المادي الى درجات من الانحطاط الخُلقي الهابط، وتبقى لمعاتٌ روحية تنادي بتحريك الجانب الروحي الفكري في الإنسان تحاول أن تزاحم الطغيان المادي وسيطرة الجنس وتشيعهما في مجالات الحياة .

١ـ التعارض المذهبي العام : ففي الفلسفة القديمة يقول الغزالي : (٢)

إنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم، ينقسمون الى ثلاثة أقسام : الدّهريون، والطبيعيون، والإلهيون، وبعد أن يبيّن مذهب كل فريق يقول عن الإلهيين : ..... وهم بجملتهم ردّوا عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بتقاتلهم، ثم ردَّ أرسطاليس على أفلاطون وسقراط، ومن كان قبله من الإلهيين، رداً لم يقصّر فيه حتى تبرأ من جميعهم .

---

(١) في كتابه : الفلسفة المعاصرة في أوربا ص ٦٩ .

(٢) المنقذ ٣٩ وما بعد .

إن أرسطو حينما زيّف نظرية المثل الإفلاطونية، لم يكن عمله هذا ـ وهو هدم لشيء يسمى فلسفة ـ بعيداً عن معنى الفلسفة، ثم إن عمله هذا كان خطوة تمهيدية لابدّ منها، للوصول الى نظريته الجديدة التي ملأ بها فراغ النظرية التي استبعدها ...(١)

وقال حديثاً بعض الفلاسفة الميتافيزيقيين عن خصومهم من الفلاسفة الوضعيين :

إنهم الفلاسفة الذين يفاخرون بأنهم ليسوا بفلاسفة، إن موقفهم من إنكار الفلسفة موقف فلسفي لامحالة(٢) .

إن كثيراً من المذاهب الفلسفية الحديثة تحمل مضموناً شكّياً أو إنكارياً للدّين المسيحي وللدّين عموماً فهي على اختلاف نزعاتها تُبعد الأثر اللاهوتي في النفس والحياة، وتحاول أن تجعل من نفسها مذهباً فكرياً ودينياً يمكن أن يعوّضه عن الإلحاد والإنكار كما هي عليه الماركسية والوجودية اللتين تقيمان أخلاقاً مذهبية خاصة بدلاً من الأخلاق الدينية . والاختلاف الفكري المذهبي بين قطبي التصورات الفلسفية يؤكد على تبعية المذهب لواضعه وتبنّيه له بدوافع ذاتية وخارجية، وهذا يعني وجود فوارق كبيرة ومسافات شاسعة بين اللاهوت الماركسي المغْرق في الماديات وبين اللاهوت المتيافيزيقي وبخاصة المجموعة الفلسفية الفرنسية المعروفة باتجاه (فلسفة الروح) التي يقودها رينه لوسن (ولد ١٨٨٢) ولوي لافل (ولد ١٨٨٣) وقديماً بين الصوفية الهندية المفرطة والمادية الإسبارطيّه المفرّطة، وبين هذين القطبين المتباعدين نشأت فلسفات مختلفة يعارض بعضها بعضاً بدرجات متفاوتة من الالتصاق الواقعي أو الذهني أو الشخصي(٣) .

فإذا وقع تعارض في المذهبية الواحدة وأحياناً بالنسبة للشخص الواحد وللفئة المذهبية الواحدة فأحرى أن يقع هذا التعارض ويشتدّ ويتسع مداه بين أرباب المذاهب بعضها

---

(١) د/ سليمان دينا في مقدمة كتاب تهافت التهافت .

(٢) تهافت الفلاسفة مقدمة المحقق ١٠،١١ .

(٣) الاختلافات المشار إليها من: الفلسفة المعاصرة في أوربا ومعظمها حرفي من غير تعليق على الشاذ منها، فإن في تعارض بعضها بعضاً أبين تعليق وردّ، وانظر مواقفهم المتعارضة أيضاً في المسألة الجمالية في كتابي: الظاهرة الجمالية في القرآن،وكذلك تعارضهم من مسائل الحق والخير.

ببعض، فلكلٍّ مذهب فلسفته، ولكل فلسفة تصوراتها وأركانها ودلائلها، وهو اختلاف يتأثر منه فيما بعد الأنصار والمؤسسات والجذور الاجتماعية ومظاهر كلٍ، وهو مايلاحظ في الفلسفات الاشتراكية والرأسمالية وما بين بين، وليس في قيمة الفورة المذهبية وحدها وإنما في انحلالها وتمزقها أو الانقلاب عليها ضمن نهج معاكس جديد يتلمّس (المصلحة) المتوخّاة ويعمل من أجلها وفي سبيلها .

إن التعارض البيّن بين المذهب المادي الذي يقول بأنه لايوجد في الكون غير المادة، والمذهب العقلي وزعيمه (ديكارت) الذي يرى أن هناك المادة وفوقها العقل أو المثل يدل على تطرف صارخ في التصور والنظرات، وإن نظرة لأي معجم فلسفي حديث تدع القارئ حيران من تداخلها وتعارضها معاً . فإن أمهات المذاهب الفلسفية الحديثة تؤكد على طغيان فلسفي متعارض، طغيان على المعارف الأساسية وعلى العلاقات الإنسانية .

فالفلسفة الواقعية المادية تعارض الفلسفة المثالية كما أشرت وإن اختلفوا فيما بينهم من واقعيين تجريبيين خلّص، ومن واقعيين لهم سمات مشتركة، وزعيم الواقعية برتراندرسل (١٩٧٠) تغيرت الى المادية المثالية على يدِ (هيغل) (١٩٣١) وإلى المادية الجدلية على يدِ ماركس (١٨٨٣) بينما تعارضت الفلسفة المادية أصلاً مع المثالية التي قامت على يد (كروتشيه) (١٩٥٢) والكانتيه الجديدة التي انقسمت بالتالي الى سبع مدارس كبرى تفسّر مذهب (كانت) على أنحاء مختلفة (ص ١٥٣،١٥٤)، إلى جانب ما عُرف عن فلسفة الحياة على يد برجسون (١٩٤١) التي اشتهر منها أربع مدارس مختلفة أيضاً، ومن ضمنها (المذهب التاريخي) في ألمانيا خاصة على يد (اشبنلجر) (١٩٦٣) و (توينبي) (ولد ١٨٩٩)، التي تعارض بشكل عنيف المثالية في هجومها على الواحدية والحتمية العلمية (ص ١٩٥)، إلى جانب الفلسفة ذات الاتجاه البيولوجي المختلفة مع المدرسة التاريخية اختلافاً جوهرياً (ص ٢٠٥)، وبلغت الفلسفة (الماهية) ذات المضمون العقلي المثالي للظواهر التي تُدرك مباشرة رؤية الماهيات ذروتها على يد (هسرل) (١٩٣٨) و (شلر) (١٩٢٤) (ص ٢٢٠) بينما دفع الخواء الروحي أقصاه في أوربا والزحف الصناعي المادي إلى الإحباط الشخصي وضياع إنسانيّة الإنسان، وقام فلاسفة الوجوديون ينادون بحرية الإنسان مهما انحرفت ويعيبون على

قيم الدين والفضيلة على يد (هيدجر) (١٩٧٦) و (بول سارتر) (١٩٨٠) وعشيقته . حتى كانت فلسفة (الوجود) الإنساني والقيمي اللاهوتي ردّة فِعل للانحراف الإنحلالي الوجودي السابق، واعتمدت (الميتافيزيقا) والنظرات التلمودية و الكنسيّة التي أخذت صبغة الفلسفة اللاهوتية على يدِ (هارتمان) (١٩٥٠) و (وايتهد) (١٩٤٧) و (بوشنسكي) (ولد ١٩٠٢) وأخذت كثيراً من توجهات الفلسفة التومائية القديمة، حتى أنه ليشاع أنها أضحت أكثر الفلسفات اتباعاً (ويمكن أن نقارن نجاح الفلسفة الوجودية (اللاهوتية) في منتصف القرن العشرين الميلادي بنجاح الفلسفة الرواقية عند اليونان والرومان في القرون الأولى للميلاد) .

وإنّ بحث كل مذهب عن الحقيقة والسعادة وأحياناً عن الإصلاح يركّز في ذهنيات بعضهم تجاه الآخرين الارتياب في البحث عن هذه الأهداف بقدر ما يبرز عجز الذهن البشري عن تصور مثالي واقعي لها مما يبرز حاجة الإنسان الى الدّين عموماً وإلى الإسلام وحكمته خصوصاً ليس في عالم الصراعات الفلسفية وحدها وإنما في عالم الواقع المعاش. وحسبنا ما وصف الله به كتابه فقال: ﴿تَنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ﴾ (فصلت ٤٢) .

٢- التعارض المذهبي الخاص :

إن الإنتاج الضخم للفكر الفلسفي الأوربي الحديث في المراكز الثقافية يدل على تغاير الرّؤى الفلسفية ليس بين المذاهب المختلفة وإنما بين المذهب الواحد . فقد كان عدد المجلات المتخصصة لايقلّ في إيطاليا وحدها عن ٣٠ في عام ١٩٤٦، ونحصي قائمة الكتب المختلفة وهي قائمة غير كاملة والتي أصدرها المعهد الدولي للفلسفة أكثر من ١٧ ألف من المنشورات في نصف العام الأول من ١٩٣٨، الباحثة في مشكلات سطحية وجذرية والتي جعلت من هذا القرن أخصب فترات الإنتاج على تعارض الكثير منه وتناقضه .

- في المذهب الواحد غيّر (رسل) أشهر فيلسوف إنكليزي واقعي تجريبي (ولد ١٨٧٢) موقفه من التعددية، وقال بما سماه (الذريّة المنطقية) وهي نظرية تقول : إن العالم يتألف من معطيات حسيّة ترتبط فيما بينها بعلاقات منطقية خالصة، ويتكوّن من معطيات حسيّة فقط بينما كان مرحلته الأولى يعترف بأن هناك، الى جوار إدراك معطيات الحواس تقوم المعرفة المباشرة بالكليات أو المعاني الكلية كنوع من (المثال) الأفلاطوني الذي يقوم في ذاته وعلى

نحو وجوده الخاص به، وقد طوّر رسل هذه النظرية مدافعاً عن الموقف الأفلاطوني التقليدي ولكنه عاد من بعد ليعلن أن المسألة كلها شائكة، إلى درجة أنه لايمكن أن يوضع فيها رأي نهائي يحسمها وأخذ يقترب من المذهب الوضعي (ص٨٨) ، وهذا نقدُ المذهب السابق الذي أعلنته فلسفة (برادلي) في العلاقات الداخلية .

وكذلك فإن فلاسفة مذهب (الحياة) الذين يتميزون عن التجريبيين والمثاليين اهتمامهم بتحطيم الإطار العام للفلسفة الأوربية الحديثة (١٦٠٠ــ١٩٠٠) وإطار الفلسفة الكانتية بوجه خاص، وكذلك فإن تميّزهم بالاعتزال أساسياً عن النزعة الميكانيكية قدْر بعدهم عن المثالية سواء بسواء . فهناك اختلافات قوية فيما بين بعضهم والبعض مع اجتماعهم على أمور عامة بالفعلية والصيرورة وعضوية العالم ص (١٧١) .

ويختلف البرجماتيون الأمريكيون الذين ينكرون أن تكون المعرفة نظرية تأمّلية خالصة، وفي القول بإرجاع الحقيقة الى المنفعة عن الفرنسيين البرجماتيين، وبخاصة (برجسون ١٩٤٩) في أنه يعتبر وظيفة الحسِّ أنها وظيفة نظرية في جوهرها، بينما يرى البراجماتيون أن كل معرفة هي عملية بحكم تعريفها (لأن هدف المعرفة هو حل المشكلات (ص ١٩٤) .

وتأثّر الفيلسوف الألماني اللامع (شلر) بعدد من المؤثرات الموجهة له، ففي شبابه وقع تحت تأثير أستاذه (أُيْكن) ويشهد على ذلك كتاباه الأولان، وكان تفكيره يدور حول حياة العقل الذي يمثل نوعاً من فلاسفة الحياة ولكنه يختلف عنهم باهتمامه الأول به . وكان معجباً بأوغسطين أشهر القساوسة (٣٥٤ــ٤٣٠ م) صاحب النظرية الكبرى في الحب، ولكن (شلر) تجاوز هذا المنظور ثم تأثّر فيما بعد بكل من فلسفة الحياة و (نيتشه) و (دلتاي) و (برجسون) حتى إن بعضهم سماه (نيتشه الكاثوليكي) . وفي الفلسفة الوجودية وهي غير فلسفة الوجود نجد أن (مارسل) مثل (كيركجاد) يعلن إيمانه بالألوهية، بينما يقول (ياسبرز) بوجود التعالي أو المتعالي، ولكن لايمكن القول : إنْ كان هذا المتعالي يعادل القول بوجود الألوهية أم بوحدة الوجود والألوهية أم بإنكار الألوهية وإحلال المتعالي محلّه، وهذه المواقف الثلاثة يرفضها (ياسبرز) كلّها على السواء . أما فلسفة هيدجر فإنها تبدو فلسفة منكرة للألوهية، وأما (سارتر) أخيراً فإنه يحاول إقامة مذهب منكر للألوهية صريح ومتسق

الأركان . وكذلك يتنوع الهدف والمنهج عند هؤلاء الفلاسفة الوجوديين (ص ٢٦٩) . والسِّمة الرئيسية بين مختلف الفلسفات في القرن ٢٠ تنبع من أنها جميعاً من (تجربة) حيّة معاشة تسمى تجربة (وجودية) وهي تختلف بين فيلسوف وآخر، فهي تأخذ عند (ياسبرز) شكلَ إدراك هشاشة الوجود، وعند (هيدجر) شكل تجربة (السير باتجاه الموت)، وفي حالة (سارتر) شكل تجربة (الغثيان) (ص ٢٦٦) .

إنّ انقلاب الأساس الفلسفي لايعبّر عن تطوّر في الرؤية واتساع في الأفق وإنما هو تغيير في التصور المذهبي من أساسه، وهو إذ يدلّ على تبدّلٍ في القوى الداخلية والخارجية للفيلسوف يجعل أتباعه في شكٍ وارتياب من صحة مذهبه وكثيراً ما يزهّدهم فيه وينفرهم منه .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

وبالتعبير الدقيق نقول : حكمة المسلمين وفلسفتهم، لما يمكن أن تتدخل الآراء الخاصة، والتأثرات الثقافية الخارجية في بيان الحكمة والفلسفة المسلمتين . ونتناول الفروق بينهما من ثلاث نواح :

الجانب العقلي والجانب الإلهي :

إذا كان بعض الفلاسفة يرون أن الفلسفة تبحث في أسرار الوجود ودقائق الإلهيات، وأصول الطبيعيات، والأشياء وأسبابها، وتبرز الغاية الخلقية والروحية لتصل الى السعادة فإن كثيراً من الحكماء يرون أن الحكمة - وهي أصل الفلسفة الأقدم - تتساوى مع الفلسفة في هذه المجالات الفكرية والعملية والخلقية والروحية، وتزيد عليها اهتماماً متعاظماً بالجانب العملي الحكيم .

بَيْد أنّ الحكيم المسلم يقدّم الاعتماد على الوحي والرجوع إليه، أو يوفق بين فروعه يحاول أن يكون حكيماً وألاّ يكون فيلسوفاً، وأن الفيلسوف الذي يقتصر على العقل في التفريق بين الحق والباطل، ويتخذ منهج الفلاسفة اليونان في الاستدلال، ويتبنى منطقهم ومقولاتهم ويتجاوز في ذلك المحسوس الى ما وراء المحسوس يحاول أن يكون فيلسوفاً قبل أن يكون حكيماً، وبمقدار مايعتمد الحكيم على الشريعة باعتبارها مصدر الحكمة وغايتها فإنه القادر على امتلاك شطحات الفلاسفة يمكنه أن يتفيأ ظلال العقل وفعاليته في حدوده المرسومة وقدراته في تناول قضايا الألوهية والطبيعية مهما امتدّت آفاق العقل وتعمّق في القضايا الفكرية . فالأساس العقلاني الشخصاني يميز الفيلسوف بالاعتماد على القوة المدركة فوق طاقتها، وماوراء حدودها، عن الحكيم الذي لايرفض أهمية العقل رديفاً و توفيقاً وتناولاً .

وإذاً فإنّ الحكمة الإسلامية يغلب عليها الجانب الإلهي، وإن تحدّث الحكماء طويلاً عن استخدام التفكير، وأن الفلسفة الإسلامية يغلب عليها الجانب العقلي وإن تحدث الفلاسفة طويلاً في الإلهيات ولكن من المنحى العقلي ومن غير جدوى ولاطائل .

إن مصدر المعرفة في الفلسفة عموماً وما يسمى بالفلسفة الإسلامية، العقل وحده أو العقل مطواعاً للنصّ الشرعي المؤول، وكذلك فإن طريقة تناول المسائل والقضايا هو تناول عقلي وبطريقة عقلية وبمصطلحات فلسفية عقلية، بينما مصدر المعرفة في الحكمة الإسلامية هو الوحي كما أشرت، وإن طريقة تناول مسائلها وقضاياها هو تناول نصّي شرعي، وأحياناً بأساس ودعامات عقلية خاضعة للوحي نصّاً وروحاً، وهذا يعني أن التفكير الفلسفي يغلب عليه المصدرية الإغريقية وإن طعّم بعضها بتنظير إسلامي، وأن التفكير الديني الإسلامي تؤسس به مسائله، ويحيطها بأطره ويقدّمها بأسلوب شرعي عقلي معاً، أما التفكير التوفيقي وأحياناً التلفيقي فهو يجعل النص خادماً للعقل في الغالب كما يجعل الحكمة الإسلامية في ركاب الفلسفة العامة مما يصعب أن يخلص الى تصنيف ذاتي فلسفي أو إسلامي، وقلّما يتجه بعض المفكرين الى صميم الآيات القرآنية ويصنفون موضوعاتها ضمن المسائل الفلسفية ومصطلحاتها وطرقها ومعالجاتها، وربما أوحوا لبعض الناس وبحسن نيّة أن القرآن كتاب فلسفة من نوع خاص، وهو منها براء ....

وعلى هذا فإن الحكمة منقية العلماء سواء جمعوا إليها الفلسفة أم اقتصروا عليها وأن الفلسفة منقصة الحكماء ماداموا ينأون بها عن نصوص الشريعة وروحها . ومن هنا فإن تصنيف المفكرين إلى حكماء وفلاسفة على ما بينهما من تداخل وتشابك فإن معظمهم كان يفضّل الحكمة على الفلسفة مثل ما كان الواحد منهم يفضّل أن يُدعى بالحكيم بدل الفيلسوف، ففي التراث مؤلفات عن الحكماء في الإسلام . وعن الفلاسفة في غير الإسلام. وصنفوا في الأولى رجال الحكمة المسلمين وغيرهم ممن عاشوا في العالم الإسلامي وتأثروا بثقافته الإسلامية، وصنفوا في الثانية رجال الفلسفة اليونان والهند خاصة وتتبعوا آراءهم الفلسفية التي تأثّر بها كثير من الحكماء المسلمين بعد الإقبال على مصنفاتهم وترجمات كتبهم(١) .

---

(١) من ذلك :

ـ طبقات الأطباء والحكماء : لإبن جلجل (ت ٣٧٧ هـ)

ولخّص بعضهم الفروق بين الفلسفة والحكمة الإسلاميتين وذلك عند الكلام على أقسام الفلسفة الطبيعية يقول : (هي) بالجملة معرفة المبدأ والمعاد . والطريق الى هذه المعرفة من وجهين : أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال، وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات . والسالكون للطريقة الأولى إن التزموا ملّة من مللِ الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلمون، وإلاّ فهم الحكماء المشّاءون (أصحاب أرسطو كانوا يمشون في ركابه مستفيدين)، والسالكون

- مختار الحكم ومحاسن الكلم لأبي الوفاء المبشر بن فاتك (ت ٤٨٠هـ) أو في آخر المائة الخامسة للهجرة كما قال القفطي . ومن موضوعاته : حكم آراميس وآدابه - آداب أوميروس الشاعر - أخبار فيثاغورس (حكمه وآدابه) - أخبار أفلاطون (آدابه ومواعظه) - أخبار أرسطاليس (حكمه وآدابه) - وأخبار لقمان الحكيم من أوسعها (من ص ٢٦٠-٢٧٩) . حققه وقدم له د/عبد الرحمن بدوي، علماً أنه خالٍ تماماً من ذكر أي حكيم عربي أو مسلم سوى ما نُقل عن (لقمان) من الحسن البصري، وأدهم بن أدهم ... المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٠ .

- الحكمة الخالدة : ابن مسكويه أحمد بن محمد (ت٤٢١ هـ)

ومن موضوعاته : حكم الفرس - حكم الهند - حكم العرب - حكم الروم (اليونان) - حكم الإسلاميين المحدثين - خاتمة في أقوال أفلاطون - وأبي الحسن العامري والجاحظ . قدّم له وحققه د/عبد الرحمن بدوي . النهضة المصرية - القاهرة .

وفي(حكم العرب) ذكرطائفة من الحديث النبوي، وأقوال لعلي بن أبي طالب والحسن البصري، ولقمان، وحكم العرب في الجاهلية، وحكم بعض الصوفية، وفي (حكم الإسلاميين) اقتصر على ابن المقفع والفارابي .

- رسالة لابن رشد (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) (ت٥٩٥ هـ)

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨) بدأه بترجمة كبار الأطباء اليونان والرومان والهنود والعرب والعجم، وقسمه عدة أقسام وهو يحوي ما ينوف عن ٤٠٠ ترجمة، نشره أوجست ملر القاهرة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢ م . وذكر أمثال : أرسطو- سقراط - اسكندر - إقليدس - بطليموس - جالينوس .

- تاريخ حكماء الإسلام : البيهقي (ظهير الدين) من رجال القرن السادس الهجري (ت ٥٦٥ هـ).

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء : القفطي (علي بن يوسف) من رجال القرن السابع الهجري (ت٦٤٦ هـ) وهو من أشهرها .

- كتب الردود على الفلاسفة . انظرها في مكانها ، وكذلك كتب الحكمة .

إلى الطريقة الثانية إن وافقوا في رياضيتهم أحكام الشرع فهم الصّوفيّة، وإلاّ فهم الحكماء الإشراقيون ... ثم يقسم علوم الفلسفة والحكمة الى سبعة(١) وكان بعض هؤلاء يُتهم في دينه ويوصم في عقيدته مادام متأثراً بالفلسفة الإغريقية مهما عدّل فيهاونقّح وحاول أن يقرِّبها من الشريعة ومسائلها وقضاياها أو يقرِّب الشريعة منها وبخاصة الكليات الكبرى في الألوهية والذين اعتبروا ذلك دفاعاً عن الإسلام من الاستغراب الفلسفي بما أظهروه من تهافت المسائل المطروحة وتهافت أصحابها بسبب أخذهم من فلسفات الآخرين ما نفع منها وما ضرَّ، وما وافق الإسلام وما خالفه .. وكان موقف الكثير من (منتحلي) الفلسفة ليس هجوماً عابراً ولا إنكاراً تقليدياً سطحياً وإنما هو تفنيد لآرائهم وتحليل لأهم قضاياهم والردُّ عليها بالأسلوب الحكمي الفلسفي ذاته، وربما تجاوزوا ذلك الى الردِّ بالحُجَّة والدليل على الفلاسفة اليونان الأوائل بالمنحى العقلي والمنهج الفكري ذاته وإن استشهدوا أحياناً بمعارفهم الشرعية .

إنَّ تحرير الفكر الإسلامي وتنقيته من الدخيل المنحرف يتطلب قدرة علميّة وشموليّة فكريّة من أجل تأصيل هذا الفكر وتخليصه من التأثيرات الأجنبية المغرضة . وهو مقصد ديني وفكري كان في صميم الفكر الواعي الأصيل للمسلمين، وإذا دلّ ذلك على صراع مذهبي فكري بين حكمة الإسلام وقضاياه والتيارات الغازية مهما حاولت التوفيق والاقتراب فإنه يؤكد على عظم المسؤولية والأمانة التي يحملها العلماء المخلصون في كل جيل ولكن بالأسلوب المقنع والدليل الساطع والحجة الدامغة . إلى جانب ضرورة إبراز القيم الحكيمة القرآنية في سموها ورفعتها وربانيتها حتى تُقدَّم للفكر الإنساني مستقلة أصيلة نابعة من المصادر الإسلامية القادرة على تزييف الفلسفة الوضعية ومذاهبها المتعارضة والمتأرجحة والمنبعثة من المزاجات والأهواء أكثر مما هي منبعثة عن الفكر المجرد والمذهبية الخالصة، وبخاصة المذاهب الفلسفية المعاصرة وما تحمل من وجوديات وسلبيات مفترضة لاتلبث أن تُظهر عجزها بعد قليل .

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة . مادة : حكمة .

حكماء الفلاسفة يحاولون التوفيق بين الشريعة والفلسفة

يتوقف الراسخون في العلم من المسلمين عند مسائل فلسفية إن لم يردّوها حين ينظّرونها متعارضة مع صريح النصوص الإسلامية، حتى إن بعض الباحثين يتحفَّظون من استخدام مصطلح الفلسفة ويرفضون أمثال : فلسفة القرآن، والفلسفة الإسلامية ويسوقون لها وعندها آراء الفلاسفة، ومن ثم فلسفة الغزالي وابن تيمية، والرازي فقد راق ذلك لبعض الباحثين وشدَّتهم جاذبية الفلسفة وداروا في فلكها، إن لم نقل بهرهم رواؤها العقلي حتى طرحوا مصطلحاتها على الإسلام، بينما يقبلون مصطلح الحكمة باعتبار أرومتها العربية وأصلها القرآني الحديثي، وباعتبار أن معنى الفلسفة أصلاً هو محبّة الحكمة وأن معظم الفلاسفة حكماء .

والحق أن علماءنا تأثروا بتوجيهات القرآن في تعلّم الحكمة وتعليمها وأنها مزيّة إنسانية ﴿يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يشاءُ ومَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِي خَيراً كَثيراً﴾ مثل ما تأثروا بتوجيهات الحديث الصريحة في مثل قوله : الكلمة الحكمة ضالّةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحقّ بها . وما عثروا عليه من الأقوال الحكيمة من مثل قول سقراط : ذروة الحكمة أن تفرّق بين الخير و الشرّ .... فدرسوا الفلسفة الإغريقية على أنها حكمة اليونان وإن ارتبطت أساساً بالوثنية، وأقبل المنبهرون منهم على الترجمات العشوائية حتى تجاوزت الى غير النافع والصالح على المدى الطويل .

وربما حاولوا أو حاول بعضهم أن (يفلسف) نصوصاً وأحكاماً شرعية وبخاصة المسائل والتصورات الكلامية العقدية .

وعلى الرغم من قدرة العربية وأهلها على تعريب مصطلحات هذه الفلسفة فإنّ تأثُّر المفكرين المسلمين كان كبيراً ليس في تقبل المسائل الفلسفة الغربية وحدها وإنما في المداخلات المنهجية في تقنين المواد والعلوم العربية والإسلامية واستخدام طرقها ومصطلحاتها .

ومن الملاحظ غالباً أنه حين يكون الكلام عن الحكمة فإن فلاسفتها المسلمين يبرزون وجوه الاتفاق وكثيراً ما يقدّمون الشريعة على الحكمة، بينما حين يتحدثون عن المسائل الفلسفية

وقضاياها فإنهم يقلّدون الفلاسفة اليونان وينسجون مثل آرائهم ويفاخرون أقرانهم بها باعتبارهم أئمة العقل والعمق في مسائل الوجود .

والاتجاه التوفيقي بين الفلسفة والدّين قد يتجاوزه الى تلفيق وترقيع في دلالة الفلسفة بمعطيات الشريعة بحيث لايصدق عليها دراسة فلسفية خالصة ولادراسة إسلامية بحتة، وهو اتجاه ركّز على الغاية والمعنى العملي والنفعية المبدئية، وتناول الموضوعات الواحدة والمعالجات المتشابهة وإن اختلفت المصطلحات والأشخاص .

ـ فقد جاء في إحدى رسائل أبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ)(١) الصيغة الجامعة بين الفلسفة والشريعة قوله : ومن كان فلسفي الطريق شريعيّ المذهب لم تعرض له هذه العوارض ـ أعني التلهف على نيل اللذات والأسف على مايفوته منها، والندم على ما ترك وقصّر، بل العلم أن تلك الانفعالات خسيسة تقتضي أفعالاً دنيئة، وأن الحكماء رضي الله عنهم قد بيّنوا رذائلها، وسطّروا الكتب في ذمِّها، وأن الأنبياء صلوات الله عليهم قد نهوا وحذروا منها، وكُتب الله تعالى وتقدس، ناطقةٌ بجميع ذلك مصدقة له .

وذكر ابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) الغاية من الأخلاق ـ وهي فرع من الفلسفة والدين، من حيث أن كلاً منهما يهدف الى سعادة الإنسان .

واهتم ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) بالمعنى العملي لكلٍ من الفلسفة والدين، وذهب إلى أن غرضهما هو إصلاح النفس وأنه لاخلاف بين الفلسفة والشريعة في ذلك .

أما الكندي (ت ٢٥٢ هـ) فإنه يُقرُّ صراحة بتوافق العقل والنقل، أو الفلسفة والدين . وهو القائل في رسالته الى المعتصم : علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة، وجملة كل علم نافع والسبيل إليه والبعد عن كل ضار والاحتراس منه، واقتناء هذه جميعاً هو الذي أَتَتْ به الرسل الصادقة عن الله جلَّ ثناؤه، فإن الرسل إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده وبلزوم الفضائل ...

---

(١) من رسائل أبي حيان التوحيدي ص ١٦٢ تحقيق ونشر د/ إبراهيم الكيلاني .

ويرى الفارابي (ت ٣٣٩هـ) أن موضوعات الدين وموضوعات الفلسفة واحدة (فكلاهما يعطي المبادئ القصوى للموجودات، فإنهما يعطيان علم المبدأ الأول السبب الأول للموجودات، ويعطيان الغاية القصوى التي لأجلها كون الإنسان وهي السعادة القصوى) .

ويرى ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) أنه لايوجد في أقسام الحكمة ما يخالف الدين ويتعارض معه . يقول : ظهر أنه ليس شيء منها يشتمل على مايخالف الشرع، فإن الذين يدعونها ثم يزيفون عن منهاج الشرع إنما يضلّون من تلقاء أنفسهم، ومن عجزهم وتقصيرهم، لا أنّ الصناعة نفسها توجبه، فإنها بريئة منهم .

أما ابن رشد في كتابه : فصل المقال ... يقول : إن الحق لا يضادّ الحقَ بل يوافقه ويشهد له، ويقول : إن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة(١) .

وقد تشدّنا مواقف أقرب للشريعة من حكماء وملهمين، أكثر مما هم فلاسفة متأثرون . فالشريعة بنظرهم هي الفلسفة الكبرى كما جاء في كتاب في بيان وجوه الحكمة في الأوامر والنواهي الشرعية سماه أبو زيد البلخي : الإبانة عن علل الديانة ، وكان يقول : الشريعة الفلسفة الكبرى، ولايكون الرجل متفلسفاً حتى يكون متعبداً مواظباً على أداء أمراء الشرع(٢) ، ويعدها آخرون (أقوى الدّواعي) للعمل الإسلامي مهما تعمَّق الحكيم بأسرار

---

(١) هؤلاء كلهم فلاسفة ماعدا ابن رشد . ويمكن الرجوع بتحفظ وبعد تحصين الفكر بالمبادئ الإسلامية وفي إطار التخصص الى بعض كتب الفلسفة القديمة والدراسات الحديثة لنقدها والرد عليها غالباً فإن فيها الكثير من الأغاليط والشطط والتبعية، وذلك بسبب المدى الطويل أو القصير في هيمنة الفلسفة اليونانية على التصورات القرآنية وحكمتها . وقد أخذت هذه الأقوال التي تُشعر بالتوفيق بين الدين والفلسفة من كتاب : عبقرية العرب في العلم والفلسفة د/عمر فروخ، فقرات : العلم والدين ـ الحكمة والشريعة من ص ١٤٣ـ١٦١ ، وتأمل في رسالة : دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي د/محمد حمدي زقزوق، ورسالة : الفلسفة الإسلامية د/محمد عاطف العراقي، وتمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية د/مصطفى عبد الرزاق، وفي الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيق د/إبراهيم مدكور .

(٢) من تاريخ الحكماء للبيهقي : ٧٥،٤٣ .

الأشياء والمعاني، فها هو عيسى بن إسحاق (ت ٤٤٨هـ) مثلاً وهو حكيم منطقي له رسالة في أنّ علم الحكمة أقوى الدواعي إلى متابعة الشرائع ومنها : من زعم أن الحكمة تخالف الشريعة فهي مفسدة لها .

ومن قال إن الحكيم يستخفُّ بالشريعة لأن الحكيم يبحث عن غوامض الأمور وحقائقها، فليس له أن يتفوهَّ بلائمة، لأنه اعتقد في الشريعة أن البحث عنها يفسدها، فهو أولى باللوم بسبب هذا الاعتقاد(١) . ويعدُّها آخرون (إحياء للسنة) وإقامة للبدعة باعتبار أن الحكماء قدوة فكرية وعملية وشرعية .

فالبيروني أبو الرّيحان، من أجلاّء المهندسين كان يقول : مدارسة أخلاق الحكماء والعلماء تُحيي السنّةَ الحسنة وتميت البدعة السيئة(٢) .

ولذا فإن (الغزالي) يرى في حكمة بعض الفلاسفة مجال الاقتباس حتى في المصطلحات العلمية والتعليمية فإنه لايتأبّى وأمثاله من الأخذ بها فهي من (الكلمة الحكمة)، يقول : ... وهبْ أنها (الكلمات والمصطلحات) لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه، مؤيَّداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلمَ ينبغي أن يهجر ويُترك؟ فلو فتحنا هذا الباب، وتطرّقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات للقرآن، وأخبار الرسول(٣) ، وأخيراً فإن الجمع بين علوم الشريعة والعلوم العقلية هو غاية (الفحول) من العلماء وأسمى مراتب الشرف العلمي .

وكان شرف الرجل في تلك الأعصار بمقدار تحصيله وإحاطته من العلوم العقلية والنقلية، وكان في عصرهم فحول ممن جمع بين الحكمة والشريعة كالعلامة شمس الدين الفناري،

---

(١) من تاريخ الحكماء للبيهقي ٧٥،٤٣ .

(٢) السابق ٧٤ .

(٣) المنقذ ٥٥ للغزالي .

والفاضل قاضي زادة الرومي، والعلامة خواجه زادة، والعلامة علي قوشجي، والفاضل ابن المؤيد، وبيرم جلبي، والعلامة ابن كمال، والفاضل ابن الحنائي(١) .

علماء مسلمون يكتبون في الحكمة ويردون على الفلاسفة المسلمين : إن الأساس في المنطلق الديني دفعَ العلماء الذين درسوا الفلسفة وأحاطوا بقضاياها ونظّروها بالقواعد الإسلامية وقوّى حماستهم للدفاع عن الفكر الإسلامي الأصيل إلى هدْم قواعد فلسفتهم ووضع معايير تقاس بها الفعاليات العقلية ومن ثَمَّ الحكم عليها قرباً وبعداً من الإسلام بعد إجراء هذه القواعد الفلسفية الشخصانية العقلانية ضمن الإطار الفلسفي وأسلوبه، فإن معظم العلماء المدافعين كانوا قد ألفّوا في الحكمة معتمدين على التراث الإغريقي أحياناً من غير أن يتعارض مع معطيات الإسلام وقواعده، وبذلك تعمّقوا في الثقافة الإغريقية ليردّوا عليها في غالب الأحيان .

قال الغزالي : ليُعْلم أن المقصود تنبيه من حسّنَ اعتقاده في الفلاسفة، وظنَّ أن مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهافتهم(٢) . وأعلن : ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب إلاّ تكذيب مذهبهم، وأما إثبات المذهب الحق فسنصنّف فيه كتاباً بعد الفراغ من هذا وسماه (معيار العلم) .

وقال : (.... فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول)(٣) .

ومن أعنف ردود الغزالي وتفنيد مقولات الفلاسفة ما كتبه خصيصاً في : تهافت الفلاسفة الذي يدور حول محورين : الشكُّ الناقد ، وعجز العقل عن الغوص في الحقائق الإلهية التي غالى فيها الفلاسفة فوقعوا في معارضات وتهافتات .

---

(١) كشف الظنون (حاشية وانظر كتباً فيه) .

(٢) الغزالي : تهافت الفلاسفة .

(٣) ابن رشد : تهافت التهافت ، مقدمة التحقيق د/سليمان دنيا .

إنّ مسلك الغزالي في كتاب التهافت قائم في معظمه على التشكيك والنقد، ولكن التشكيك عمل علمي له قيمته، فإن بعض الفلاسفة يذهب الى القول بأن : (وظيفة الفلسفة لاتقوم في وضع حلول المشاكل، بل تقوم في تفنيد الحلول الموضوعة للمشاكل)(١) .

نعم إن هدف كتاب التهافت هو إظهار العقل بمظهر العاجز عن اقتناص الحقائق الإلهية .. ولكن الغزالي إذ يحاول تقييد سلطة العقل، ويتخذ من العقل نفسه مطيّة للوصول الى هذه الغاية، فإن عمله هذا يكون محاولة عقلية لإثبات قصور العقل في ميدان الإلهيات، وشهادة عقلية بأن للعقل حدّاً يجب الوقوف عنده(٢) . وقالوا عن كتابه : إنه طعنَ الفلسفة طعنةً لم تقم لها بعدُ في المشرق قائمة .

إنها على تهافتها لاتعدو أن تكون مسائل (بعضية) محددة، ففي رأي باحثين معاصرين نفي العقلانية عن الفلسفة اليونانية، وأن (أوج العقلانية في الفلسفة هو حضيضها) وإن أوج إزدهار الفلسفة اليونانية متمثلة في تكوّن المدارس الفلسفية بالمعنى العميق الكامل على يد أفلاطون وأرسطو والرواقية والأفلاطونية المحدثة، هونفسه حضيض العقلانية، والرجوع الى المسلّمات نفسها الغيبية للبدائيين، موضوعة بكلام منمّقٍ ونظام فلسفي يخفي على غير الخبير معدنها الميثولوجي البحث (فما فكرتا المثل والتناسخ عند أفلاطون وهي كل فلسفته، وما الإله المحرك الغائي والعقول الفلكية عند أرسطو وهي عماد ميتافيزياه، وكذلك مافكره أفلوطين عن الفيض، والواحد الذي يلد، والبذور التي تصدرها النفس الكلية .. إلاّ نزعات خرافية)(٣) .

وفصّل الغزالي ردوده مبيناً مواطن الانحراف والصحة في التكفير والتبديع والقبول :

ومجموع ما صحّ عندنا من فلسفة أرسطاطاليس (أرسطو) بحسب نقل هذين الرجلين (ابن سينا والغزالي) يحصر في ثلاثة أقسام :

---

(١) الغزالي السابق، مقدمة ص ١٠ عن أسس الفلسفة د/توفيق الطويل ص ١٢٦ ط٢ .

(٢) د/سليمان دنيا مقدمة كتاب تهافت الفلاسفة ١٠ـ١١ .

(٣) من الميثولوجيا الى الفلسفة عند اليونان :د/حسام محي الدين الألوسي، وبواكير الفلسفة قبل طاليس، ونقلها : جذور الاستبداد ٣٦ د/عبد الغفار مكاوي سلسلة عالم المعرفة (١٩٢) .

١ـ قسم يجب التكفير به .

٢ـ وقسم يجب التبديع به .

٣ـ وقسم لايجب إنكاره أصلاً .... ثم بيّن خطأ من يكفّرهم بسبب علومهم بالطبّ والرياضيات وينكرها لأجلهم فقال : ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، ... وليس في هذا ما وجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو تقابلهما على وجه مخصوص ... ثم يقول عن (المنطقيات): فلا يتعلّق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً بل هو النظر في طرق الأدلّة والمقاييس وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه، وأن العلم إما تصور، وسبيل معرفته الحدّ، وإما تصديق، وسبيل معرفته البرهان ... إلى أن يقول متعجباً : وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر؟ وأخيراً يتحدث عن علم الطبيعيات الذي يبحث عن عالم السموات وكواكبها وماتحتها من الأجسام المفردة والمركبة، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها ويقول : ... وذلك يضاهي بحث الطبيب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسية والخادمة وأسباب استحالة مزاجه إلى أن ينتهي : وكما أنه ليس من شروط الدين إنكار علم الطب فليس من شرطه إنكار ذلك العلم إلاّ في مسائل .... وأصل جملتها : أن يعلم الطبيعة مسخّرة لله تعالى لاتعمل بنفسها، بل هي مستعمَلة من جهة فاطرها، والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لافعل لشيء منها بذاته . أما الإلهيات فيقول عنها : ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كَثُر الاختلاف بينهم، ولقد قرب أسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الإسلاميين، ثم يلخص أصول المغلوطات في (٢٠) أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر، والأصول المكفّرة هي:

١ـ الأجساد لاتحشر، ٢ـ وعلم الله بالكليات دون الجزئيات ، ٣ـ قولهم بقدم العالم وأزليته.

ويتبع ذلك كله عدم تكفيرهم في (السياسيات) و(الخلقيات) التي قال بأن الفلاسفة أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المأثورة ومن كلام الصوفية(١) .

وعقد ابن خلدون فصلاً إضافياً في **إبطال الفلسفة ومنتحليها** .

---

(١) المنقذ من الضلال ٤٨ـ٥٣ الغزالي .

يقول : هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة في العمران، .. وضررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها، وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كلّه الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قِبل النظر لا من جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل، وهؤلاء يسمّون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محبّ الحكمة ... ووضوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ... ثم يذكر شيئاً من فلسفتهم ويرد عليها .. ثم يتحدث عن (السعادة) في نظرهم فيقول : ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو (من العقلانية) مع تهذيب النفس وتخلّقها بالفضائل، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره وميله الى المحمود منها، واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة، وأن الجهل بذلك هو الشفاء السرمدي .. ثم يذكر أرسطو (المعلم الأول) ويبين أسباب انتشار الفلسفة ويقول : وذلك أن كتب المتقدمين لّما ترجمها الخلفاء من بني العباس... تصفّحها ... كثير من أهل الملّة، وأخذ من مذاهبهم من أضلّه الله من منتحلي العلوم ... ومن أشهرهم الفارابي وابن سينا وغيرهما ...و بعد الردّ عليهم ينهي كلامه : فهذا العلم كما رأيته غير وافٍ بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها، وليس له فيما علمنا إلاّ ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين، وأخيراً ينصح طلاب العلم : فليكن النظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد امتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يُكبَّنَّ أحد عليها وهوخلو من علوم الملّة، فقلّ أن يسلم لذلك من معاطبها ...(١)

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٩٩/٤ ت.د/علي عبد الواحد وافي . باختصار شديد .

أما كتاب (المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات) : للإمام الرازي (ت ٦٠٦هـ) فقد عنون بالآية ﴿ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقدْ أُوتيَ خيراً كثيراً﴾(١)

ويصف الرازي كتابه السابق أنه مشتمل على أشرف العلوم الحكمية وأرفع المباحث الحقيقية، و وصف الفلسفة في (نهاية العقول في دراية الأصول) : مادة الشكوك والشبهات في جميع الملل والأديان، فمن أحكم إبطالها قدر على إفساد جميع الأباطيل والشبهات .

وشرح (الإشارات والتنبيهات لإبن سينا) ولكنه عارضه في كثيرها، حتى أطلق بعضهم عليه اسم (جرح) لا (شرح) وفي شرح (عيون الحكمة) لابن سينا أيضا يقول الرازي : إني مخالف لمقتضى هذا الكتاب في دقيقه وجليله وجملة تفاصيله، وأن هذا الكتاب غير مبني على المنهج المستقيم(٢) .

وكذلك يقف ابن تيمية من الفلسفة والفلاسفة موقف العالم الديني المتعمّق بفهم انحرافاتهم وتقويم ذلك شرعياً . وهو إذ يصرّح أن (طائفة) منهم لاجميعهم على غير ملّة الإسلام فإنه بعرضه لأفكارهم ومغالطاتهم وآرائهم يحدد موقف الإسلام منها وحدها وليست جميع أفكارهم وآرائهم بالدقة المطلوبة من العالم بالنسبة للأشخاص، وبالنسبة لمذاهبهم وآرائهم يقول : (.... فطائفة من الفلاسفة ونحوهم يظنون أن كمال النفس في مجرد العلم ...) ثم يقول : (وهؤلاء ضالون بل كافرون من وجوه منها : أنهم اعتقدوا الكمال في مجرد العلم ... ويرد عليهم أن كمال النفس ليس في مجرد العلم، بل لابد مع العلم با لله من محبته وعبادته والإنابة إليه، فهذا عمل النفس وإرادتها، وذاك علمها ومعرفتها) والوجه الثاني أنهم ظنوا أن العلم الذي تكمل به النفس هو علمهم وكثير منه جهل لاعلم ، والثالث : أنهم لم يعرفوا العلم الإلهي الذي جاءت به الرسل، وهو العلم الأعلى الذي تكمل به النفس مع العمل بموجبه، والرابع : أنهم يرون أنه إذا حصل لهم ذلك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع وأبيحت لهم محرماته ... ثم يقول : وأصل المتفلسفة أن الفلسفة التي هي الكمال عندهم هي التشبه بالإله على قدر الطاقة وهم يقولون : إن حركات الأفلاك لأجل التشبه

---

(١) لاندري عن عنونة الكتاب بالآية هل هي من الرازي المؤلف أو من المحقق .

(٢) من مقدمة (المباحث المشرقية) ص ٩٠ الرازي . جزآن تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي.

بالأول ... وبعد أن ينكر على الغزالي هذا الاتجاه في شرح الأسماء الحسنى يذكر أن ابن عربي وغيره يجعلون الوليَّ أفضل من النبي بناءً على أصولهم الفلسفية الاتحادية ... ثم يقول: وأما الحق المبين فهو أن كمال الإنسان في أن يعبد الله علماً وعملاً كما أمره ربَّه، وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم أولياء الله المتقون ... وهم الذين زكّوا نفوسهم وكمّلوها، كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الإرادية العملية(١) .

إن هذه النماذج الواعية للتيارات الفلسفية الأجنبية تغني عن ذكر آخرين حيث كان موقفهم الدفاعي يتساوى مع موقفهم البياني التوضيحي الباني ، وإذ إنهم من حكماء المسلمين أو الذين كتبوا في الحكمة فإنهم استطاعوا وفي إطار أصالة فكرهم أن يزيفوا الدخيل ويشيدوا بالصحيح ويميزوا بين الحقّ والباطل في كل مادرسوه وكتبوه من خلال المسؤلية الفكرية والمسؤلية الدينية معاً .

* * * * *

(١) ابن تيمية : الرسالة الثانية في شرح كلمات من فتوح الغيب ١٨٦/٢ من جامع الرسائل له ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم ، ولإبن تيمية جولات كبيرة وموفقة في : الفتاوى وغيره .

الإلهام والحكمة والنبوة

أولاً : الإلهام والنبوة :

(كل نبيّ ملهم وليس كل ملهم نبياً)

والإلهام كما يُعرِّفه ابن الأثير(١) : أن يلقي الله في النفس أمراً، يبعثه على الفعل أوالترك، وهونوع من الوحي يخصُّ الله به من يشاء من عباده . وقد تكرر في الحديث ومنه : أسألك رحمة من عندك تلهمني بها رشدي .

وفي حديث علي : وأنتم لَهَا ميم العرب، هي جمع لُهْموم، وهو الجواد من الناس والخيل .

وفيه (قد كان في الأمم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب)(٢) وجاء في تفسيره : أنهم الملهمون، والملهم هو الذي يُلْقَى في نفسه الشيء فيُخبر به حَدْساً وفراسة، وهو نوع يختصّ به الله عزَّ وجلَّ من يشاء من عباده الذين اصطفى ، مثل عمر، كأنهم حُدِّثوا بشيء فقالوه، وقد تكرر في الحديث .

ونقل ابن حجر أن عبد الرحمن بن عوف كان إذا سمع عمر يخطب يقول : أشهد أنك مكلَّم. وقال الأكثرون : الملهم هو الصادق بالظن، والملهم بالصواب ووصلها بعضهم بالنبوة فقال : الإصابة بغير النبوة. ثم يقول : وتمخّضت الحكمة في وجودهم (الملهمين) وكثرتهم بعد العصر الأول في زيادة شرف هذه الأمة بوجود أمثالهم فيه، وقد تكون الحكمة في تكثيرهم مضاهاة بين إسرائيل في كثرة الأنبياء فيهم، فلما فات هذه الأمة كثرة الأنبياء فيها لكون نبيها خاتم الأنبياء عُوضوا بكثرة الملهمين . قال الطيبي : المراد بالمحدَّث الملهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر .

(٢) البخاري، فضائل الصحابة ٣٦٨٩ .

ذلك مبلغ النبي صلى الله عليه وسلم في الصدق ...(١) إنها فضيلة لعمر ولمن كان في منقبته من بعده .

والإلهام بالخير قد يكون بالآخرة مثل ما يكون في الدنيا، ففي حديث مسلم(٢) (يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك (وقال أبو عبيد في رواية : فيلهمون لذلك) فيقولون : لو استشفعنا على ربّنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ...) وفي مقدمة الملهمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فيأتونّي فيقولون : يامحمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء .. ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ....(٣)

وفي القرآن قوله ﴿ وَنَفْسٍ وما سوَّاها، فألْهَمَها فُجورَها وتَقْواها ...﴾ (الشمس ٧،٨) فالإلهام شيء صميمي متصل بتسوية النفس واستقامتها والتي استحقت أن تكون مقسماً بها لله تعالى، ويشبه الإلهام هنا الهداية في قوله ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد ١٠) . مما يدل على تركيب النفس البشرية من عناصر قابلة للخير أو للشر، ويبدو من تتبع اللغويين أن الإلهام يطلق على الخير وحده، قال القاموس : ألهمه الله خيراً : لقَّنه إياه، واستلهمه إياه : سأله أن يلهمه، مع أن البيان القرآني يصرّح أن الله ألهمَ النفس بالشر والخير، وأن الفجور مقدَّم على التقوى .. ممّا يتنافى ظاهراً مع تسوية النفس وفطرتها، وضرورة أن يكون المعنى المناسب هو (بيان) الله للنفس فجورها وتقواها، وقد ورد هذا التفسير لعدد من المفسرين ومنهم ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : ألهمهما الخير والشر كما ذكره ابن كثير . ويقول الكشاف : ومعنى إلهام الفجور والتقوى : إفهامهما وإعقالهما وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ماشاء منهما بدليل قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ♦ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما، والتزكية الإنماء والإعلاء بالتقوى، والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور ... وقال الظلال ...بعد كلام طويل : وأن هذه

---

(١) فتح الباري ٧/٥٠ .

(٢) مسلم إيمان (٣٢٢) وانظر الحديث بتمامه .

(٣) مسلم إيمان (٣٢٧) .

القدرة (الإلهام) كامنة في كيانه، يعبّر عنها القرآن بالإلهام تارة، ويعبّر عنها بالهداية تارة. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد ... والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما تُوقِظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك، ولكنها لاتخلقها خلقاً، لأنها مخلوقة فطرة وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً إ.هـ .

فالإلهام القرآني هو قوة أو أمر يبعثه على الفعل أو الترك كما سبق قول ابن الأثير، أوقدرة خفية كامنة في النفس مودعة فيها من الله الخالق الملهم، وقد تكون قدرة فائقة في النباهة والذكاء والخيال .

وبقيت مسائل منها أن تقديم الفجور على التقوى يؤذن أن يحرَّر الإنسان من دعواه الباطلة أحياناً بأنه يعتمد على الإلهام وحده وأن فساده راجع الى الإلهام المتقدم، والمسألة الثانية، أن الأرض التي أقسم الله بها قبلاً، ﴿وَالأَرْضِ وما طَحَاها﴾ هي البيئة المناسبة للنفس الإنسانية الملهمة بالخير أو بالشر، وأنّ هذه النفس بهذين الوصفين ملائمة للأرض المبسوطة الممهدة للحياة . والمسألة الثالثة هي أن هذه النفس عنصر كوني يقرنه الله بالعناصر الكونية الكبرى التي أقسم بها في أول السورة : الشمس ، القمر ، النهار، الليل، السماء، الأرض ... والمسألة الرابعة وقد أشار إليها المفسرون : التبعات المختارة والإرادة الحرّة والمسئولية القائمة عليها في الفلاح والخيبة . وهذا ما يسمو بالإنسان الى قمة الكرامة البشرية وخصائصه في الحرية والتمكين والخلافة .

إن مجرد إيداع الله هذه القوة أو القدرة التي تستعد لفعل الخير أو الشر من غير إلزام بأي منهما ومن غير حجْر على إرادة واحد منهما يفتح آفاقاً حضارية مسئولة في المنطلقات والأعمال والعلاقات، مسئولية السلوك الفردي في الكلمة والتصرف، ومسئولية السلوك الاجتماعي المتعاون والمتآخي، ومسؤلية السلوك العالمي في الحالات الغالبة للبرِّ والإقساط في العلاقات الدولية المتماثلة حين لايعتدى على أرواح المسلمين ودينهم وأرضهم (الممتحنة ٨،٩) . إن الوحي بمعنى الإلهام قدرٌ مشترك بين النبوة وبعض الحكمة والفلسفة والأدب والفن، فالنبي ملهمٌ من الله في بعض الوحي مُوحَى له بالنبوة وأحياناً بالرسالة، وبعض الحكماء والفلاسفة أوتوا الحكمة وأُلهموا بها فَجَرتْ على ألسنتهم وفي كتبهم . ولكن شتّان

بين الحكمة الإلهية ووحي الله ورسالاته وبين حكمة الناس وحكمة الحكماء وفلسفتهم الوضعية المتأثرة بالتجربة والمزاجية والبيئة وتقلّب الأحوال وصروف الزمان . والحكمة في النبوة والفلسفة من الله لصالح الإنسان وفائدته ورُقيّه، وهي من منازع النفوس وأهوائها وتطاولها مادامت لشر الإنسان وإيذائه وضرره وانحطاطه، فالله ﴿يُؤْتي الحِكمةَ منْ يشاءُ﴾، و هذه ليست خاصية لنخبة الناس من الحكماء وإنما قد يؤتى الحكمة العامة أو بعضهم فيما يعرف بحكمة الشعب، فتجري على ألسنتهم أمثالاً، وتنساب من بين أيديهم وخلفهم تجارب وخبرات، وفي تصرفاتهم سلوكيات حكيمة، وهي حكمة (الجِبِلّة) التي هي من هبات الله ونعمه على من يشاء كما وهب بعضهم مَلَكة الشعر والحصافة في المجالات المعنوية ووهبهم رواء الحسن المادي وجمالية التركيب البدني والصوتي، فما بالك إذا اعتمدت حكمة النبي على العلم الإلهي والمعرفية الموحاة التي لايحصل عليها الإنسان العادي من أي مصدر وضعي؟

والإلهام درجات تبدأ بالحدس الصادق وتنتهي بعين اليقين، وهو أعلى مراتب الملهمين،و إنه من الخطأ أن نخلط بين الإلهام الفني والإلهام الديني، لأن الإلهام الفني قد يكون في الشر كما يكون في الخير، وقد يقال : إن اللصّ وهو يحاول سرقة المكان سنحت له خاطرة ملهمة لتيسير السرقة ثم لتيسير الهرب من الحراس، وليس هذا من الإلهام الرباني في شيء، وإنما يكون إلهام الله في سبيل الحقائق العليا والكشف عن الأسرار الروحية، والنفاذ الى لُباب الخَلق وبواطن الحكمة الإلهية، وهذه منزلة يرتقي إليها طلاب الوصول الى الله .

إن أشعر الشعراء طراً وأحكم الحكماء شعراً كما قال العقاد مبالغاً هو السيد أبو الفتح علي بن محمد البستي حيث قال :

زيادةُ المرءِ في دنياه نقصانُ ... وربحُه غير محضِ الخير فقدانُ
أَحْسِنْ الى الناس تَستعبدْ قلوبَهم ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
أَقبِلْ على النَّفْسِ واستكملْ فضائلَها ... فأنتَ بالنفسِ لابالجسمِ إنسانُ(١)

(١) مقال للعقاد:الرسالة (٦٧٩) للعام ١٩٤٦. قارن بما سبق من صراحة القرآن بإلهام الفجور ودلالته.

(فالذي يحصل لابطرق الإكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً، ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلُّم واجتهاد من العبد ينقسم الى مالا يدري العبد أنه كيف حصل له، ومن أين حصل، وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب . والأول يسمى إلهاماً ونفثاً في الروع، والثاني : يسمى وحياً وتختص به الأنبياء والأول يختص به الأولياء والأصفياء، والذي قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء)(١) .

ولذا يمكن تصنيف القلوب إلى : قلوب ملهمة، وقلوب متعلّمة كاسبة، ولكل منها درجات متفاوتة من الإلهام والتعليم . ومع اعتبار أن قلب الإنسان عموماً هو وعاء العلم والإرادة ويعدّ غاية درجة الإنسانية تحصيل العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فلابد أن يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها، وبشرف المعلومات وخستها، وبطريق تحصيلها، إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول، وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقي فيه غير محصورة، إذ معلومات الله سبحانه لانهاية لها، وأقصى الرّتب رتبة النبي التي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، بل بكشف إلهي في أسرع وقت .... كما أنّا نؤمن بالنبوة والنبي، ونصدّق بوجوده، ولكن لايعرف حقيقة النبوة إلاّ النبي(٢) .

والأنبياء يتوجّهون إلى ذلك الأفق (الملائكي الأعلى) بذلك النوع من الانسلاخ (من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها) متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولاصناعة. إن تفاوت الإلهام بين فرد وآخر ينبئ عن تفاوت الأجهزة التي تحمل هذه القدرة

---

(١) الغزالي الإحياء ٤٣،٣٢/٨ .

(٢) ابن خلدون المقدمة ١٥٨/١ .

مثل اختلاف الإحساس المادي بالأشياء الخارجية، فقد اعتبر العلماء أن القلب موئل الإلهام الذي لابدّ أن يتفاوت من إنسان لآخر ومن إنسان عادي الى نبيٍّ مُرسَل . يقول الغزالي(١):

واعلم أنه ما من أحد إلاّ ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم وبيان الحق على سبيل الإلهام، وذلك لايدخل عن طريق الحواس بل يدخل في القلب لايعرف من أين جاء، لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم ـ عالم الملك ـ فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغاً من شغل الحواس .

وإذا لم يقصد الغزالي بالقلب العضلة الصنوبرية الدقّاقة كما صرّح في بعض الأماكن فإن المقصود هو القوة المعنوية الاستشفافية لتلقي الفيوضات الإلهية بالروحانية التي أودعها الله في كل نفس صافية وقلب طهور، فالقلب هو (حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة) . وهذا حاصل أو يمكن حصوله مع جميع الناس الذين تتحقق فيهم هذه الاستقبالية المتميزة، وكما أن الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءاً من النبوة فإن صلاحية (الاستقبالية) فطرة لكل إنسان مهما تدنّت درجته في الفلسفة والحكمة لاينفكّ عنها، ومن ثم فإنها تتصاعد وترقى في سُلّمها حتى تكتمل في نفسه وسلوكياته، فالإلهام بداية واستكمالاً مَلَكة وقدرة في مَلَكة يوهب بعض الناس شيئاً من فضلها ويستكملها آخرون بالمعارف المتشعبة وبالتجارب المختلفة، ولذا تقتصر النبوة على أولئك المصطفين الأخيار الذين يتفوقون بإلهاماتهم ويبزون الفلاسفة لامن حيث طبائعهم وذواتهم وحسب وإنما من حيث الاتصال بالوحي الإلهي والعلوم الربانية اللّدنّية التي خصّهم الله بها، ولذا صح القول : إن كل نبي ملهم وليس كل ملهم نبياً .

وتتضح هذه المسألة بمايلي : إن الإلهام النبوي ومثله الحكمة يمنح معرفة شخصية ودينية ودنيوية، وهو طريق يقينية مؤيدة بالوحي الظاهر والخفي ومعتمد على الله الموحي، والإلهام العام يمنح معرفة شخصية ودنيوية وحسب وهو طريق ظنيّة للوصول الى لمعات متميزة عن عادة الناس وتصرف متخير عن التصرفات البشرية . فالإلهام النبوي نابع من الوحي الإلهي

---

(١) المنقذ ٨٥ و ١٢٥ .

ومن ذاتية النبي وتجاربه، والإلهام العام نابع من ذاتية صاحبها ومن تجاربه التي قد تتعرض للخطأ والنقص، أو للصواب وللاكتمال، بحيث قد يكون ثمة الأصح والأكمل . ومشكلة الإلهام العام هي في تجاوز صاحبه حدوده البشرية الى حدود النبوّات فيدّعونها أو الإلهيات فيتطاولون عليها، ولكن الإلهام العام الحق هو في الإبداع المتفوق في المقاييس البشرية العادية حيث يغذي صاحبه بعطاءات النبوة والألوهية الحقة . وهكذا يمكن أن يزداد عدد الملهمين والحكماء وعطاءاتهم المتفوقة، ويتضاءل أو ينعدم عدد المتنبئين والمشعوذين والمتألهين في حضارة الإسلام .

ثانياً : الحكمة والنبوة :

(كل نبي حكيم وليس كل حكيم نبياً)

في النبوة حكمة وإلاّ لما كانت نبوة، والنبي حكيم وإلاّ لما أُوتي حكمة النبوة ولما كان نبياً، وحكمة النبوة ذات جانبين : في تلبية حاجات الناس وافتقارهم الى صلاحها وإصلاحها، وفي المضمون الحكيم القادر على هذه التلبية الحاجية في الوجود الإنساني، ثم في الأداء الحكيم الذي يشدّ الناس إليها فيغيرهم من حال الى حال ومن وضع إلى آخر . وهي حكمة فطرية اختار الله رسوله لها ، لايمكن أن تكون لإنسان آخر وتظهر في القول والفعل والعلاقات، وحكمة مكتسبة عن طريق التعلم والوحي الإلهي، وإكسابية عن طريق البيان والتبليغ وتعليمها للناس، وفي هذا التركيب الحكمي المتلاحم المتشابك يستحق النبي به حكمة الله التي تجد موئلها ومستقرّها عند النبي الحكيم . وهو تركيب تتضاءل أمامه الفلسفة مهما تشعبت أبعادها وامتدت آفاقها وتعمقت جذورها وأصولها، وإذا أضفنا إلى ذلك معية الله للنّبي ومصدريته للحكمة فإن تحرر النبوة من تخبط الضلال ومتاهات الفساد تجعله في أكمل كمالات الحكمة وأشرف شرفها .

وكان أبو سليمان (المنطقي السجستاني ـ محمد بن بهرام ـ) يقول : ... صاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببحثه، والأول مكفيّ، والثاني : كادح، وهذا يقول : أمرت وعُلِّمت، وقيل لي، وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي، وهذا يقول : رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت، وهذا يقول :

نور العقل أهتدي به، وهذا يقول : معي نور خالق العقل أمشي بضيائه، وهذا يقول : قال الله وقال (المَلَك) وهذا يقول : قال أفلاطون وسقراط(١) .

ـ **النبوة : إعداد وإمداد** : فهي إعداد خاص واصطفاء معين بدني وعقلي وسلوكي وفق الحكمة الإلهية يهيء الله له وسائله لكمال الحقيقة النبوية ﴿اللهُ يَصطفي مِنَ الملائِكةِ رُسلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج ٧٥) وهذا الإعداد غير كافٍ فلا بدّ له من الإمداد بالوحي والمعجزات المتضمنين حكمة الله، والهادفين الى تحقيق هذه الحكمة .

ويفلسف الرازي وغيره هذا الإعداد بوجود خواصّ نبوية ثلاث :

أحدها في قوته العاقلة وهو أن يكون كثير المقدمات، سريع الانتقال منها الى المطالب من غير غلط وخطأ يقع له فيها . وثانيها : في قوته المتخيلة وهو أن يرى في حال يقظته ملائكة الله تعالى، ويسمع كلام الله، ويكون مخبراً عن المغيبات الكائنة والماضية والتي ستكون(٢) .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، وله عثرات .

(٢) فسّر الفلاسفة والمعجبون الخيال بمعانٍ عديدة، فهو :

قوة للنفس تحفظ مايدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غياب المادة .

والتخيل : ١ـ قوة مصورة، أو قوة ممثلة تريك صور الأشياء الغائبة فيتخيل لك أنها حاضرة وتسمى هذه القوة بالمصورة . وهي كما قال ابن سينا : تحفظ ما قبله الحس المشترك من الحواس الجزئية الخمس وتبقى فيه بعد غيبة المحسوسات (النجاة ص ٣٦٦) ... وعرفه مجمع اللغة العربية : تأليف صور ذهنية تحاكي ظواهر الطبيعة وإن لم تعبر عن شيء حقيقي موجود .

٢ـ تخيل الشيء : اخترعه وابتدعه كما في التخيل المبدع، وهو قوة تتصرف في الصور الذهنية بالتركيب والتحليل والزيادة والنقص (مج)، وتسمى هذه القوة بالمخيلة أوالمتخيلة . قال الفارابي : القوة المتخيلة حاكمة على المحسوسات، ومتحكمة عليها، وذلك أنها تفرد بعضها عن بعض، وتركب بعضها الى بعض تركيبات مختلفة، يتفق في بعضها أن تكون موافقة لما حسّ، وفي بعضها أن تكون مخالفة للمحسوس (المدينة الفاضلة ص ٧١ـ٧٢) .

٣ـ هذا الاختلاف في معاني التخيل (وغيره) جعل أحد الفلاسفة المعاصرين يقول : إن هذا اللفظ على ضرورته للغة يجب أن يحذف من قاموس الفلسفة لكثرة معانيه الخالية من الدقة والضبط،

وثالثها : أن تكون نفسه متصرفة في مادة هذا العالم فيقلِب العصا ثعباناً والماء دماً، يبرئ الأكمه والأبرص إلى غير ذلك من المعجزات(١) ، ويلاحظ أمور :

١- يفلسف الرازي وغيره خصائص النبوة على (طريقة) الفلاسفة محاولين تطبيقها على شخصية الرسول المتميزة عن شخصية الحكيم أو الفيلسوف، وإن تكن طريقة مهذبة خالية من الألفاظ الفلسفية المحضة .

٢- القوى العاقلة والمتخيلة والمتصرفة مجهولة الكُنْهِ والحقيقة وإن تبدّى بعض آثارها ومظاهرها التي يمكن أن تنضد في سلك الحكمة النبوية الخاصة .

٣- في القوة المتخيلة يستطيع النبي سماع كلام الله والإخبار عن المغيبات كما جاء سابقاً، وهذه القوة وإن اختلف المعجميون في تفسيرها وفي وظيفتها وعملها، فمن المشهور أن النبي كان يسمع كلام الله بطريق جبريل الأمين، وأن الله قد يخصّ بعض مغيباته من رضي من رسله (الجن ٢٧) .

٤- المعجزة أمر خارق للعادة يؤيد الله بها رسله بالتصديق وليست باختيار النبي ولاقدرته وإذنه، وإنما هي بمشيئة الله وقدرته كما صرّح القرآن به كثيراً وكما صرح الرسل أنفسهم وبخاصة عيسى عليه السلام حيث يعلن الربانية في كل واقعة معجزة، بينما نسب الرازي خاصة النبي الى قدرته وحده على التصرف في مادة هذا العالم .

وسبق الفارابي الى بيان كيفية اتصال النبي وغيره بالعقل الفعّال هو الله (على حد زعمه) فذكر : الاتصال بالعقل الفعال ميسور من طريقين : طريق العقل، وطريق المخيلة، أو طريق

فلنسمّ التخيل التمثيلي بالمصوّرة، والتخيل المبدع بالاختراع، والتخيل الوهمي بالتوهم (المعجم الفلسفي د/صليبا) .

(١) المباحث المشرقية ٥٥٧/٢ وواضح أنه يعتمد على نقل حرفي مما قاله ابن سينا في النجاة وفي الشفاء - الإلهيات ٤٤١/٢-٤٤٢ المعلق بينما تناولها علماء منهم الجويني في (الإرشاد ٢٥٧) والغزالي في (الاقتصاد في الاعتقاد ١٢١-١٢٥) ، والبغدادي في (أصول الدين ١٥٤) وأبو يعلى الحنبلي في (المعتمد في أصول الدين ص١٥٣-١٥٤)، وابن حزم في الفصل في الملل والنحل ١٣٩/١ ، والباجوري في جوهرة التوحيد ٢٧٠-٢٧٢ ، وانظر أيضاً كتاب لمع الأدلة للجويني في شروط المعجزة والرسالة والنبوة ص ١١٠ .

التأمل وطريق الإلهام، فالحكيم يتصل عن طريق العقل والدراسات العقلية النظرية، والنبي يتصل عن طريق المخيلة، والوحي المنزل أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها وقد تحصل بالرؤية الصادقة وبالوحي، وميزة النبي في رأي الفارابي أن تكون له مخيلة قوية تمكّنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة وفي حال النوم، وبهذه المخيلة يصل الى مايصل إليه من إدراكات وحقائق تظهر على صورة الوحي أو الرؤيا الصادقة، وليس شيئاً آخر سوى فيض من الله عن طريق العقل الفعال، وهناك أشخاص قويو المخيلة ولكنهم دون الأنبياء فلا يتصلون بالعقل الفعال إلاّ في حالة النوم، وقد يعزّ عليهم أن يُعربوا عما وقفوا عليه، أما العامة والدهماء فمخيلتهم ضعيفة هزيلة لاتسمو الى درجة الاتصال هذه لا في الليل ولا في النهار . يقول الفارابي : ودون الأنبياء من يرى بعض الصور الشريفة في يقظته وبعضها في نومه، ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء ولكن لايراها ببصره، ودون هذا من يرى جميع هذه في نومه فقط(١) .

ويمكن الاعتراض على رأي الفارابي إضافة لما سبق، بمايلي :

١- العقل الفعال مصطلح فلسفي قديم ليس له صلة بالأصول التراثية ومنها القرآن والسنة وكتب الحكمة الأقدم، والواضح أن العقل الفعال عنده قوة معنوية ملهمة، أعظم من قوة العقل التأمّلية، وهي أقدر على الاتصال بالله .

٢- ونظرية الفيض الإلهي لتصوير الوحي يونانية هندية صوفية، وهي مرفوضة في التفكير الإسلامي الأصيل، وكانت ذات أثر سلبي في حكمة المسلمين وفلسفتهم فيما بعد، بالإضافة الى تأثّر الصوفية بها والتي اختلطت بأطراف نظريات الإشراق والكشف ...

٣- لم يستوعب طرق الوحي الواردة في القرآن جميعها مثل : اتصال الرسول بأمين الوحي جبريل عليه السلام الثابت بالسنّة الصحيحة المتواترة معنى أيضاً .

---

(١) المدينة الفاضلة ٥١ نقلاً من كتاب : في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيق د/ إبراهيم مدكور.

٤ـ وعلى الرغم مما حاوله الفارابي من رفع مرتبة النبي فوق مرتبة الحكيم ومن سواه فإنه سوّى بين الحكيم والنبي في القدرة على الاتصال بالعقل الفعال وإن اختلفت الوسائط، وهي مساواة مرفوضة بوسائل ووسائط غير يقينية .

ـ فـ (الحكمة الذاتية) للنبي والفيلسوف تجعل من النبي نبياً حكيماً، ومن الفيلسوف فيلسوفاً وحكيماً، وإن أعظم حِكَم الأنبياء هي نبوتهم التي تكمن في طبائعهم المختارة، وهي حكمة ذاتية متأصّلة في شخصية النبي التي توسعت في كنف الله وهي غير المتأصلة في شخصية الحكيم التي ربما توسعت في التجربة والثقافة.وإذا فضّل الله بعض الأنبياء على بعض بصفات معنوية وحسية ودعوية طبقاً لقوله﴿تلكَ الرُّسلُ فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ ﴾(البقرة ٢٥٣) مع أنهم جميعاً مشتركون في الوحي الإلهي الواحد فإن من المعقول والمأثور أن يفضل الأنبياء على الفلاسفة بالنحيزة الخاصة والطبيعة الموهوبة والذاتية القادرة مع ما يضاف لها من معارف وتجارب إلهية ووضعية، وهذا ينطبق على الحكماء الذين يدينون بشريعة صحيحة ويلتزمون بها ويقتدون بفضائلها، أو يوفّقون بينها وبين شرائعهم في حالات التعارض الظاهري، وعندئذ يكون الدّين أعظم روافد الحكمة العامة وتكون الحكمة أرحب منابع التدين وألصقها بالمستويات الحياتية والوجودية المتشعبة. ولذا نجد حرص كثير من حكماء الإسلام على ضرورة تعانقهما وتآزرهما والارتواء من منابعهما بحيث ينكرون وأحياناً يشدّدون النكير على أولئك المفرّقين بين الدين والحكمة والمعارضين بينهما، بينما نجد آخرين يعتبرون (الشريعة الفلسفة الكبرى) ليس بالوصف وحده وإنما بالعمل والالتزام أيضاً.

ويفاضل العلماء الحكمة الذاتية بين الأنبياء والحكماء بدرجات متفاوتة، يقول الرازي: أما الحكمة وهي إحدى صفات النفس الشريفة، فهي إما أن تكون غريزية أومكتسبة، فالحكمة الغريزية هي كون النفس صادقة الأحكام في القضايا الفطرية، وهذه الحكمة الغريزية هي الاستعداد الأول لاكتساب الحكمة المكتسبة، وللنفوس تفاوت فيها حتى إن البالغ فيها الى الدرجة العالية هو النفس القُدسية النبوية، وتقابلها النفس البهيمية التي لاتنتفع بتنبيه منبِّه

وتعليم معلّم(١) . وأضيف أن أهمية الحكمة المكتسبة هي شطر الحكمة النبوية العامة، وتتمثل في الرسالة الإلهية الحكيمة التي بها وحدها يكون الإنسان نبياً كريماً وتصير النفس بها رسولاً حكيماً .

ـ والحكمة الذاتية المشتركة أصلاً المتفاوتة كيفاً وتعلقاً تقتضي : أن تختلف طرق المعرفة بين النبي والحكيم، فالوسيلة العظمى للنبي هي المعرفة القلبية العقلية، والوسيلة الفعّالة للحكيم هي المعرفة عن طريق الحواس التي قد يتأثر العقل بها شدة وضعفاً، محدودية ولامحدودية، والحالة (الانكشافية) و (الملكوتية) للنبي تمر به مما لايمكن شرحه ولاوصفه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (زويتْ لي الأرضُ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها) (أحمد ٢٧٨/٥) . كما أشار الى ذلك الغزالي في قوله تعالى ﴿وكذلكَ نُري إبراهيمَ مَلكوتَ السّمواتِ والأرضِ﴾ (الأنعام ٧٥) ويعللها : لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق لا من طريق الحواس، كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿واذْكُرِ اسْمَ رَبّكَ وتَبتّلْ إليهِ تبتيلاً﴾ (المزمل ٨) معناه الانقطاع من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكليّة ... وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحقّ كما قال سبحانه ﴿وآتيناهُ رحمةً مِن عندِنَا وعلّمناهُ مِن لَدنّا عِلما﴾) (الكهف ٦٥) وهذه الطريقة لاتُفهم إلاّ بالتجربة (الذوقية) ، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل (بالتعليم) . وهذا يجعل الأنبياء يفضلون بزيادات خاصة مثل : اتصالهم بأمين الوحي أو تكليم الله لهم، أو من وراء حجاب، حتى يستكمل وسائل الوحي جميعاً، فيختصون بها دون سائر الفلاسفة والحكماء ولذا صحَّ القول : إنَّ كلّ نبيٍّ حكيم وليس كلّ حكيم نبياً .

ومادام الاتصال بالوحي غير خاضع للحسّ وللعقل وهو وراءهما فإن التصديق به حسي وعقلي وخارج عن الحسّ وعن العقل معاً، فهو على الرغم من أن ثبوته قطعي يقيني فإن آليته غير محسوسة ولاعقلية، و (في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لايدركها

---

(١) الرازي :المباحث المشرقية ٢/٤٢٤ـ٤٢٥ .

العقل وهو المراد بالنبوة، لا أنّ النبوة عبارة عنها فقط، بـل إدراك هـذا الجنس الخارج عـن مدركات العقل إحدى خواص النبـوة ...) (فالأنبيـاء أطبـاء أمـراض القلـوب وإنما فـائدة العقل وتصرفه أن عرّفنا ذلك، ويشهد للنبوة بـالتصديق ولنفسـه بـالعجز عـن درك مـايدرك بعين النبوة ...) . والرّدع الديني أقوى من الرّدع الفلسفي في الإطار الرحـب لهـدف النبـوة في الإصلاح والتغيير، وهو في أصله النبوي الأقوى والأكثر تغلغلاً وعمقـاً والأوفـى مـن أيّ ردع آخر، فهو يقصد به النبي قبل غيره كما يقصد به تحرير الواقـع المريـض وإقامـة المجتمـع الصالح، وكثيراً ما يتمحّك الحكيم أو الفيلسوف حكماً أو تزييفات في صور حكم ... ولذا فربما (ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظّم الشريعة بلسـانه ولكنه مع ذلك لايترك شرب الخمر وأنواعاً من الفسوق والفجور، وإذا قيل له : إذا كـانت النبوة غير صحيحية فلمَ تصلي؟ فربما يقول : لرياضة الجسد ولعادة أهل البلـد وحفـظ المـال والولد، وربما قال : الشريعة صحيحة والنبوة حق، فيقال : فلم تشرب الخمر؟ فيقـول : إنما نُهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك، وإني أقصـد بـه تشحيذ خاطري، حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له، كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى علـى كذا وكذا، وأن يعظّم الأوضاع الشرعية، ولايقصّر في العبادات الدينية، ولايشرب تلهّياً بل تداوياً وتشافياً، فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شُرب الخمـر لغرض التشافي، فهذا إيمان من يدّعي الإيمان منهم ..)[1] . فحكمة الحكيم مزاجيـة تأويليـة أحياناً، يصعب أن تتحرر حتى تصبـح حكمـة خالصـة، بينمـا تكـون حكمـة النبـوة عمليـة واقعيّة حاجيّة، وليست مما يقيمه الفلاسفة من عالم التصورات والتخيلات والشـطحات ... وهو فرق عمليّ كبير . وهكذا فإنّ الحكمة النبوية أحكم مصدراً وأوسع مجالاً وألصق بواقع الناس وحاجاتهم، وأصدق مصداقيّة، وأعمق صلة وشمـولاً وتربيـة، وأخلـق بـالعمل بهـا في مختلف الأحوال ﴿وَمَن أَحْسَنُ منَ اللهِ حُكْماً لقومٍ يُوقنون﴾ (المائدة ٥٠) .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) الكلام بين المعقوفات للغزالي في : المنقذ ٨١، ٩٠، ٩١، ١٢٧ .

المـــوضـــوعـــــات

القرآن الحكيمُ .... ولماذا ؟ (المواقع والتعليقات)

الحكْم بمعنى الحكمة والسياسة .... والقرآن

أحكم الحاكمين .... والقرآن

حكمة الأنبياء .... والقرآن

محمد صلى الله عليه وسلم رسول الحكمة ومعلّمها .... والقرآن

إنسانية الحكمة .... والقرآن

حكمة الاختبار .... والقرآن

الحكمة والتجربة والخبرة .... والقرآن

الحكمة والوسطية .... والقرآن

حكمة السخرية .... والقرآن

حكمة التعليل والسببية .... والقرآن

حكمة بالغة

الحكمة سبيل الى الحكمة

الحكمة والمستشرقون

القرآن الحكيم .... ولماذا ؟

مواقع الحكمة في القرآن وتعليقات العلماء

إنه الكتاب المعجز والكلام الحكيم المترابط عضوياً في سوره وآيه من حيث الصيغة اللفظية، والحكيم من حيث محتواه المعنوي الفكري، والمبدئي والدستوري، والحكيم من حيث تناسب الصيغ اللفظية مع المحتوى المعنوي، والحكيم من حيث منهجه التربوي الشامل والمتدرج من أعماق الذات الى تنظيم العلاقات الإنسانية، حكمة دنيوية ودينية وآخروية .

فهو حكيم :

- لأن (الحكمة) و (الحكْم) و (الحِكم) فيه صريحة وعديدة .
- ولأن مقاطعه ونصوصه فصل الخطاب بالحكمة وجوامع الكلم في المبنى والمعنى(١) .
- ولأن موضوعاته ومسائله وقضاياه حكيمة وجامعة على مدى الزمان وتفاوت العقول .
- ولأنه سجل الحكماء من الأنبياء وسائر الناس ما تشابهوا فيها وما افترقوا .
- ولأنه وصف نفسه بصفات الحكمة وأصرحها أنه كتابٌ حكيمٌ .
- ولأنه في منطوق الحكمة الصريح ومستنبطها نابع من الله المدبِّر الحق القيوم الحكيم .
- ولأنه حثَّ الناس عامة والمسلمين خاصّة على تعلّم الحكمة وتعليمها والاقتباس منها والانتفاع بها . فهو كلمة الله وبيانه الحكيم ووحيه الشامل لقضايا الدنيا والآخرة : ممكنها وواجبها ومستحيلها .

(هو الذّكْر الحكيمُ أي الحاكم لكم وعليكم، أو هو المُحكَم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، فعيل بمعنى مُفْعَل، أحكم فهو محكم، وفي حديث ابن عباس : قرأتُ المحكَم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد المفصَّل من القرآن لأنه لم ينسخ منه شيء، وقيل : ما لم

---

(١) يمكن اقتطاع نصوص حكيمة وفيرة من كل سورة .. انظر بعضها في كتابي :الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم .

يكن متشابهاً لأنه أحكمَ بيانه بنفسه و لم يفتقر الى غيره ...) وعن الأزهري في قولـه تعـالى: ﴿كتابٌ أُحْكِمتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلتْ منْ لدنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾ (هود ١) ، أُحكمت آياته بـالأمر والنهي والحلال والحرام، ثم فصِّلت بالوعد والوعيد ... أن آياته أحكمـت وفصلـت بجميـع مايحتاج إليه من الدلالة على توحيد الله وتثبيت نبوة الأنبياء وشرائع الإسلام، والدليل علـى ذلك قوله عز وجل : ﴿ما فرَّطْنا في الْكتابِ منْ شَيءٍ﴾ (الأنعام ٣٨)(١) .

وفي معجم ألفاظ القرآن :

الحكمةُ : تُطلق على كل ما يتحقـق فيـه الصـواب مـن القـول والعمـل، ... والحكيـمُ : ذو الحكمة أو من يُحْكم الأشياء ويتقنها، و الحكيم مـن صفـات الله تعـالى ... وإذا لم يصـفِ ا لله أحداً من مخلوقاته نبياً كان أو غيره (بالحكيم) صراحة فإنـه عـدّد هـذا الوصـف للقـرآن الكريم، وهذا متناسق مـع صفـة (الحكمـة) الواجبـة لله تعـالى، ومتناسـق مـع تدبـير الخلـق (الحكيم) فالقرآن حكيـم في المصـدر والمنهـج والغايـة والبيـان . عـن كعـب قـال : عليكـمْ بالقرآنِ فإنه فهمُ العقلِ ونورُ الحكمةِ وينابيعُ العلمِ وأحدثُ الكتبِ بالرَّحمن عهـداً (٢) وعـن علي يرفعه : ... ومن ابتغـى الهُـدى في غـيره أضلّـه اللهُ فهـو حبـلُ اللهِ المتـينُ وهـو الذّكـر الحكيمُ وهو الصِّراط المستقيمُ .... ، وفي رواية .. من ابتغَى الهُدى في غيرِه فقـد أضلَّـه اللهُ ومن وَلِي هذا الأمرَ من جبّـارٍ فحكـمَ بغـيرِه قصمَـهُ اللهُ، هـو الذّكـرُ الحكيـمُ والنّـور المبـينُ والصِّراطُ المستقيمُ(٢) .

العلماء وحكمة القرآن

تحدّث العلماء عن جانب أو جوانب من الحكمة : منهم مَن أَوجزَ ومنهم من فصّل، منهـم من فسَّر الماهية وحدها، ومنهم من قرَنَ معها المفسّر (الفهمَ) المصيب، منهم من اقتصر علـى الأصل العربي للحكمة ومنهم من استخدم معارفه الحكمية ...

عن إبراهيم في تفسير ﴿ومَن يُؤتَ الحِكْمةَ فَقَدْ أُوتيَ خيراً كثيراً﴾، قال : الفهم بالقرآن (٢)

---

(١) لسان العرب .

(٢) الدارمي : فضائل القرآن ٢/٢٣٤ـ٢٣٩ .

وعن مجاهد في قوله : ﴿يُؤتي الحِكمةَ منْ يشاءُ﴾ ، قال : الكتاب يؤتي إصابته من يشاء(١) حتى إن تعليم القرآن هو تعليم الحكمة الواقية من العذاب حيث تتخذ الوسائل الحكيمة الحاجزة عن الهلاك والتدمير .

فعن ثابت بن عجلان الأنصاري قال : يقال إن الله ليريدُ العذابَ بأهل الأرضِ فإذا سمع تعليمَ الصّبيان الحكمةَ صرفَ ذلك عنهمْ، قال مروان (شيخ الدارمي) يعني بالحكمة : القرآن(٢) .

ـ ويستوعب بعضُ العلماء أشهرَ معاني الحكمة ودلالاتها فيقول :

الحكمةُ هي العدل والعلم والحكم والنّبوة والقرآن والإنجيل، ووضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده، وأفعال الله كذلك لأنه يتصرف بمقتضى الملك فيفعل ما يشاء وافق غرضَ العباد أو لا .

وفي عُرف العلماء : هي استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملَكَة التّامة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها .

وقال بعضهم : الحكمة هي معرفة الحقائق على ما هي بقدر الاستطاعة، وهي العلم النافع المعبّر عنه بمعرفة مالها وما عليها المشار إليها بقوله تعالى : ﴿وَمن يُؤتَ الحِكْمةَ فقدْ أُوتيَ خيراً كثيراً﴾ (البقرة ٢٦٩) .

وصرَّح العلماء بوسطية الحكمة في الأمور بين الإفراط والتفريط .

وإفراطها : الجربزة : وهي استعمال الفكر فيما لاينبغي كالمتشابهات، وعلى وجه لاينبغي كمخالفة الشرائع .

وتفريطها : الغباوة التي هي تعطيل القوة الفكرية والوقوف على اكتساب العلم، وهذه الحكمة غير الحكمة التي هي العلم بالأمور التي وجودها من أفعالنا، بل هي ملَكَة تصدر منها أفعال متوسطة بين أفعال الجربزة والبلاهة .

(١،٢) الدارمي : فضائل القرآن ٢/٢٣٤ـ٢٣٩ .

وفي ﴿ويُعلِّمُهـمُ الكتـابَ والحِكْمـةَ﴾ (آل عمـران ١٦٤، والجمعـة ٢، والبقــرة ١٢٩) أي السنّة، ذكره قتادة، ووجه المناسبة أن الحكمــة تنتظـم العلـم والعمـل كمـا أن السـنّة تنتظـم القول والفعل.

﴿وما أنزلَ عليكُمْ منَ الكِتابِ والحِكْمةِ﴾ (البقرة ٢٣١) يعني : مواعظ القرآن .

﴿ولَقدْ آتينا لُقْمانَ الحِكْمةَ﴾ (لقمان١٢) يعني الفهم والعلم .

(فقَدْ آتينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكْمةَ﴾ (النساء ٥) يعني النبوة .

﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربّكَ بالحِكْمةِ﴾ (النحل ١٢٥) يعني بالقرآن .

وجميع هذه الوجوه عند التحقيق يرجع الى العلم .

وأكثر أهل العلم على أن الحكمة ليست للعلم المجرَّد، بـل للعلـم مـع زيـادة مبالغـة فيـه ، أو للعلم مع العمل، وأمر التقديم والتأخير بينهما إنما يكون بحسب اقتضاء المقـام . ففـي سـورة البقرة في قوله ﴿ سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لنَا إلاّ ما عَلَّمْتَنَا﴾ (البقرة ٣٢٠) قد وقع الكلام في العلم، وكذا في (الأنفال) في قوله : ﴿وإنْ يريدُوا خيانَتَك فقدْ خـانُوا اللّهَ مـنْ قبـلُ فـأَمْكَنَ منهـمْ واللّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ (الأنفال ٧١) فإن الكلام سبق في علم الله خيانة الخائنين، وكذلـك في (يوسف) في قوله ﴿ويعلِّمُكَ من تأْويلِ الأحاديثِ﴾ (يوسف ٦)، وأما في (الذّاريات) فـإن الآية سيقت لإظهار الحكمة، فإن إيتاء الولد للشيخ الهرم والمـرأة العقيـم(١) علـى مـا قـال في (هود) من باب الحكمة، فتقديمها في نحره ومقطعه، وفي إشـارة موفقـه للفـرق بـين الحكمـة والعلّة كما سيأتي تفصيله يقول : والحكمــة تُراعـى في الجنس لا في الأفـراد . فالحكمـة في فساد البيع بشرط لايقتضيه العقد، ولأحد العاقدين نفع لاحتمال النزاع، فلا ينقلب صحيحاً فيما إذا لم يوجد النزاع في بعض الأفراد، فحـقّ الفسـخ ثـابت لمـن لـه النّفـع . والحكمـة في

---

(١) انظر الآيات المتعلقة بهذا المعنى في (الذاريات ٢٤-٣٠) وفي (هود ٦٩-٧٣) .

حُرمة الخَمر البغضاء والصدود عن الصلاة، فلا عبرة بعدم وقوعها في بعض الأفراد، والحرمة ثابتة لكل أحد(١) .

ومع التفصيل السابق يفسّر بعض العلماء الحكمة حسب موقعها وسياقها ما يُعرف بالمعنى المراد، مما يدل على تعدّد معانيها ودلالاتها : وهو على خمسة وجوه(٢) .

الوجه الأول : الحكمة يعني السنّة التي في الأمر والنهي(٣) ، وذلك قوله في البقرة (٢٣١) ﴿ومَاأنزلَ عليكُمْ منَ الكِتابِ﴾ يعني القرآن، (والحكمة) يعني السنّة التي قي القرآن من الأمر والنهي، والحلال والحرام، وقوله في النساء (الآية ١١٣) ﴿وأَنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ﴾ يعني القرآن، (والحكمةَ) يعني السنّة من الحلال والحرام الذي في القرآن، وقال في البقرة (الآية ١٥١) (وَيعَلّمُكُم الكِتابَ﴾ القرآن (والحكمةَ) يعني السنّة التي في القرآن، وهو الحلال والحرام، مثلها في آل عمران(٤) (الآية ١٦٤) ومعناها كلّها السنّة، وهو تفسير قتادة: الكتاب : القرآن، والحكمة : السنّة .

والوجه الثاني : الحكمة يعني الفهم والعقل، وذلك قوله في سورة مريم ليحيى (الآية ١٢) ﴿وآتينَاهُ الحُكْمَ صَبيّاً﴾ يعني الفهم والعقل، وقال في لقمان ﴿ولَقدْ آيتنَا لُقمانَ الحِكْمةَ﴾ (لقمان ١٢) يعني الفهم والعقل، وقال في الأنعام (الآية ٨٩) ﴿أُولئِكَ الذِينَ آتينَاهُمُ الكِتابَ والحُكْمَ﴾ يعني الفهم والعقل . وقال في الأنبياء (الآية ٧٩) ﴿وكلاً آتينا حُكْماً وعِلْماً) يعني

---

(١) الكليات : الكفوي أبو البقاء بن موسى ص٣٨٢، ومن الملاحظ أنه لم يستوف مواقع الحكمة جميعها فقد أغفل الحكمة المتعلقة بالأنبياء : موسى ويحيى وداود وعيسى، وغير الأنبياء : لقمان كما أنه لم يذكر اللفظة المرادفة وهي (الحكم) بمعنى الحكمة .

(٢) من كتاب : التصاريف . تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ص ٢٠١ـ٢٠٢ يحيى بن سلام، قدمت له وحققته هند شلبي ـ الشركة التونسية للتوزيع .

(٣) ورد في كتاب مقاتل : الحكمة يعني المواعظ التي في القرآن من الأمر والنهي، ص١١١ .

(٤) وهي .... ويعلمهم الكتاب والحكمة ... جاء في كتاب مقاتل الاستشهاد بالآية ٨٤ وهي : ويعلمه الكتاب والحكمة، وتتعلق بعيسى، والاستشهاد بالآية ١٦٤ أصح لأنها تتعلق بمن آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم ، انظر الكشاف للزمخشري .

الفهم والعقل . ونظيرها قوله ليوسف وموسى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ عشرين سنة ﴿آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً﴾ (يوسف : ٢٢ والقصص : ١٤) يعني عقلاً وفهماً .

الوجه الثالث : الحكمة النبوة، وذلك قوله في (النساء ٥٤) ﴿فقَدْ آتينَا آلَ إبراهيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة، وقال لداود في (البقرة ٢٥١) ﴿وآتَاهُ اللهُ المُلكَ والحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة وعلم القضاء .

والوجه الرابع : الحكمة يعني القرآن ظاهراً وعلم التفسير، وذلك قوله في (البقرة ٢٦٩) ﴿ومَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ﴾ يعني العلم بما في القرآن وقراءته ظاهراً ﴿فَقدْ أُوتيَ خَيراً كثيراً﴾(١) .

والوجه الخامس : الحكمة يعني القرآن، وذلك قوله في سورة (النحل ١٢٥) ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ﴾ يعني القرآن .

وقال بعض أهل العلم، يتابع معاني الحكمة ويزيد عليها وجوهاً أخرى مبتدئاً بإيراد المعنى العام ثم المعاني القرآنية(٢) .

الحكمة : ضربٌ من العلم يمنع من ركوب الباطل . وقال غيره : الحكمة : خروج نفس الإنسان الى كمالها الممكن لها في حدَّي العلم والعمل، فحينئذ تنال الخُلُق الذي يسمى العدالة، وسُمّيت حكَمَةَ الدّابة بذلك لأنها تمنعها من التصرف بما لايريد راكبها . كما أن الحكمة تمنع صاحبها من ركوب ما لايصلح .

وقال ابن قتيبة في (تفسير غريب القرآن) : الحكمة : العلم والعمل، لايكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما .

---

(١) وقال قتادة : الحكمة : الفقه في القرآن، وانظر الرازي عند تفسير (البقرة ٢٣١) فقد ساق أربعة أوجه (لمقاتل) في الحكمة، مع ملاحظة أن المؤلف فاته تفسير الحكمة في (البقرة ١٢٩) و(آل عمران ٨١،٢٤٨) و (المائدة ١١٠) و (الإسراء ٣٩) و (الأحزاب ٣٤) و (ص ٢٠) و (الزخرف ٦٣) و (الجمعة ٢) وحكمة بالغة (القمر ٥) ولم تُشر المحققة الى ذلك .

(٢) نزهة الأعين والنواضر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي (ت ٥٩٧)ق محمد عبد الكريم كاظم الرافعي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م .

وذكر أهل التفسير أن الحكمة في القرآن على ستة أوجه :

أحدها : الموعظة ومنه قوله تعالى في (القمر ٥) : ﴿حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرِ﴾ .

والثاني : السنّة، ومنه قوله تعالى في (البقرة ١٥١) ﴿ويُعلِّمُكمُ الكِتابَ والحكمةَ﴾ .

والثالث : الفهم ومنه قوله تعالى في (الأنعام ٨٩) ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتينَاهُمُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنّبوةَ﴾ وفي (مريم ١٢) ﴿وآتيناهُ الحُكْمَ صَبيّاً﴾ ، وفي (الأنبياء ٧٩) ﴿وَكُلاًّ آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً﴾ ، وفي (لقمان ١٢) ﴿وَلَقدْ آتينا لُقْمانَ الحِكْمَةَ﴾ .

الرابع : النبوة ومنه قوله تعالى في (البقرة ٢٥١) ﴿وآتَاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ﴾ وفي (ص ٢٠) ﴿وآيتنَاهُ الحِكْمةَ وفَصْلَ الخِطابِ﴾ .

والخامس : القرآن ومنه قوله تعالى في (النحل ١٢٥) ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ﴾ .

والسادس : علوم القرآن، ومنه قوله تعالى في (البقرة ٢٦٩) ﴿يُؤتِي الحِكْمةَ مَنْ يشاءُ﴾(١).

وجاء بعد هذه الآية من نسخة الأصل ما نصّه (في الحاشية) :

وفي هذه الآية للمفسرين سبعة اقوال :

أحدها : أن المراد بها القرآن، قاله : ابن مسعود .

الثاني : علوُّ القرآن ناسخه ومنسوخه ومُحكمه ومتشابهه ونحو ذلك، قاله ابن عباس .

والثالث : النبوة ورُوي عن ابن عباس أيضاً وأسباط والسّدي .

والرابع : الفقه والعلم : رواه ليث عن مجاهد .

والسادس : الخيبة لله، قاله الربيع عن أنس .

والسابع : العقل في الدّين، قاله ابن زيد .

بينما تتجه دراسات حديثة أو معاصرة الى التصنيف الموضوعي ضمن إطار (فلسفة المعرفة) في القرآن الكريم .

---

(١) وانظر (الحكمة) أيضاً في : قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم : الدامغاني فهو أقرب الى التصاريف نقلاً .

فقد نبّه اللهُ الى أن في الإنسان نوعاً من المواهب الخفيــة غـير الحـواسّ الظـاهرة وغـير العقـل المفكر، وسُمّيت هذه المواهب باسم (الحكمة) وهي التي يعبّر عنها الصوفيون باسم (البصيرة الملهمة)، والتي يسميها الفلاسفة المحدثون باسم (الحـدس) وهـي تـدرك مـا لايدركـه العقـل والحواس معاً، وتتناول ماوراء المعلوم أو ماوراء الواقع الملموس، ولقد منَّ الله بهـذه الحاسـة الخفية أو الموهبة المميزة على عباده المقربين فقال تعالى ﴿يُؤْتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ومَـنْ يُـؤتَ الحِكْمَةَ فَقدْ أُوتِيَ خَيراً كَثيراً وما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُو الألبَابِ﴾ (البقرة ٢٦٩) . وعن لقمان وفي شأن يوسف وفي موسى وفي الرسل والأنبياء (لقمان ١٢) و (يوسف ٢٢) و(القصص ١٤) و(الجمعة ٢٩)(١) ، وكما يسميها الله بالحكمة يميّزها بأنها فارقة بين الحقّ والبـاطل ويطلـق عليها اسم الفرقان ﴿يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُـوا إنْ تَتقُـوا اللهَ يَجعَـلْ لكُـمْ فُرْقَانـاً﴾ (الأنفـال ٢٩) ويسميها أحياناً بالنّور لأنها تضيء الطريق أمام المؤمنين فيقول ﴿يا أَيُّهــا الّذيـنَ آمَنُـوا اتّقُـوا اللهَ وآمِنُوا برَسولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحمَتِه ويجعلْ لَكمْ نُـوراً تمشُـونَ بـهِ ويَغْفِـرْ لَكـمْ واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ (الحديد ٢٨) وهذه الموهبة الخفيّة هبة من الله وحده يختصّ بها من يشاء مـن عباده ﴿واللهُ يَختصُّ برَحمَتِهِ مَـن يشـاءُ واللهُ ذو الْفَضْـلِ العَظِيـمِ﴾ (البقـرة١٠٥) ﴿وَمَـن لَمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً فَمَا لهُ مِن نُورٍ﴾ (النور ٤٠) .

وتهمل دراسات معاصرة المصطلح القرآني الصريح (الحكمة) في مفارقة منهجيـة عجيبـة الى المصطلح اليوناني (الفلسفة) ومن ثم تطرحها على تفسير حقائق القـرآن وحكمـه، في تغيير لامبرر له .

إن كانت الفلسفة هي المعرفة الحقّة لله والكون السماوي والأرض والإنسـان، أو هـي نظـر العقل في تفكيره الذي يراد به معرفة حقائق الوجود في العالم الأكبر المحيط بالإنسان، والعالم الأصغر الذي هو الإنسان والمبدأ الأول لذلك كلّه، نقول إذا كان هذا هو تعريـف الفلسـفة والغاية التي تهدف إليها، فهل في القرآن فلسفة ؟ ...

---

(١) من كتاب : فلسفة المعرفة في القرآن الكريم: علي عبد العظيم . من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية (٦٥) ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م ، مع ملاحظة أن الآيات الواردة سابقاً ذُكرت بنصها .

إن القرآن باعتباره كتاب الدِّين الذي هو خاتم الأديان، وأن الغاية منه هو هداية البشر كافة وتعريفهم الحقّ فيما يختلفون فيه، يجب أن يكون قد احتوى أصول (الفلسفة) الصحيحة على اختلاف ضروبها وأقسامها .

ولأن القرآن قد بيّن الحقّ في مشاكل الألوهية والطبيعة نرى المسلمين في فجر الإسلام لم تكن الغاية من تفكيرهم النظري البحث عن الحقيقة في هذه النواحي كما كان ذلك غاية تفكير غيرهم من المتفلسفين من أبناء الأمم الأخرى(١) . ومن آخر هذه الدراسات ولكن بالمنهج الموسوعي في اختزال مخلٍّ فقرةٌ يضعف فيها الجهد الدرسي العلمي حيث وقعت ضمن فقرات كثيرة أوعب منها وأشمل متجاوزة العمق البحثي الذي تستحقه (الحكمة) في القرآن الكريم في المتابعة العددية وفي الفهم الأصيل والمراد منها، فقد جاء في :

الحكمة في القرآن والقطاع التفسيري :

هنا تعني الحكمة التعقل، والعلم، والخير الكثير . إنها العقل والخير معاً، هي الخير الأسمى الذي يجمع الفضيلة والمعرفة في آنٍ ، وهنا تشمل الحكمة، في القرآن وتفسيراته التاريخية، القواعد السلوكية الموافقة لأوامر الدين ونواهيه، معرفة وتطبيقاً خاضعين لمعايير الشريعة وقيمها . بذلك تكون الحكمة الفقه أو "تعلم الحلال والحرام" ، والعلم الديني أو المتوافق مع الدين، ذلك أن حكمة ترد مع كلمة كتاب (القرآن،٢ :١٢٩ و ١٥١ و ٢٣١؛ ٣:٤٨ و ٨١ إلخ) ، وتتجاور مع "الموعظة الحسنة" ، و" فصل الخطاب" . ثم أنها ترد أيضاً في سياق تبيان " بعض الذي تختلفون فيه"، وترتبط بالكتاب وبالتوراة والإنجيل، وبآيات الله، وبما "لم تكن تعلم" والتعليم، وبالملك، والخير الكثير (راجع، عبد الباقي؛ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة : ح ك م). وقد ألهمت هذه الدلالات النظر المتدين في الفكر العربي، ورسمت له خطوط مجاله(٢) .

---

(١) من كتاب : القرآن والفلسفة د/محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر .

(٢) الموسوعة الفلسفية : علي زيور .

مجالان في تصنيف الحكمة القرآنية

ويمكن أن نصنّف مواقع الحكمة القرآنية في مجالين متداخلين .

ـ **سياقات الحكمة ودلالاتها العامة** : وهي دلالات على شمولية الحكمة وجامعيتها، فهي في أنقى الإلهيات والسلوكيات وأقومها وأخلصها من تبعية الأهواء، ودلالات على أنها هبة يؤتيها الله خاصّته، ومادة علمية تعليمية من مهمات الأنبياء وبخاصة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأسلوب قويم ناجح في الإصلاح . بعيدةً عن مغالاة الفلاسفة وتأويلاتهم، لأنها مقترنة بنزول الكتب السماوية، وليست طبقية أو عنصرية يتبجح بها قوم دون آخرين، فقد استوفت سورة البقرة مجالات كبرى للحكمة، يتركّز معظمها في إطار التعليم منبهة الى ضرورة استبيان أسرار الأشياء بالاستناد الى العلم الصحيح، وتوضح الصّلة الفكرية الوثقى بين إبراهيم وحفيده محمد عليهما السلام في صورة دعاء مستجاب (البقرة ١٢٩،١٥١) وذلك لتثبيت النبوة المحمدية . قال ابن كثير وابن الجوزي : الحكمة هي السنّة . وقال الرازي : هي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها، لذلك قال الشافعي : الحكمة هي سنة الرسول عليه السلام . وهي إذ تؤكد هذه النبوة في آية (الجمعة ٢) فإنّ مفّردات الحكمة تذكّر بأسرار الحياة الزوجية وآدابها بخاصة ما يتصل بآداب الطلاق (البقرة ٢٣١) حيث تنبه الى ضرورة الكشف عن أسرار المسائل التشريعية عموماً . ولذا قال ابن الجوزي : الحكمة : الفقه، أما ابن كثير والزمخشري فاتفقا على أن الحكمة هنا هي السنة . وفي الصراع الذي دار بين داود عليه السلام وجالوت وانتصاره عليه صرحت آية البقرة (٢٥١) بالعطاء الإلهي لداود حتى كان من حكماء القرآن، وفسرت الحكمة : بالزبور المشتمل على أسرار الشريعة كما نقل ابن الجوزي في أحد القولين، ونقل عن ابن عباس أنها النبوة، واعتمدها الزمخشري . وقال الرازي : الحكمة هي وضع الأمور مواضعها على الصواب والصلاح، وكمال هذا المعنى إنما يحصل بالنبوة، فلا يبعد أن يكون المراد بالحكمة ههنا النبوة، قال تعالى:﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على مَا آتَاهُمُ اللهُ من فضْلِهِ فقدْ آتينَا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكْمةَ وآتيناهمْ مُلكاً عظيماً﴾ (النساء ٥٤) وقال فيما بعث به نبيّه عليه السلام ﴿ويُعلِّمُهمُ الكِتابَ والحِكْمةَ﴾ (آل عمران ١٦٤)، وعلى هذا فكان داود يترقى من الملك

الى النبوة ... وتوكيدها آية (ص ٢) من خلال حُكْمه العادل وحكمته في القضاء . وأخيراً فإن الله جعل الحكمة هبة عامة يؤتيها من يشاء من عباده (البقرة ٢٦٩) حيث قال صاحب التفسير الميسر : إنها معرفة أسرار القرآن والإصابة في القول والعمل ووضع كل شيء في محلّه مستفيداً من قول الزمخشري . العلم والعمل وما نقله ابن كثير عن مجاهد أنها ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن، وقال أبو العالية منبهاً الى أثرها النفسي والاجتماعي : الحكمة خشية الله فإنَّ خشية الله رأس كل حكمة، وقد ورد عن مسعود مرفوعاً : رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ، ونقل عن زيد بن أسلم قوله : الحكمة العقل ، .. ثم قال : والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور : لاتختصّ بالنبوة بل هي أعمُّ منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخصّ،ولكن لاتّباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التّبع كما جاء في بعض الأحاديث(١).

ويناسب الرازي بين آية الحكمة هنا وما قبلها شارحاً جامعاً محلّلاً قيمة الحكمة وجوهرها بالنفس الطويل فيقول : لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعِدُ بالفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعدُ بالمغفرة والفضل، نبَّه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعدِ الرحمن على وعدِ الشيطان هو أنّ وعدَ الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعدَ الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث أنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم، ولاشك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرّأ عن الزيغ والخلل، وحكم الحسّ والشهوة والنفس توقع الإنسان في البلاء والمحنة، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول، ثم يقول المراد من الحكمة إما العلم وإما فعل الصواب .... وبعد أن يورد أقوال (مقاتل) في معاني الحكمة وجوهرها والقريبة من المعاني التي ذكرها (ابن سلام) قال: وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع الى العلم، ثم تأمّل أيها المسكين فإنه تعالى : ما أعطى إلا القليل من العلم، قال تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً﴾ (الإسراء ٨٥) ... ثم قال : والبرهان العقلي أيضاً يطابقه لأن الدنيا متناهية المقدار متناهية المدة، والعلوم لانهاية لمراتبها وعددها ومدة بقائها،والسعادة الحاصلة منها، وذلك ينبّئك على فضيلة العلم.

---

(١) انظر الأحاديث وبقية الأقوال في تفسيره .

وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب، فقيل في أحدها : إنها التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية، ومدار هذا المعنى على قوله صلى الله عليه وسلم : تخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ تعالى، واعلم أن الحكمة لايمكن خروجها عن هذين المعنيين، وذلك لأن كمال الإنسان في شيئين : أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطابق، وبالثاني الى فعل العدل والصواب، فحكى عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم قوله ﴿ربِّ هَبْ لي حُكْماً﴾ (الشعراء ٨٣) هو الحكمة النظرية ﴿وألحقْني بالصَّالحين﴾ (الشعراء ٨٣) الحكمة العملية، ونادى موسى عليه السلام فقال ﴿إنّني أنَا اللهُ لا إلهَ إلاّ أنَا﴾ (طه ١٤) وهو الحكمة النظرية، ثم قال ﴿فَاعْبُدْني﴾ (طه ١٤) وهو الحكمة العملية، وقال عن عيسى عليه السلام أنه قال ﴿إنّي عبدُ اللهِ﴾ (مريم ٣٠) وكل ذلك للحكمة النظرية، ثم قال ﴿وأوصَاني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مادُمْتُ حَيّاً﴾ (مريم٣٠) وهو الحكمة العملية وقال في حقِّ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَاعْلَمْ أَنَّه لا إلهَ إلاّ اللهُ﴾ (محمد ١٩) وهو الحكمة النظرية، ثم قال ﴿واستَغْفرْ لِذَنْبكَ﴾ (محمد ١٩) وهو الحكمة العملية، وقال في جميع الأنبياء ﴿يُنزِّلُ المَلائكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمرِهِ عَلى منْ يشاءُ منْ عِبادِهِ أَنْ أنذِرُوا أَنَّه لا إلهَ إلاّ أنَا﴾ (النحل ٢) وهو الحكمة النظرية، ثم قال ﴿فاتّقون﴾ (النحل ٢) وهو الحكمة العملية . والقرآن هو من الآية الدَّالة على أن كمال حال الإنسان ليس إلا في هاتين القوتين . قال أبو مسلم : الحكمة فِعْلة من الحكم وهي كالنّحْلة من النّحل، ورجل حكيم إذا كان ذا حجى ولبٍّ وإصابة رأي، وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل ويقال : أمر حكيم، أي محكَمٌ، وهو فعيل بمعنى مفعول، قال الله تعالى : ﴿فيهَا يُفرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكيمٍ﴾ (الدخان ٤) . ثم قال ﴿ومَايذّكَّر إلاّ أُولُو الألبَابِ﴾ : إن الإنسان إذا رأى الحِكم والمعارف حاصلة في قلبه، ثم تأمّلَ وتدبَّرَ وعرف أنها لم تحصل إلا بإيتاء الله وتيسيره كان من أولي الألباب، لأنه لم يقف عند المسبَّبات، بل ترقّى فيها الى أسبابها، فهذا الانتقال من المسبَّب الى السبب هو التذكر الذي لايحصل إلاّ لأولي الألباب، وأما من أضاف هذه الأحوال الى نفسه واعتقد أنه هو السبب في حصولها وتحصيلها كان من الظَّاهريين الذين عجزوا عن الانتقال من المسبَّبات الى الأسباب . وفي (آل عمران ٤٨) عن حكمة عيسى عليه السلام قريب مما في (المائدة ١١٠)

مما حمله عن الله تعالى حيث جاء بها قومه بينات من غير أن يضنَّ بها عليهم (الزخرف ٦٣) منبِّهاً من خلال ذلك الى حقيقة الألوهية والفصل بينها وبين البشرية . ومنوِّهاً بكرامته حين رفعه الله إليه وطهَّره وأيده بروح القدس . شأنه شأن سائر الأنبياء الذين أخذ عليهم الميثاق حين آتاهم حكمته وكتبه مؤيدة ومبشرة بخاتم الأنبياء (آل عمران ٨١) فالحكمة هنا على عمومها : معرفة أسرار الشريعة التي أغفل تفسيرها كثير من العلماء المفسرين . وما قدمته الآيتان أصل في بعثة الرسول حيث أرسله الله في الأميين ليحررهم من أميَّتهم، وينقلهم الى الإطار الحضاري العالمي، وهذا واضح من خصوصية (التزكية) التي يعلنها فعلاً في منهاجه ﴿ويُزكِّيهمْ ويعلِّمُهمُ الكِتابَ والحِكْمةَ وإِنْ كَانوا منْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ (آل عمران ١٦٤) وكرَّرها في (الجمعة ٢) فإذا تعمَّق الرسول في فهم الأشخاص والأشياء والأحكام من أجل أن يزكّيهم فإنه يبلغ في ذلك أكمل التبليغ النبوي وأخلده . وربما أشار ابن كثير الى ذلك حين لخَّص تفسير الحكمة بالسنَّة التي يعرف منها الحلال والحرام والآداب، أو الفهم في الدين من خلال الحق الذي تعلمه الرسول كما صرحت الآيات الكثيرة، بينما يجمع الزمخشري القرآن والسنة حتى تستكمل الحكمة من أطرافها .

إن هذه المهمة الضخمة لايمكن أن تمارس من فراغ، فلابد من أن يدفع الله عن رسوله ويرد على حسد اليهود مبيناً لهم أن الله أرسل للمسلمين رسولهم وآتاه الحكمة مثل ما آتى آل إبراهيم الحكمة (النساء ٥٤)(١)، وأنه يربِّي رسوله على تلقّي الكتاب وتمثُّله لإكسابه مزيداً من حكمته فيعلّمه ما لم يكن يعلم ويثبته عليها (النساء ١١٣) منبهاً الى استقلالية مصدرها الأول القرآن من التأثُّرات العقدية الخارجية (الرعد ٣٧) وبلفظ (الحكم) . وهكذا تأخذ الحكمة معنى عملياً فكرياً انتقائياً يقوم على تحري الحق والصواب بعد أن أصبحت ملَكة نامية في شخصيته وعلاقاته معتمدة في كلِّ ذلك على وحي الله . وخصَّ الرازي الحكمة بالمعرفة العقلية في (آل عمران ١٦٤) فقال : إنها معرفة الحق لذاته والخير للعمل به للدلالة

---

(١) انظر قول الرازي عند هذه الآية وتقسيمه (الكتاب) الى ظواهر الشريعة، و(الحكمة) إشارة الى أسرار الحقيقة وذلك هو كمال العلم .... ونقل ابن الجوزي قولين في معنى الحكمة هنا : النبوة قاله السدي ومقاتل، والثاني : الفقه في الدين، قاله أبو سليمان الدمشقي . واعتمده ابن كثير .

على كمال الإنسان، ويقول للنفس الإنسانية قوتان، نظرية وعملية، والله تعالى انزل الكتاب على محمد عليه السلام ليكون سبباً لتكميل الخلق في هاتين القوتين، فقوله ﴿يتلُو عليهمْ آياتِه﴾ إشارة الى كونه مبلّغاً لذلك الوحي من عند الله الى الخلق، وقوله ﴿ويُزَكّيهمْ﴾ إشارة الى تكميل القوة النظرية بحصول المعارف الإلهية، و (الكتاب) إشارة الى معرفة التأويل، وبعبارة أخرى (الكتاب) إشارة الى ظواهر الشريعة (والحكمة) إشارة الى محاسن الشريعة وأسرارها وعللها ومنافعها، ثم هذه النعمة، وهو أنهم كانوا من قبلُ في ضلال مبين، لأن النعمة إذا وردت بعد المحنة كان توقعها أعظم، فإذا كان وجه النعمة العلم والإعلام، و وروداً عقيب الجهل والذهاب عن الدين، كان أعظم، ونظيره قوله ﴿و وَجدَكَ ضَالاً فَهدَى﴾ (الضحى ٧) .

يضاف إليها أن الرسول ليس قدوة بشخصيه وحسب وإنما في بيته أيضاً وبخاصّة في حالات الشّدة والصبر على ضنك العيش والتعفّف عن الفواحش، والقنوت لله ورسوله، وأدب الخطاب واللباس والزينة (الأحزاب ٢٨-٣٤) .

وأخيراً فلابد من الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة (النحل ١٢٥) بالقول المُحكَم والدليل الموضّح للحقّ، المزيل للشبهة كما قال صاحب الميسّر، وإذاً فهي حماية وتثبيت ودعوة .

وفي خارج نطاق الأنبياء والنبوات يعرض القرآن الى حكمة (لقمان) العظيمة في العقيدة والسلوك والاجتماع (لقمان ١٢) والتي تجعل صاحبها يضع كل شيء في محلّه . وتلف (الحكمة البالغة) (القمر ٥) آخر سورة تحدثت عن الحكمة التي صرَّحت بهذا الوصف، البشرية في جميع مراحلها والتاريخ الإنساني في قاعدة حضارية رهيبة مفزعة تتصل بأسس العمران وجذور الحضارة .

ومما يلفت النظر أن تنازل العدّ في التصريح بالحكمة متناسب مع السور القرآنية طولاً وترتيباً، فقد ورد ذكرها في سورة (البقرة) كما أشرت ٦ مرات تستوفى أهمَّ مجالاتها، وفي سورة (آل عمران) ثلاث مرات وهي أوسطها تفصل بين الألوهية والنبوة، ومرتين في (النساء) تأييد وتثبيت للرسل، ومرة واحدة في كل من المائدة وغيرها كما سبق .

- **القرآن حكمة وحكْم وحكيم :**

وإذا احتملت بعض سياقات الحكمة أنها للقرآن وغيره فإن من السّياقات الصريحة الواضحة لها ما جاء في (الإسراء ٢٥) التي صرّحت أن الوصايا الخلقية هي من القرآن الحكمة . وما جاء في (الأحزاب ٣٤) التي صرحت بما يُتلى في البيوت النبوية وهو قريب بما وصف الله به الزبور (ص ٢٠) وما وصف به الإنجيل (الزخرف ٦٣) . ويمكن إلحاق (الحكْم) بالحكمة في وصف القرآن عند قوله ﴿وَكَذلكَ أنزلنَاه حُكْماً عَربياً﴾ (الرعد ٣٧) مما يتناسب مع ما أنزل الله كتبه الأخرى أيضاً .

فالقرآن حكمة سواء كان من آيات مكية أو مدنية كما سبقت الإشارة في سورتي الإسراء والأحزاب، وحكمته إذ تشمل معاني القرآن في أي متنزّل فإنها تؤكد أيضاً ما وصف الله كتابه (بالحكيم) في أربع آيات مكية ومدنية أيضاً، ومتناسب تماماً مع وصف الله ذاته بالحكيم أيضاً في أكثر من (٧٨) مرة وآية، بالإضافة الى وصفه بـ (حكيماً) في (١٦) مرة وآية، كما سيأتي بعد . ومما يلفت الذهن أن وصف الله كتابه بالحكيم في ثلاث آيات هي (يونس ١) و (لقمان٢) و (يس ١) كلها جاءت عقب الحروف المقطَّعة التي يقصد بها تثبيت إعجاز القرآن مثل (ألر) و (ألم) و (يس) .

- إنَّ ما تقدَّم من سياقات الحكمة وما سيأتي من وصف الله ذاته بالحكيم ينبّه الى فضيلتين: فضيلة الحكمة بذاتها من حيث أنها قيمة فكرية وعملية، وفضيلة من حيث أن مرجعها الحكيم وأحكم الحاكمين . أضف الى ذلك أن القرآن ذاته هو حكيم لفظاً ومضموناً ومقصداً، فإن آياته وقد اشتملت على الحكمة ضمناً وصراحة تُلهم أن الله لم يمنح رسوله أيَّ كلام وأيَّ كتاب وأي تشريع وإنما هو كلام الحكيم وكتاب الحكمة وتشريع الحكيم فالله أنزل القرآن فصلاً بين الحق والباطل لِما اشتمل عليه من آيات الحكمة في الإلهيات والنبوات وأصحها، والطبيعيات وأدقها، والإنسان ودوره في الوجود فهو حكمة كلية جامعة، وأيضاً فهو حِكَمٌ جزئية تتعلق بكل آية أو نجم فيها مسألة أو مسائل . حتى تكتمل الحكمة بنزول القرآن جميعه، ومن ذلك آية (البقرة ١٢٩) التي هي من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أن يبعث رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم منهم ﴿يتلُو عليهمْ آياتِكَ

ويعلمُهمُ الكِتابَ والحِكْمـة و يُزكّيهـمْ إنَّـكَ أنـتَ العزيـزُ الحكِيـمُ﴾ إنـه تـالٍ للقـرآن معلـم للكتابة، مفهم لهم أسرار الأشياء . مطهرهم مـن ذميـم الأخـلاق والمعـاصي، وهـذه ليسـت غريبة ولابعيدة الوقوع والإمكان فإنها من العزيز الحكيم .

ومن ذلك أيضاً آية (الجمعة ٢) التي كانت بعثتـه عليـه الصـلاة والسـلام تحريـر العـرب مـن الأميّة الى جانب الصّفات الهامـة الـتي صرَّحـت بهـا الآيـة السـابقة . فـإن العـرب كـانوا في (ضلال مبين)، وهذه الآية واقعة بين آيتين صرحت كل منهما في آخرها بالعزيز الحكيم .

وعلى هذا فإن صفة (الحكمة) و (الحكيم) لم تكن دعاية إعلامية تسجيلية وإنما هـي حقيقـة متنزّلة من آيات الله ﴿ألَر تِلكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ﴾ (يونس ١)، ومهما اختلفت مطـالع السور في الحروف المقطّعة فإن (الحكيم) صفة لازمـة وثابتـة للقـرآن . ﴿ألم • تِلـكَ آيـاتُ الكِتابِ الحَكيمِ﴾ (لقمان ١٢)، فقد وصفه بالكتابة (كتاب) في آيتين وبالقراءة (القرآن) في آيات أخرى وبالذكر في آية رابعة ، فإن الحكمة في كل منهـا قـدر مشـترك لاينفـكُّ عنهـا، وقد قرن مع (الحكيم) في مواصفات القرآن خاصة، صفات أخرى متناسبة معها، فهو الخبير الذي لاتفارقه الحكمة ولاعن كتابـه﴿كِتـابٌ أُحْكِمـتْ آياتُـه ثـمَّ فصِّلَـتْ مـن لـدنْ حكيـم خبير﴾ (هود١) ومعروف عموماً العلاقة القوية بين الخبرة والحكمة ، إذ لاحكمة بلا خبرة، ولاخبرة ناجحة من غير حكمة، ويبدو من تقديم الحكمة على الخبرة أنـه تقديـم ضـروري لقطف ثمرات الخبرة اليانعـة حـين تقـوم علـى الحكمـة ووزن الأمـور بـالعدل والاسـتقامة، وأخصها قوله : ﴿كَذلِكَ يُوحِي إليكَ وإلى الّذِينَ منْ قَبلكَ اللهُ العزيزُ الحَكيمُ﴾ أنها صفات ثلاث : الألوهية والعزّة والحكمة تحتضن الوحي والتنزيل، وأكّد الله الرفعـة بـالعلو والسـمو الإلهي، فهو في أقدس مكان وأرفعـه في اللـوح المحفـوظ ، ﴿وإنَّـهُ في أمِّ الكِتـابِ لدينَـا لعَلـيٌّ حَكيمٌ﴾ (الزخرف ٤) حتى إن ليلة الوحي والتنزيل متميزة عن جميع الليالي فهي ليلة القـدر ﴿فيهَا يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حَكيمٍ﴾ (الدخان٤) .

إن وصف الله القرآن بالحكيم وبخاصة عند القَسَم به وبحكمته في (يس ١-١٢) ربطَ الحكمة القرآنية بالرسول والرسالة والمرسل، وذلك مـن أجـل تبليـغ هـذه الحكمـة النـاس وإنذارهـم وتبشيرهم بها، فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم واحد من المرسلين مهمـا اشتدّوا في إنكـارهم

له، ومهمته العالمية توضّح مسؤلية خطيرة في الإصلاح، والرسالة المستقيمة على الحقّ الواضح والفطر الإنسانية والكونية الموصلة الى الله ورضوانه متناسبة مع الرسول الحكيم، والمرسِل الذي أنزلها بالعزة الإلهية والرحمة الربانيّة تدلُّ على أنه الحكيم العليم الخبير.

وإن وصف الله كتابه الحكيم بالقراءة والكتابة والذِّكر حالات يعظم فيها قيمة الحكمة وقيمة وصف القرآن بها مثل ما ينبه الى قيمها الذاتية العملية، فالحكمة في القراءة وبخاصة القرآن، والحكمة في الكتابة وبخاصة كتاب الله، والحكمة في الذِّكر وبخاصة في تلاوته، وهذا يعني ضرورة نقل (الأميين) الى مراتب المعرفة في دعائمها الثلاث، كما يعني أن القرآن الحكيم لم يكن كذلك إلاّ لأنه مقروء ومكتوب ومذكور يدفع بجملته إلى أسمى المعارف وأنفعها باعتباره الحكمة والحكيم في جميع القرون والأجيال .

فأكرمْ بكتاب حكمة وحكيم من ربٍّ حكيم قادر على أن يثبت الحكمة في خلقه، ويهديهم إليها فيعملوا بها حتى يصيروا حكماء لا بالأقوال وإنما بالأفعال، وتقوم مؤسساتهم ونشاطاتهم عليها، وعندئذ تُحمد أحوالهم وفعالياتهم مادام القرآن تنزيلاً ﴿مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت ٤٢) .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

إن الجذر اللغوي الواحد، والدلالة المشتركة، واهتمامات القرآن بكل دلالة ومعنى تبرز غنى هذه المادة فيه، منبهاً وموجهاً وبانياً للحضارة المثلى، وإن ما يجمع بين المعنيين الإحكام فلا بدّ منه للسياسة والحكمة معاً، فإتقان العمل من الحكمة، ومحكم السياسة من الحكمة و (إنّ الله يحبُّ إذا عملّ أحدُكم عملاً أن يتقنه) كما جاء في الحديث(١) ، والإحكام يعني النظام وإعمال العقل وسداد الأمور، فالقول العابث نابٍ عن الحكمة، والسياسة المخلخلة الفوضوية لايمكن أن تأتي بخير، والعمل حكمةً وسياسةً، لايقصد بذاته بقدر ما يقصد بنتائجه وثمراته، وقد يكون إهمال العمل بالكلية أقل ضرراً وأذى من العمل المتهافت الضعيف، لأن في ترك العمل تضييعاً وإهداراً لقيمته، أما العمل المتهافت وأحياناً التظاهر بالجدّ في العمل وإحكامه وهو على غير هذه الحقيقة فإنه يورث الإحباط في نتائجه وثمراته ويدفع الى اليأس المرير في سلامة العمل أصلاً وطبيعة، وهي حالة نفسية و(عملية) معاً . وفي مقدمة الإحكام، القرآن الذي ﴿أُحكِمَتْ آياتُه مِن لدنْ حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ (هود ١) ولاغرابة في ذلك فإنه من الحكيم الخبير فلا خلل في الآيات ولاتعارض بينها ولاتنسخ بشريعة أخرى (الحج ٥٢) . وإن سياسة ليس فيها الحزم والمضاء والسداد هي سياسة خرقاء لايمكن أن تعطي تقدماً حضارياً، وآثاراً حكيمة صالحة .

أولاً : الحُكْم بمعنى الحكمة : فقد ورد (الحكْم) بمعنى الحكمة حوالي (١١) مرة في طوال المفصّل ووسطه بمعدل نصف ما ورد فيه لفظ (الحكمة) وفي المواضع والمسائل ذاتها، ويشترك مع الحكمة في أنهما هبة من الله وعطاء منه (آتينا - وهب ــ هب)، وضرورتهما لقيام النبوات والحضارات السامية الربانية، وأن الرسل في مقدمة الناس الذين يتحلَّون بهما لنجاح مهماتهم وتغيير مجتمعاتهم . ويدخل في ذلك بعض الألفاظ غير الصريحة والمشعرة أن للحكمة خصوصية، عنه في مثل خطاب عيسى عليه السلام قومه بالبيان النبوي

---

(١) المقاصد الحسنة (٢٤٠) بروايات عن العسكري وأبي يعلى .

﴿قدْ جئتُكُمْ بالحِكْمةِ ولأُبيّنَ لكمْ بعضَ الّذي تختلفونَ فيه﴾ (الزخرف ٦٣)، وضرورة الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة (النحل ٢٥) والحكمة والحكم في الحقيقة لايخرجان عن مصدريهما الإلهي بتكوين خلْقي مميز للإنسان الحكيم، ومع هذا فيغلب على (الحكم) معنى الفهم الخاص والمعرفة المتميزة والقدرة الذاتية لأغلب الرسل، كما يغلب على الحكمة الى جانب الدلالة السابقة ولجميع الرسل في مسائل الدين العقائدية والتشريعية والخُلقية في أعماقها وفهم أسرارها . وأن الحكم مقترن غالباً بعمل الرسالة والنبوة خاصة بينما يمكن أن تستوعب الحكمة الأنبياء وغيرهم من عامة الناس (البقرة ٢٦٩) و (لقمان ١٢) . أضف الى ذلك إمكان تعلّم الحكمة وتعليمها، وإمكان أخذها وإعطائها مما لانجده في (الحكم)، فإن آيات عديدة في حكمة الأنبياء تصفهم بها وتطلب منهم تعلمها وتبليغها عموماً، فقد آتاها الله آل إبراهيم (النساء ٥٤) وبعض الملوك العبرانيين (البقرة ٢٥١) وبخاصة لداود عليه السلام، وتعلمها في (المائدة ١١٠) بالنسبة لعيسى عليه السلام . وتعليمها في (البقرة ١٥١) بالنسبة الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهكذا فإن (الحُكم) بالسياق القرآني هبة من الله يعطيه عباده المصطفين وليس شيئاً يُتلى على الآخرين ولاعلماً يُقدم لهم، هو قدرة ذاتية خاصة تنفع صاحبها في أداء مهماته وتوصيل المعاني والمبادئ السامية للناس .

وفي اللّسان :الحُكْم : العلم والفقه، قال تعالى : ﴿وآتينَاهُ الحُكْمَ صَبياً﴾ أي علماً وفقهاً، هذا ليحيى بن زكريا، وكذلك قوله : الصَّمتُ حكْمٌ وقليلٌ فاعِلُه(١) وفي الحديث : إنّ منَ الشّعرِ لحُكْماً(٢) : أي إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه، وينهى عنهما . قيل أراد بها المواعظ والأمثال التي ينتفع الناس بها . والحكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل وهو مصدر حكم يحكم ، ويروى : إنَّ منَ الشّعرِ لحِكْمةً(١)، وهو بمعنى الحكم . وهذا ما سبق

---

(١) كنز العمال ٦٨٨٠ وابن عدي ١٨١٦/٥ ونقل الحافظ العراقي في الاحياء ١٠٨/٣ تصحيحه عن ابن حبان في كتابه : روضة العقلاء .

(٢) البخاري : ما يجوز من الشعر والرجز ..(٦١٤٥) بروايات متقاربة، وسيأتي عزوه مفصلاً.

إليه ابن الأثير في كتابه الجامع . ومنه الحديث : الخلافَةُ في قريشٍ والحُكْمُ في الأنصارِ(1) ، خصّهم بالحكم لأن أكثر فقهاء الصحابة فيهم، منهم معاذ بن جبل، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم ...

ونعرض مواقع (الحكم) من خلال السور باعتبار أنها تتحدث عن شخصيات معينة ذات سمات خاصة . ففي (الأنعام ٨٩) قال الرازي مستفيضاً بذكر طوائف الحكام من العلماء والساسة والأنبياء ومبيناً منازل كل فئة :

(تقدم ذكر الأنبياء الثمانية عشر) وأن العطف (الحكم والنبوة) يوجب المغايرة فلذا فإن الحكام ثلاث طوائف : أحدها : الذين يحكمون على بواطن الناس وعلى أرواحهم، وهم العلماء، وثانيها : الذين يحكمون على ظواهر الخلق، وهم السلاطين يحكمون على الناس بالقهر والسلطنة، وثالثها : الأنبياء وهم الذين أعطاهم الله تعالى من العلوم والمعارف ما لأجله بها يقدرون على التصرف في بواطن الخلق وأرواحهم، وأيضاً أعطاهم من القدرة والمكنة ما لأجله يقدرون على التصرف في ظواهر الخلق، ولما استجمعوا هذين الوصفين لا جرم كانوا هم الحكام على الإطلاق .

إذا عرفت هذه المقدمة فقوله (آتيناهُمُ الكِتابَ) إشارة الى أنه تعالى أعطاهم العلم الكثير، وقوله (والحُكْم) إشارة الى أنه تعالى جعلهم حكاماً على الناس نافذي الحكم فيهم بحسب الظاهر، وقوله (والنُّبوة) إشارة إلى المرتبة الثالثة وهي الدرجة العالية الرفيعة الشريفة التي يتفرع على حصولها حصول المرتبتين المقدَّمتين المذكورتين، وللناس في هذه الألفاظ الثلاثة تفسيرات كثيرة .

واعلم أن قوله (آتيناهُم الكِتابَ) يحتمل أن يكون المراد من هذا الإيتاء الابتداء بالوحي والتنزيل عليه كما في صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام، وقرآن محمد صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون المراد منه أن يؤتيه الله تعالى فهماً تاماً لما في الكتاب وعلماً محيطاً بحقائقه وأسراره، وهذا هو الأولى، لأن الأنبياء الثمانية عشرة المذكورين ما أنزل الله تعالى على كل واحد منهم كتاباً على التعيين والتخصيص . ومع أن ابن كثير لم

---

(1) أحمد ١٨٥/٤ والطبراني ١٢١/١٧ ومجمع الزوائد ٣٣٦/١ ، وكنز العمال ٣٣٨٠٩ .

يعرض لهذه المسألة فإن ما أشار إليه الرازي من عمومية (الحكْم) بمعنى الحكمة وبمعنى الحاكميّة يدل على ممارسته بالأسلوب الحكيم حتى أصبحوا مصدرهما .

إن الله أخذ الميثاق على النبيين بسبب ما آتاهم الكتب والحكمة وأكّد بعد عمومية (الحكْم) والنبوة على تحرير الناس من العبودية للأنبياء، وأن النبوة لاتقتضي تعبيد الناس لهم وتأليههم عليهم، فإن الحكم والنبوة هبة الله لهم للقيام بالدعوات الدينية الصحيحة، (الأنعام ٨٩) إن الحكمة تعني معرفة أسرار الشرائع ووضع كل شيء في محله، وهي تساعد على تحسين الدعوات وتبليغ الناس الحقائق الإلهية .

- وفي سورة (يوسف ٢٢) نقل ابن الجوزي أقوال المفسرين واللغويين، في حكمة يوسف عليه السلام، ومجملها أربعة أقوال :

١- الفقه والعقل قاله مجاهد -٢- النبوة، قاله ابن السائب، ٣- أنه جُعل حكيماً، قاله الزجاج، قال : ليس كل عالم حكيماً، إنما الحكيم : العالم المستعمل علمه، الممتنع به من استعمال ما يجهّل فيه، ٤- أنه الإصابة في القول ذكره الثعلبي . قال اللغويون : الحكم عند العرب ما يصرف عن الجهل والخطأ ويمنع منهما ويردُّ النفس عما يشينها ويعود عليها بالضرر، ومنه حكَمة الدابة، وأصل أحكمت في اللغة : منعت، وسمي الحاكم حاكماً لأنه يمنع من الظلم والزيغ . وينحو (الزمخشريّ) منحى العلم العملي وضرورته في حالات الصحة والفتوة .

(حكْماً) حكمة، وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل حكّماً بين الناس وفقهاً، وينقل عن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله . وبينا يخصص ابن كثير الحكم بالنبوة وحدها باعتبارها جامعة للفضائل، يفلسف الرازي الحكم بعد أن يورد أقوالاً في تفسيره من الحكمة النظرية والعملية والبدنية. ويقول :

في الحكم والعلم أقوال :

الأول : أن الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها، ومنعها مما يشينها، فالمراد من الحكم الحكمة العملية، والمراد من العلم : الحكمة النظرية . وإنما قدم الحكمة العملية هنا لأن أصحاب الرياضيات يشتغلون بالحكمة العملية، ثم يترقون الى الحكمة النظرية، وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فإنهم يصلون الى الحكمة النظرية أولاً ثم ينزلون

الى الحكمة العملية، وطريقة يوسف عليه السلام هي الأول، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات .

الثاني : الحكْم هو النبوة، لأن النبي يكون حاكماً على الخلق، والعلمُ علمُ الدّين .

الثالث : يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنّة حاكمة على نفسه الأمّارة بالسوء، مستعلية عليها قاهرة لها، ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة فاضت الأنوار القدسية والأضواء الإلهية من عالم القدس على جوهر النفس .... ويلخّص ذلك فيما بعد : (ولّمابلغَ أَشدَّه) إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية، وقوله (آتيناهُ حكْماً وعلماً) إشارة الى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية .

- وفي سورة (مريم ١٢) ينقل الزمخشري أقوال العلماء فيه وتدور حول النبوة وحُسن الفهم.

(الحكم) الحكمة، وهوالفهم للتوراة والفقه في الدين عن ابن عباس، وقيل : النبوة لأن الله أحكم عقله في صباه وأوحى إليه . ويصدِّر الرازي معنى (الحكمة) أقوالاً أخرى ثم يختار معنى النبوة لما فيها من حكمة البيان والإصلاح فيقول :

إعلم أن في الحكم أقوالاً : الأول أنه الحكمة، وهو الفهم كالسابق، والثاني : هو قول معمّر أنه العقل، والثالث : أنه النبوة فإن الله أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمّداً عليهما السلام وقد بلغا الأشدَّ، والأقرب حمله على النبوة لوجهين : الأول : أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان .... ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة، الثاني : أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق وذلك لايكون إلا بالنبوة .

ومهما يكن من أمر فإن من أولى هذه الحكمة أو الحكم معرفة أسرار التوراة .

- وفي سورة (الأنبياء) ورد الحكم بمعنى الحكمة في آيتين (٧٤) عن لوط و (٧٩) عن داود وسليمان عليهم السلام، مقترنين (حكْماً وعِلماً) مما يدلّ على ضرورة تلازمهما لفائدتهما ومنفعة أصحابهما، فالحكمة من غير علم غير ثابتة ولا متيقنة، والعلم من غير حكمة خال

من ثمرته العملية، وقد يسخر في حالات الطيش والانحيازات الخاصة : وفي تقديم الحكم على العلم تقدير للعقل والتجربة والتصرف السديد والعمل النافع .

وذكر الرازي عن (لوط) أن المراد من الحكم، معرفة أسرار الأشياء وهو فهم خاص به وبإخوانه الأنبياء . وفي هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها، وذلك لأن الله تعالى قد قدم ذكره ههنا على سائر النِّعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن، وإذا كان العلم مقدماً على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها ؟

ولإبراهيم حكْم وحكمة أيضاً (الشعراء ٨٣) ونقل عن ابن كثير أنها أو أنه العلم، وعن عكرمة أنها اللبّ، وعن مجاهد أنها القرآن، وعن السدي أنها النبوة .

ولموسى حكم وحكمة وهيبة من أجل رسالته حتى يضع بها كل شيء في موضعه (الشعراء ٢١) و (القصص ١٤) وجعل من شرائطها استواؤه وبلوغه الرشد، فإنها من كمال العقل والتفكير إضافة الى كمال الوحي والنبوة .

ومع أن القرآن لم يصرح (بالحكم) لرسول الله محمد فإن طلب الله منه في آيات (الأنعام ٨٩) وما بعد، أن يقتدي بالأنبياء في كل شيء ومنه (الحكم)، فإن (حكمة) الرسول فيه من أغنى الحكم النبوية والبشرية .

ثانياً : الحكم بالمعنى السياسي الشائع (أربع مسائل حضارية هامة)

فقد تقدم اشتراك الحكمة والحكم في الأصل اللغوي حتى ورد ذلك بمعنى الحكمة في سور منها (يوسف ٢٢) و (الأنبياء ٧٤) و (الشعراء ٢١) وغيرها كثير، وفي الأصل اللغوي أيضاً أن (الحكم) هو الفصل والقضاء يتعلق بالحاكم والقاضي وعامة الناس الذين قد يصدر منهم حكم صحيح أو باطل أو متحيز .

وفي اللسان : وحكَمَ الشيء أحكَمَهُ : كلاهما منعه من الفساد .

وحَكمتُ، وأحكمتُ، وحكَّمتُ بمعنى : منعتُ ورددت، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكم لأنه يمنع الظالم من الظلم كما سبقت الإشارة إليه .

- والحكم الأوّلي والأساس يبدأ بسياسة الإنسان نفسه .

وفي الحديث : ما مِن آدميّ إلاّ وفي رأسِهِ حكَمةٌ، وفي رواية : في رأس كل عبد حَكَمةٌ، إذا همَّ بسيئةٍ فإنْ شاءَ الله أن يَقْدعه بها قدَعهُ(١) . ورفع الله حكَمته أي رأسه وشأنه، وفي حديث عمر : إنّ العبدَ إذا تواضعَ رفعَ اللهُ حكَمَتَه أي قدره ومنزلته ، يقال : له عندنا حكَمَة أي قدر، وفلان عالي الحكمة ...

ـ حكم الله الحكيم : وتقدم وصف الله بالحكيم كثيراً مقروناً بصفات أخرى غالباً، ونبرز هنا دلالة (الحكم) بمعنى الفصل والقضاء الإلهيين، فقد قصر الله الحكم الحق عليه ﴿إنِ الحُكْمُ إلاّ للهِ﴾ (الأنعام ٥٧) ولذلك صرّح بعدها بقوله ﴿يقصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصِلين﴾ وهو أيضاً أعدل الأحكام والحاكمين ﴿ومَنْ أحسنُ منَ اللهِ حُكْماً لقومٍ يوقنون﴾ (المائدة ٥٠) وما دام كذلك فإن حكمه بين المؤمنين لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿ذلكُم حكْمُ اللهِ يحْكُمُ بينَكُمْ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ (الممتحنة ١٠) ويلاحظ أن هذه الجملة آخر الآية التي بيّنت الموقف الإسلامي الصحيح من الممتحنات فهو حكم قاطع بين المؤمنين والمشركين وأزواجهم، ثم إن هذا حكم من حكيم كما صرحت بذلك آخر الآية ذاتها . ومثل هذه الأحكام تصدر من المولى الحقّ في الدنيا و الآخرة مقصوراً عليه دون سواه (الأنعام ٦١) . وفي مقدمة الأحكام جميعها عبودية الله وحده وبغيره لايصح حكم ولا قضاء ﴿إنِ الحكمُ إلاّ للهِ أمرَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إياهُ ذَلك الدّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لايعلمون﴾ (يوسف ٤٠) وذلك في مقابل المعبودات، الأسماء الكثيرة التي سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . وقريب منه ما ذكره الله في (القصص ٧٠،٨٨) و(غافر ١٢) ... وفي اجتماع الفعل معه (يحكم) يؤكد على الفصل المبرم فيه ﴿يحكُمُ لا معقّبَ لحكْمِهِ﴾ (الرعد ٤١)، والله يشهد على حكم الحكام (الأنبياء ٧٨) فهو خير الحاكمين وأحكم الحاكمين وأعدلهم وأعلمهم وأحقهم، ومنه ينبغي أن يقتبس الحكام والقضاة أحكامهم العادلة الحقّة، وهي مسألة عملية حضارية هامة ذات شقين : فهي تعزو الحكم الى الله الحكيم، وتحثُّ الناس الى التماس حكمته وعدله .

---

(١) الطبراني ٢١٩/١٢ والمستدرك ٢٩١/٢ ومجمع الزوائد ٨٢/٨ وآخرون .

- في سياسة الحكام وحكمهم : وفي مقدمتهم الأنبياء الذين تتطلب منهم مسؤلياتهم الحكم بالحق انبعاثاً من الحكمة التي آتاهم الله بها، ومن غير الحكم لاتتألق الحكمة بفضائلها، ومن غير الحكمة لاتستقرُّ الأحكام ولاتطمئن ولاتصل الى أهدافها . فالحكام حكماء الناس، والحكماء حكام العقول، وهذا ماينبغي أن يتحقق في الواقع، وقد أخبر الله عن داود وسليمان عليهما السلام بحكمة حكمها في الحرث (الأنبياء ٧٨)، ولذا فقد اقترنت بالملك العظيم لآل إبراهيم (آل عمران ١٦٤) وتأييد الله ملك داود، وتسخير الجبال والطير والريح لسليمان (هود ٢٠) . فالأنبياء يحكمون بحكمة الله، والتبليغ شطر من هذا الحكم، وبخاصة أولو العزم منهم، والإصلاح غاية كبرى لكل واحد منهم، وتحقيق السعادة لكل فرد من أقوامهم من أهداف حكمهم ودعوتهم . ويشترك الحكام الآخرون غير الأنبياء بهذه الخصال دعوةً وإصلاحاً وسعادة وإحقاقاً للحق وإبطال الباطل، فيأمر الله الحكام والقضاة بالحكم الصالح العادل (النساء ٥٨) وبخاصة عند الاعتداء على الأموال و الأعراض (البقرة ٨٨) فهم المرجعُ الحكميّ القضائي، الذي لاتستقيم حضارة بدونهم مثل ما أنها لاتستقيم حياة بالأحكام المنحرفة والقضايا الظالمة، وهي مسألة حضارية جد خطيرة، إذ كيف تستقيم حضارة بحكم الحمقى والمتحيزين وضعاف الخبرة والتجربة، ومحدودي الأفق والمعرفة في تمييز الخصوم والإدراك السطحي للمسائل؟

ومن حكمة السياسة المحافظة على حقوق الأمّة، والمصداقية في الحكم والحزم في التطبيق والمضاء فيه . قال الحسن : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : ألاّ يشتروا به ثمناً قليلاً، ولايتبعوا فيه الهوى، ولايخشوا فيه أحداً، ثم تلا ﴿فَلا تخشَوُا النّاسَ واخْشَونِ﴾ وقال ﴿ولاتشتُروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾(١)، ومن حكمة القضاء التمكن منه والقدرة عليه لاختيار أنسب الأحكام وأصحها وأعدلها وأحكمها، فلا يقضي غضبان ولاجائع ولامحصور ولامهموم ولا وجل، حتى كان من صفاته كما قال عمر بن عبد العزيز أن يكون فهيماً، حليماً، عفيفاً، صليباً (قوياً)، عالماً، سئولاً عن العلم(٢) .

---

(١) ذكره ابن كثير، وفي البخاري أحكام ١٤٦/١٣ بشرح ابن حجر ولكن بغير هذا الترتيب .
(٢) البخاري أحكام ١٤٦/١٣ السابق .

وإن من مواضع الغبطة المشروعة في الحسد : كما جاء في الصحيح : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها(١) .

- (حكمة) الكتب الحاكمة : وكتب الأنبياء مرجع قضائي مثل ما أنها مرجع تشريعي وتوجيهي، فقد أنزلها الله عليهم بالحق ليحمكوا بها بين الناس فيما اختلفوا فيه (البقرة ٢١٣) ويحكمون بها للذين هادوا، وغيرهم (المائدة ٤٤) . وإن من أولى بركتها الحكم بها كما أمر الله، لامجرد تلاوتها في الكنس والمعابد والمساجد تغنّياً وترنماً، والقرآن يحكم لها أو عليها ويهيمن على مضامينها، فقد أنزله الله بالحق (النساء ١٠٥) و (المائدة ٤٨)، والكفر والفسق والظلم من صفات المستنكفين عن حكمها (المائدة ٤٤،٤٥، ٤٧) . وإذا وصف القرآن التوراة والإنجيل وغيرهما بالنورانية والهداية وحكمية الله فإن مثل هذا الإنصاف الحكمي قد وقع في تقدير المنصفين من الكتّاب الغربيين ، ووقع خيرٌ منه في نفوس الذين استطاعوا أن يتحرروا من رواسب البيئة الاجتماعية وتقاليدها، وأقبلوا على الإسلام قناعة ورغبة وتديناً . وذلك حين تفهموا القرآن ليس حاكماً ولا راحماً فقط وإنما فهموه (حُكْماً عَربياً) (الرعد ٣٧) و (رحمة للمؤمنين) (النمل ٧٧) و (رحمة للمحسنين) (لقمان ٣) ، ونظاماً ربانياً يستوعب الأديان والمتدينين . فالمطلوب من الرسول إذاً الحكم بالقرآن فيما اختلف فيه الناس (النساء ١٠٥) ذلك لأن في القرآن حكمة الله الحكيم، وفيه الآيات التي لايعتريها الخلل والتناقض، فهي محكمة البناء داخلاً وظاهراً (هود ١) إنه حُكْم وحكمة ورحمة وبيان .

ومن حكْم القرآن وحكمته إحكامه كما أشرت، فإن إحكام الأمور وإتقانها وإبرازها على الوجه الأصح والأسلم من متطلبات الحكمة . وهذا يقتضي عقلاً واعياً مدركاً، وفهماً للوثائق والثبوتيات فهماً عميقاً، وخبرة عامة وخاصة في أحوال الناس، ومن أهمها الوضوح في الحكم فلا يتسرب إليه التخريج، ففي القرآن السورة (المحكمة) (محمد ٢٠)، والآيات المحكمات أم الكتاب (آل عمران ٧)، وهن من إحكام الله وإتقانه (الحج ٥٢) حتى كان

---

(١) البخاري : الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ويذكره أيضاً في باب أجر من قضى بالحكمة (٧١٤١) .

القرآن محكم النص، إذ لاغرابة في ذلك فإنه من (الحكيم الخبير) ﴿كتابٌ أُحِكِمَتْ آياتُه ثم فصِّلت منْ لَدنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾ (هود ١) . فإذا اجتمع مع الإحكام (التفصيل)، والمصدرية الإلهية الحكيمة فإنه في ذروة التناسق والقوة المعنوية الإعجازية، فليس فيه اضطراب ولاتناقض ولاتجاوز فكري . (ومن الحكمة فيه أنه مفصل بعضه عن بعض في اللفظ، والمعنى والزمن)، ففي اللفظ : بالفواصل التي حدت الآيات، وفي المعنى : فبعضها في بيان صفات الله تعالى، وبعضها وعيد للعصاة بالعذاب، وبعضها في قصص أحوال الماضين، وبعضها أحكام، وبعضها مواعظ وأخلاق . وفي الزمن : فنزلت على فترات حسب الحاجة لحكمة التنزيل (الإسراء ١٠٦)(١) . والمسلمون اليوم يقدِّمون القرآن سجل حضارة فذّة تستوعب الفعاليات الروحية والمادية والنظامية والخلقية، وهي مسألة حضارية ثالثة تمتاز بالعمومية والصلاحية والأحقيّة . ومن مقتضيات حكم الكتب السماوية مرجعيتها التسجيلية، فللأديان السماوية الأسبقية في تدوين الأحكام مذ صحف آدم الى القرآن الكريم . فهي في مقدمة القوانين المسجلة، وأحياناً المحفوظة في عالم الحضارات الإنسانية . وإذا وردت الحكمة مفردة لبعض الحكماء مثل لقمان (لقمان ١٢) فإنها وردت كثيراً متعاطفة مع غيرها من ينابيع المعرفة ومصادر الخير، ومادامت تعني معرفة أسرار الأشياء والعلم الدقيق الصحيح فلا بد من عطفها على (الكتاب) وتقديمها على التزكية والتطهير الفعليين في دعاء إبراهيم لمحمد عليهما السلام (البقرة ١٢٩)، وهي متأخرة رتبة عن الكتاب دوماً في الآيات التي تتحدث عن الأنبياء مبلغي الناس الحكمة والخير (البقرة٤٨) وبخاصة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم (آل عمران١٦٤) مما يعني أن الحكمة لابدّ من أن تعتمد على مرجع أمين دائم الصِّلة بالخبير الحكيم، ولابد أن يكون المرجع (مكتوباً) حتى لايضيع شيء منه على توالي العصور، وهي مسألة حضارية رابعة .

- في حكم الناس الصالح والفاسد حسب ما ورد في القرآن فإنه يشمل التحكيم بين الزوجين عند إرادة الإصلاح والتوفيق (النساء ٣٥) من أجل رأب الصدع في الأسرة، ويحسن أن يكون الحكَمان حكيمين، عندئذ يكون حكمهما مبرماً، ولكن الإنسان غير مؤهل لأن

---

(١) من المصحف الميسر : عبد الجليل عيسى .

يحكم في الشّرك (الأنعام ١٣٦) ولا في تبرير وأد البنت (النحل ٥٩) ولا في التصور العاجز لإفلات المسيء من العقوبة (العنكبوت ٤) ولا في التصور الظالم الخاطئ في مساواة المحسن بالمسيء (الجاثية ٢١) فإن التصورات والمسائل التشريعية الحكيمة تنبثق من الله الحكيم فله وحده الحكم (القصص ٢٠) وهوالحكم الإسلامي الذي يتساوى الناس فيه، أما الجاهلي فهو القائم على الرغبات الخاصة والأهواء المنحرفة ﴿أَفَحُكْمَ الجاهليّةِ يبْغُونَ﴾ (المائدة ٥٠) يتحاكمون فيه ﴿إلى الطّاغوتِ وقدْ أُمِرُوا أنْ يكْفُرُوا بهِ﴾ (النساء ٦٠) . فليس ذلك من الحكمة في شيء، إذ أيّة حكمة في قلب الشر الى خير والرذيلة الى فضيلة والانحراف الى استقامة ؟ إن من صفات (السيادة) في الحكْم الفهم والعلم وممارسة الحكمة.

والفجور في الخصومة يتنافى والحكمة، وهو من أمارات النفاق كما اشتهر في الصحيح، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً : أبغضُ الرّجال إِلى اللهِ الألدُّ الخصِمُ(١) .

وذكر البخاري في باب الاغتباط في العلم حكمة قول عمر: تفقهوا قبل أن تسوّدوا، وقال أبو عبد الله أي (البخاري) : وبعد أن تسوّدوا، وقد تعلّم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كبر سنهم(٢) كما ذكر في باب أجر من قضى بالحكمة(٣) حديث الغبطة السابق .

إن استيعاب الحكم جميع الناس بداية من الفرد ومروراً بالأسرة والمجتمع الى رجال السياسة يقتضى أن نفهم أنَّ تسييس الفعاليات ينبغي أن يكون بالحكمة وفي إطار الحكمة. وهذا الاستيعاب وإن بدا مبتكراً في أفق السياسة المحدود بمفهومه اليوم فإنه يعني تطوراً حضارياً لامثيل له بحيث لايحتكرها فرد أو فئة وإنما هي للأمة بأسرها ليس ذلك على سبيل الإعلام الغائي وإنما هو على سبيل التطبيق، وصدق رسول الله (فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤلٌ عن

---

(١) البخاري : أحكام (٧١٨٨)، والألد : المنحرف، والخصم : كثير الخصومة . ونقل صاحب الفتح قول الرسول صلى الله عليه وسلم . كفى بك إثماً ألا تزال مخاصماً، رواه الطبراني بسند ضعيف وله مايقويه .

(٢) البخاري (٧٣) وتسودوا : تجعلوا سادة .

(٣) ١٣/١٢٠ بشرح الفتح ورقمه (٧١٤١) تقدم .

رعيَّتـه)[1]، فمـا بـالك إذا تعلمناهـا سياسـة حكيمـة راشـدة، وتربينـا عليهـا تربيـة شـامـلة مستوعبة؟

* * * * *

(١) البخاري جمعة (٨٩٣) ومسلم إمارة (١٨٢٩) .

وهو أيضاً خير الحاكمين كما جاء في خمس سور قرآنية مكية هي : الأعراف ويونس وهود ويوسف والتين، وهي خيرية وإحكام يتعلقان بالحكمة والحكم معاً، ويفضلُ بهما جميع الخلق من الحكام والحكماء، فالله خيرهم وأحكمهم باعتباره خالق الحكام وواهب الحكمة لمن يشاء، والثمرة النظرية والعملية من ذلك هي إثارة طموحات الناس جميعاً حكاماً وحكماء الى تفيؤ ظلالهما والاقتباس من منافعهما والولاء لهما والاستمرار في بذلهما الى جانب ما أحاط الله به من كرامته للإنسان المخلوق المختص بهما في تطلع دائم لحكمة الله وعمل دائب لتحقيق هذه الحكمة والحكم في الأرض .

فإذا أضفناهما (خير الحاكمين) و (أحكم الحاكمين) الى الصفة الثابتة الكبرى المنفردة (الحكيم) والتي وردت في القرآن أكثر من (١٢٥) مرة أدركنا مدى اهتمام القرآن التربوي في غرس هذه الصفة جزءاً من العقيدة والسلوك الإنساني الحكيمين .

في اللسان : (وهو الحكيم له الحُكْم، قال الليث : الحَكَمُ الله تعالى . والأزهري : من صفات الله الحَكَم والحكيم والحاكم، ومعاني هذه الأسماء متقاربة، والله أعلم بما أراد بها، وعلينا الإيمان بأنها من أسمائه . ابن الأثير : في أسماء الله تعالى الحَكَم والحكيم وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى فاعل، أو هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها . فهو فعيل بمعنى مفْعِل، وقيل : الحكيم ذو الحكمة ... قال الليث : بلغني أنه نُهي أن يسمى الرجل حكيماً (أوحَكَماً)، ورد الأزهري : وقد سَمَّى الناس حكيماً وحَكَماً، وما علمت النهي عن التسمية بهما صحيحاً، وزاد ابن الأثير في حديث أبي شُريح أنه كان يكَنَّى أب الحكم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله هو الحَكَم، وكنّاه بأبي شريح، وإنما كره ذلك لئلا يشارك الله في صفته ...) .

قال الأزهري الحكم : القضاء بالعدل، وفي الحديث : وبك حاكمت : أي رفعت الحكم إليك، ولا حكم إلاّ بك، وقيل : بك خاصمت في طلب الحكم وإبطال من نازعني في الدين...

واستأثرت سورة النساء بالعدد الأكبر من هذه الصفة، حيث وردت فيها بلفظ (حكيماً) إحدى عشرة مرة هي فواصل آياتها إضافة الى آية واحدة بلفظ الحكيم، وذكرت باللفظ ذاته (الحكيم) في سورة التوبة (٨) مرات وفي سورة البقرة (٧) مرات ... وهكذا تعدد ذكرها في السور المدنية مرتبطة بأهم قضايا (الوجود) وبخاصة في حكمة التشريع الغالبة على الموضوعات الأخرى، بينما تقل أو تندر هذه الصفة الإلهية في كثير من السور المكية بحيث لاتتجاوز الآية الواحدة في كل سورة، على حين أننا نفتقدها في أكثر من (٤٠) سورة مكية وبخاصة بعد سورة (التحريم) وذلك ليكشف الإنسان أول الأمر حكمة الله المبثوثة في الوجود بنفسه وتفكيره ومن ثم يؤكد القرآن هذه الفطرة العقلية .

فالله حكيم بخلقه بداية واستمراراً . أحكم صنع ما خلق، وأتقن تدبير ما أوجد، وأبدع جمالية ما صنَع وصوّر . فسَرَت حكمته في الصغير والكبير والحقير والعظيم، والشاهد والغائب، وطلب من الإنسان أن يتملّى هذه الحكمة الرحبة بعقله وعواطفه، ويتعرف الى مجالاتها بحواسه وروحانيته . فينفعل بها عقله بالمعرفة والعلم وتتأثر بها عواطفه باستشفاف جماليات المظهر والمخبر، وتتعمق في إرادته مكامن القوى بالانفعال والفعل، وهي صفات حضارية متميزة .

وفي كلِّ تسكينةٍ وتحميدةٍ أبداً شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

- وإضافة للمدركات الحضارية السابقة واللاحقة فإن من أوليات تصور المسلم الحضاري أن الله المتصف بالحكمة يستحقّ وحده العبادة، وأن الإنسان المتصف بالحكمة أحياناً يستحق وحده الخلافة وتأسيس الحضارة، فالمسلم لايدين لإلهٍ نزق مشبوب متسلط متطاول كما جاء في أساطير اليونان وانحرافات العرب .

وبالنظر المتأني في الوجود طبيعة وإنساناً وألوهية فإن حكمة الله متناسبة مع ذاته ومتناسبة مع خلقه، إنهاحكمةَ تامة مطلقة، ولذا فهي خالية من الخطأ والتعثر والارتكاس، ومستمرة في كل ما خلق ويخلق ... وهي إذ تفترق عن حكمة المخلوق الذي يتعرض لخطأ أو يجد من هو أحكم منه أو يكتسبها من خبرة وممارسة، وقاصرة على الحاضر والواقع فإن حكمة الله

الذاتية الأزليّة الباقية مرتبطة بالعزة الإلهية والعلم المحيط كما وردت في القرآن، إنها حكمة الخالق وليست حكمة المخلوق، والله خلق الإنسان الحكيم وآتاه الحكمة فهو مصدر الخلق الحكيم ومصدر الحكمة أساساً وينبوعاً .

ـ و هي إلى أنها صفة وصف الله بها ذاته مثل الصفات الأخرى التي يراد فيما يراد منها أن نقتبس منها نظراً وعملاً، ونكتسب من آثارها قيماً ونشاطاً باعتبارها صفة ثابتة لله ومن الله المثل الأعلى فهي مما أسبغها الملائكة عليه،حين علّم آدم الأسماء كلها وأنبأهم بها فقالوا: ﴿إنّكَ أنتَ العليمُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة ٣٢) ومن دعاء إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة القائلين ﴿إنّكَ أنتَ العزيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة ١٢٩) . ومن أحداث يوسف مع أبيه وإخوته في ثلاث آيات (٦،٨٣،١٠٠) وإيمان (لوط) بإبراهيم عليهما السلام (العنكبوت ٢٦) وضيوف إبراهيم وبشارتهم زوجه بولادة إسحاق قائلين على غير الأسلوب القرآني العام ﴿إنّهُ هوَ الحَكِيمُ العَليمُ﴾ (الذاريات ٣٠) ودعاء إبراهيم والمؤمنين في مواجهة التحديات الكافرة (الممتحنة ٥) ...إنها جميعاً مما أطلقه الملائكة والأنبياء والمؤمنون من الحكمة على الله تعالى بدافع من فطرتهم وإيمانهم . وحكمة الحضارات في المنشأ والارتقاء والدمار لا تتأثر بالصدفة ولا تحكمها الأمزجة، وإنما هي تنشأ وتتطور وتزول بالنواميس الحكيمة التي يحرص المسلمون عليها معتبرين بحكمة الله في زوال الحضارات، ملتزمين بوضع الأمور مواضعها، مقدرين السنن الكونية المحكمة أقدراها . وهي بطبيعة الحال متلازمة مع القدرة والعلم والعزة والخبرة والعمل تبعث على الإفادة من صفة الحكمة ومن الصفات المقترنة الأخرى في أقصى مجالاتها وميادينها مع الضبط الحكيم والتصرف المقدر، فمن سنن التدمير (استفزاز) أولي الرأي والحكمة والخير من بلادهم (الإسراء ٧٦،٧٧) وأن القوة الماديّة وحدها لاتدفع الدمار (فاطر ٤٣) وعاقبة المكذبين (آل عمران ١٣٧) ....

– ولترسيخ هذه الصفة العظيمة ساقها القرآن بأسلوب الثبوت والدوام مطلقة متجردة عن الزمان والمكان لفظاً ومعنى وهذا هو الأغلب على سياقاتها، وكذلك أوردها مقترنة بفعل (الكون)في(١٦) آية مؤكدة بـ (إن) وغير مؤكدة بها .. مثل:﴿وَ كانَ اللهُ عَليماً حَكِيماً﴾

(النساء ١٠٤) وغيرها و ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (الأحزاب ١) وغيرها . فهي الصفة الثابتة لله بغض النظر عن المدى الزماني والحيز المكاني المحدودين .

- وهي تالية لصفات الله تعالى ونهاية لها مثل ﴿هوَ اللَّهُ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾ (سبأ ٢٧) وغيرها ما عدا صفة (الخبرة) ، فقد أخرها عنها في أربع آيات في القهر المطلق : فالله ﴿هوَ القَاهِرُ فوقَ عِبادِهِ وَهوَ الحَكِيمُ الخَبيرُ﴾ (الأنعام ١٨) والعلم المطلق الشامل للغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (الأنعام ٧١) و القرآن وحي الله المنزل من الحكيم الخبير (هود ١)، وفي المالكية الإلهية للسموات والأرض ﴿وهوَ الحكيمُ الخبيرُ﴾ (سبأ ١) وخمس آيات تقدّمت فيها الحكمة على العلم لمناسبة وحكمة(١)، وآية وصفَ اللهُ بها نفسه بالحمد وأخّره عن الحكمة في تنزيل القرآن (فصلت ٤٢) . ولكلٍ من تأخير الحكمة وهو الأعم والأغلب وتأخيرها وهو الأقل والنادر حكمة .

- فالحكمة المتأخرة دوماً في السّياق متناسبة مع الصفات الأخرى، ومناسبة لجلال الله وجماله، ومناسبة لتصرف الله مع مخلوقاته . فالعلم والعزة والتوبة ... يتطلب كل منها الحكمة الإلهية أيضاً، وإلاّ فإن العلم من غير الحكمة يؤول الى الفساد والخراب، والعزّة من غير الحكمة تؤول الى الطغيان، والتوبة الى تفلّتٍ، والوسع الى تصورات خاطئة عن الله وصفاته . وهي صفات ذات آثار حضارية خطيرة في تطور الإنسانية الماديّ والمعنويّ .

- إن اقتران الحكمة بالعلم خاصة يؤكد على تخفيف غلواء العلم وتوظيفه في خير الناس ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَليمٍ﴾ (النحل ٦) ويوحي بأن الحكمة والعلم وإن انفردا أحياناً فإن حكمة الحكيم لاتكتمل إلاّ بالعلم، وإن صلاحية العلم لاتتحقق إلا بالحكمة، ومع هذا وذاك فإن الحكمة مقدَّمة باعتبارها العلم النافع والعمل القويم، وهي قدر مشترك بين الناس علماء وغير علماء، والحكمة تتطلب القوة والعزة لتحقيقها والعمل بها، فالضّعف يحيلها الى تسيّب وتفلّت، ولذا فقد اقترنت متقدمة في آيات أخرى بالعزة الإلهية ﴿تنزيلُ الكِتابِ منَ اللهِ العَزيزِ الحَكيمِ﴾ (الزمر ١) و (الجاثية ٢) و (الأحقاف ٢) فالعزة

---

(١) هي (المائدة ٨٣) و (الحجر ٢٥) و (النمل ٦) و (الزخرف ٨٤) و (الذّاريات ٣٠) .

أكثر الصفات اقتراناً بها، فإن جلالية الله ورفعته تتناسب وجلال القرآن ورفعته، وأعْظِمْ بها جلالية عزيزة حكيمة كانت وحياً لجميع من كان قبله من الأنبياء والرسل .

– وإذا استأثرتْ صفتا العلم والعزة بحكمة الله تعالى أكثر من غيرها وتقدمتا عليها دوماً فإن تقدم (الحكمة) وهي من أغنى الصفات الإلهية في القرآن على (الخبرة) كما أشرت يلفتُ الذهن الى أنه في (آيتي الأنعام) متناسبة مع صفة القهر والفوقية الإلهية على العباد، فهي قهرية حكيمة وفوقية حكيمة في الآية الأولى، وعلمية مطلقة ولكنها حكيمة في الآية الثانية، وكذلك في (آية هود) متناسبة مع تنزيل القرآن من حكمة الله وحده يقيناً، وآية (سبأ) المناسبة للملكية المطلقة لله تعالى والتي يتصرف فيها بحكمة وتقدير .

إن الحكمة الإلهية لابدَّ من أن تسبق صفة الله (الخبير) حتى تنفي التماثل بين الله والإنسان الذي يكتسب الحكمة من الخبرة الإنسانية مع ضرورة اقترانهما بالله تعالى : لتحقيق الكمال الإلهي في الصفات والأفعال .

– والحكمة تزيد على صفات العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام بالتدبير المحكَم والاتقان البديع، ولو أن هذه الصفات متناسقة ومتلازمة مع صفة الحكيم، إذ لاتقع الحكمة من جاهل عاجز مكره ميّت .. كما لايكون حكيماً من كان عاجزاً مكرهاً ضعيفاً معدماً . فلا تستوفي صفات العلم والقدرة والإرادة والحياة صلاحياتها ومنافعها في حالات العدمية والحمق والطيش والنزق، وترتبط صفة (الظاهر) خاصة بانتظام الخلق وتقدير الكون وتسوية الموجودات أرضية وفضائية وسماوية وبشرية، فإن بثَّ هذه الصفة فيها آية الحكمة والإبداع، وإذ أنها زيادة عن الصفات السابقة فهي العلم وزيادة والقدرة وإضافة، والإدارة والعدل فإنها ضابطة لها ـ في غير الذات الإلهية طبعاً ـ من الشّطط والغلو والظلم من ناحية، والانكماش والقصور والضّعف من ناحية أخرى . ولذا فإنها كثرت مع صفتي العلم والعزة أكثر من غيرها(١) .

– وإذ أن الحكمة تزيد على الصفات الإلهية السابقة كما أشرت، فهذا يعني أنها مرتبطة بها على النحو الذي يليق به . فعلم الله حكيم، وقدرته موزونة وإرادته بصيرة ... ولذا لم

---

(١) وانظر حكمة هذه العلاقات والصفات في وصف (القرآن الحكيم) .

يُطلق القرآن (صفة الحكيم) إلاّ على ذاته المقدسة فلم يصف بها إنساناً حتى وإن كان نبياً، وجلُّ ما هنالك أن الله آتاها بعض عباده من الأنبياء والأصفياء الذين يفترض فيهم أن يبلغوهم غيرهم باعتبارها تعاليم وأحكام حكيمة، ولكنه لم يصف بها سواه، فسليمان الحكيم، وداود الحكيم، ولقمان الحكيم ... شخصيات آتاهم الله الحكمة لأنّ كلاً منهم يستحقها، وكأنها في القرآن تشبه صفة (الرحمن) التي لاتطلق إلا على الله وحده، ومع ذلك فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بها بعض صحابته أو بعض قومه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأشعريين بعد أن وصف تميزهم بتلاوة القرآن : ومنهُم حكيمٌ إذا لقيَ الخيلَ - أو قال العدوَ - قال لهم : إنّ أصحابي يأمرونَكمُ أن تَنظُروهم(١) .

فإن حكيم الأشعريين لاينفرد بمواجهة الخصوم وإنما يتعاون مع الآخرين، فلا تدفعه الحمية والنزق الى النزال منفرداً، وهي حكمة النظام القتالي الذي كان حكماء الأشعريين يحرصون عليه ويمارسونه، وفي الحديث القدسي يبين فيه الله تعالى هموم (الحكيم) ورغبته في الإصلاح مادامت في طاعة الله ورضوانه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : إِنّي لستُ كلّ كلامِ الحكيمِ أقبلُ، ولكنّي أتقبَّلُ همَّهُ وهواهُ، فإنْ كانَ همُّه وهواهُ في طاعتي جعلتُ صمتَه حمداً لي ووقاراً وإن لم يتكلمْ(٢) .

ومن ثم انتشرت بين العلماء والشعراء والآباء الذين كانوا يقولون الحكمة أو يؤلفون فيها .

---

(١) مسلم : فضائل الصحابة (٢٤٩٩) ومعنى تنظروهم : تنتظروهم، ومن ذلك قوله تعالى: (انظرونا نقتبسْ منْ نُورِكُم) .

(٢) الدارمي : باب العمل بالعلم وحسن النية فيه ١/٨٠ .

حكمة الله وصفات أخرى مشابهة

تقدّم أن الصّفات الإلهية الكثيرة تستوعب دلالات وظلالاً من الحكمة الإلهية، وبالعكس فإن الحكمة الإلهية لاتتحقق على الوجه الأكمل المطلق إلا مع أسمائه وصفاته الحسنى ومن ذلك:

الحقّ : فالحكمة حق وخير، ولاتكون الحكمة إلا بالحق وفي الحق، ومن ناحية ثانية ، فالله هو الحق، ونسق خَلْقَه حق، ووزنه الأشياء حق، وصلة بعضها ببعض بالحكمة حقّ، وجمالية إحساساتها بالعقل والعاطفة والانفعال حقّ . فلا يكون الحق حقاً إلا بالحكمة مثل ما أن الحكمة لاتكون حكمة إلاّ بالحقّ، إذ متى يحمل الباطل والفوضى والعبثية والقبح الحكمة والتقدير ؟ إن ربط السموات والأرض بالحق خلقاً وتزييناً وانتظاماً أخذت أوسع الموضوعات القرآنية وأكثر الآيات والسور .

الربّ : فالحكمة والربوبية متلازمتان لما في الرب من الرعاية والتربية ، وفي الأصل فإن غلبة اقتران (الألوهية) بالحكمة، وإطلاقها كثيراً اتخذت ضمائر الخطاب مثلاً : ﴿أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾ (البقرة ٣٢، ١٢٩) وضمائر الغيبة مثلاً:﴿وهوَ العزيزُ الحكِيمُ﴾ (الأنعام ١٨،٧٣) وغيرها . وإن (ربوبية) الله أخذت مكانها في عدد من آيات الحكمة باعتبارها فعلاً مستمراً يقتضي وضع الأمور في موضعها أبداً، كما تقتضي الحكمة الإلهية في التنشئة والتشريع والتوجيه والتربية، فالرَّبُّ من أغزر المواد القرآنية وباتصاله بالحكمة يلهم أن ربوبية الله حكيمة لاتصدر إلا عن تدبير وعدل، وليست تسلطاً وإعناتاً وإجباراً، فهو بصراحة يعقوب عليه السلام بنِعَم النبوة على يوسف (يوسف ٦) وبصراحة يوسف عليه السلام أيضاً من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته (يوسف ١٠٠) ودعاء إبراهيم لأبيه واستغفاره له (الممتحنة ٥)، ومن وحيّ الله بالحكمة للرسول عليه السلام (الإسراء ٣٩)، ويوم الحشر في خصومة التابعين والمتبوعين (الأنعام ١٢٨) ...

وبالنسبة (للربيين) فهم المؤمنون المخلصون للربِّ الملتزمون بأقصى إمكاناتهم بتعاليمه، المحبّون له، المدافعون الصامدون والمضحون، المستبسلون في سبيل مقدساته وحرماته (آل عمران ١٤٦) . وبالنسبة (للربانيّ) الصفة المشتركة بين الأنبياء وأصفيائهم والسائرين على

خطاهم، فإن مسؤليات النبي الرباني التعلم والتعليم، بل والبحث والدراسة فيهما فلا تعبيد مع الحكمة، وقد جمعوا الحكمة مع النبوة والربانية (آل عمران ٧٩ــ٨٠) فهم بشر تتحدد ربّانيتهم ببشريتهم وهم أناس تتحلّى إنسانيتهم بربانيتهم وليسوا من الألوهية والربوبية في شيء . وأما الأصفياء فهم حاكمون بالشرائع مثل أنبيائهم وأحبارهم (المائدة ٤٤) ومكلّفون بحماية المجتمع من المفاسد الاجتماعية من قول الإثم وأكل السحت (المائدة ٦٣) . وهؤلاء وأولئك لابدّ لهم من الحكمةالتي صرَّح الله بهافي مواضع ولّمح بهافي مواضع أخرى.

__القيّوم :__ القيّام بأمور الخلق وتدبير العالم في جميع أحواله، فلا يقوم موجود إلاّ به حتى لايُتصور شيء إلا بوجوده ، ولا دوام لوجوده إلاّ بقيومته وقالوا : هو القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم، وقالوا : القائم بأمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بمستقرهم ومستودعهم، واشتقوا من مادته أمر قيّم : مستقيم ، وفي تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ذَلكَ الدّينُ القيّمُ﴾ (التوبة ٣٦) وغيرها : المستقيم الذي لازيغ فيه ولاميل عن الحق، وقوله: ﴿فيها كُتبٌ قيّمةٌ﴾ (البينة ٣)أي مستقيمة تبيّن الحق من الباطل على استواء وبرهان ومنه قَيمُ المسجد،وقوامة الرجل التي تفيد الاستقامة وحسن التدبير : كما جاء في (اللسان).

__المحيط :__ من أعجب صفات الله التي تطال القدرة الفائقة والعلم الشامل والقوامة الحكيمة، والحفظ والتعهد والرعاية الدائمة . فكل من أحرز شيئاً وبلغ علمه أقصاه فقد أحاط به، وأحدق به من جوانبه كله . وقوله تعالى ﴿واللهُ منْ ورائهمْ مُحيطٌ﴾ (البروج ٢٠) أي لايعجزه أحد، وقدرته مشتملة عليه، وقوله على لسان الهدهد ﴿أَحطتُ بما لمْ تُحطْ به﴾(النمل ٢٢) علمته من جميع جهاته . وحوّاط الأمر : قوامه ، وكل من بلغ أقصى شيء وأحصى علمه فقد أحاط به، فالمحيط يتضمن قدرة وعلماً وقوامة وحكمة .

__بديع السموات والأرض، نور السموات والأرض، فاطر السموات والأرض ....__ أسماء وصفات تغلب عليها السمات الجمالية ضمن إطار الحكمة الإلهية المطلقة(١) . والجمالية أصلاً وهي التناسب والتنسيق تشمل المرئيات والمسموعات والمشمومات .... ألواناً وأحجاماً وكيفيات تُحسّ بأروع من أن تفصّل، وتُذاق بأعظم وأبهى من أن تحدّ، وهي إذ

(١) انظر الصفات الجمالية لله تعالى، في كتابي : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم .

بثّها الله في مخلوقاته الهائلة والدقيقة والصغيرة العجيبة فإنها تعبر عن (إن الله جميل يحب الجمال)(1) . وإذا اختلفت أذواق الناس بالجمالية في أشياء فإنها متفقة في كونيات كثيرة أودعها الله في خلقه، فلكل ذوق جماليته من أي عرق ولون ولسان . و (المصوّر) من أسماء الله الحسنى هو الذي صوّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها(2) ، ولم ترد في القرآن إلاّ في تصوير (الإنسان) وحده بالصور الحسنة ﴿في أيّ صُورةٍ مَا شَاءَ رَكَّبكَ﴾ (الانفطار ٨) فالتقى الإبداع التصويري في الله المصوِّر وفي الإنسان المصوَّر الذي كان من آياته اختلاف الألسنة والألوان(الروم ٢٢) فهي جميعاً في ﴿وصوَّركُمْ فَأحسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر ٦٤)و(التغابن٣).

---

(1) جزء من حديث لمسلم ٢/٨٩ بشرح النووي .

(2) الأقوال السابقة من لسان العرب .

تجلّيات الحكمةِ الإلهيةِ (١)

تتجلّى حكمة الله وصفاً وفعلاً في أخطر مسائل الفكر والعمل والحياة، فمناطاتها وعلاقاتها في القرآن شاملة وعميقة، وارتباطاتها وجودية تابعة للوجود ذاته، فقد وصف الله بها ذاته المقدسة، فالله حكيم في ذاته وصفاته وأفعاله: حكيم في الإنسان، وحكيم في الطبيعة، وحكيم في النبوات، وحكيم في التشريع، وفي التاريخ وفي المصائر، وقد أمضاها وفق حكمته وتقديره : فإذا أعطى فلحكمة وإذا منع فلتقدير، فهناك حكمة أو حِكَم لتخصيص الله بها شخصاً أو جماعة، إلهية ظاهرة أو مضمرة، وحكمة من البشر أنفسهم حيث أقبلوا عليها ونهلوا من ينابيعها وعاشوا في خيرها، والإنسان عادة يسأل عن الحكمة المكتسبة أكثر مما يسأل عن الحكمة الإلهية التي لابدّ فيها من سببية وتعليل على مدى الزمان . وسنبرز أهم موضوعات الحكمة في القرآن :

في الله وصفاته وأفعاله : وفي مقدمتها القرآن وصفاً وتنزيلاً ووحياً وتلقياً (وسنفصل الكلام عليه فيما بعد) .

واقترنت (حكمة) الله بقدرته الفائقة والخارقة على الإيجاد والخلق والتحكم الحكيم، وأبرزت الشهادة له بالواحدانية وقيامه بالقسط، وانتظمت في صفات الملك الواسع والعلم المحيط، وألوهية السماء والأرض، وكذلك حكمته في هداية الناس وإضلالهم، وفي رحمة الله الشاملة إمساكاً وعطاءً، وظهرت في الوحي الإلهي المتقدم وأشكاله، وفي تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوب المؤمنين، ولله المثل الأعلى في كل شيء فهو الحكيم الخبير العليم .

<u>في الإنسان :</u> تكوينه البدني في الأرحام، وتكوينه العقلي أمام الملائكة، واستعداده التربوي مرسلاً ومستقبلاً ومصيراً، وبيان مشيئته ومشيئة الله، وفي توبته وخلاصه من الآثام، وخلافته الصالحة الحكيمة .

---

(١) اقتصرنا في ذكر التجليات على الآيات التي صرحت بالحكمة غالباً ، وانظر سابقاً : مواقع الحكمة في القرآن .

في الرسول محمد والرسل عليهم السلام : الرسل مبشرون ومنذرون ـ وحجة إبراهيم ودعاؤه في قومه ومنزلته، ودعاؤه عند البيت الحرام وغيره ، وفي حمل زوجته وولادته باسحاق مع التنويه بالانفعالات النفسية ـ والوحي الإلهي لموسى ـ وبشرية عيسى ورفعه الى الله ـ ودعاء إبراهيم في بعث محمد صلى الله عليه وسلم معلم الكتاب والحكمة ومزكيهم، وخصّ بعثة الرسول في الأميين ومن بعدهم ليعلمهم إياها، وأمر الله رسوله بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين. وظهرت حِكَمُ القرآن على المسلمين خاصة حتى صرح ببعضها،ومنها:

في التشريع : وقد أخذت (الحكمة) الإلهية فيه الحيّز الأكبر : في مسائله وقضاياه المتشعبة وقدّم الله ذلك بتنبيه الناس الى حكمة تشريع الله الحكيم والزجر عن تشريع الجاهليين . ومن ذلك :

* **التشريع الأسري** : وهو أغناها وأوفاها، ومن مسائله التي توفرت فيها حكمة الله : معاملة اليتامى، وتعادل حقوق الرجال والنساء، وعدّة المطلقات، والميراث والمستحقون من الورثة، وفي الزواج من العفيفات ووجوب المهر لهنّ، وآداب التفريق بين الزوجين ــ ونظام الملاعنة، وأحكام وآداب الاستئذان في أوقاته الثلاثة والسماح للأطفال، وتحليل الأيْمان ...

* **التشريع العبادي** : في الزكاة ومستحقيها الثمانية، والحضّ على الصدقات باعتبارها إقراضاً لله تعالى، وتسبيح الكائنات الحيّة والجامدة لله، وطهارة البيت الحرام والعبادة فيه .

* **التشريع الاقتصادي والاجتماعي** : وعدَ الله المسلمين بالغنى و- إثم الكسب الحرام ـ وولاية المؤمنين بعضهم بعضاً، وجزاء المؤمنين والكافرين ومسؤلياتهم، وأمور تتعلق بالبيع والدَّين والرِّبا ...

* **التشريع الجهادي :** في أحكام الأسرى ومعاملتهم، والإقلاع عن خيانة الغنائم، وأدب المغانم عموماً، وتطمين قلوب المجاهدين جند الله، ونصر الله المؤمنين وفق حكمته، ولله جنود كثيرون يؤيدون المؤمنين، وتعقيب على صلاة الجهاد، وحكم الله في الممتحنات، وكلمة الله العليا وكلمة الكافرين السفلى .

* **التشريع العام :** الدخول في السِّلم كافّة، ومسجد الضّرار والمنافقون المرجئون .

في حكمة التاريخ وبخاصة تاريخ الأنبياء .

في حكمة المصائر : وهي مرتبطة بالعدل الإلهي والمسؤلية البشرية .

إن أمهات المسائل المتقدمة من صميم القيم الحضارية في القرآن تمثلت في العمـران نشـاطات وأعمالاً ذات أبعاد حضارية عالمية، ضمن فعاليات متجددة ليرسـو عليهـا البنيـان الحضـاري المسلم في كل حين .

نماذج من المسائل الحكمية

حكمة الكون : وإذا لم ترتبط صفة (الحكيم) بآيات النظام صراحة ماعدا آية (سبأ ١) الـتي تفيد ملكية الله للسموات والأرض وهو يتصرف بهـا بحكمـة فـإن هـذه الآيـات مبثوثـة في كتاب الله، فقد اقتضت حكمة الله أن تعرض آيات الجمال الكوني بنسقه البديـع مـن غـير تذييل لفظي صريح بالحكمة الربانية . خذ لذلك ماجاء في آيـات (الأنعـام ١٠١) و (النمـل ٦٠) و (فاطر ٢٧-٢٨) و (النازعات ٢٨-٣٤) و (الغاشية ١٧-٢٠) وغيرها، فـإن التنسـيق الكوني من الله الحكيم وبقاء هذا التنسيق لصلاحية الحياة والأحياء من تدبـير الله وحكمتـه في نظام نواميسه الدقيقة .

ففي عظمة الأجرام السماوية وخلقها الأكبر وتوازنها في مداراتها العجيبة الهائلـة الضخمـة، الى جانب تسخيرها لمنفعة الإنسان باعتباره أشرفها وأرقاها، حكمة ونظام .

وفي هذه الحجوم للمجرات والنجوم والسدم وبروجها الـتي أقسـم الله بهـا وبمواقعهـا ودقـة الخلق ودقة العمل على الرغم مما بينها من المسافات المقدرة بالسنين الضوئية،حكمة ونظام .

وفي استخدام علـم الفضـاء المتسـارع الخطـى المتعـدد المصـالح علومـاً عديـدة مثـل الفلـك والرياضيات والطيران والفيزياء والأحياء حتى سمى العالم الأمريكي (هيكمان) ذلك بالأشعة الكونية التي يصل منها الى غلاف الأرض ما يقرب من (بليـون بليـون) قسـم أولي، بصـورة متوازنة، حكمة ونظام .

وفي إحاطة الطبقات الغازية بالأرض وبنسبها المقدرة لسمْك قشرة الأرض المعين، وإرسـائها بالجبال حتى لاتتطاير، وإعلان علمـاء البيئـة عـن ضـرورة المحافظـة علىطبقـة الأوزون منـذ ١٩٨٥ الى جانب دقة التوافق والتناسب بين الرياح والأمطار آيات في الحكمة والنظام .

وفي الملاءمةبين مكونات الإنسان الماديةوعناصر الأرض والجومن حيث التربة والضغط، ومع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس الثابت، الى جانب عالم البحار والمحيطات الأكبر وأبعاد الأجرام السماوية عن الأرض، ودقة نسب الأوكسجين، وثاني أوكسيد الكربون لحياة الإنسان والحيوان والنبات من حكمة تسمية القرآن العديد من السور بأسماء الأجرام المختلفة ، يتخذ منها عبرة العلم والحكمة وعبرة الإيمان والعقيدة وعبرة المنفعة والتسخير .

وكان من حكمة الله أيضاً أن تنطق هذه النواميس الدقيقة الثابتة بلسان حالها وواقع أمرها وجمالية نظامها، وأن يطوي القرآن هذه الصفة (الحكيم) هنا ويصرّح بها في مجالات قد تبدو بعيدة عن شمول الحكمة وتغلغلها فكرية وسلوكية هامة، فإن في طيها هناك وصراحتها هنا عمق العمل الحكمي في أخطر مسائل الله والكون و الإنسان والحياة .

الدخول في السِّلم كافّة : وذلك في قوله ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا ادخُلُوا في السِّلْم كافّةً ولاتَتبعوا خُطواتِ الشَّيطانِ إنّه لكمْ عدوٌ مبينٌ ♦ فإنْ زَلَلتمْ مِنْ بعدِ ما جاءَتْكُمُ البيناتُ فاعلَمُوا أنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ﴾ (البقرة ٢٠٨ـ٢٠٩) . فهو سلم المؤمنين كافة ولجميع الأعمال ووجوه البِرِّ، وبالدقة فهما (سِلْمان) متناسبان متلازمان : كافة الأشخاص لكافة الأحوال حتى أصبحا (سِلماً) واحداً .

وهذا هو مقتضى الخطاب الإيماني ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا﴾ والذي يلهم أن الإيمان استسلام كامل وطاعة تامّة لله، وأن المؤمنين مؤهلون للدخول في السلم كافة ماداموا أسلموا ذواتهم له، وأن دخولهم السلمي تربية وإعلام ومعاملة لجميع الأشخاص مؤمنين وغير مؤمنين، فالمؤمنون مسالمون وداعون الى السلام، ويبلغون غيرهم السلام الذي فسره ابن كثير بالإسلام : يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك ... ولكن ﴿مِنْ بعْدِ ما جَاءَتكُمُ البينَاتُ﴾ من (الحجج والشواهد على أن مادعيتم الى الدخول فيه هو الحق ـ فالله ـ غالب لا يعجزه الانتقام منكم، حكيم لاينتقم إلا بحق . رُوي أن قارئاً قرأ (غفورٌ رحيمٌ) فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن، وقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، فلا يذكر الغفران عند الزّلل لأنه إغراء عليه) كما قال الكشاف .

إنّه (إسلام) ﴿مَنْ في السّموات والأرضِ طَوعاً وكَرهـاً وإليهِ يُرجَعُون﴾ (آل عمران ٨٣) وطلب الدخول في رحاب السلم العام الشامل دخولاً مجرداً عن خطوات الشيطان العدو المبين، دخول الطمأنينة والاستقرار والحقّ والخير بعد أن كان النّاس بعيدين عنه خارجين منه، إنه دخول مستقيم لايقدر الشيطان على تحريفه،ودخول بيِّن لايمكن أن ينحرف و يَزِل.
إن الدخول في السِّلم كافة ترعاه حكمة الله الحانية الشاملة، ليس دخولاً فوضوياً ولا اعتباطياً ولا أهوائياً، وإنما هو الدخول المقصود الهادف لتحقيق السلم الذاتي والاجتماعي والإنساني .

البيت المسلم والحكمة :

الصالحون وأزواجهم وذرِّياتهم : فتربية البيت المسلم وصلاح أفراده من أهم مقاصد الإسلام في الإصلاح والتغيير، فالأسرة هي المحضن الطبيعي للعملية التربوية الناجحة، والآباء والأمهات يشتركون في إنجاح هذه العملية فتنبت براعمهم في البيئة الصالحة لتحقق المجتمع الصالح . وحكمة الله واضحة وفاعلة في هذا المجال . فلا يتأتى صلاح الذرِّية من فراغ، ولاتتحقق التربية النوعية في إطار الفوضى والجهالة التربويين، فالتربية بأصولها ومناهجها ونشاطاتها ومجالاتها في الترتيب السلمي الحكمي الذي طلب القرآن من عناصره الفعالة أن يصعدوا فيه درجة درجة، وهو عمل دائب وفعالية مستمرة . فإذا كانت الأسرة خلية المجتمع فإن حيوية هذه العملية بمقدار صلاح العملية التربوية الحكيمة التي تحزم في وقت الحزم وتلين في حالة اللين، وتقدم الرأي السديد بين الآراء، والعاطفة الجميلة في مضمار العواطف . إنها توجه وتسدد وتبني وتنبه وتصرف وتحمي الشخصية القابلة للتوجيه والبناء والحماية، وإن غرس المدركات العقلية والشعورية والروحية والخلقية من أولى مهمات البيت ومن أخطرها . والحكمة تقتضي أن يتحقق ذلك كله في المحضن الطبيعي والبيئة الصالحة لعملية الإصلاح النفسي والبدني والعقلي . وهو دعاء الملائكة بالمغفرة للتائبين السالكين سبيل الله، دعاء ليقيهم عذاب الجحيم وإدخالهم جنّات عدن ﴿ربَّنا وأَدْخلهمْ جنّاتِ عدنٍ التي وعدتَّهمْ ومَن صَلَح مِن آبائِهمْ وأزواجِهمْ وذرِّياتِهمْ إنّكَ أنتَ العزيزُالحَكيمُ﴾(غافر ٨).

إنه مصير الآباء والأزواج والذرية الصالحين عند الله تعالى فهي ﴿ذرِّيَّةً بعضُهـا مِن بعـضٍ﴾ (آل عمران ٣٤) ، وأي تكريم أعذب مـن أن يجمـع الله الأسـرة الصالحـة عنـده في جنـات عدن تحييهم الملائكة من كل باب (الرعد ٢٣-٢٤) وفي هذا المصير المشترك يلهم أنه محصلـة لثلاثة أعمال هامة : الاشتراك في الصلاح، والتربية التي ساهم فيها الأبوان، والتربية الناجحـة التي تحتاج الى صبر وحكمـة ... إنهـا خير في الأرض وصـلاح في السـماء وعاقبـة طيبـة في الآخرة، فهل ترجو أسرة أو تحلم بمثل هـذه الخيرات؟ وهـل يتـم تواصـل في صـلاح البيـت المسلم في الدنيا والآخرة بمثل التواصل الحضاري الرحب الشامل ؟[1] .

مشيئة الإنسان وحكمة الله : وبمقتضى ربط الحكمة الإلهية بصفات آخرى فـإن النواميـس الإلهية محكمة الصنع متقنة الحركة والنشاط، وهي بأسبابها ومسبباتها مـن مشـيئة الله تعـالى لأنها من العليم الحكيم كما قال﴿وَما تَشاؤُونَ إِلاّ أَنْ يشاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾ (الإنسان ٣٠) والمشيئة الإلهية الحكيمة تستوعب مشيئة الإنسـان الـذي يقتبـس مشيئته مـن حكمة الله التي تدفعه لأن يقوم بعمله ونشـاطه بأمر الله وتوجيهـه، فمـن الحكمـة الإلهيـة كسب الإنسان واختياره ومن ثم مسؤليته عنهمـا مسـؤلية حقوقيـة وأخرويـة . فقـد أثبتـت الآية السابقة هذه المشيئة الحرة له بعد الذكرى النافعة ﴿إِنّ هذهِ تَذكِرةٌ فَمَنْ شـاءَ اتَّخـذَ إِلى ربِّه سَبيلاً﴾ (الإنسان ٢٩) . وإذا كانت سورة (الإنسان) التي اقتبسنا منها الآيتين، من أبين السور القرآنية على خصوصية للإنسـان خلقـاً وتكليفـاً ومصـيراً فـإن قـواه البدنيـة والعقليـة والشعورية ضمن النوامس الإلهية وفي التقدير الحكيم الذي جعله الله في أحسن تقويم[2] .

ففي حدوث المرض وحكمته حكمة الشفاء، وفي إزالة الفقـر وحكمتـه حكمـة اليسـر، وفي وجود الجهل حكمة العلم، وفي وقوع الشر حكمة الخير ، وفي سهولة الباطل حكمة الحق . وإن وجود المرض والفقر والجهل والشر والباطل لايعني أنها سـنن مـن مشـيئة ثابتـة لاتتغير ولاتتبدل فهي (ابتلاءات) متغيرة متنقلة لاينبغي اعتبارها حكماً ثابتة يرضى عنهـا المسـلمون حتى يصبحوا فقراء ضعفاء جهلاء ... وإذا كان الدعاء يردُّ القضاء ويقي شر القدر فإن من

---

(١) للمؤلف من كتاب :الخير ١٤١ .

(٢) انظر رسالة خاصة لابن تيمية في شرح هذه السورة .

حكمة المشيئة الربانية تحدّي الإنسان الباطل والجهل والشرور ودفعه بحكمة الى الشفاء والغنى والعلم والحق والخير ... وإذا خاطبنا الله بمشيئة الشيطان الواعدة بالفقر الآمرة بالفحشاء فإنه خاطبنا أيضاً بمشيئة الله وحده بالمغفرة والفضل الواسع (البقرة ٢٦٨) إن الخير والشر من مشيئة الله ، ولكن للمشيئة سننها الإلهية الحكيمة التي ترتقي بالإنسان نحو الخير الكامل والحق البيّن، أو تهبط به نحو الشر البغيض والباطل الكريه، ولذا فإن مشيئة الشر لاتقعده عن عمل الخير ولا تأمره بفعل المنكر ولاتجنبه الحق، ثم إنها لاتحرمه من قواه الحسية والمعنوية ولاتقعده عن طلب العمران المادي والروحي والعلمي، ألم يأمر الله تعالى بالقسط (الأعراف ٢٩) ، وألاّ نعبد سواه (يوسف ٤٠) ؟ ، ألم يدعُنا الله الى النجاة (غافر ٤١) والى الصراط المستقيم (المؤمنون ٧٣) ؟ أوليس الله يدعو الى دار السلام (يونس ٢٥) ويقضي بالحق (غافر ٢٠) ويطلب منا الدعوة والاستقامة (الشورى ١٥) والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة (النحل ١٢٥) . أوَ لا تفعل حكمة الله فعلها الموزون الخيّر الواسع في الإنسان والنبوات والتشريع والتاريخ والحضارات وفي خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما؟ إن ذلك كله مستمد بصوره الظاهرة والخفية من (أحكم الحاكمين).

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

حكمة الأنبياء .... والقرآن

فضائل في حكمة النّبوات :

أخذت حكمة الأنبياء وكتبهم مواقفهم أعظم حيز في القرآن الكريم، فإلى جانب سور الأنبياء وآل عمران ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر ومريم والقصص ومحمد نجد الآيات الكثيرات مبثوثة في سائر السور الطويلة والمتوسطة والقصيرة، وإن الرسل المختارين لطبائعهم الخاصة وأخلاقهم النبوية واستعداداتهم اللدنّية تتسق مع الوحي الإلهي حكمة الله المبثوثة في كتبهم وشخصياتهم، التي هي في الحقيقة كتاب واحد وحكمة واحدة مهما اختلف الناس الآخرون في طبائعهم ومواهبهم واستعداداتهم .

- وإذا تمثّلت حكمة الأنبياء في أشخاصهم وفي مبادئهم فإن لواء المصداقية والحقّية والخيرية يلفّها بظلاله الوارفة، فشخصية النبي المختارة تمتاز بالفطنة والذكاء وحسن التصرف وسلامة المنشط وصدق القول والحال، وهذه أيضاً متوفرة في صميم المبادئ التي تشمل العقائد وأصول الأخلاق والحكمة إذ تجمع الوحدة، والأخوة، والواقعية، والتحررية، فإن تمثلها في أشخاصهم ومبادئهم لابدّ من أن يفيض على الأشخاص الآخرين بالإصلاح، وعلى تصوراتهم وتقاليدهم وأحوالهم بالتحضير . وتستوعب الوحدة فيما تستوعب : المصدر الإلهي الواحد، والمضمون الديني الواحد، وتشمل الأخوةُ فيما تشمل : أخوة النبوة ونبوة العلاّت(١) والتواصل العقدي الأخوي المترابط .

- وإذا اختصت واقعية الحكمة المعالجة المناسبة لصالح أقوامهم والمقتبسة من الوحي الإلهي، وبإرادة الإصلاح والتغيير الواقعيين فإن من أولى مزاياها عموميتها وتحررها من الوثنيات المادية والشخصية والمعنوية، وتحرزها من الأمزجة والأهوائية والمصالح الشخصية، وسواء تمكنت هذه الحكمة من القلوب والأعمال فنجح الأنبياء في التبليغ والإصلاح أو لم تتمكن

---

(١) البخاري : أنبياء (٣٤٤٣) ومسلم : فضائل (١٤٣) ورواية البخاري : والأنبياء إخوة لعلاّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد .

تمكنت هذه الحكمة من القلوب والأعمال فنجح الأنبياء في التبليغ والإصلاح أو لم تتمكن ولم ينجحوا فإن إمامتهم تظل أصدق قدوة وأخلص إمامة وأرسخ مبدأ في عالم المثل والتصورات .. حيث تبقى خالدة متدفقة العطاء وإن تخلى أصحابها عنها وتنكّروا لها، فإن استمرارية الحق على الحق وبقاء الخير على الخير هي مشاعل الإنسانية ومنارات المبدئية التي تفضل العنصر البشري على سائر المخلوقات، وتسمو مبادئ الحق والخير فوق الأشخاص والاعتبارات، ويتجلى هذا في تهديد الله للكافرين والجاحدين أن يستبدل بهم الأجيال الصالحة القادمة التي تستنير بمبادئهم وتهتدي بهداهم . وذلك ما حققه الإسلام باعتباره مجمع الأديان وخاتمها، فمن خلال حكمة القرآن والسنّة المفسرة والشاملة لحكمة النبوات والأديان تتجه حضارته الى العالم في حيوية وسمو وحكمة وقدرة قادرة على التحصين والبناء.

ومن ناحية ثانية فإن (التصرفات) العملية الحكيمة بادية صريحة في القرآن يمكن أن تحتذى نصاً وروحاً، فمن ذلك : اتخاذ الله إبراهيم خليلاً (النساء ١٢٥) وهي خُلّة دالّة على الحصافة والحكمة قد ظهرت في أعمال كثيرة أذكر منها : تكسير إبراهيم الأصنام في معبد القوم الوثني إلاّ كبيرهم (الأنبياء ٦٠-٦٢) حتى نُكسوا ورجعوا الى أنفسهم، وإفحام الخصم حين قال له : أنا أحيي وأميت، ورده عليه بأن الله يأتي بالشمس من المشرق شرقاً فليأت المتطاول بها غرباً فبهت الذي كفر (البقرة ٢٥٨)، وموسى حين طلب من السحرة أن يلقوا عصيهم وحبالهم أولاً لكي يرى الحضور معجزته (الأعراف ١١٥) و (الشعراء ٤٣)، وداود وسليمان يحكمان في الحرث (الأنبياء ٧٨) ويوسف في إخفاء الصواع (يوسف ٧٢) .

إن التصرف الحكيم يتجاوز القول الحكيم فيبرز إمكانية التمثّل العاقل والعمل النموذج الذي يقنع الصديق والعدو، القريب والبعيد ويجعل الحكمة شيئاً محساً ملموساً متعاملاً بها مع الأحداث معايشاً لها مع الواقع، وأكثر إقناعاً وأفحم حجة . فالمنطق العملي أقوى نفوذاً من المنطق النظري، والقدوة الفعلية أرسخ وأمضى من القدوة القولية، فما بالك إذا اجتمع المنطقان وترافقت القدوتان ؟

ميثاق الأنبياء والحكمة :

فقد أحكمت حكمة الأنبياء بشيئين : بالدِّين الواحد الذي حمله (١٨) نبياً في سورة الأنعام ويتبعهم آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم، وبالعهد والميثاق الذي صرّح فيه بالحكمة غالباً والذي أخذه الله عليهم، فكان ميثاقاً عاماً للإنسانية كلها .

- ففي الإحكام الأول ولانقف عنده طويلاً - وردت آيات عديدة تنص على الدين الواحد من حيث ضرورة عدم التفريق بين الأنبياء، وضرورة الإسلام الكامل والإيمان التام بما وصفه الله (صبغة الله) (البقرة ١٣٦-١٣٨) وباعتباره دين الله الواحد مهما تعدّد الأنبياء وتناثروا في أقطارهم . إنه وحي واحد، قديم قدم الإنسانية، متصل اتصال الدين الواحد، أتى به الأنبياء مَنْ قَصّ علينا أخبارهم ومن لم يقصص، ومَنْ كان من الأنبياء مَنْ له منبقة خاصة فُضِّل بها على غيره ومن لم يكن . من كان عربياً أو يهودياً أو من أمة أخرى (النساء ١٦٣-١٦٦) . فلا بدّ من أن جميع الأنبياء أن يكونوا ﴿مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ لِئَلاّ يَكونَ للنَّاسِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسلِ﴾ (النساء ١٦٥)، حتى صارت فضيلة المساواة في نبوتهم وعدم التفريق في دينهم صفة لازمة للمؤمنين (البقرة ٢٨٥) لأنهما شريعة المسلمين ودعوة خطيرة يطلب من الرسول بيانها والاستقامة عليها وترك أهواء المفرقين المشتتين، فإن الله أنزل كتبه (بالحق والميزان) وهي غاية الحكمة ومنتهاها (الشورى ١٣—١٧) ، فـ (الميزان) هو العدل الذي أقامه الله ﴿لِيقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ﴾ (الحديد ٢٥-٢٧) المقترن بإنزال الحديد فيه ﴿بَأسٌ شَديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ﴾ وإن في الحكمة قوة العدل وقوة المادة معاً .

- الإحكام الميثاقي: فحكمة الأنبياء مسألة أو فرع من قضية الدين الواحد، وقد أكثر الله منه بالنسبة الى أهل الكتاب وبخاصة اليهود الذين نقضوا مواثيقه معهم بعد أن أغدق عليهم نعمه وجعلهم من خير زمانهم، فإن في هذا النقض زهداً منهم بالحكمة الإلهية وإعراضاً عن فضائلها فاستحقوا اللعن والطرد من رحمته ، وليس هنا مجال الحديث عنها، وإنما يتجه البحث الى الميثاق النبوي العام الذي يضمُّ الإسرائيليين وغيرهم، ولو أن هذه المواثيق التي أخذها الله عليهم تشبه الى حد كبير مواثيق الأنبياء وحكمتهم عامة، فقد كان ميثاقاً غليظاً موثقاً بالعهود لايحتاج معه إلى التصريح بالحكمة الموثقة (الأحزاب ٧—٨)، وميثاقاً ضمنياً

صرح فيه بالحكْم بمعنى الحكمة وذكر فيه (١٨) نبياً مع آبائهم وإخوانهم وذرياتهم كما أشرت (الأنعام ٨٣ـ٩٠) وإن لم يصرح بالعهد والميثاق ولكن نفهم منه الإرث النبوي الذي قطعه الآباء الأنبياء على أنفسهم تجاه إخوانهم وذرياتهم، وكذلك تهديد الله للكافرين به أن يوكل ﴿بها قَوماً آخرِينَ ليسُوا بهَا بكَافِرينَ﴾ (الأنعام ٨٩) . إنه عهد ضمني تمسك به الأنبياء قولاً وعملاً وتوارثاً . وأصرح آيات وثّقت الحكمة بعهد الله في (آل عمران ٨١ـ٨٩) . وإن من بنود الميثاق : الكتاب الواحد الذي يعني كتب الأنبياء، والحكمة الواحدة التي تعني حكمة الأنبياء، وقد أقرَّ الأنبياء بهما ومن ثم أخذوا هذا العهد على أممهم في أقوى مصطلح توثيقي (إصري)، وقد أقروا به أيضاً وشهدوا على إقرارهم به وبخاصة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وشهد معهم الله فقال ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدين﴾ . والملاحظ في الآية أن هذا العهد لم يوثق إلا بعد رضائهم به وقبولهم له فلم يُفرض عليهم فرضاً ولا أُكرهوا عليه إكراهاً ﴿قالَ أَأَقررتُمْ وأَخَذتُمْ عَلى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرنَا﴾ إنه إقرار حرٌّ مختار لم ينتزع انتزاعاً ولم يستبّد به استبداداً وكان واضح البنود بيّن المعالم لم تغلف حقائقه ولا التبست مبادئه ولاتزيفت .

وإذا سماه الله بالدين في الآيات السابقات فإنه هنا الإسلام والاستسلام الذي يقع في إطار الإيمان، والملاحظ أيضاً ضرورة إعلان هذا الإيمان والعهد وعدم إبرامه في الظلام والخفاء ﴿قُلْ آمَنّا با للهِ﴾، وإن السرية في المواثيق تعرضها للتزييف والتشكيك وأحياناً للتبديل والتغيير، كما تعرّض أهلها للإحراجات والتوقعات وربما للخداع أوالتآمرضد المصالح العامة. والملاحظ أيضاً ضرورة الانقياد والطّاعة بعد الإقرار الحرّ، والوفاء والالتزام بعد الرضى والقبول، فليس هناك مبرر للرفض والعناد والعصيان . إنه الإسلام و الاستسلام الكامل لخالق السموات وا لأرض طوعاً وكرهاً، فكيف يصحّ بعدها هذا التفريق ؟ وكيف يجوز بعدها نقض العهد ونكث الميثاق ؟ إن ميثاق الله واحد لجميع الأنبياء، ميثاق الحق حكماً عدلاً وقولاً فصلاً، ميثاق الحكمة الشاملة في كتبهم وتعاليمهم، هي حكمة العقائد والعبادات والأخلاق، وليست حكمة الترف الذهني والفلسفة المزاجية الأهوائية، إنها أحكمت بالعهد الموثق وبالإعلان الواضح لتنتقل إلى مرحلة العمل والتطبيق ولاتقف في

دائرة النظر والاعتبار، إنها عهد الأنبياء وعهد الناس، وعهد الموجودات فهو الإسلام الكامل التام .

(إن دين الله واحد، جاءت به الرسل جميعاً، وتعاقدت عليه الرسل جميعاً، وعهد الله واحد أخذه على كل رسول، والإيمان بالدين الجديد واتباع رسوله، ونصرة منهجه على منهج هو الوفاء بهذا العهد ... والإسلام الذي يتحقق في إقامة منهج الله في الأرض واتباعه والخلوص له، هو ناموس هذا الوجود، وهو دين كل حي في هذا الوجود . إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام ... هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله، وفي ولائه لكافة الرسل حملته وفي توحيده لدين الله كله، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات الى أصلها الواحد والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده) كما جاء في (الظلال) .

أنبياء حكماء بالنص القرآني :

فقد نصّ الله على حكمتهم في أكثر من سورة، وبالعودة إلى أسماء السور السابقة نجد فيها العديد منهم، وإذ إن بعضهم لم يصفه الله بالحكمة صراحة مع أنه حكيم باعتبار أن النبوة التي تتطلبها قولاً وتصرفاً وتبليغاً، فإن أنبياء آخرين لم تعنون سور القرآن بأسمائهم وقد وصفهم الله بالحكمة وصرح بها أحياناً في أكثر من مناسبة مثل لوط، وموسى وعيسى ... وأحياناً أخرى فإن (سورة) النبي لايذكر الله فيها (حكمته) وإنما قد يذكرها في سورة أخرى وفق حكمة التنزيل مثل : إبراهيم (الشعراء ٨٣) وآل إبراهيم (النساء ٥٤) وفي دعاء إبراهيم وإسماعيل (البقرة ١٢٩) وسنوجز الكلام على حكمتهم التي صرّح الله فيها بأسمائهم :

إبراهيم عليه السلام : ووصفه بالحكمة متناسب مع العرض التحليلي لشخصيته المتزنة الحصيفة قبل النبوة وأثناءها . وإن السور والآيات التي تحدثت عنه باعتباره أبا الأنبياء ومنهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حفظت لنا سيرته ومواقفه العقدية وتاريخه العجيب في بلده وصلته بالبيت الحرام والإسلام من حيث ضاعت (الصحف) التي أوحاها الله إليه، وفي المقدمة انتساب الديانات إليه ومحاولات بعض الناس الالتفاف حوله معلماً وموئلاً ومرجعاً وثقافة في العصر الحاضر، وإنشاء المؤسسة (الإبراهيمية) اليوم تحتضن الإسلام واليهودية

والنصرانية، تحدث الناس عن الأصابع الخفية فيها والمقاصد المغرضة منها في الإبقاء على القوى العالمية المحركة وتكريس تعاليم انحرفت عن نقائها، وتبدلت عن أصلها وتغيّرت بسبب مصالح ذاتية ومالية واستعمارية عن أصولها السماوية النقية . والإسلام أصلاً لايرفض مبدأ الإيمان بالديانات السابقة وبخاصة (الإبراهيمية) التي ينتسب إليها باعتبارها الإسلام الأول وباعتبارها الحنيفية، وباعتبار صلتها بأول بيت مؤسس للعبادة على وجه الأرض، ولكنه يرفض المراوغة والتحايل تحت أي شعار، وللمصلحة الدولية على حسابه وعلى حساب المسلمين . إن حكمة إبراهيم بمقتضى النص القرآني هبة من الله ﴿ربِّ هَبْ لي حُكْماً وأَلحِقْني بالصَّالحِين﴾ (الشعراء ٨٣) فهي حكمة وهبية تجلّت في (نبأ إبراهيم) (الشعراء ٦٩-٨٩) في المواقف العقدية الحكيمة مع قومه الوثنيين، وفي وصف (رب العالمين) خلقاً وهداية وإطعاماً وإرواءً وشفاءً وإماتة وإحياءً ومغفرة ولسان صدق ووراثة جنة النعيم. وقد اكتسب آل إبراهيم منه صفاته وأخلاقه وفي مقدمتها الحكمة الإبراهيمية فأرسل من اليهود أنبياء كثيرين، وأنزل على موسى وهارون التوراة، وآتى بعضهم الملك العظيم مثل : داود وسليمان إلى جانب النبوة ﴿أَمْ يحسدونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضْلِهِ فَقدْ آتينَا آلَ إِبراهيمَ الكِتابَ والحِكْمةَ وآتينَاهُمْ مُلكاً عَظيماً ♦ فَمنهمْ مَنْ آمنَ بِه ومنهمْ مَنْ صَدَّ عَنهُ وكَفَى بجهَنَّمَ سَعيراً﴾ (النساء ٥٤-٥٥)، هي وراثة الحكمة والنبوة والملك . وإذاً فلا مجال لحسد اليهود على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا مجال للكفر به ولا للصَّدّ عنه، وإن مجرد الانتساب إليه اسماً وصفة والإعراض عنه إيماناً وعملاً لايجعل منهم حكماء ولا أتباع الحكماء ولو تسموا (بحكماء صهيون) .

لوط عليه السلام : وهو من أوائل الأنبياء المؤمنين بدين إبراهيم وحكمته وعلمه ﴿ولوُطاً آتينَاهُ حُكماً وعِلماً ونجّيناهُ مِنَ القريةِ التي كَانتْ تَعملُ الخبَائثَ إنَّهمْ كانُوا قَومَ سوءٍ فَاسقِين ♦ وأَدخلنَاهُ في رحمتِنَا إنَّه مِنَ الصَّالحينَ﴾ (الأنبياء ٧٤-٧٥) . والحكمة والعلم إذ تذكّرنا بحكمة الله وعلمه في آيات كثيرة فإن (لوطاً) كان يتصرف بحكمة الله ويبلّغ علم الله لأفحش قوم وأسوأ بلد حينذاك، ومهما كانت ظاهرة (الخبائث) عند (قومِ سوءٍ فَاسقين)

فلن تثني النبي عن قول الحق، ولن تخيفه كثرة فسادهم وخبثهم، وربما كان من أشد مصابه زوجه الكافرة التي جعلها الله من الغابرين، وهي الى كفرها جاحدة بحكمة زوجها معاندة لتصرفاته مع أهله وقومه، فلنتصور أن زوجة الحكيم أبعد الناس عن الحكمة وأشد الناس ثقلاً عليه فإن حمقها وسوء معاملتها من أقسى ما ابتلي به في بيته ومجتمعه . إن لوطاً النبي العالم الحكيم لم تتجاوز دعوته بلدة (سدوم) ولم يدخل في دينه سوى القليل من الناس على الرغم من جهده الكبير وعمله الدؤوب من أجل إصلاح بيته وقومه .

يوسف عليه السلام : وهو على جماله البدني وحسنه الأخّاذ حكيم زمانه، فقد فاق إخوانه بها حتى وصل إلى أعلى المناصب ومراكز المسؤلية بعد ما ذاق ألوان الأذى والسجن . فقد تنازل عزيز مصر له عن حكمه وإن أبويه وأخوته وكانوا أحد عشر رجلاً خرّوا له (سجّداً) تصديقاً لرؤياه ودعوته للدين التي رافقته في السجن، فهو بالحكمة والعلم النبي الذي قال عنه ﴿ولمّا بَلغَ أَشدّهُ آتينَاه حُكماً وعِلْماً وكَذلكَ نجزِي المحسنينَ﴾ (يوسف ٢٢) ويمكن أن نستلهم من هذه الآية ثلاثة أمور : أولها أن النبوة والحكم والعلم موقتة بزمن الشدة في الاكتمال السنّي ومرتبطة بحال القوة في اجتماع القوة البدنية والعقلية وكذلك سائر الأنبياء الحكماء ما عدا عيسى ويحيى عليهما السلام، وثانيها : أن هذه الثلاثة (النبوة والحكمة والعلم) من حكمة الله وعلمه ووحيه فقد (آتاه) الله بها ومع ذلك كانت بشريته قالبها ووعاءها . وثالثها : أن هذه الهبات الثلاث في مقابلة (الإحسان) الذي عرف به واشتهر بفضيلته، فقد كان (محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله) كما قال ابن كثير، ولتأكيد هذه الفضيلة فقد وُصف بها في خمس آيات تعبّر عن خمس حالات ومواقف من خلال هذه السورة(١)، قال يحيى بن سلام : (ولمّا بلغَ أشدّهُ) عشرين سنة (آتيناهُ حُكماً وعِلماً) يعني عقلاً وفهماً(٢) .

داود عليه السلام : وهو النبي الملك القوي المختص بصناعة الدروع المسخّر له الجبال المسبحات والطير المرجعات .

---

(١) الآيات ٢٢،٣٦،٥٦،٧٨،٩٠ .

(٢) التصاريف ص ٢٠١ .

فقد جاء في ابن كثير : ..... وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه (الحكيم) الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً . وثبت في صحيح البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي موسى الأشعري حين استمع لقراءته (لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود)(١) فإذا اجتمعت هذه الخصال استحق أن يكون من أولي العزم. ومن المفيد أن نبين أن حكمته تجريبية على الأغلب ظهرت في أقضيته كما صرّحت آية القضاء في الحرث والغنم (الأنبياء ٧٨) . وكذلك فقد جاء ذكر داود وحكمته عقيب ما ذكره الله عن (لوط) كما سبق (الآية ٧٤) . وكذلك فمن المفيد أن نبين أن حكمة داود قد اقترنت بقتال الجاحدين الطغاة وانتصاره عليهم ﴿فَهزمُوهمْ بإذْنِ اللهِ وقَتَلَ داودُ جالوتَ وآتَاهُ اللهُ المُلكَ والحِكْمةَ وعَلَّمهُ ممَّا يشاءُ ولولاَ دَفعُ اللهِ النَّاسَ بعضَهمْ ببعضٍ لفَسَدتِ الأرْضُ ولكِنَّ اللهَ ذو فَضْلٍ على العَالمينَ﴾ (البقرة ٢٥١) ، فإن الملك المستقر والحكمة النافعة والعلم المفيد لاتزدهر إلاّ بعد الظّفر بالأعداء وتثبيت الأمن والأمان، فقد قوّى الله ملكه وصرح بنتائجه ﴿وشَدَدنا مُلكَهُ وآتيناهُ الحِكْمةَ وفَصْلَ الخطابِ﴾ (ص ٢٠) . إنها سنّة من سنن الحضارة في كل زمان ومكان .

سليمان عليه السلام : فهو النبي الحكيم والعالم والملك من أبٍ نبي وحكيم وعالم وملك إرثاً وكسباً، وهي حكمة ظاهرة في القضاء صرّح القرآن بها في مناسبات منها (ففهّمناها سليمانَ .... فاعلين) والآية تشير الى المواهب المشتركة والمتوارثة بين الأب والابن، فإن من أمتع ما يحظى به الأب أن يكون ابنه امتداداً له في المواهب والفضائل، وهي من أكرم ما يحظى به الابن أن يرثها من أبيه .

ومن حكم سليمان المدونة ما جاء في كتاب (الحكمة) أحد كتب العهد القديم(٢) ، ويسمى أيضاً حكمة سليمان، فيه عظات ونصوص تتصل بخلود النفس، فهو ضرْبٌ من أدب الحكمة يشبه أسفار أيوب والأمثال ومن أقواله فيه : فاسمعوا أيها الملوك وافهموا وتعلموا ياقضاة أقاصي الأرض، إصغوا أيها المتسلطون على الجماهير، الحكمة ساطعة لاتذبل ،

(١) البخاري : فضائل القرآن (٥٠٤٨) .

(٢) الموسوعة الميسرة .

تسهل مشاهدتها على الذين يحبونها ويهتدي إليها الذين يلتمسونها ... ومن بكر في طلبها لايتعب، فالتأمل فيها كمال الفطنة، فالرغبة في الحكمة تقود الى الملكوت، إن كثرة الحكماء خلاص العالم، لذلك صليت فأوتيت الفطنة ودعوت فأتاني روح الحكمة ففضلتها على الصوالجة والعروش، وعددت الغنى كلا شيء بالقياس إليها، فأتتني معها جميع الخيرات، وعن يديها غنى لايحصى، فسررت بهذه الخيرات كلها لأنها بإمرة الحكمة ... ولا أكتم غناها فإنها كنز للناس لا ينفذ(١) .

موسى عليه السلام : فهو النبي الحكيم العالم الذي آتاه الله الحكمة بعد اكتمال قواه البدنية والعقلية، واستواء استعداداته لقبولها وحملها ﴿ولَمّا بلَغَ أشدَّهُ واستوَى آتينَاهُ حُكماً وعِلماً وكَذلكَ نجزي المحسِنينَ﴾ (القصص ١٤) فافترق عن (يوسف) بأن صرّح له بالاستواء بعد أن اشتركا في بلوغ الشدة والقوة، وكذلك بعد أن اشتركا في جزاء الإحسان الذي سجله الله له موجهاً قومه في أدب الحديث (البقرة ٥٨) ودخوله معهم الباب سجداً (الأعراف ١٦١) وسلام الله عليه وعلى أخيه هارون (الصافات ١٢١) . فالنبوة حكمة الله له وهي أعلى مراتبها، وهي أيضاً فهمُ التوراة وإدراك أسرارها وبيانها معنىً وتمثلها عملاً وسلوكاً . حكمة تفسيرية تغني اليهود عن (التلمود)، وقد أكد الله ذلك بقوله ﴿ففررتُ منكُمْ لَمّا خِفتُكُمْ فَوهبَ لي ربِّي حُكماً وجَعلني مِنَ المرسلينَ﴾ (الشعراء ٢١) إنها من الله هبة وعطاءً، والآية إذ تبين أن الله آتاه النبوة والرسالة معاً فإنها جميعها مما يناسب مع اكتماله القوة النفسية : البدنية والعقلية والشعورية، ولذا فقد تكرر ذكره في القرآن أكثر من غيره في (١٣٦) مرة بينما ذكر عيسى (٢٥) مرة وإبراهيم (٦٩) مرة . وبعد أن آتاه الله الحكمة استحق أن يكون كليم الله، وأوحى إليه الألواح بالتوراة التي سماها الله وحدها من بين سائر كتبه بالفرقان التي كانت أكبر حجماً وأكثر تشريعاً . وتماثلت بذلك مع القرآن (الفرقان) بينما زاد عليها بلغاته وقراءاته وإعجازه البياني والفكري والتربوي .

حكم في (صحف إبراهيم وموسى) وهي إذ تنبثق عن أصول العقيدة في الدين الإلهي المنزل على جميع الأنبياء، وهو الحقّ الأصيل الواحد الذي يرجع إلى أصل واحد فإن تخصيص

(١) من ص ١٤٠٦-١٤٠٩ .

النبيين بها وهما من أولي العزم إبراهيم وموسى عليهما السلام، وذكرهما في القرآن الحكيم، يؤذن بالأمانة العلمية في نسبة الحكمة الى أهلها، مثل مايؤذن بأخوّة الدّين . ونجد هذه الحكم نصوصاً صريحة في سورتي (النجم والأعلى) .

وهي حكم قرآنية أيضاً بثلاث اعتبارات : باعتبار تسجيلها عن الكتب السماوية، وقد ساقها القرآن في معرض التأييد والتشجيع، ودمجها بأحداث السياق والسباق القرآني .

ففي سورة (النجم) من الآية (٣٦ وما بعد) الأطول نفساً والأكثر آياً الحكم التالية :

﴿لا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ أُخرى﴾

لاتملك نفس أن تخفف من حمل نفس أخرى ومن أوزارها (المسؤلية الشخصية) .

﴿ليسَ للإِنسانِ إلاّ ما سَعَى﴾

للإنسان كسبه وسعيه وعمله لايُزاد عليه من عمل غيره، وسينال جزاء كسبه وسعيه وعمله كاملاً (الجزاء بحسب العمل) .

﴿وأنّ سعيهُ سوفَ يُرى ، ثمَّ يُجزاهُ الجزاءَ الأوفَى﴾

قيمة الإنسان في الدنيا بالعدل في الجزاء وفي الآخرة بتبعته الفردية، وبهما معاً بالوفاء فلكل عامل حقه وجزاؤه .

﴿وأنَّ إلى ربِّكَ المُنتهَى﴾

الطريق الحق هو الذي ينتهي الى الله، ونهاية الأمور والأشخاص والأشياء الى الله .

﴿وأنهُ هوَ أضْحكَ وَأبكَى﴾

أودع الله في الإنسان خاصية الإضحاك والإبكاء وأنشأ له دواعي كلٍ وأسبابه .

﴿وَأنَّهُ هوَ أماتَ وَأحيا﴾

الله خالق الموت والحياة بعد أن لم يكونا، فهما حقيقتان معاينتان مهما حاول الإنسان معرفة حقيقتهما وتلبسهما بالأحياء .

﴿وَأنَّهُ خَلقَ الزَّوْجَين الذَّكرَ وَالأُنثَى ♦ مِنْ نُطفةٍ إذا تُمنَى﴾

حكمة واقعة متكررة عظيمة في شطرها المعلوم، وهي أعظم وأبلغ إعجاباً في حقائقها المجهولة .

﴿وَأَنَّ عليهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾

إن كمال النفس بأعضائها المادية التي تعود رفاتاً ليست بأعظم قدرة من الماء المراق في النشأة الأولى .

﴿وَأَنَّهُ هوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾

حكمة جامعة في غنى العباد في الدنيا بأنواع الغنى : المال، الصحة، العلم ، الفكر، وفي الآخرة غناها الخالد، وهو الله أقنى عباده، فجعلهم يقتنون من خزائنه إذ هومصدرها الحقيقي .

♦ ♦ ♦ ♦ ♦

<u>وفي سورة (الأعلى)</u> حِكم مؤكدة وأخرى منشأة وهذه وتلك لاتخرج عن الحق ومصدرية الحقّ . ومنها :

﴿الّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾

كل مخلوق كامل الصنع بالغ التسوية كامل التناسب وإن بدا أن بعضه قبيح المنظر شؤم العمل .

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾

لكل مخلوق وظيفة وطريقة وغاية هداه الله إليها من فطرته وعرفه بغايتها، ومن ذلك الإنسان ولكن ﴿هَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ﴾ .

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾

علْم الله مطلق ومعرفته بمخلوقاته لا حدّ لها، وهو علم حكيم محيط .

﴿وَنُيسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾

قاعدة كبرى من قواعد التكليف الشرعي والأدب الاجتماعي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرنَا القُرْآنَ للذِّكْرِ فَهلْ مِنْ مُدَّكِرْ﴾ (القمر ٢٢) .

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفعتِ الذِّكْرَى﴾

الذكرى تنفع دائماً قلَّ من ينتفع بها أو كثروا وبخاصة حين تحين فرصة للذكرى، وهي منفذ للنفوس ووسيلة للبلاغ .

﴿قَدْ أَفلحَ مَنْ تَزَكّى﴾

إن تطهير النفس من المفاسد والآثام أمارة على فلاحها وفوزها في الدنيا والآخرة .

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنيَا﴾

إذا تركت النفس وشأنها فإنها تميل الى محبة الدنيا وتؤثرها لما فيها من المطامع والإغراءات .

﴿وَالآخِرَةُ خيرٌ وَأَبقَى﴾(١)

فإن ﴿البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خيْر عِندَ رَبِّكَ ثواباً وخيرٌ أَملاً﴾ فهي خير خالد سمعة ومآلاً لأنها حكم معنوية مبدئية عامة .

وحِكَمٌ من التوراة :

إن عظمة المخلوقات وجمالها يؤديان بالقياس الى التأمل في خالقها (الحكمة ١٤١٩) .

ليس سواك إِلهٌ يعتني بجميع الناس حتى تريه أنك لا تحكم حكم الظلم (الحكمة ١٤١٨) .

وبما أنك عادل فأنت تسوس بالعدل جميع الناس وتحسب الحكْم على من لايستوجب العقاب أمراً منافياً لقدرتك (الحكمة ١٤١٨) .

فالذين عاشوا في الغباوة عيشة ظلم عذبتَهم بقبائح أنفسهم (الحكمة ١٤١٩) .

لكن الذين لم يتعظوا بتأديب السخرية ذاقوا الحكم اللائق بالله (الحكمة ١٤١٩) .

الخشبة التي بها يحصل البر هي مباركة أما الخشبة المصنوعة صنماً فملعونة هي وصانعها (الحكمة ١٤٢١) .

إن العلم بمن هو أنت هو البرُّ الكامل، والعلم بقدرتك هو أصل الخلود (الحكمة ١٤٢٣).

إن الخليقة التي في خدمتك أنت صانعها تتوتر لمعاقبة الظالمين، وترتخي للإحسان الى المتوكلين (الحكمة ١٤٢٦) .

إنك يا ربُّ في كل شيء عظّمت شعبك ومجدته و لم تأنف أن تساعده في كل زمان ومكان(١) (الحكمة ١٤٣٢) .

---

(١) يمكن أن نعثر على المعاني الكلية المتشابهة في الكتاب المقدّس، فهي من الأصول العقائدية العامة، ولكن الإعجاز البياني خاصة قرآنية وظاهرة فيه وحده .

(١) من كتب الحكمة، دار المشرق بيروت .

يحيى عليه السلام : الطفل الحكيم المعجزة، وفيما بعد، النبي الرسول الذي تميز بحكمة الطفولة ﴿يَا يَحيَى خُذِ الكتابَ بقوةٍ وآتيناهُ الحُكمَ صَبياً﴾ (مريم ١٢) إنه متفرّد عمن قبله فلم يكن (لهُ مِن قَبلُ سمياً) وعاش حياته في (حنان) الله محبة ورحمة وتعظيماً و(زكاة) بركة وطهارة من الدنس والآثام والذنوب (وكان تقياً) قائماً بالعمل الصالح (وبرًّا بوالديه) مجانباً لعقوقهما قولاً وفعلاً أمراً ونهياً .

إن (حنان) الله له ورحمته به وتطهيره من الشر جعلته حانياً راحماً طاهراً مطهراً فاستحق (السلام) والأمان كما قال سفيان بن عيينة في أوحش مواطن الإنسان، يوم ولد حيث يرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم . وحكمته كما قال ابن كثير وغيره، الفهم والعلم والجدّ والعزم والإقبال على الخير والانكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حَدثٌ، قال عبد الله بن المبارك عن معمر : قال الصبيان ليحيى : اذهب بنا نلعب، فقال : ما للعب خُلقنا، قال : فلهذا أنزل الله ﴿وَآتَينَاهُ الحُكْمَ صَبياً﴾ .

عيسى عليه السلام : وهو أكثر الأنبياء وصفاً بالحكمة فهو الرسول المعجزة العالم، كلمة الله وروح منه، فلا غرو أن يتصف بالحكمة منذ طفولته حتى رسالته وتبليغه، وفي السور المكية والمدنية، فقد جاء في سورة (آل عمران ٤٨-٤٩) ﴿وَيُعلِّمه الكتابَ والحِكمةَ والتَّوراةَ والإنجيلَ ♦ ورَسولاً إلى بَني إسرائيلَ﴾، وقريب منها في سورة (المائدة ١١٠) وسورة (الزخرف ٦٣)المكية وفي جميعها تصريح بالحكمة، وإن أغفلت الآية الأخيرة صراحة التعليم والوحي الإلهيين، إن عيسى قد تعلّم الكتابة من الله كما تعلم العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء فأضحى بذلك قارئاً كاتباً حكيماً وهي صفات عامة عالية اكتملت بالنبوة والرسالة التي شملت تعلم التوراة والإنجيل (العهد القديم والعهد الجديد) . وإذا أكدت الآيات أن الحكمة تعليم من الله فإن الله العليم الحكيم ميّزه عن الأنبياء بالقدرة على الخلق والإبراء في عصر انتشار الطب كفرع من الحكمة والفلسفة حينذاك، ولذا فإن حكمته القولية والفعلية دالّة على كرامة الله له ووجاهته عنده مثل دلالتها على بشريته وعبوديته لله تعالى التي كان

---

(١) من كتب الحكمة، دار المشرق بيروت .

يطلب الربوبية لنفسه والألوهية لذاته ﴿ما كانَ لِبَشرٍ أَنْ يُؤتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبوةَ ثُمَّ يقولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللهِ ولَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّين بمَا كُنتمْ تُعلِّمونَ الكِتابَ وبِمَا كُنْتمْ تَدرسُون ♦ ولاَ يَأمرَكمْ أَنْ تتخذُوا الملائِكةَ والنَّبيينَ أَرباباً أَيأْمرَكمْ بالكُفرِ بعدَ إِذْ أنتمْ مُسلمونَ﴾ (آل عمران ٧٩ـ٨٠) فالكتاب هنا الإنجيل، والحكم هي الحكمة ولا يليق بالبشرية المتصفة بالنبوة والحكمة أن تؤلّه نفسها وتستعبد الناس وتطلب منهم أن يكونوا عباداً لصاحبها من دون الله، إذ ليس من الحكمة أن يصير العبد إلهاً والمخلوق خالقاً، ولكن الحكمة أن يوجههم الرسول الى أن يتمسكوا بطاعة الله وحده وينسبوا إليه المخلوقيّة الكاملة حتى يصبحوا (ربانيّين)، فإن العملية التعليمية الواعية تحقق الحكمة النافعة من الدراسة والتدريس .

إن (الربانية) من أعظم أهداف النبوة في الإصلاح والتغيير، فهي من حكمتها التي لاتجدي إلاّ بطريق التعلم والتعليم .

ومن حكمه للحواريين :

- كما ترك الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا (٥٢١ ومابعد) .
- بحقٍّ ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا المتنعمين، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله .
- يامعشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه .
- يامعشر الحواريين لاتحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها، ولاتمنعوها أهلها فتظلموهم .

ومن حكمه للعامة :

- اعبروا الدنيا ولاتعمروها، ... وكان يقول : حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع في القلب الشهوة (٥٢٢ وما بعد) .
- رب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً .
- لايستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء .
- طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

ـ طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته .

ـ لاتكثروا الحديث بغير الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد عن الله ولكن لاتعلمون، ولاتنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

ـ من تعلّم وعلّم وعمل دعي عظيماً في ملكوت السماء(١) .

وحِكَمٌ من الإنجيل(٢) :

إن الحكمة لاتدخل النفس الساعية الى الشر، ولاتسكن الجسد المدين للخطيئة (الحكمة ١٣٩٨) .

أما نفوس الأبرار فهي بيد الله فلا يمسّها أي عذاب (الحكمة ١٤٠٢) .

لكن شيب الإنسان هو الفطنة وسن الشيخوخة هي الحياة المنزهة عن العيب (الحكمة ١٤٠٤) .

وإذا حسبت خطاياهم يأتون خائفين وآثامهم تتهمهم في وجوههم . (الحكمة ١٤٠٥) .

كذلك نحن ما إن ولدنا حتى توارينا و لم يكن لنا أن نبدي علامة فضيلة بل فينا في رذيلتنا (الحكمة ١٤٠٥) .

فاسمعوا أيها الملوك وافهموا، وتعلموا ياقضاة أقاصي الأرض (الحكمة ١٤٠٦)(٣) .

فإليكم أيها الملوك أوجه كلامي لكي تتعلموا الحكمة ولا تزلّوا (الحكمة ١٤٠٧) .

وبالنظر السابق نستنتج :

١ـ ثبوت الحكمة لكل نبي بالمصطلح القرآني ومفهومه وليس بالمصطلح الفلسفي المتعارض. وأن حكمته شيء استثنائي في الشخصية النبوية والكتاب الذي أرسل به وهي وإن شملت

---

(١) ابن كثير : قصص القرآن ، دار الشام : وقد أسندت هذه الحكم الى علماء مسلمين نقلاً، وفي الكتاب المقدس شيء منها كما هو واضح .

(٢) من : كتب الحكمة، دار المشرق . بيروت .

(٣) سبق مثلها منسوبة الى سليمان عليه السلام .

النبوة ومضمون الكتاب المنزل أولاً فإنها صفات وأقوال وأحوال إضافية من الفطنة والذكاء وصفاء النفس ....

٢ـ وأن الحكمة تتفجر غالباً من الإحسان والنعمة السابغة الواقعين في الحياة المطمئنة وهي إذ تضنُّ في حالات المخاوف وأزمنة الاضطراب فإن من الضروري تأمين الأجواء المناسبة والظروف المواتية لإبداعها وإشاعتها .

٣ـ وأن الحكمة ليس لها زمان معين ولاتتبع سناً أو عمراً محدوداً، فمن الأطفال عباقرة، وفي الحضارات متفوقون ومن الأمم الأخرى حكماء وهي أساس معنوي وعملي في البنيان الحضاري .

٤ـ وأن الحكمة مثل ما أنها هبة من الله وعطاء من حكمته الشاملة المطلقة فإنها مما يصح تعلمها باعتبارها مادة تعليمية نافعة وباعتبارها مادة زائدة عن المواد الدرسية العامة . وعلى هذا فمن المهم إبداع دروس في الحكمة الى جانب دروس الشريعة والرياضيات والفيزياء والكيمياء، بالإضافة الى تعليم أسرار هذه المواد وحكمها التشريعية والتطبيقية .

٥ـ وإذا كانت الحكمة في معرفة أسرار الكتاب والفطنة في فهم الشرائع وحسن التصرف بالدعوة والتبليغ ووضع كل شيء في محله المناسب . فإن الأنبياء قدوة الرسول والمسلمين فلابدَّ أن يكونوا حكماء ذوي بصيرة وفطنة، وحكمتهم تستوعب الخبرة التاريخية والدينية في معرفة كل منهم من سبقه والإيمان به كما تستوعب هبة ا لله له باعتباره المؤهل الوحيد للقيام بإصلاح قومه وهدايتهم، فهي حكمة وهبية ومكتسبة، وإصلاحية قولية وفعلية معاً .

٦ـ إن البشرية بحاجة الى حكمتهم مثل ما أنها بحاجة الى كتبهم ورسالاتهم ليس بالتجمع الديني الخالص وحده وإنما لتخفيف الغلواء المادي واستقامة السلوك البشري وتعاون الأديان والمتدينين بعضهم مع بعض، والقرآن الكريم الجامع للرسالات سجل حكمتهم نصّاً متعبداً به وهو قادر أن يحمي بحكمته البشرية من الانحراف الطاغي ويخفف من غلوائها ويقيم الحياة على أساس السلوك النظيف لقيام حضارة قرآنية عالمية رائدة .

إن الأنبياء عليهم السلام معالم الحق والخير والعمل وأعلام الهدى والإصلاح والتغيير، فهم الأجدر بحسن الصلة بينهم وبين الله على صعيد الصدق والاستقامة والأمانة، وبينهم وبين الناس في قرية أو مدينة أو قوم أو العالمين أجمعين .

* * * * *

فهو بصريح القرآن جامع لحكمة الرسالة وحكمة تعليمها بالمحتوى الحكيم وبالأسلوب والمنهج الحكيم . واستنبط المربون من هذه الحكمة الجامعة حقائق تعليمية وتربوية كثيرة، وتحدثوا طويلاً عن الاتجاه العملي النفعي الإصلاحي المقصود، وأثبتوا أهمية الشخصية النبوية وقدرتها على الإثارة والتنويع والتدريج والتعريض والتوجيه والإمامية في إيصال الحكمة القرآنية والتغيير الشامل للجيل الأول على قواعد العلم والحكمة حتى أضحوا رسلهما وحملتهما للعالم .

الرسول دعوة إبراهيم أن يكون محمدٌ معلماً : فالصلة النسبية والدينية بين الرسول وإبراهيم عليهما السلام تنبه الى أن حكمة أبي الأنبياء التي صرح القرآن بها هي أرجى دعوة وأقوم معرفة في أقدس مكان يجأر فيه إبراهيم الى الله حتى تتحقق كاملة في شخصية حفيده الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتعليمه ودعوته . وإذا علمنا أن هذه الدعوة ظهرت من إسماعيل وأبيه عند عمارة قواعد البيت العتيق أدركنا أن أية مؤسسة تشاد ينبغي أن تقوم على العلم والحكمة تصرفاً ومقصداً ﴿رَبَّنَا وَابعَثْ فِيهِمْ رَسولاً مِنهُمْ يَتلوُا عَلَيهِم آياتِكَ وَيعلّمُهمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ويُزكّيهِم إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة ١٢٩) ، ويربط ابن كثير (الفهم) و (السنة) في معنى (الحكمة)، كما يربط بداية الدعاء بنهايته . فإنه يدعو (عزيزاً حكيماً) يقول : والحكمة : السنة وقيل الفهم في الدين ولا منافاة .... ثم يقول : يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من إطاعته، ويتجنبوا ما يسخطه من معصيته الى أن يقول : قوله إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ : الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالّها لعلمه وحكمته وعدله .

فإبراهيم عليه السلام يطلب الحكمة للرسول من مصدرها الصحيح من الله الحكيم، فهو (العزيز) أولاً لما يشعر أن حكمته سامية رفيعة صالحة مصلحة تتجاوز طلب الجاه والمال والملك والأمور التي يدعو الناس لها عادة، وهي ليست دعوة خيال أو فراغ وإنما هي تلاوة

الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتطهير النفوس وتربيتها أفضل تربية، وهي فضائل متشابكة متلاحمة يراد منها خير الجماعة الإسلامية في الدنيا والآخرة .

والعملية التعليمية المطلوبة دعاءً ورجاءً هي تعليم الكتاب والحكمة، وإذا كان الكتاب هو القرآن فإن الحكمة هي السنة أو شيء آخر أو كلاهما مما يتعلم، ولايقتصر فيهما على التحفيظ أو التلقّي، ولذا فإن مجالس القرآن لاينبغي أن تقتصر على الأداء الحفظي وإنما لابدَّ من تعلم آياته التشريعية والكونية والبشرية، وأن ينشأ حفظته على ذلك لا من أجل زيادة نسخه وإنما من أجل فقههم فيه ومعرفتهم بمعانيه، ومثل ذلك الحكمة فإنها لاتقتصر على تحفيظ نصوصها شعراً أو نثراً بقدر ما ينبغي أن توضح أسرارها وتبرز منافعها والحضّ على العمل بها، فالحكمة ليست كلماً مجرداً وتصورات نظرية وترفاً ذهنياً بقدر ما هي سلوكات وتصرفات وعلاقات .

وواضح أن الدعاء المبارك لايقتصر فيه الحصول على الحكمة وتعلمها فإن إبراهيم طلب من الله أن يرتفع مقام حفيده إلى التعليم بأن يكون معلمها ومربي الناس عليها، وهذا ما نجده من اقتران التزكية بتعليم الكتاب والحكمة، وقد كان .

الرسول صلى الله عليه وسلم **متعلماً** : فقد تعلّم الرسول الحكمة من الله وتأدَّب في كنفه حين تعلَّم القرآن والمعاني السامية في الأحاديث القدسية وصنوف الوحي الأخرى، ولم يعرف أنه اقتبس حكمته من مصدر بشري سوى تلك المعارف المكيّة وما حولها في فترتي الرضاعة والفتوة، والتجارب الشبابية حصيلة الترحال التجاري المتكرر، وما كان يقع أحياناً في أسواق العرب وأهمها سوق عكاظ، وخبرات طبية معاشة في نفسه وأقاربه، واطلاعات عابرة على الديانات السابقة والمعاصرة : السماوية منها والوضعية، إنها ثقافة بسيطة ومعارف أولية بالنسبة الى القرآن وحكمته، ولكن الله علّمه ما لم يكن يعلم (النساء ١١٣) حتى شمل علمه بالقرآن ما في السموات والأرض ومالكها ومدبرها (البقرة ٢٧) و (الحج ٧٠) ووقع ذلك موقعه في نفسيته الصفيَّة المختارة بالكيفية التي أعدها الله إعداداً عقلياً وعاطفياً وبدنيّاً لتقبل حكمته ومن ثم لتحمل أعبائها وتبليغها، وقد تمَّ ذلك كله في ظلال عناية الله وحفظه، فقد حفظه الله من مساوئ الجاهلية فكان الإنسان الحكيم قبل البعثة،

وأيده بالوحي الحكيم فكان النبي الحكيم بعد البعثة، واستشرف الى تعليمها ومارسها خلال النبوة فكان المعلم الحكيم، ومع هذه الموهبة الحكيمة في جوهر تكوينه لم ينقطع عن طلب العلم، فلم يخلُ يومٌ من إقباله عليه وتغذية روحه به وصعودها في مدارج العقلية والروحية، إنه إعداد تأديبيّ تعليمي طويل المدى عميق الأثر قوي الفعالية مستمر متواصل، في حياته الفردية والأسرية والاجتماعية . وفي الوقت ذاته كان الرسول المعلم المعطاء الذي لم يبخل على أحد يطلب منه العلم والحكمة. فأَكْرِمْ به متعلماً ومعلماً .

فقد كان خير طالب للعلم الإلهي، وأعظم واعٍ لما يجري بين الناس، وأشفق إنسان لما آل إليه حال قومه من الأميّة والجهالة، ويتضح اهتمامه بالعلم بطول مدارسته له وحضّ قومَه عليه وتفضيله أحياناً على الجهاد وبخاصة مدارسة القرآن وكثرة تحريك لسانه به وتلقينه للصحابة، إلى جانب كتابته بالأمانة العلمية والدينية في العسب واللخاف والجلود . ولابدَّ للتحصيل العلمي من إعداد ذاتي قادر على استيعاب المعارف الجديدة، وفي أعلى درجات التنبه والتوتر لاستقباله ، وكذلك إعداد وسائط النقل العلمي المأمون من الله (المعلم) الى جبريل (أمين) العلم والوحي حتى يثبت في روع الرسول، فاكتفى بالمدرسة الإلهية عن أي ارتباط درسيّ آخر، فلم يأخذه من مجلس ولا من مدرسة ولم يتلقّه من راهب أو حبْر بصريح القرآن وبمصداقية سيرته الشريفة . إنها أمور ثلاثة قوية الارتباط فيما بينها هي إنزال القرآن، وإتيانه الحكمة، وتعليمه مالم يعلم كما جاء في آية النساء السابقة، وهي إذ تؤذن بالفضل السابغ فهي حصن للرسول من الغواية والضلال والانحراف الى الجاهلية . وسواء فسرت الحكمة بالقرآن أو السنة أو بشيء زائد عليهما فإن المقدرة في كل منهما على تحرّي الحقّ والصواب قادر على تثبيت الرسول أمام التحديات والخطوب . ويتضح هذا الموقف بأن الآية كانت نزلت عقب حادثة بني أبيرق الذين حاولوا تضليل العدالة وبهت البرآء .

وإذا كان مما تعلمه الرسول من القرآن التشريعَ والتاريخَ، وما يتصل بالله والكون والإنسان وبداية الخلق ونهايته فإن الله خصّه بعلوم غيبية ومدركات عالية وقع الكثير منها في أحاديثه الصحيحة .

وفي مقدمة السّمات التعليمية قيم القــرآن وفضائلـه، وعوامـل التحضـير والنهضـة، وعوامـل الدمار والخراب، وعلوم عديدة ذات صلات عميق بالدنيا ومعرفة شاملة بالآخرة .

إن بعض هذه المعارف سبقت إليها الكتب السماوية فأصّلت العقـائد والعبـادات والفضـائل وأحياناً التشريعات والتنظيمات المحلية، بينما استوفى القرآن أصول العلوم وكليّـات المسـائل الحقّ والخير والجمال والعمل بمنهجه الحكيم وبيانه المعجز .

الرسول صلى الله عليه وسلم **معلماً** (المصادر والسمات) : إن ما تعلمه الرسول من الله ثم ما بينه من تشريعاته النبوية، وما استودعه من خزائن معارفه الشخصية وتجاربه واجتهاداته وبصـائر رأيه وحكمته قد علّمه للناس وبلغهم بحكمته، ولأهمية (التعليم) العام والحكمة خاصـة فقـد كرره القرآن أربع مرات بصراحة الخطاب والغيبة الجماعية .

وإذ يشترك الرسول صلى الله عليه وسلم مع سائر الأنبياء بحكمة الله تعلماً و وحياً خاصاً بهم تفرّد الرسول بأنه معلمها للناس وفي زمن الأميين من العرب ومحتكري المعرفة من اليهود خاصة . ومهما تكررت (الحكمة) بالنسبة للرسول فإن اتفاق العلماء والمفسـرين علـى أنهـا (السـنة) وما فيها من الأوامر والنواهي والآداب والتوجيهات، وعموماً : الحلال والحرام، يؤكد على أهمية تعلمها وتعليمها .

وتنطلق سمات التعليم النبوي الحكيم من ثلاثة أسس (مصادر) : مـن حكمـة القـرآن، ومـن حكمة النبوة، ومن حكمة الفطرة، باعتبار أن الحكمة وهبية مكتسبة معاً، وباعتبار المرجعيـة التي تخص القرآن الحكيم بالمصدر الثابت الذي يستقي الرسول من حكمته تفسيراً وتـأكيداً وتأسيساً، والتعليم هنا لايقتصر على محو الأمية وزيادة المحصول المعـرفي بقـدر مـا يسـعى الى التعليم البنائي للشخصية المسلمة الـتي تبـدأ مـن تنبيـه الدوافـع لحـب المعرفـة وصقـل النفـس وتهذيبها، ومن ثم لإصلاحها وإعدادها للحياة الدنيا والآخرة، فالمدرسة القرآنية التي أغنـت شخصية الرسـول بـالتصورات والمبـادئ والنظـم والآداب كـان لهـا أيضـاً تأثـير كبـير علـى شخصيات الجيل الأول، حتى استطاعت هذه المدرسة المحمدية أن تكمل الرسالة القرآنيـة في القدرة على تمثل أخلاق القرآن والصياغة الحضارية للقيادة الفذّة التي صبغ بها القرآن رسولَه والمسلمين وبأداء الرسالة التعليمية على خير وجه .

وواضح أن (تعليم) القرآن أيضاً لايقتصر على (التحفيظ) ومجرد (التلقي) كما أسلفت، فإن التعليم عملية مركبة تتجاوز استظهار الآيات الى البناء النفسي العام والاجتماعي الشامل، ولو أنه اقتصر على تربية الذاكرة وحدها لقال (ويحفظهم) مثلاً، بدلاً من (يعلمهم)، فقد جاء في رواية ابن مسعود وغيره : علّمَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم التشهُّدَ كمَا يُعلّمنا السورةَ من القرآنِ(١) وأحاديث كثيرة .

ويمكن القول : إنَّ سمات التعليم النبوي تبرز في الشمولية والواقعية النفعية والخيرية والعملية والاستمرارية كما سيأتي نماذج منه .وهي سمات واضحة الحضور غالباً في كلّ مسألة تعليمية يعلّمها بعض الصحابة ويعلّم معها شيئاً من حكمتها الظاهرة، وقد يبحث بعضهم عن حكمتها الخفية،وهؤلاء و أولئك ملتزمون بما تعلموه مطبقون لما فهموه . وفي المقدمة تتجمع هذه السمات في تعليم القرآن الذي وصفه الله بالحكمة وضمنه بها وأنزله من الحكيم الخبير . ولذا فقد فسر بعض العلماء الحكمة بأنها القرآن أو تفسيره ضمن هذه السِّمات .

فقد وجهّه الله الى الموضوعية والأمانة للوصول الى الحقيقة بعيداً عن أهوائية الناس (البقرة ١٢٠) فلا ولاية ولانصرة للمتحيزين، إذ إنها من ظلم العلم وتجاوز الأمانة (البقرة ١٤٥) وعندئذ يفتقد التأييد ويسبب وقوعه في الزلل (الرعد ٣٧)، وإذا حقّ للرسول أن يستزيد من الفضائل فإن العلم في مقدمتها فإنه يطلب المزيد والمزيد (طه ١١٤) وفي هذا توجيه للعلماء والحكماء ألاّ يقفوا في معارفهم عند حدٍّ، وأصرح منه ربط الحكمة بالحق والعلم بصحة ما أنزل على الرسول من الكتاب والحكمة (سبأ ٦) ، ومن أهل الكتاب علماء يعرفون الحق حقاً فيتبعونه، بينما يعرض الكثيرون عنه، فالإيمان ثمرة العلم بالحقّ، والجحود إنكار للعلم والإيمان (الحج ٥٤) . وإذ إن العلم لايقف عند حدٍّ فإن العلماء يتفاوتون في الحكمة مثل تفاوتهم في المعارف (يوسف ٧٦) . فهناك العالم والعليم ولايستويان .

والمعروف أن (السنة) أضخم حجماً من القرآن باعتبارها تفسيراً وتفصيلاً له، وأنها تشمل المثل الأعلى في البشرية والقدوة في كل مجالات الحياة التي تمثل فيها الرسول (خُلُقُ) القرآن

---

(١) النسائي ٢/٢٤١ و٢٤٢ .

حيث يتابعه عليه الصحابة رجالاً ونساءً في السلم والحرب في البيت وخارج البيت، في الأعمال الخاصة والأعمال العامة . لذا فإن عملية التعليم لاتقتصر على جمع الحكمة وتفهيمها بهذا الاتساع الكبير، وإنما تشتمل على التعليم العملي أو التطبيقي الذي يدفع المؤمنين الى أن يعرفوا عن رسولهم كل شيء ويتابعوه فيها كلٌّ حسب قدرته واستطاعته . والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليعلّم أشياء ثانوية وأموراً هامشية وإنما كان يعلمهم ما ينفعهم في حياتهم بالصورة الشاملة للمعارف العقلية والبدنية والشعورية تعليماً طوعياً التزامياً من ناحية، وتعليم دعوة وتبليغ من ناحية أخرى، حتى يمكننا القول : إن عصر النبوة هو أغنى العصور وأنشطها بتأسيس الحركة التعليمية، وترسيخ أصولها ومن ثم بعثها الى الأقطار الجاهلة .

فالعملية التعليمية المستمرة ذات آثار بعيدة في شخصية الرسول من النواحي الفكرية والخلقية والإعلامية .

أضف الى ذلك تنوع الأسلوب النبوي التربوي : في القول الذي يشمل الحكمة القصيرة، والحوار الحيوي، والتمثيل المادي، والقصص الهادف، وفي الوسائل الحسية : من رسوم وخطوط لإيضاح الأمور المعنوية، وقريب منه استعمال يديه بالتثبيت، وأنامله بالتقارب والتدوير .... وبالإضافة إليها وإلى القدوة الحية والأسوة الحسنة فقد عُرف عنه مخاطبته النَّاس على قدر عقولهم، وأخذهم باللين والتدرج وعدم الغضب إلا في موضعه المناسب، وصبره على إيذاء الآخرين بالقول والعمل، وإقناع الآخرين بالمنطق والواقع، واهتماماته الخاصة بالصبية والفتيان والشباب والإفادة من المناسبات والوقائع والحوادث ...(١)

وإذا أخذ تاريخ بني إسرائيل الحيز الأعظم في القرآن بهدف اقتباس العبرة والإفادة من دروس الماضي، فلا غرو أن يكثر الرسول حديثه عنهم وعن أنبيائهم، والمواقف المتبادلة مع أقوامهم . فهو حديث نبوي يهدف إلى (العلم) التاريخي بقدر ما يهدف الى هداية بني إسرائيل المعاصرين للرسول وتثبيت المؤمنين على الحق . إنه حديث (العلم) الطويل الذي يستغرق الليالي بطولها بحيث قد تفوته نوافل الصلاة بسبب استغراقه فيها، ومن ناحية

---

(١) من كتابي : التراث التربوي ، وانظر مصادره في ص ٩، ٢٦، ٤٢، ١٢٧ .

أخرى، فما دام القرآن قد وصف الأقوام السابقة وبخاصة بني إسرائل، بالحكمة، فمن الحكمة إذاً أن يطيل الحديث عنهم وعن حكمتهم باعتبار أن القرآن سجل لحكمة التاريخ .

قال عبد الله بن عمرو : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدّثنا عن بني إسرائل حتى يصبح، مايقومُ إلا إلى عُظْم صلاة(١) . ولذا كان حرص الرسول كبيراً على تبليغ القرآن والسنة، وتبليغ تفسير القرآن التفسير النبوي وبالصورة الأمينة الصادقة التي عرف بها الصحابة فاكتسبوا العدالة في الرواية والتبليغ .

قال صلى الله عليه وسلم : بلّغوا عني ولو آية، وحدثُوا عن بني إسرائيلَ ولا حرَج، ومن كذبَ عليّ متعمداً فَلْيَتبوأْ مقعدَه من النّار(٢) .

وهو تبليغ يتحمّله الرسول نفسه أولاً، فلم يكن ثمة مجلس ولا موسم إلا ويعرض فيه نفسه وما معه من كلام الله، ولم يكن موقف يرجى منه إسلام قوم بما يعلمهم من القرآن إلا أخذ به، ولم يكن ثمة بعث إلا ويزوده الرسول بالاهتمام بالقرآن علماً وعملاً .

تعليم العلم والحكمة من خارج القرآن* : وأساسه الأول حكمة النبوة ويدخل فيه الأساسان الآخران (حكمة القرآن، وحكمة الفطرة) ولاريب أن نبوة الرسول تقوم بشكل أساسي على الوحي القرآني، ومنه تنطلق معظم أحاديثه وتوجيهاته وسلوكياته بالإضافة الى المسائل النبوية الخارجة عن القرآن صراحة والمنطلقة منه ضمناً في صنوف أخرى من الوحي الذي تحصّن الرسول من النطق عن الهوى، ولكن ضمن مصطلح التعليم الصريح .

وتتضح السمات مجتمعة كلها أو بعضها في المواقف التالية :

---

(١) أبو داود علم (٣٦٦٣) ، و عُظْم الشيء : معظمه فإنه كان صلى الله عليه وسلم لايقوم إلا لصلاة فريضة .

(٢) البخاري أنبياء (٣٤٦١)، والترمذي علم (٢٦٧١) .

* اقتصرنا على الروايات التي صرحت بالعلم النافع غالباً . وأضفنا إليها أقوال الصحابة التي ليس للرأي فيها مجال وإنما مدارها النقل .

ـ فهو تعليم شامل وحكمة عامة : فقد قيل لسلمان الفارسي : قَد علَّمكم نبيُّكُم كل ّشيءٍ حتى الخِراءةَ، فقال : أَجلْ، لَقد نَهانا أَن نستقبلَ القبلةَ لغائطٍ أَو بولٍ ...(١)

والخيرية واضحة في جميع مسائله العامة وأوعيتها الحكيمة : فقد جاءَ أَنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم علَّمَ فواتحَ الخيرِ وخواتيمَهُ ... فعلَّمنا جوامعَ الكلمِ، أكثرُ أوعيةِ الحكمةِ وأجمَعها(٢) .

ـ وهو تعليم عملي غالباً : فقد جاء في حديث ابن مسعود : علَّمنا رسولُ اللهِ أَن نقولَ إِذا جَلسنَا الرَّكعتينِ : التَّحياتُ . وكانَ يعلِّم الناسَ هؤلاءِ الكلماتِ كما يعلِّمُهم القرآنَ(٣) .

ـ وتعليم جماعي عام في المواقف المثيرة : ففي صلاة الجماعة كان تعليمها في خطبة الرسول من أوضح السنن والبيان، فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعريّ أنَّ رسولَ اللهِ خطبَنا فعلَّمَنا سنَّتنَا وبيَّنَ لنَا صلاتَنا فقالَ : أقيمُوا صفوفَكم ثمَّ ليؤمَّكم أَحدَكُمْ، فإذا كبَّر كبِّروا، وإذا قال : ولا الضَّالِّين، فقولوا : آمين يجبْكم اللهُ، وإِذا كبَّر الإمامُ وركعَ فكَبِّروا وارْكَعُوا فإنَّ الإمامَ يركعُ قبلَكمْ ويرفعُ قبلَكُمْ، فتلكَ بتلكَ ....(٤) الى آخر هيئات الصلاة وأذكارها. مع ما كان يقوم به عملياً من تسوية الصفوف وترتيب المصلين فهو تعليم عام جامع في موقف عام جامع .

ـ ولابد أن يكون الدعاء مأثوراً متعلَّماً، فقد جاء في حديث ابن عباس أن الرسول كان يعلِّمهم هذا الدعاءَ كما يعلِّمهمُ السورةَ من القرآنِ : اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من عذابِ جهنمَ(٥) .....

وكذلك دعاء الاستخارة، فقد جاء في حديث جابر : كانَ رسولُ اللهِ يعلِّمنا الاستخارةَ كما يعلِّمنا السورةَ منَ القرآنِ(٦) ... وكذلك الدعاء عند الكرب، للرِّجال والنساء، فقد

---

(١) مسلم : طهارة (٢٦٢) والخِراءة اسم لهيئة الحدث .

(٢) النسائي ٢/٢٣٨ و ٢٣٩ .

(٣) النسائي ٢/٢٣٧ ، ٢٤٠ .

(٤) النسائي ٢/٢٤١ .

(٥) أبو داود وتر (١٥٤٢) .

(٦) البخاري تطوع (١١٦٢) .

جاء في حديث أسماء بنت عُمير، قالت : قال لي رسول الله : ألا أعلّمكِ كلماتٍ تقولينهنَّ عند الكربِ أو في الكربِ : اللهُ اللهُ ربِّي لا أشركُ به شيئاً(١) .

ـ وعند المرض لايستغنى عن الدواء والدعاء، وهذا يحتاج إلى تعليم أيضاً .

كان رسولُ اللهِ يعلّمهم من الحمّى والأوجاعِ كلّها أن يقول : بسمِ اللهِ الكبيرِ أعوذ بالله العظيمِ منْ شرِّ كلِّ عرقٍ نعَّار وشرِّ حرِّ النَّار(٢) .

ـ وفي تعليم العبادات تتنوع الأساليب حسب المواقف والأحوال وفق حكمة الرسول :

ـ في التعليم الذاتي :

ويتخذ الرسول مثل هذا المنهج العملي قدوة في كل عبادة أو مسألة يغلب عليها الجانب العملي. ففي الصلاة كان يقول لأصحابه:صلُّوا كمَا رأيتُموني أصلّي(٣)،ويعلم الرجل نفسه بنفسه (ذاتياً) في مثل (المسيء في صلاته). قائلاً له : صلِّ فإنك لم تصلِّ ... حتى يتعلم(٤) .

ـ ومن واقع الممارسة، ففي الصوم قال ابن أبي أوفى : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فصام حتى أمسى، قال الرجل : انزلْ فاجدَحْ لي، قال : لو انتظرتَ حتى تُمسي، قال : انزلْ فاجدَحْ لي ، إذا رأيتَ الليلَ قد أقبلَ من ههنا فقد أفطرَ الصّائم(٥) .

وفي شعائر الحج كان جابر يقول : رأيتُ النبّي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلتِه يومَ النَّحرِ يقول لنا : خذُوا مناسكَكُمْ فإني لا أدري لعلّي لا أحجّ بعدَ حَجّتي هذهِ(٦) .

وفي المعاملات المباحة والمحرمة كان التعليم بواقعيته يهدف الى العمل والالتزام .

فقد ورد أن رجلاً ذكر للنبي صلى الله عليه و سلم أنه يُخْدَع في البيوع، فقال : إذا بايعتَ فقُلْ لا خِلابة(٧) .

---

(١) أبو داود صلاة دعاء (١٥٢٥) .

(٢) ترمذي طب ٢٦ وقال حديث غريب لانعرفه إلا من حديث إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة.

(٣) البخاري أذان (١٨) .

(٤) البخاري إيمان (١٥) ومسلم صلاة (٤٥) .

(٥) البخاري صوم (١٩٥٨) وانظر رواياته، و الحدج : تحريك السويق ونحوه بالماء .

(٦) النسائي مناسك وأحمد ٣١٨/٣ .

(٧) البخاري بيوع (٢١١٧) .

وفي النهي عن الربا يوجه الى الحلّ المشروع فكان يقول لبلال حين يأتيه بتمر : من أين هذا؟ قال بلال: كان عندي تمر رديء. فبعت منه صاعين بصاع لنطعم النّبي، فقال النبي عند ذلك : أوّه، أوّه، عينُ الرّبا، لاتفعلْ، ولكن إذا أردتَ أن تشتري فبِعْ التّمرَ ببيعٍ آخرَ ثمَّ اشترِ بهِ(١) .

- وفي حق الميراث والأنصبة لابدَّ لضبط الحقوق وتوزيع التركة بالعدل من تعليم الفرائض والمواريث، فقد ورد : تعلّموا الفرائض وعلّموها الناسَ فإني امرؤ مقبوضٌ، وإنَّ العلمَ سيُقبض حتى يختلف الاثنانِ في الفريضةِ فلا يجدُ من يفصلُ بينهما(٢) .

وعقد المحدثون أبواب تعليم الفرائض(٣) .

وأحاديث وآثار عديدة تبين أهمية المواريث حتى أضحى سنّة للصحابة .

فقد جاء عن الحسن : وكانوا يرغبون في تعليم القرآن والفرائض(٤) .

و عن عبد الله : ومن قرأ القرآنَ فليتعلمِ الفرائض(٤) .

و عن عبد الله : تعلموا القرآن والفرائضَ فإنه يوشك أن يفتقر الرجل الى علم كان يعلمه، أو يبقى قوم لا يعلمون(٤) .

و عن أبي موسى : من علم القرآن و لم يعلم الفرائض فإن مثله مثل الرأس لا وجه له، أو ليس له وجه(٤) .

وتعلم الفرائض مع غيرها من الدين :

عن عبد الله بن مسعود : تعلموا الفرائض والطلاق والحج فإنه من دينكم(٤) .

وهو يسوّي بينها وبين تعلم القرآن على لسان رئيس الدولة المسلمة(٤) .

قال عمر بن الخطاب : تعلموا الفرائض واللحن والسنن كما تعلّمون القرآن(٤) .

---

(١) البخاري وكالة (٢٣١٢) .

(٢) ابن حجر ١٢/٥ عن أحمد والنسائي والترمذي، وقال : رواته موثقون .

(٣) مثل البخاري فرائض٢، والترمذي فرائض ٢، والدارمي فرائض ١ .

(٤) الدارمي :الفرائض ١ .

- وفي تعليم النساء وتخصيص أيام لتعليمهن عقدت أبواب(١) .

- وفي حكمة القضاء وأخلاقياته :

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى وكان قاضيه على البصرة : إن الحكمة ليست عن كبر السن، ولكنه إعطاء الله يعطيه من يشاء، فإياك ودناءة الأمور، ومداني الأخلاق(٢) .

- وفي دوام التواصل بين الأحياء والأموات وفاءً وعظة .

كان الرسول يعلمهم إذا خرجوا الى المقابر أن يقولوا : السلام على أهل الديار(٣) .... وفي رواية السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين .

وقد يكون التعليم العملي مقصوداً لذاته بغض النظر عن ممارسة المعلم شعائر العبادة بقصد التعليم والإيضاح وحده . فقد ورد في الحديث ، أتانا عليّ وقد صلّى، فدعا بطَهور، فقلنا : مايصنع بالطَّهور وقد صلّى؟ ما يريد إلاّ ليعلمنا، فأتي بإناء فيه ماء وطست ... ثم قال : من سره أن يعلمَ وضوء رسول الله فهو هذا(٤) .

وجاء أن مالك بن الحُويرث أتى المسجد قائلاً : إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة، أصلي كيف رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي(٥) .

- وأمين الوحي جبريل معلم الجميع فيما هو خاص به . فقد جاء أن (جبريل أتى النبي يعلمه مواقيت الصلاة(٦) ، فتقدم جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه، والناس خلف رسول الله، فصلّى الظهر حين زالت الشمس، وأتاه حين كان الظل مثل شخصه فصنع

---

(١) مثل ما فعل البخاري في الأبواب ٣١،٣٢،٣٦ من كتاب العلم .

(٢) أخبار القضاة : وكيع ١/٢٨٥ .

(٣) مسلم، جنائز (١٠٤) .

(٤) أبو داود ، طهارة (١١١) .

(٥) البخاري ، أذان (٦٧٧) .

(٦) النسائي ١/٢٢٥ ، مواقيت .

كما صنع ...) وكذلك في مواقيت العصر والمغرب والعشاء والفجر . ثم قال : ما بين هاتين الصلاتين وقت .

فإذا وضع ذلك كله في (الإطار) الحكيم، وبلَّغ بالأسلوب الحكيم فقد استوفت النبوة مهامَّها وأدت رسالتها، على خير وجه، وهي إذ لا تقتصر على أي قول يتحدث به وأية حكمة ينطق بها وأي عمل يقوم به وإنما تضمّها وغيرها في (معالجة) المواقف التعليمية المختلفة، فكان رسول الله (يتخوَّلهم) بالموعظة، ويزجر (المنبت)، و (يتدرج) و (ينظّر) لمرتكب الفاحشة، ويضغط الفضائل جميعها عند التوصية بـ (الحلم) و (الاستقامة) مثلاً، إنه لايعلّم (الحكمة) بالقول وحده، وإنما يعلمها بالفعل والقدوة وبأسلوب الحكمة وليس لجيل واحد وإنما لجميع الناس.

* * * * *

وإذا اجتمع القول الفصل مع كثرة المعاني فإنه أبلغ تأثيراً وأقوى خطاباً . يقول الجاحظ(١): وهو (الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ... فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، وإن الله جمع له بين الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته) . وفي حكمة خطبه يقول : إنه (يبذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أفصح معنىً من كلامه صلى الله عليه وسلم) .

ويفسّر ابن الأثير المراد من جوامع الكلم : الإيجاز والبلاغة، فتكون ألفاظه قليلة، ومعاني كلامه كثيرة، وكذلك كانت ألفاظه صلى الله عليه وسلم(٢) .

يقول العقاد : اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات .

إن جوامع الكلم تأخذ طريق الذيوع والانتشار أكثر من غيرها، وهنا تشبهها الأمثال السائرة التي يمكن تطبيقها على كثير من الحالات والوقائع . وحكمتها لاتقتصر على الإيجاز الآسر وإنما على المفهوم أو المفاهيم الحكيمة الداعية لعمق النظر وطول الدرس .

أولاً أحاديث جامعة مرسلة : ويقصد بها جوامع الكلم الخالية من الحكمة صراحة، وقد تضمّنت ألواناً شتى من الآداب والمعارف .

مَن دَلَّ على خيرٍ فلَهُ مثلُ أجرِ فاعِلِه(٣)

المثوبة تشمل الفاعل والدّال والقائل فهم متكاملون

قُلْ آمنْتُ بالله فاستقِمْ(٤)

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٦-٣٩ ، وفيه أحاديث عامة وجامعة .

(٢) وانظر أيضاً في تفسير جوامع الكلم : فتح الباري ١٣/٢٤٨ ففيه أحاديث أخرى .

(٣) مسلم إمارة (١٨٩٣) .

(٤) مسلم إيمان (٣٨) .

قال النَّووي : الاستقامة لزوم لطاعة الله تعالى، وهي من جوامع الكلم وهي نظام الأمور المشتملة على الإيمان والصدق في المعاملات .

مَامِنْ عبدٍ يسترعيه اللهُ رعيةً يموتُ يومَ يموتُ وهوُ غاشٌّ لرعيتهِ إلاّ حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّةَ(١)

مسؤلية الحاكم المسلم خطيرة وإخلاص رعايته واجبة

كلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكم مسؤلٌ عنْ رَعيَّتهِ(٢)

قاعدة عامة وكلية في الرعاية والمسؤلية والتطبيق

المؤمنُ للمؤمنِ كالبنْيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً(٣)

وحدة المسلمين قوة ثابتة وأعمال متكاملة متناسقة

لاتحقِرنَّ منَ المعروفِ شيئاً وَلوْ أنْ تلقَى أخاكَ بوجهٍ طليقٍ(٤)

اعتبار المعروف القليل والقيام به اجتماعياً

إياكمْ والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ(٥)

المجتمع المسلم قائم علىالود والصفاء وطرح الشكوك والتعالي عن كل ما يسيء إليه

إِنَّ خيرَكمْ أحسنُكمْ قضاءً(٦)

الفضل العظيم في القضاء العادل

لايُلدغُ المؤمنُ منْ جحرٍ مرتينِ(٧)

الحذر من تكرار الخطأ والفطنة عند الأحداث

---

(١) مسلم إمارة (١٤٢) .

(٢) البخاري جمعة (٨٩٣) ومسلم إمارة (١٨٢٩) وتقدم .

(٣) البخاري (٣١٩)، ومسلم صلة (٢٥٨٥) .

(٤) مسلم ، بر (٢٦٢٦) .

(٥) مسلم جزء من حديث في البر والصلة (٢٥٦٣) .

(٦) البخاري وكالة (٢٣٠٦) ، ومسلم مساقاة (١٦٠٠) .

(٧) البخاري (٢٣٥١)، ومسلم زهد (٢٩٩٨) .

إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتظرِ السَّاعةَ(١)

الإنسان الكفء المناسب في الموقع غير المناسب عامل في الفوضى والدمار

هُدنةٌ على دخَنٍ(٢)

لابد من وضوح العلاقات الدولية ومصداقيتها

دَعْ ما يَريبُكَ إلى مَا لا يَريبك(٣)

الحذر من العمل المشكوك فيه، وترك الريب الى اليقين

المسلمونَ على شروطِهِمْ(٤)

الوفاء بالعهود من مبادئ الاسلام العظمى

السعيدُ مَن وُعِظَ بغيرِهِ(٥)

الحثّ على اختيار الأعمال عن حكمة وروية قبل الوقوع في المزالق

كُلّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعرضُه(٦)

حرمات المسلمين كلية والمحافظة عليها ضرورة حقوقية واجتماعية وأمنية

مَن غشَّ فليسَ مِنّي(٧)

إخفاء العيوب في العمل والسلع والبيان الحق يخرج صاحبه من الصف الإسلامي

الطُّهورُ شطرُ الإيمانِ(٨)

النظافة الظاهرة جزء من الإيمان الباطني ومظهر له

---

(١) البخاري ، علم (٥٩) .

(٢) أبو داود ، فتن وأحمد ٥/٣٨٦ .

(٣) البخاري بيوع ٣ موقوفاً على حسان بن أبي سنان . قال في الفتح ٤/٢٩٢ وصله أحمد في الزهد .

(٤) البخاري ، إجارة (١٤) والترمذي ، أحكام (١٧) .

(٥) مسلم ، قدر (٢٦٤٥) .

(٦) مسلم ، بر (٢٥٦٤) .

(٧) مسلم ، إيمان (١٠٢) .

(٨) مسلم طهارة (٢٢٣) .

ثانياً : أحاديث جامعة حكيمة : ويقصد بها جوامع الكلم التي صرّح فيها بالحكمة ومرادفها أو معناها .

الكلمةُ الحكمةُ ضالّةُ المؤمنِ حيثما وجدَها فهوَ أحقُّ بها(١)

العلوم النافعة طلبة المسلمين وتقوية لإيمانهم، فينبغي البحث عنها

مثلُ الذي يجلسُ يسمعُ الحكمةَ ثمَّ لا يحدثُ عن صاحبهِ إلاّ بشرِّ ما يسمعُ كمثلِ رجلٍ أتى راعياً، فقالَ : يا رَاعي إجزرْ لي شاةً من غنمِكَ، قالَ : اذهبْ فخذْ بأذُنِ خيرِها، فأخذَ بأذنِ كلبِ غنمٍ، وفي رواية بأذنِ خيره شاةً(٢) .

إشاعة الحكمة وطلبها من مصادرها وإبلاغها كما هي، وأخذها صحيحة صادقة .

إذا رأيتمُ الرَّجلَ قدْ أُعطيَ زهداً في الدّنيا وقلةَ منطقٍ فاقتربُوا منهُ، فإنّه يُلقّى الحكمةَ(٣)

من أمارات الحكيم الزهد في الدنيا، والصمت عما لايعنيه (الصمتُ حكمٌ وقليلٌ فاعلُهُ)

والإيمانُ يمانٍ والحكمةُ يمانٍ(٤)

---

(١) (ابن ماجه في الحكمة ٤١٦٩)
ومعنى : الكلمة الحكمة أي ذات الحكمة المشتملة عليها. وضالّة المؤمن : أي مطلوبة له بأشد ما يتصور في الطلب، كما يطلب المؤمن ضالته . وليس القمصود بهذا الكلام الإخبار، إذ كم من مؤمن ليس له طلب للحكمة أصلاً، بل المطلوب به الإرشاد كالتعليم . أي اللائق بحال المؤمن أن يكون مطلوبه الكلمة الحكمة . وحيثما وجدها : أي ينبغي أن يكون نظر المرء الى القول لا إلى القائل .

(٢) ابن ماجه : الحكمة (٤١٧٢) وفي الزوائد : إسناده ضعيف ولكن معناه صحيح وحكيم، ومعنى اجزر لي : أعطني .

(٣) ابن ماجه ، زهد (٤١٠١) في الزوائد : لم يخرج ابن ماجه لأبي خلاد (الراوي) سوى هذا الحديث، ولم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الخمسة شيئاً .

(٤) البخاري ، مناقب (٣٤٩٩) . وسواء كان المقصود نسبة الإيمان الى مكة باعتبارها مبدأ له، وهي على يمين المدينة، أو كان المقصود نسبة الإيمان الى مكة والمدينة وهي يمانيتان بالنسبة

قد يختص قطر أو بلد بالحكمة والحكماء في فترة مثل ما يختص شخص أو فئة، فقد ورد :

عن ابن عباس قال : ضمني النبي صلى الله عليه و سلم الى صدره وقال : **اللهمَّ علّمه الحكمـةَ**، وفي رواية اللهمَّ علّمه الكتابَ(١) . وفي رواية الطبراني : اللهمَّ علّمـهُ التأويلَ . قـال البخـاري : الحكمة : الإصابة في غير النبوة . مثل الإصابة في القول والفهم عن الله، ومـا يشـهد العقـل بصحته، ونور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وسرعة الجواب بالصواب .

الحياءُ لايأْتِي إلاّ بخيرٍ . قال بُشير بن كعـب : مكتـوب في الحكمـة : إن في الحيـاء وقاراً، وإن من الحياء سكينة،، فقال له عمـران : أحدِّثـك عـن رسـول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن صحيفتك(٢) .

ولاتقتصر الحكمة على اقتنائها وإنما لابدَّ من إبلاغها وحملها للآخرين .

نِعْمَ العطيَّةُ، و نِعْم الهديَّة كلمـةُ حكمـةٍ تسـمعُها فتطـوي عليهـا ثـمَّ تحمِلُهـا إلى أخٍ لـكَ مسلمٍ تعلّمه إيَّاها تعدِلُ عبادةَ سنةٍ(٣) .

وإذا كان إبلاغ الحكمة من أعظـم العبـادات زمانـاً ومكانـاً فـإن خيرهـا بسـبب جوهريتهـا وقيمتها المعنوية السامية .

كلمةٌ منَ الحكمةِ يتعلَّمُها الرَّجلُ خيْر لهُ مِن الدُّنيا ومَا فِيها(٤) .

للشام فإن ذكر اليمن بالحكمة والإيمان لاينفيهما عن غيرهما، ومع هذا فقد جـاء فـي بعـض طرقـه في الصحيح : أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوباً وأرق فـائدة، الإيمـان يمـان والحكمـة يمانيـة، ورأس الكفر قبل المشرق، يقول ابن حجر ٥٣٢/٦، المراد بذلك الموجـود منهـم حينئذ لا كـل أهـل اليمـن فـي كـل زمـان، فـإن اللفظ لايقتضيـه، والمـراد بالفقـه (فـي روايـة) : الفهـم فـي الديـن، والمــراد بالحكمة : العلم المشتمل على المعرفة بالله .

(١) البخاري فضائل (٣٧٥٦) وانظر الفتح ١٠٠/٧ .

(٢) البخاري ، أدب (٦١١٧) .

(٣) قال الحافظ العراقي في الإحياء : الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف مثله .

(٤) السابق : ابو نعيم والبيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف .

وفي رواية : **حكمةٌ منَ الخيرِ يسمعُها المؤمنُ فيعلّمها ويعملُ بها خيرٌ لهُ منْ عبادةِ سنةٍ**(١)

ووصف الرسول رجالاً بأنهم : علماءُ حكماءُ فقهاءُ، للّذين وفدوا عليه(١) .

فاجتماع العلم والحكمة والفقه في إنسان خير عظيم

لاحسدَ إلاّ في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلّطَ على هلَكتِـه في الحقّ، ورجـلٌ آتـاهُ اللهُ الحكمةَ فهوَ يقضي بها ويعلّمها(٢) .

حكمة القاضي بالتعليم والقضاء فضيلة عظيمة

إنَّ منَ الشّعرِ حِكْمة(٣)

الحكمة غرض سام من أغراض الشعر

أحذّركُمْ زيعةَ الحكيمِ فإنَّ الشّيطانَ قدْ يقولُ كلمةَ الضّلالةِ على لسانِ الحكيمِ ...(٤)

---

(١) السابق مرسل : ابن المبارك في الزهد والرقائق ، وانظر الإحياء ٨/١، ولكنّ المعنى صحيح حكيم .

(٢) البخاري علم . الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣) . قال ابن حجر (الفتح ١٦٦/١) وفي روايـة: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار . وحسد الغبطة : تمنّي المرء أن يكون لـه نظير ما للآخرين من غير أن يزول عنه، فهاتان الخصلتان محمودتان ولاحسد فيهما . وقيـل : المراد بالحكمة : كل ما منع من الجهل وزجر عن القبح .

(٣) الدارمي ، علم ٢٩٧/٢ . والبخاري : مايجوز من الشعر والرجز ..(٦١٤٥)، وساق الدارمـي آثاراً حكيمة للصحابة في : العلم والسنن ١٠٠/١ و ١٣٩/١ .

(٤) والحديث بتمامه هو :

قال معاذ بن جبل يوماً : إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمـن والمنـافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك قـائل أن يقـول : مـا للنـاس لايتبعوني وقد قرأت القرآن ؟ ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن مـا ابتـدع ضلالة، وأحذركم زَيْعَةَ الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة علـى لسـان الحكيم، وقد يقـول المنافق كلمة الحق، فقال يزيد بن عميرة جليسه : مايدريني رحمـك اللـه أن الحكيـم قد يقـول كلمـة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال : بلى اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها، ما هذه، ولايثنيك ذلك عنهن فإنه لعله أن يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نـوراً ، أبو داود السنة (٤٦١١) وهو حديث موقوف . ومعنى يثنيك : يبعدك وفي روايـة ينئيك أي يبعدك

لاينبغي أن يتّبع ناطق الحكمة في حال اختلاط المفاهيم عليه وشذوذه عن مقتضيات العقل والشرع ولا في حال تشكيكه بالتصورات الحقّة فإن الناس قد يتأثرون بزيغه وشكوكه .

جيل المعلمين والمتعلمين والحكمة

فكل صحابي كان متعلماً، ومعلماً، تعلّم من الرسول وكبار الصحابة والمكثرين من الرواية وعلّم غيره من الصحابة والتابعين مثل : ابن عمر وابن عباس وابن عمرو، من عمر وأبي هريرة ومعاذ ... وكذلك تعلم وتعليم أزواج الرسول أمور البيت المسلم .... فلا ينقطع المعلم عن التعليم مادام النبع ثرًّا والتواصل العلمي قائماً . إنها حركة علمية دائبة نشطة في إطار الدوافع النبيلة الخيرة . وإذاً فهي عملية تضم المعلمين والتلاميذ معاً، فلا يبقى التلميذ تلميذاً وفي حال التلقي وحده وإنما يمكنه أن يصير ـ وبالفعل ـ معلماً يشترك في البذل والعطاء محتفظاً بحقه في التعلم المستمر الحي والإفادة الواقعية النافعة .

وإذا كانت الأمية ضاربة أطنابها في العرب فإنها تقتضي ثورة علمية ولكنها حكيمة المضمون والأداء، ولئن كان الرسول واحداً من الأميين فإن بعثته الى الناس تعليمية وإصلاحية معاً، حتى أصبح التعلم والتعليم ظاهرة في حياتهم، إنه الجيل الأول الذي حمل العلم ووسائله وبخاصة علم القرآن والسنة والحكمة وتزكية النفوس الى الأقطار القريبة والبعيدة، ومن ثم حملوه الى من بعدهم فكانت حضارتهم علمية جهادية بعد أن كانوا أميين جاهليين (البقرة ١٥١) وهي قضية هامة تستحق منهم أن يشكروا الله ويذكروه فالله يقابل شكرهم وذكرهم هذا بما هو أعظم منه وأجلُّ (البقرة ١٥٢) . وهذا الدافع القيمي القوي مما يعزز النشاط العلمي الكبير الذي كان يتجاوز شظف العيش(١) وتأريث العداوة والاعتزاز بالسفه والجاهلية والاعتماد على معارف اليهود المغرضة . ويعني نقل العرب وغيرهم من أمّة أميّة إلى أمّة متعلمة لايقتصر تعلمها على محو الأمية وإنما ينقلها إلى أمة

والمشبهات بدلاً من المشتهرات، قال الزهري : ما تشابه عليك من قول الحكيم حتى تقول : ما أراد بهذه الكلمة ؟ وزيعة : هي زيغة : وهي الشك والميل .

(١) انظر حديث ابي داود ، علم (٣٦٦٦) ومنهم أهل الصفة .

التعليم الذي كان أشرف رسالتها وأنبل أعمالها . وإذا أضفنا إلى تعلم وتعليم القرآن والسنة تزكية النفوس بهما فإن تعريفهم بأسرار الأشياء المعبرّ عنه بالحكمة يبين دور الإسلام التثقيفي العام الذي لايحقق سواه عمليات التحضير والإصلاح . يقول ابن كثير في تفسيره : فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته الى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً وأبرَّهم قلوباً وأقلَّهم تكلفاً وأصدقهم لهجة . إنهم قاعدة الإسلام العلمية الأمينة وتمثله الصحيح وجيل تبليغ القرآن والسنة حين كان يطلق على كل منهما العلم ، وتتجلى هذه القاعدة في الشعار العام (ليبلغِ الشاهدُ الغائبَ)[1] ، وهو تبليغ شفاهي صرف أو شفاهي يعتمد على الكتابة التي أجازها الرسول للصحابة الذين لايشتبه عندهم القرآن بالحديث . وهو سماع وإسماع (تسمعونَ ويُسمع منكمْ ويُسمع ممّن سمعَ منكمْ)[2] في سلسلة متصلة غير محدودة في السماع والتعليم .

ويمكن أن يشمل البلاغ والنقل عن أمم أخرى غير المسلمين، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم (حدِّثوا عَن بني إسْرائيلَ ولا حرَج)[3] . وهي مسألة غير التصديق والتكذيب لما يروى عنهم . قال الخطابي : ليس معناه إباحة الكذب في أخبار بني إسرائيل ورفع الحرج عمن نقل عنهم الكذب،و لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد[4] . وكان دور (الصعاليك) في تداول العلم ونشره واضحاً، فهم صبر على شظف العيش وقلة المئونة، حتى إنهم لفقرهم ماكانوا يجدون ما يسترون به أجسادهم، بينما كان غناهم بالعلم ومجالسهم فيه خير معوّض لهم عن فقرهم وشظفهم، بذلك صانت (الصعلكة) نفسها من التعديات وقطع الطرق للحصول على الزاد والإغارة على الآمنين، وفي مقدمتهم أهل (الصفة) الذين أقعدتهم الحاجة عن طلب العلم والاكتفاء بالنزر اليسير .

---

(١) جزء من حديث البخاري : علم (٦٧) .

(٢) أبو داود (٣٦٥٩) .

(٣) السابق (٣٦٦٣) .

(٤) ٤/٧٠ من شرح سنن أبي داود .

قال أبو سعيد الخدري : جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليستترُ ببعض من العري، وقارئ يقرأ علينا، إذ جاء رسول الله فقام علينا، فلما قام رسول الله سكت القارئ فسلَّم، ثم قال : ماكنتم تصنعون ؟ قلنا : يارسول الله، إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا، فكنا نستمع الى كتاب الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم، مشيراً الى قوله ﴿وَاصبِرْ نفسكَ مع الّذينَ يَدعونَ رَبَّهمْ بالغدَاةِ والعَشيّ يريدونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف ٢٨) ، فجلس رسول الله وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال بيده هكذا، فتحلّقوا، وبرزتْ وجوهُهمْ له فقال : أبشِروا يامعشرَ الصَّعاليك المهاجرينَ بالنّورِ التَّامِ يومَ القيامةِ، تدخلونَ الجنَّةَ قبلَ أغنياءِ النَّاس بنصفِ يومٍ وذاكَ خمسمائةِ سنةٍ(١) .

والحديث موقف هام في المشاركة الوجدانية والتعليمية العملية بين الراعي والرعية، وسلوانٌ لطلاب العلم الفقراء العراة لمتابعة طلبهم، ومنزلة سامية عند الله يوم القيامة لاينالها الأغنياء لغناهم، فسبقهم الفقراء العلماء بسبب تخصصهم بمدارسة العلم وصبرهم على البلوى .

وواضح أن العملية التعليمية الغنية شملت : تعليم الكبار وتعليم الصغار معاً، فقد تعلم الصحابة من الرسول وكانوا شباباً وشيوخاً أميين كثيرين لاينفع معهم أن يتعلموا الهجائية ومبادئ الكتابة والقراءة لمحو أميتهم مثل ما ينفعهم الاستفادة من (حافظاتهم) في تعلم القرآن ودراسته في مجالسه، ومثل ما كانوا يعاينونه من تعلم الحلال والحرام وأنواع العبادات البدنية واللسانية والمالية، إلى جانب ما كان يقوم به الكثيرون من تعلم الكتابة حتى تستكمل أدوات العلم ووسائله، ومن ثم يقوم هؤلاء بمسؤلية التعليم لغيرهم . وكان للبعثة النبوية التعليمية فضل السبق في نشر العلم لجمهرة عريضة من الصحابة بأخذ الجانب العملي التطبيقي السلوكي أكثر من جانبه النظري المجرد مما جعلهم شيوخ العلم الإسلامي الأول سواء كانوا من قبلُ أميين أو عاميين أومتعلمين، وإن تعليم الكبار يحتاج أول ما يحتاج إليه إثارة البواعث النفسية للإقبال على محو الأمية الثقافية، وتحمل العنت والجهد في أخذ العلم، والاهتمام بنوعية خاصة من العلم الذي ينفعهم في حياتهم، ويحسِّن أحوالهم المعاشية ويرفع

(١) حديث أبي داود السابق (٣٦٦٦) .

مستوياتهم الفكرية والاقتصادية، ويدفعهم الى تعويض ما فاتهم بالنسبة الى أبنائهم وإخوانهم الشببية . وهذا ما وقع فعلاً، فقد كان الباعث الديني أعظمها لاقتباس المعارف الدينية الهامة، وهو ذاته الذي دفعهم الى نشره في أجيال أخرى، وفي الحق إن التجربة التعليمية للكبار لم تلق نجاحاً مثل ما لقيته إبان الرسالة فلم يكونوا يزيدون على ٢٠ متعلماً وبعد غزوة بدر فشا العلم بين المسلمين . وكان لدور القرآن للكبار مثل ما كانت الكتاتيب للصغار، وكانت المساجد تجمع هؤلاء وهؤلاء في حلقات العلم ومدارسة القرآن، والرسول عليه الصلاة والسلام عماد هذه الحملة العلمية العامة متعلماً ومعلماً وداعياً بحكمة القول والعمل والحال في جيل المعلمين والمتعلمين .

ـ ومن الجانب التخصصي الصناعي وعلى مستوى النشاط الرسمي وتوابعه :

فقد أوصلهم العراقي في أرجوزته الى ٤٢ كاتباً معظمهم من الشباب المدنيين وهؤلاء لم يكونوا جميعا كتاب الوحي، وكان أكثرهم كتابة علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، واختص زيد بكتابة السرِّ وكتابة السريانية وغيرها، وأبي بن كعب وعبد الله بن الأرقم بكتابة الرسائل والإقطاع، وعليّ وغيره بكتابة العهود والصلح، وكان مصعب بن عمير المعلم والمقرئ والإمام لأهل المدينة، وخلفه معاذ بن جبل يفقّه النّاس في الدين، واستعمل النبي عمرو بن حزم الخزرجي ليفقههم بالدين ويعلمهم القرآن ويأخذ صدقاتهم وذلك سنة عشر .

ومن المعلمين رافع بن مالك، والرقيق ابراهيم بن جابر، وأمين الأمّة أبو عبيدة بن الجراح، وباذان بن ساسان على اليمن، وخالد بن سعيد بن العاص على اليمن، والمهاجر بن أبي ، ومعاذ بن جبل على الجند، وأبو سفيان صخر بن حرب على نجران، وعلي بن أبي طالب على الأخماس باليمن والقضاء، وعمرو بن العاص على عُمان . ومن الأمراء المعلمين أيضاً عمرو بن حزم الذي استعمله الرسول على نجران، وأمية على كندة والصدف، وزياد بن أمية على حضرموت، وأبو موسى الأشعري على زبيد وزمع . ومن معلمي الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاصي في المدينة، وكذلك عبادة بن الصامت الذي قال : علمت أناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن . ومن الوفود التربوية : قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، و

ابن نويرة، وسعيد بن العاص، ومعاذ بن جبر . قال الشافعي : وبعث في دهر واحد (١٢) رسولاً الى (١٢) ملكاً يدعوهم الى الإسلام .

حتى إنه سمح للمعلمين الكفار بمزاولة التعليم في أسارى بدر حيث كلف الواحد منهم أن يعلّم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة كما هو مشهور . ففشت الكتابة في المدينة.

ومن المعلمات : الشِّفاء أم سليمان بن أبي حتمة التي قال لها الرسول : علمي حفصة رُقْية النملة كما علمتها الكتابة .

وكان الصحابة والتابعون ـ تلاميذ الرسول ـ طلائع المعلمين في القيروان (عاصمة المغرب حينذاك) فنشروا القرآن والسنة ومبادئ العربية بين أبناء البربر، وبذلك تمَّ إسلام بربر وأصبحت لغتهم العربية، كما حدث للفرس وغيرهم من علماء الدين من الشعوب غير العربية .

وثبت بالخبر الصحيح أنه كان على عهد رسول الله وخلفائه كتاتيب منتظمة يتعلم فيها أبناء المسلمين الأغنياء مع أبناء المسلمين الفقراء بصورة عامة . واشتهرت دور القرآن ومنها دار القرآن التي كان يسكنها عبد الله بن أم مكتوم يؤمها الكبار، وقد يصطحبون أولادهم معهم ويشاركونهم في الاستظهار والحفظ، كما كانوا يصطحبونهم الى مجالس العلم والفقه، وكان الآباء أنفسهم يلقّنون أودلاهم مبادئ الإسلام وأحياناً يرسلونهم الى معلمين خصوصيين .

وفي مسجد قباء أول مسجد بُني في الإسلام كانت تعقد حلقات العلم فيه، كما كان ذلك من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم ودنياهم . وهكذا في سائر الأمصار التي كان الصحابة يؤسسون المساجد لتعليم الناس، مثل ما فعله أبو موسى الأشعري في البصرة، وسعد بن أبي وقاص في مصر.......(١)

وإذ إنها (بعثة) الرسالة والتعليم والتزكية وبخاصة الحكمة النبوية بالنص القرآني فإنها قادرة على أن تتجاوز زمان التنزيل الى الأجيال والأجناس الأخرى، فهي مهمّة التعليم العالمي

---

(١) التراتيب الإدارية ١١٥/١ وما بعد وانظر فصولاً في : التراث التربوي، والعمل، للمؤلف .

القائم على العلم النافع والخير البشري، وما أعظمها مسؤلية في حياة الرسول وبعده، وإن ﴿آخرينَ منْهُمْ لّما يَلحقُوا بِهمْ﴾ (الجمعة ٣) تجاوزٌ لقبيلة أو بلد في القضاء على الجهل الى آفاق شاسعة في العالم باعتبار أن الإسلام مهمة تعليمية وسلوكية سامية .

ويصح أن نستوحي من (الجمعة ٢-٣) ازدواج مهمة المعلمين والعلماء، فهي قضاء على الأميتين الدينية والتثقيفية بضرورة تعلم (الكتاب) أي الكتابة، إلى جانب (الحكمة) و(التزكية) بالقرآن تلاوة والتزاماً . مما تحمل المسلمين قادة وأفراداً ريادةَ العلم إلى غيرهم وقيام حضارتهم الإنسانية عليه في كل حين .

وهذا واضح من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم المبلّغين بنضارة الوجوه، والدعاء لهم بذلك (نضَّر اللهُ امرأً سمعَ منّا حديثاً فحفظَهُ حتى يبلّغه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ ليسَ بفقيهٍ)(١) . وبذلك تزدحم وسائل التوصيل الثقافي وتتوسع مجالاته في الأرض للعلماء ولحاملي الثقافة والمتعلمين .

* * * * *

(١) الترمذي (٢٦٥٨) ، وأبو داود ، علم (٣٦٦٠) .

إنسانيةُ الحكمةِ .... والقرآن

إنها من أخطر ألوان الحكمة القرآنية، وأوسع مواقعها بعد موقعها من حكمة الله والنبوات وما يتصل بهما، حيث يلهمنا القرآن بعديد من الحكم حسب المواقف الإنسانية المختلفة وذلك لأربعة اعتبارات : أولها أن قضية الإنسان من أعظم القضايا القرآنية حجماً واتساعاً وتناولاً وتشعباً، وثانيها أن حكمة الله لاتدرك إلاّ بالنظر والحواس، وثالثها أن النبوات المعروفة منها والمجهولة هي هدية الله وعطاؤه للإنسان المتحضر بها والراقي بقيمها، ورابعها لوضوح المصطلحات الحكمية العامة وكثرتها وتعدد مجالاتها وإبراز قيمها الإنسانية باعتبارها خاصية له، وتشمل المصطلحات فيما تشمله (الإنسان ـ إنس ـ أناس ـ الناس ـ الأنام ـ بنو آدم ـ ....) الدالّة على عمومية الإنسانية فإن تنويه القرآن بها وعلى زخمها معلم بارز في حضارته العالمية . والإنسان أساس العمران وقوام الحضارة، وتقدمه الفكري والخلقي والروحي والعملي أرسخ قواعده، ولذا فإن خطاب الله له يمكن أن يفجر بطاقاته الأرض ويمخر العباب والفضاء، ويخترق آفاق المعرفة وحجبها المجهولة، ويرقى بماديته ومعنوياته .

مواقع الحكمة القرآنية الإنسانية(١)

ونبرز موقعين :الذات الإنسانية، وعمومية الكون. وفي كل منهما حكم إلهية وبشرية كثيرة.

أولاً : الذات الإنسانية : فهي واحدة في الأصل والتكوين والقيم والأعراض والتركيب الجمعي والنهاية . فهي من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً (النساء ١) . وهي قائمة على قاعدة الزوجية في الخلق، وعلى التصنيف الذكوري والأنوثي (النجم ٤٥) وقاعدة النّاسيّة المركبة على أسس فطرية واجتماعية (الحجرات ١٣) وعلى هذا فإن الذات الإنسانية فردية وزوجية وناسيّة، ترجع جميعها الى (الإنسان) الواحد.

---

(١) اقتصرنا في الفقرات الآتية على الآيات التي تصرح بالإنسان والناس .

– **الأصل الترابي المائي الواحد**، فهو عنصر أو سلالة عناصر الأرض التي أنبتته فكان نباتاً متميزاً عجيباً (نوح ١٧) ويلحق به الأصل المائي الذي أخذ ثلاثة أرباع بدنه، وجعله القرآن ضمن مجموعة الأحياء التي تعتمد اعتماداً كلياً على الماء (الأنبياء ٣٠) والنطاف أصل واحد للحياة، والخلية واحدة في التكوين الإنساني الحي، وهي كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها الحيوية كلها، في المخلوقات الدنيا والمركبة المعقدة العليا، وإن مئات الألوف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب، وفي المكان الصواب (كما جاء في كتاب العلم يدعو الى الإيمان) . والروح نفخة واحدة لجميع الناس، وجواهر الإنسان الفطرية واحدة . فالأصل واحد (الحجر ٢٦) وغيرها، والنهاية متساوية (القيامة ٣٦–٤٠) وغيرها، ومراحل التطور الجنيني والولادي صريحة للجميع (المؤمنون ١٢) وغيرها، وتكوين القدرات الحسية والعقلية من جبلّة إلهية واحدة، فكلهم يولد عليها وإن اختلفت أحجامها، وكيفياتها، وكلهم ينشأ مزوداً بها (النحل ٧٨) وهو إذ خلق في أحسن تقويم فإنه في تناقص وخسران مستمرين ﴿والعصْرِ إنَّ الإنْسانَ لَفي خُسْرٍ﴾ (العصر ١–٢) وقد أُعدت له الأرض وجعلها مناسبة لحياته كما جعل كيانه متناسباً معها، فالأرض وهي كوكب في المجموعة الشمسية هي المعمورة به المتحضرة بحضارته، وذلك بسبب ما ميزه الله بالنظر والعلم والتعلم والتعليم ﴿الرَّحمنُ ◆ علَّمّ القرآنَ ◆ خلَقَ الإنسانَ ◆ عَلَّمهُ البيانَ﴾ (الرحمن ١–٣).

– **والقيم الإنسانية واحدة** فالدين والنبوات، والحق والخير والجمال والأمانة قيم عامة ، والعمل ملازم لخلق الإنسان كل إنسان ﴿واللهُ خَلقكُمْ ومَاتَعْملوُن﴾ (الصافّات ٩٦) والعدل والبرُّ والإحسان والصدق والشجاعة الأدبية والصبر والمروءة والمعاملة الحسنة وإرادة الخير والتماسه، والمسؤلية، والقول الحسن والمعاملة الطيبة قيم فردية واجتماعية وسياسية طلبها القرآن من جميع الناس ولجميع الناس، ومن ذلك (تعارف) الشعوب وتعاملهم بالمثل وإحقاق الحق فيهم ودعوتهم إلى حكمة القرآن وتتبع هذه الحكمة في الخلق والخالق .

وعلى العكس أيضاً فإن شرور الإنسانية واحدة مهما تكونت وتكيفت، فهي بالنسبة للفضائل مرفوضة مرذولة عند الجميع وفي الديانات والفلسفات الحكيمة، وهي بالنسبة

للسلوكيات البشرية منبوذة مكروهة . وإن تخبّط بعضها في بؤرها فإن العقلاء ينبهون ويبيّنون ويصلحون أو يحاولون .

– **وأعراض الناس واحدة أو متقاربة،** فمع حبّ الزينة والمشتهيات الثمانية (آل عمران ١٤) فإن لكلٍ آماله وأمانيه المتشابهة (النجم ٢٤)، وقد تلهيهم هذه الآمال والوعود عن مسؤلياتهم (الحجر ٣) فيعتريهم غرور وغفلة آنيين (الانفطار ٦).

وبالتصريح القرآني خُلق الإنسان من ضعف (النساء ٢٨) ومن عجلة (الإسراء ١١) و (الأنبياء ٣٧) هو فرِح بالنعمة وعندها، وكفور بالمصيبة وحين نزولها (الشورى ٤٨)، وهو قلق مضطرب هلوع (المعارج ١٩) ومتعب مثقل بالأعباء كادح (الانشقاق ٦) وفي مشقّات متلاحقات، إنه في غمرات الكبَد (البلد ٤) وهو لولا الرسالات جحود كفور كنود (العاديات ٦) يطغيه المال والجاه والعشيرة (العلق ٦).

– **ومن خلال تتبع الآيات** يمكن إيجاز تعريف الإنسان من منظور الحكمة القرآنية بمايلي:

فهو المخلوق المميز المعقد المركب من قوى متضاربة، نزّاع لمعرفة المجهول قابل للتطور الحضاري الدائم، وبشيء من التفصيل يمكن القول:

الإنسان مخلوق ترابي (طيني)، روحي، عاقل، مفكر، مبدع عامل، قادر، حرٌّ، مريد، عطوف،قوي بقدراته الحسية والمعنوية، مسؤول عن تصرفاته، نزّاع إلى الحق والخير والجمال، لديه استعدادات الخير وفطر الإيمان قابل للأخذ بالرسالات مؤهل لحمل الدين، ذو آمال وأمان عريضة، منفعل مع السنن الكونية، معدّ للتحديات المختلفة، متطلع إلى الاجتماع، متأدب في خطابه ولقائه، مهذب بالتعامل مع الآخرين، قابل للتطور الحضاري الشامل، حريص على ملكيته، غيور على حرماته، أرقى من الملائكة إذ هو خليفة الله في الأرض .

وتكتمل صورة الإنسان في شخصية المسلم بالطهارة النفسية العامة وانقياده إلى الله وشريعته، وتحرره من المثالب، وعضويته النافعة في العالم.

وهو أيضاً ضعيف، هلوع، مستعبد لألوهيات باطلة، لديه استعدادات الشر وانحرافاته، لا يعتبر كثيراً بالدروس والعظات المؤلمة، مغرق في حب الدنيا، شغوف بملذاتها، أخ للشيطان

أو هو الشيطان نفسه، مشاكس مغالب لمن هو أضعف منه طاغ بماله وسلطانه .... من خلال (الابتلاء) .

والحكمة القرآنية هنا تتحقق في التوازن بين القوى المادية والروحية والعقلية والبدنية والعاطفية والفردية والاجتماعية، وفي القدرة على تحويل الضعف إلى القوة، والهلع إلى الطمأنينة، والعبودية للخالق إلى الحرية المنظمة للمخلوق، وفي تصعيد نزعات الشر والاستبدال بها نزعات الخير والتقوى، ووضع الطيبات والحلال موضع الخبائث والحرام . وفي إنماء الرقابة على السلوك والإخلاص في العمل ....

– **والنّاس أمّة واحدة** بالتركيب الجمعي الإنساني، فهم مركبون من الإنسان الواحد والنفس البشرية الواحدة، وبهذا الاعتبار التركيبي الجمعي لابدّ له من تشريعات جامعة تتناسب معها من النبوات والشرائع والآداب العامة التي نبّه القرآن إليها وإلى حكمتها... فقد بعث الله لهم ﴿النّبيّينَ مُبشرينَ ومُنذِرينَ﴾ (البقرة ٢١٣) ﴿لِئَلاّ يكونَ للنَّاسِ حُجَّةٌ بعدَ الرَّسلِ﴾ (النساء ١٦٥) وعادل بين الرجال والنساء (الحجرات ١٣) ودفعهم جميعاً إلى حماية مقدساته الكنس والمعابد والمساجد (البقرة ٢٥١) و(الحج ٤٠) . وغرس في نفوسهم حب الزينة والشهوات المختلفة (آل عمران ١٤) ووضعهم في ميادين الاختبار والتحديات، وطلب منهم ألاّ يغتروا بها ولا ينخدعوا بدنياها (فاطر ٥) وسخّر لهم الفلك بماينفعهم (البقرة ١٦٤) وبيّن لهم أن دورة الحياة النباتية والانسانية متشابهتان، بداية من نزول المطر وإحياء الأرض، وهيجانها من كل زوج بهيج، ثم اصفرار الزرع ويبسه وموت الأرض وجفافها التي تنتظر عودة الغيث، قريبة من دورة حياة ركن عظيم في العقيدة هو الإيمان بيوم القيامة، وتنبيه الذهن والعاطفة والحس الجماعي إلى هذه الدورات (يونس ٢٤) وغيرها وإثارة انتباههم إلى الإنسان ومراحل حياته كما أسلفت، وكلاهما من المشاهد الحيّة التي تذكّر بثبات الإيمان ورسوخ العقيدة باعتبارهما مما ينفع الناس (الرعد ١٧) وأن الفساد ليس من طبيعة البرِّ والبحر وإنما هو من فعل الناس الفاسدين (الروم ٤١) وأنزل مع الأنبياء الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (الحديد ٢٥) فكان معظم التابعين على الكفر والفسوق (المائدة ٤٩) و(غافر ٦١)، وقلة الناس المتبوعين على الحقّ والخير والهداية، وطلب

منهم الاهتمام بصحة أبدانهم وشفائهم (النحل ٦٩) وتقوية بنيانهم، وجعل التحسينات من الأثاث والرياش نعمة لهم (النحل ٨٠) (الحديد ٢٥) وأسبغ عليهم رحماته ﴿إِنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرؤوفٌ رحيمٌ﴾ (الحج: ٦٥) وجعلهم أهلاً للفضل والإحسان (غافر ٦١) وأشعرهم بحاجتهم وفقرهم إليه (فاطر ١٥) وطبع فرديتهم بطابع الإبداع الإلهي في اختلاف الألوان والأعراق (فاطر ٢٨) ونبّههم إلى أن الحضارة كيانات متنقلة بين الناس وأيامها متداولة بينهم (آل عمران ١٤٠). إنها مسائل وقضايا خاطب القرآن بها الناس كافة لأنها كانت وماتزال شغلهم الفكري والعملي، ولذلك كانت حضارة الإسلام أغنى الحضارات بقيمها الإنسانية ومبادئها أعمّ المبادىء ورسولها للناس جميعاً (الأعراف ١٥٨) .

أضف إلى ذلك الخطابات الخاصة ولكن بمصطلح (الناس) العام، مثل خطاب الله لقريش أو لفئة من الكفار أو لأهل قرية أو بلد، أو لطائفة من المؤمنين، بلفظ الناس الذي جعله بعض العلماء أمارة على المكي والمدني من التنزيل، وإنه من وجه آخر نموذج إنساني، ناس من الناس الذين خاطبهم الله بمسائل وقضايا إنسانية أيضا، وهذا سبْقٌ فكري وتشريعي وأدبي في البيان القرآني حيث جعل من قبيلة قريش خطاباً للناس قاطبةً، وجعل من الحديث على قرية أو أم القرى حديثاً لجميع الأصقاع . خذ لذلك مثلاً: عبادة الله وحده (البقرة ٢١) وجهالة أكثر الناس بالدين القيِّم (يوسف ٤٠) وعنادهم على الكفر مع حرص الرسول على إيمانهم (يوسف ١٠٣) وبلاغات القرآن لينذروا بها (إبراهيم ٥٢)، وتهديد الكافرين باقتراب الحساب والعذاب (الأنبياء ١) والدلائل المادية والحسية على الإيمان باليوم الآخر (الحج ٥)، وضرورة الانتفاع بالعقل لمعرفة الحقائق (العنكبوت ٤٣) ونزول القرآن بالحق (الزمر ٤١).... إلى جانب ما وصف الله به اليهود والنصارى بالناس الذين أنزل عليهم التوراة والإنجيل (آل عمران ٤) وبيان الله ﴿للنَّاسِ وهُدىً ومَوعظةٌ للمتَّقين﴾ (آل عمران ١٣٨) والعبادات الإسلامية خصوصاً والتي ورد كثيراً منها بلفظ الناس مثل الحج (آل عمران ٩٧).

إلى جانب السيرة النبوية وأحداثها الجسام الواردة في القرآن مثل: الفتح المبين وحكمه ونعمه في الدنيا والآخرة (الفتح ١-٦).....

إن تجاوز مكان التنزيل وزمانه وأهله من أعظم القواعد الحضارية في القرآن، فإن إنسانية القرآن في مسائله وقضاياه تنبىء عن حضارة عالمية متجددة .

ومن الطريف هنا أن مصطلح (الناس) وحده في القرآن يتساوى عدداً مع مصطلح (المؤمنين) و(المؤمنات) و(المسلمين) و(المسلمات) معاً، فقد جاء حوالي (٢٤٠) مرة في الأحوال الإعرابية والاشتقاقية المختلفة، وهو من الصيغ العددية العجيبة في القرآن يحمل دلالة حكمية طريفة، فالمؤمنون على كل حال هم من الناس بل هم بالإسلام﴿خيرَ أمّةٍ أُخرِجتْ للنَّاسِ﴾.

- **خصوصية الحكمة وعموميتها** : فهي موهبة لشخص مختار أو لفئة معينة من الناس جميعا،إنها خاصة وعامة، ولجماعة فقيرة وغنية، وبدائية ومتحضرة إلى جانب أنها وهبية ومكتسبة، وعلى هذا فليس جميع الناس حكماء، فهي لجماعة محددة فطرت على الحكمة، وهذا يعني تميز هذه الفئة أو الفئات بقدرات وهبية وأحيانا كسبية قادرة على أن تؤتي ثمار الفعالية والإبداع في تطور المجتمعات وتقدمها، فالحكمة هي هذه القدرة المبدعة، إذ لا تقع إلاّ في مجال الخير ولا تؤدي وظيفتها إلا في ميدان البرِّ وإلا لما أصبحت حكمة. فإلى جانب هذه الخاصية الخاصة فإنها لا تتحدد في فئة معينة بالنسبة إلى عرق أو لغة أو دين، فالتفوق العنصري نظرية فاشلة أمام النماذج الحكمية المتفوقة العامة، وربما كانت البيئة الخصبة مواتية لبروز الحكمة في وقت أو شعب أكثر منها في وقت أو شعب آخر، وبذلك قضى القرآن على هذه النزعة الطائفية برحابة الهبات لكل إنسان يختاره الله ويصطفيه.

وإذا كانت الحكمة خاصة إنسانية أيضاً فهي قدر مشترك لجميع الناس وإن كانت مفطورة لبعضهم مكتسبة لجميعهم، فالحكمة موجودة للناس . قال المهدي الخليفة: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبيراً، يبطل الآخر الأول، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا(١) .

وحكمة الناس نابعة من الدين أو الرسالة، ونابعة من فطرتها وتجاربها ونظراتها في الحياة، وهذا يعني إمكانية وجود حكمة وحكماء في البدو والحضر والبلاد المتقدمة والنامية، كما أسلفت فقد ينطق أمي أو يتصرف بفكر حكيم وقول حكيم لا نجد مثله عند المتعلم . بيدَ

---

(١) العقد الفريد ٩٦/١ .

أن اكتساب الحكمة وتعلمها قد يغني شخصاً أكثر من شخص لم يتعلمها، والأمة المتقدمة العالمة غالباً ما تصقل حكمتها وتثري تجاربها الفكرية بمزيد من الإبداعات، بينما تنتظر الأمة المتخلفة من يكتشف حكمتها ويغنيها ويوظفها في الخير العام، والحكمة تولد الحكمة، والحكيم يمكنه أن يفيد بها الآخرين علماً نافعاً وتصرفاً سليماً ونظرات للوجود ثاقبة وعميقة .

ثانياً : عمومية الكون : فقد أعدّه الله لكل إنسان، كما أعد الإنسان ليتسق مع أجرام الكون ومجالاته فهما صيغ متلائمة حكيمة، وقد عرضت في القرآن من خلال الخلْق والتنسيق الإلهيين، والرؤية والتجربة الإنسانية الممارسة مثل : اعتبار الإنسان عنصراً هاماً من عناصر الكون، فيؤكد هذه العضوية في آية ويلوح بها في آية أخرى منبهاً إلى حاجاته الواقعية والعلمية والفنية في خطابات (جميعية)، وقد اتخذ لذلك آلية النظر والتأمل والتبصر الحسي والعقلي في أساليب حية ومشوقة و(مثلية) معاشة ، وليست فلسفية معقدة جامدة ، إنه يثير الفطر الإنسانية في تطلعها الى الأضخم والأكبر بالموازنة مع خلق الإنسان الصغير، مستفيداً ورابطاً هذا المعنى بمعارف الإنسان الأولية، في فوقية السماء وتحتية وإنتاج الأرض ... مثيراً مسائل حسابية في هذا الخلق الهائل ومنافعه العاجلة والآجلة، دافعاً العلماء والمفكرين خاصة الى مزيد من العطاءات الفكرية العلمية في مجالات الكون الرحبة .

فالذرة في المصطلح الكوني مقتبسة بحجمها وأوليتها من ذرة القرآن، فهي بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإليكتروناتها، منتظمة الحركة والدوران ثابتة الجولان، شأنها شأن المجموعة الشمسية الهائلة في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها، وهي تعرف طريقها وتؤدي مثلها وظيفتها ... وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا الكمال الخلقي، وفي مثل هذا التناسق الجماعي، وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها .. وهذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة حين يتلقى إيقاعات هذا الوجود، وحين يتدبر الأشياء في رحابه بحسٍ مفتوح، وهذا الإدراك الإلهامي لايستعصي على أي إنسان في أية بيئة، وعلى أية درجة من درجات

العلم الكسبي متى تفتحت منافذ القلب، وتيقظت أوتاره لتلقي إيقاعات الوجـود ... (كمـا قال الظلال عموماً) .

ففي سورة (الطارق) ساق الله أصل الإنسان المائي وسط مسألتين كونيتين : النجم الطارق الذي يثقب بضوئه ظلمة الليل، والسماء ذات الرجع التي يرجع النظر إليهـا مـرة بعـد مـرة، والأرض المتشققة المنبتة، وربما أراد ـ والله أعلم ـ أن يجعل الإنسان عنصراً هاماً مـن عنـاصر الكون بمعناه الأوسع، وهي على كل حال إرادة تتعلـق بعمـوم الإنسـان ونجومـه الـتي يراهـا وأرضه التي يعتاش منها .

وفي آيتي (البقرة ٢١-٢٢) تأكيد عضوية الإنسان في الكون يتعلق خطاب الله بجميع النـاس ويطلب منهم عبادته لأنه خلقهم وخلق من كان قبلهم ولأنه جعل الأرض مريحة، والسـماء مبنية، والسحب ممطرة منبتة، على غير سياق القرآن السابق الذي يخـص المؤمنـين والمنـافقين والكافرين . وهذا تناسب واضح في المعادلة الفكرية بين عمومية الناس وعمومية الكون .

وفي آية (البقرة ١٨٩) أيضاً سؤال الناس عن (الأهلّة) التي تبدو صغيرة ثم تكتمل ثـم تمحـق فأخبرهم عن منافعها في ضبط (المواقيت) لأعمال الناس الدينية والدنيوية، وفصلتها قليلاً آية (يونس ٥) التي صرحت بالحكمة من ضياء الشمس ونورانية القمر وتقديره منازل للوصـول الى معرفة عدد السنين وحساب العبادات والمعاملات ... إنه حاجة إنسانية عامة تعتمد على فلكية الأجرام في السماء، وزراعة الأشياء في الأرض، حتى لأولئك الذي يستعملون التقويم الشمسي دون التقويم القمري .

وفي آية (الأعراف ١٥٨) يخاطب النداء القرآني (الناس جميعاً) برسـالة محمـد صلى الله عليه وسلم إليهم كلهم، والمهم هنا أنه يقرنها بملكية الله للسموات والأرض ووحدانيته .. وهـو ـ وإن بدا خطاباً عاماً ـ يصرح برسالته لليهود والنصارى من قبل، وهؤلاء أولئك من الناس الذيـن لهم تعلقات كونية عامة .

وتجمع آيات (يونس ١٠١-١٠٩) أموراً إنسانية وكونية في إنذارات كثيرة . وكـل واحـدة منها يوجه الله خطابه للرسول بقوله (قـل) ثـلاث مـرات، فكـانت الأولى الطلـب مـن الله للناس أن ينظروا ماذا في السموات والأرض، وفي الثانية بيان يقينية الرسالة والرسول وعـدم

تطرق الشك إليهما، وفي الثالثة : التصريح بمجيء الحق من الله وطلب اتباعه فالناس كلهم مدعوون للتبصر في الكون سماوات وأرض، مدعوون لأخذ الإسلام على يقين، مدعوون لاتباع الحق وهدايته، ويبلغ التشويق مداه في الآيات النورانية وبخاصة (النور ٣٥) في صورة رائعة ليست شرقية ولاغربية حيث يتأمّل الناس في جمالية النور الإلهي للسموات والأرض متجاوزاً الحقائق العلمية الى الحقيقة الجمالية التي يرى الناظر طرفاً من روائها وحسنها بينما يدرك القلب والعقل آفاقاً أخرى . إنه مثل رائع يضربه الله (للناس) كل الناس . وهو من الأمثال التي يسوقها في آي كثيرة . تستدعي الحسَّ الجمالي والعمل العقلي العلمي معاً ﴿وَتلكَ الأمثَالُ نضْرِبُها للنَّاسِ ومَا يعْقلُها إلاّ العالِمونَ﴾ (العنكبوت ٤٣) و (الحشر ٢١) وهو مزج منسق وثيق الصلة في الذوقية الجمالية والعقلية العلمية، في أمثلة قرآنية لعموم الناس يدركها كلٌ حسب إمكاناته ومعارفه، وإذا كان الأصغر خَلْقاً وهو الإنسان يتطلع فطرياً بلهف وشوق الى الأكبر خَلْقاً وهي السموات والأرض فإن جاهلية أكثر الناس بحقيقة الأكبر والأصغر نوعاً وهيئة وكيفاً تعزفهم عن متابعة النظر العلمي الجمالي المستمر، فقد أعلنت آية (غافر ٥٧) الضخامة في خلق الكون أمام خلق الإنسان ليستشرف الى معرفتها وتملّي مجاليها .

مع أن الكون كله دقيقه وجليله مجال رحب للنظر، وما من شيء مخلوق لله إلاّ ويستحق الفكر، والإنسان أي إنسان يتطلع إليه (الأعراف ١٨٥) إن تأمله به مهما دقَّ من مقتضيات إنسانيته التي خصه الله بها دون سواه، وتعرض الآية ذلك بأسلوب التعجب الذي يظهر غفلة الغافل (أَوَلَمْ ينظروا ....) وكأنه يقول: إن طغيان المادة رانَ على قلوبهم وجردهم من كثير من إنسانيتهم، ومن دواعي التنبه الى قيمة الإنسانية التي تميزهم عن الملكوت الضخم الهائل، ومثلها التصريح لجميع الناس بالبناء السماوي المحكم العجيب وبتزيينه الباهر البديع.

والأرض الممدودة الراسية بالجبال المنبتة من كل زوج بهيج (ق : ٦،٧) . وهو تمازج النظر العلمي بالذوق الجمالي والانتفاع بكل منهما حسب طبيعته وجوهره، ففيه علم وفن واقتصاد، وبتعبير آخر فيه اقتصاد فني علمي نافع .

إن كل ناظر الى قبة السماء يرى جماليات لاتنتهي ويحس بعظمة هذه الجماليات في عقله وقلبه . بروج ونجوم زينها الله، فهل من ناظر مفكر معتبر ؟ (الحجر ٦) . ومثلها التصريح لجميع الناس بأن البراهين الحسية والعقلية لابد لها من حسٍّ صادق يتعرف إليها وعقل متفتح يهتدي الى أسرارها وبراهين يستدل على هذه وتلك، وحين يفتقد هذا الحس العقلي والبرهان الحق لأي عارض بشري، أوبسبب جحود متحكم وإنكار متعنت فإن البراهين لاتنفع صاحبها، والعقل والحس لا يغنيانه في دفع العذاب عنه في الدنيا والآخرة (يونس ١٠١) . وكيف ينتفع الجاحد من معطيات الذهن وبراهينه وعبره ؟

وخلْق السموات والأرض في ستة أيام (الأعراف ٧) و (النحل ٣) من أيام الله ولجميع الناس يؤكد على أنه خلق ثابت بالحق (النحل ٣) و (العنكبوت ٤٤) مثل أي خلق يعاين ويشاهد . ومثل أي مسخر أعده الله لحياة الإنسان من البحار والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار (إبراهيم ٣٢-٣٤) وهي مع تسخيرها وعند الإمعان بها والنظر في منافعها نِعَمٌ عظيمة إذ جعلها ملائمة له متناسبة مع تكوينه، إنه خلق عظيم ودقيق صيغ لفائدة الإنسان من خالق حكيم عظيم .

ومن أروع البيان الإلهي تكويناً وإبداعاً وتناسباً تلك الآيات التي اقترن فيها خلق السموات والأرض بالحق وتصوير الناس بأبهى صورهم وأجمل ألوانهم (التغابن ٣) فالملكوت الهائل حق، ومشاهده جمال، وتصوير الإنسان بالأجمل قمة الجمال والرواء .

ومادام خلقاً جميلاً فلا تعروه عبثية ولايغشاه بطلان، إنه ملكوت بديع يستحيل معه اللعب أو الغفلة، فهو مخلوق وفق حكمة إلهية مبدعة تدفع الى التأمل والتذوق (ص ٢٧) و (الدخان ٣٨)، وحين يفعل ذلك يعمر قلبه بالإيمان وتفيض نفسه باليقين . وأهل الفكر والألباب في مقدمة الناس المفكرين الناظرين المتتبعين للنظام الكوني المحكم الداعين ﴿ربَّنا مَا خَلَقْتَ هذا بَاطلاً سبحانَكَ فقِنَا عذابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩٠-١٩١) . إنها مجال رحب للمعرفة والخشية (فاطر ٢٨) وللإيمان بالبراهين الكونية الحسية (يونس ١٠١) . وقد قيل : الحكمة من الله : معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام .

ومع التحفظ مما قيل قديماً في نظام الكون بالوحدة الداخلية، والوحي الداخلي للإنسان، أو أن المادة ليست سوى تخدر موضعي ... فيمكن قبول نظرتها للكون بما قالت :

- الوحدة الداخلية تجعل الكون يشكل جسماً واحداً عظيم الاتساع، أو تكتلاً منظماً يتضافر كل ما فيه في سبيل هدف واحد، ويتلاءم كل عنصر فيه مع مجموع العناصر الأخرى تبعاً لنظام عام، فالحكمة والحالة هذه تعني فهم هذا النظام وتقبله، وما هو خير من ذلك المشاركة فيه طواعية واختياراً من صميم الفؤاد، وأن يعثر المرء في داخل نفسه على الوحي الإلهي الذي يتولد عنه كل شيء، ثم يطوّر هذا الوحي ويقيه من كل هوى أو أنانية أو رغبة، أي من كل ما هو "مادة" وينبغي أن نكرر القول بأن المادة ليست سوى تخدر موضعي في النار الكلية ...(١)

وإذاً فإنه نظر كوني لأولي الألباب الذي هو (آيات) لهم في رحابة الخلْق الهائل والملكوت العظيم المتنامي المعرفة وخالقه الحكيم ومجال للخشية العلمية والرهبة المعرفية في إطار الإيمان النظري والعملي، وإذ هو جولان عميق ومتسع فإن أهله يقتربون من الحكمة إن لم يصيروا حكماء .

نماذج من الحكمة الإنسانية في القرآن

وهي أمثلة بشرية ذكر القرآن أخبارها من خارج الأنبياء والرسالات مؤيدة بالحكم القولية والعملية المتنوعة من الساسة والدعاة والعلماء والمتعلمين حتى أولئك الجاحدين المعاندين الذي يتعظ من مصائرهم، بسبب تجنبهم حكمة الرأي والاتباع .

ويمكن التنويه بالحكمة الأبرز وإن تضمنت بعض الأخبار والوقائع أكثر من حكمة باعتبارها من التاريخ القرآني المتزايد العبر والدروس، وهي بنماذجها البشرية المختلفة فإن عمومية حكمتها أيضاً تنبئ عن الاتجاه الإنساني في الحكمة القرآنية .

- **حكم ثابتة** : وهي قيم خالدة وآداب راسخة يطلبها كل إنسان باعتبارها مما يصلح الوشائج بين الإنسان والله، والإنسان والآخرين . وتشمل حكم الألوهية والأسرية

(١) المذاهب الاجتماعية ٤٤ من سلسلة عالم المعرفة عن الرواقية .

والاجتماعية والتربوية في أبرز نموذج إنساني هو لقمان الحكيم الذي سميت سورة كاملة باسمه، فقد وعظ ابنه بها جميعاً : التوحيد وبرِّ الوالدين والاعتقاد والقدرة والعلم الإلهيين المطلقين، وإقامة الشعائر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآداب السلوك في الصبر والتواضع وخفض الصوت، والمقصد الأكبر فيها تحميل التربويين مسؤلياتهم سواء كانوا آباءً وأمهات أو مربين اختصاصيين (لقمان:١٢- ١٨) .

- **حكم متوقعة**: وهي غالباً أعمال وتصرفات يرجى نفعها وتتوقع فائدتها في المستقبل القريب والبعيد، وعندئذ تتحول إلى أهداف وتصير بمثابة غايات مستقبلية وقائية وبنائية تحرص على إزالة الظلم والذلّ عن المستضعفين وتحقق منافع دينية واجتماعية مثل ما وقع في سدِّ ذي القرنين الذي صرح كثير من العلماء بحكمة بانيه اسكندر لحماية الضعفاء من بربرية جيرانهم (الكهف ٩٣- ٩٨) وقبله صاحب الجنتين ، الذي كان التعبير في رجائه، قوله (فعسى ربي...) (الكهف ٣٢ - ٤٤) ضرورة التحرر من الأنانية والطمع بالمال والتفاخر بالذات، أما (أوسط) الإخوة في (القلم ١٧- ٣٣) الذي سيأتي في (الوسطية) فهي الحكمة السامية التي ترقى بالأعمال الظاهرة لتأخذ مكانها في عالم المثل وفي دعوة رفيقة إلى التوبة ورجاء الله أن يبدلهم خيراً من جنّتهم حين وقعت لهؤلاء الإخوة قرب (صنعاء) .

- **حكم غيبية**: وترتبط بالتصورات الإيمانية السليمة فيما وراء المحسوسات، وهي خاصية لأناس لهم استشفافاتهم النفسية المتطلعة إلى المستقبل، واطلاعاتهم على الزمان المجهول المخصوص، ولذا فلا يقدر عليها سوى خواصّ الناس دون العامة، وعندئذ فليس المطلوب منهم التقاضي بظواهرها مثل عجائب الخضر وموسى عليهما السلام السابقة، والطريف أنها وقعت جميعها في إطار العملية التعليمية العجيبة، وكان التعبير الصريح فيها ﴿وَمَا فَعَلْتُه عَنْ أمرِي﴾ (الكهف ٨٢) ينبيء عن رحابة العلم الشامل للواقع وما وراء الواقع، وإذا كان النّموذج السابق يتحدث في شطر منه عن النبي موسى فإن قصة أصحاب الكهف (الكهف ٦٠- ٨٢) تظهر فيها حكمة الفتوة والإيمان والسمو على الملذات الموقتة ومنع الشباب

الطائش في إطار المشيئة الإلهية الغيبية في توجيه الرسول ﴿وَلا تَقولَنَّ لِشيءٍ إنّي فَاعلٌ ذَلكَ غَداً إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ﴾ .

– **حكم استسلامية:** وهي قريبة من الحكم الغيبية حيث تنبثق من إيمان قوي باختراقات غيبية ولكنها متوقعة لدى أصفياء النفوس التي لا تقع بالعادة من أناس عاديين، وهم بيقينهم بوقوعها يشعر استسلامهم لها أنهم يتكلمون ويتصرفون من أزمات مستعصية، فقد أنزل الله سورة (الفيل) عند الموقف العجيب لعبد المطلب المتجاوز حدود الزمان حين عدا أبرهة الحبشي على البيت الحرام وسأله عبد المطلب عن إبله قائلاً: إن للبيت رباً يحميه.

– **حكم إعجازية:** وهي إذ تفوق أحداثها قدرات الإنسان العادية فلا تتأتى بإرادته وقواه فإن نفعها لابد أن يتحقق ضمن أحداث معجزة خارقة، مثل ماجرى لـ(العُزير) حين خرَّب (بختنصر) القدس ومرَّ بها وهي خاوية على عروشها، فاستعظم القدرة على إعادتها ﴿فأماتَهُ اللهُ مئةَ عامٍ ثُمَّ بَعثَهُ﴾ وأجرى لدابته أمامه الإحياء في أسلوب تجريبي حسي (البقرة ٢٥٩)، وكذلك ماجرى لـ (شمعون) رأس الحواريين وداعي التوحيد حين توسط في شأن اثنين من الحواريين اللذين سجنهما ملك انطاكية، ومن ثم قدوم (حبيب) النجار يطلب من قومه أن يتبعوا المرسلين الموحدين اللذين كان عيسى عليه السلام قد بعث بهم وهم يحملون معجزة إبراء الأكمه والأبرص (يس ١٣– ٢٧).

– **حكم مؤجلة:** وتبدو منافية لاستعجال طائفة من الناس شيئاً، والحكمة بخلافه مثل ماوقع (لقارون) من قوم موسى عليه السلام حين خرج عليهم بزينته وأمواله فخسف الله به الأرض، فقد تحفظ ﴿الّذينَ أُوتُوا العِلمَ﴾ في هذا الإعجاب والانبهار، ووجهوا الأنظار إلى حكمة القناعة والرضا ودفع التوتر النفسي والخور العقلي والعاطفي في مثل هذه الأحداث (القصص ٧٦– ٨٣)، وكذلك التوهم بالأمور والتعلق بالمحبوب وهو شرّ، والإقبال على الشر المكروه وهو خير فلا تدرك الحكمة للسطحي في وقتها وحالتها وإنما تتجلى لصاحبها في المستقبل (البقرة ٢١٦).

– **حكم حية:** بعضها معاين وبعضها الآخر محسوس، وتتمثل في الغزوات النبوية في حالات النصر والهزيمة، مثل غزوة أحد التي أريد منها تمحيص المؤمنين وتثبيتهم على طاعة القيادة

(آل عمران ١٧٠- ١٧١)، كما تتمثل في الحالات التي تتحول فيها الهزيمة إلى النصر إبان معرفة حكمتها مثل غزوة حنين التي أريد منها تعلق النفوس بـا لله أكثر من تعلقها بـالعدد والعدة (التوبة ٢٥- ٢٧).

- **في حكم الداعية القدوة**: وتقدمت عروض حكيمة متعددة في الدعوة إلى الحق من أقوال وتصرفات وضرورة حماية هذه الدعوة والدفاع عن أهلها، فإن (مؤمن) آل فرعون في (غافر ٢٨- ٤٦) يعد قدوة في حكمة الدعوة الجامعة، فهو قد أفاد من منصبه الرسمي للدعوة باعتباره (من آل فرعون)، وهو (يكتم إيمانه) وصولاً الى مبتغاه ثم إعلانه عنها في الأوقات الحرجة والضرورية التي يتوقع منها شرّ ومصيبة، والحكمة هنا في مجالين : في الدعوة ذاتها فإنها من عبر التاريخ ﴿مثلَ دأبِ قومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ والّذينَ مِن بعدِهِمْ﴾ ومحذراً من المصير السيء المحتوم ﴿ويَا قومِ إنّي أخافُ عليكُمْ يومَ التَّنادِ﴾، ومن الحكمة البارزة بيان مزايا الدعوة مثل : إنها (سبيلُ الرَّشادِ) من خلال بيان حكمة المسائل المعالجة في : التوحيد بأنه (النجاة) إلى جانب إبراز نقائص الوثنية وعيوبها، وهذا كله بعد أن أقام نفسه مقام القدوة الفاصلة ﴿مَا أُريكُمْ إلاّ مَا أَرَى﴾ وتلوين الخطاب وتنزيله حسب المقتضى وموافقة الحال ﴿وَإنْ يكُ كَاذباً فَعَليهِ كذبُه وإنْ يكُ صَادقاً يُصبْكُمْ بعضُ الّذي يَعدُكمْ﴾ (فإذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه...) ﴿إنَّ اللهَ لايَهْدِي مَنْ هوَ مُسْرِفٌ كذَّابٌ﴾ فلو كان الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله . فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً . ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده الى ما ترون من انتظام أمره وفعله (كما قال ابن كثير) ، فهي حكم القدوة تتغلغل في فهم النفس البشرية وما يحيط بها من مواطن القوة والضعف ومجال الإثارات العقلية والعاطفية فيها لتحقق الوسائل التغييرية الإصلاحية أهدافها المرتجاة . إنها نماذج من الناس متعددة مختلفة ترينا حِكم الخير والشر ما وقع منها ممارساً وما ينبغي أن يقع ويحتذى ويتبع .

نماذج من الحكمة والحكماء عموماً

فالحكمة وإن كانت مصطلحاً قرآنياً حديثياً غزير المادة فقد تأثر بها الساسة والقضاة والمربون والدعاة والعلماء والأدباء المسلمون وغيرهم، فقد كانت دافعاً لهم الى البحث عن حكم أخرى خارجة عن القرآن والسنة سواء كانت من مصادر علمية عبر التاريخ، أو من مصادر حية مجاورة، وبذلك نمت الحكمة الإسلامية أو حكمة المسلمين وتناولت جميع مسائل الوجود وبخاصة النفس وسعادتها والسمو بها الى الروحانيات، وأدب الحوار، والنظر في الفكر الحكيم وطرق السعادة وكرامة النفس وأهمية العلم واختيار مجالسه، وسلامة العلاقات مع الآخرين الى جانب أهمية الحكمة في التربية وأساليبها ومواصفات الحكماء .

– وتقدمت مصنفات تراجم الحكماء والفلاسفة من علماء مسلمين تناولوا فيها أعلاماً من اليونان والهند والرومان والمسلمين وغير المسلمين مثل : طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، ومختار الحكم ومحاسن الكلم لابن فاتك، والحكمة الخالدة : لابن مسكويه، وعيون الأنباء من تاريخ الأطباء لابن أبي أصيبعة ... ويذكر محمد كرد علي حكماء تأثروا بالثقافة الإسلامية وبقوا على مللهم فهو يقول في مقدمة كتاب : تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي، وهو من أوعب مصنفات الحكمة والطب والفلسفة وتراجم أعلامها ومغموريها : إن التعصب كان بعيداً جداً عن الحكماء، وعهدنا بأكثر المؤلفين في تلك القرون يترجمون لأهل الإسلام كما يترجمون لمن لم يمتلّ ملته بدون غرض ولاهوى، وقد ترجم المؤلف لنحو عشرين منهم من أصل ١١٥ حكيماً وأعطاهم حقهم غير منقوص عادّاً لهم جزءاً من أجزاء العالم الإسلامي .. فإذا كانت خراسان خصت برجال الحكمة فإن الأقطار السائرة أخرجت رجالاً في فروع العلم غير قليلة ... وصور (البيهقي) لنا كيف كانت تعج نيسابور وأصفهان وجرجان وزنجان وشيراز ومرو والري وبلخ وغزنة بالحكماء ... وأتانا المؤلف ببرهان آخر على أن العربية كانت في فارس كما هي في كل بلد دخله الإسلام لغة الدين والعلم والدولة، وأنه قلّ في هؤلاء الحكماء من كتب كتبه بغير العربية، وندر فيهم من ألفوا باللغتين العربية والفارسية .

- وممن تأثر بالثقافة الإسلامية من الفلاسفة غير المسلمين يحيى النحوي من قدماء الحكماء فقدكان نصرانياً فيلسوفاً(١) . ومتى بن يونس في أصناف السعادة وهو حكيم شارح كتب أرسطو : السعادة ثلاثة نفسانية وبدنية وخارجية، فالنفسانية هي العلوم الحقيقية ويتبعها الأخلاق المحمودة والفضائل والسيرة الحسنة، والبدنية : كمال الأعضاء المتشابهة الأجزاء والأعضاء الآلية وجودة التأليف والتركيب، والخارجية : حسن اكتساب الدنيا وتحصيلها من وجوهها وإنفاقها في وجوهها على ما يوجبه العقل والدين، ولاتجتمع تلك السعادات لأحد إلا في النوادر (ص٢٨) .

وممن جمعوا الطب والفلسفة :

- دانيال الطبيب، في أدب الحديث : إذا سئل غيرك فلا تجب ، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسئول (ص ٨١) .

وحبيش الطبيب من الأطباء المتقدمين والمهندسين، قال في كرامة النفس : من كرمت نفسه لم يكن إلا بالحكمة أنسه .

والحسن بن بابا : حسن القول ما وافق الحق (ص ٢٨) .

وميمون بن النجيب طبيب وعالم بالطبيعيات (في مواقف الدهشة والبديهة) : العاقل من إذا نزل عليه بلاء لم يدهشه عن طلب الحيلة، وهذا هو الحزم، والعاجز هو الذي يعيش في البديهة ولايعد لما لم يأت عدة .

وقال : لاينفع القول وإن كان حكمة صواباً، مع سوء الاستماع (ص ١٠٦) .

ومن المجوس :

الفيلسوف بهمن بار الحكيم في ظهور الحكمة : تظهر أخلاق الحكماء على من تعلم الحكمة كما تظهر آثار الربيع على البستان (ص ٢٨) .

---

(١) أسماء الحكماء والفلاسفة من كتاب : تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي، ما لم أعين غيره، وغالباً فهم من رجال العصر العباسي .

- من وصايا الحكماء :

قال لقمان لابنه في العلاقات، وحياة القلوب، والنيّة الفاضلة في طلب العلم، واختيار أفضل مجالسه :

يابني ما بلغت من حكمتك؟ قال : لا أتكلف ما لايعنيني . قال : يا بني إنه قد بقي شيء آخر، جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحي القلوب الميتة بالحكمة كما يحي الأرض الميتة بوابل السماء .

وعن لقمان أو عيسى عليه السلام أنه قال : كما ترك الملوكُ لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا.

وعنه : يا بني لاتتعلم العلم لتباهي به العلماء، وتماري به السفهاء وترائي به في المجالس، ولاتدع العلم زهداً فيه ورغبة في الجهالة، يا بني اختر المجالس على عينك، فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يعلموك، ولعل الله أن يَطلع عليهم برحمة فيصيبك معهم، وإذا رأيت قوماً لايذكرون الله فلا تجلس معهم فإنك إن تك عالماً لاينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يزيدوك غيّاً، ولعل الله أن يطلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم(١) .

وقال في بيان المنزلة الرفيعة للحكمة : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك(٢).

وقال الحكيم الناتلي أبو عبد الله موصياً بالبحث في أعماق النفس : عليك بالبحث عن جواهر النفس الشريفة . وقال : النفس القدسية لاتقنع بالقياس الجدلي والخطابي . وقال : العارف لايختار عرفان الحق على الحق . وقال : الحق يُطلب لذاته، والخير يُطلب لأجل العمل به (ص ٣٨) .

وقال الحكيم الأديب أبو الفرج علي بن الحسين في عظات ووصايا عديدة : عظّم العلم في ذاتك، وصغّر الدنيا في عينك، واخرج من سلطان شهواتك وكن ضعيفاً عند الهزل، قوياً عند الجدِّ، ولاتلُم أحداً على فعل يمكن أن يعتذر منه، ولاترفع شكايتك إلا إلى من ترى نفعه عندك حتى تكون حكيماً كاملاً .

---

(١) ، (٢) ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/١٠٦ .

– آداب حكيمة متفرقة : ففي عيوب الرشوة

قال أبو اسحاق : مكتوب في الحكمة : الرشوة تعوِّر عين الحكيم (وكيع في أخبار القضاة).

وفي قيمة الحرية الحقيقية :

قال أحمد بن اسحاق الاسفزاري : عسير على الإنسان أن يكون حراً وهو مطيع للعادة السيئة (ص ٨٢) .

وفي فائدة موعظة الحكيم :

قال ابن الهيثم : موعظة الحكماء وإن قلت منفعتها عظيمة .

وقال بعض الحكماء في التعامل مع الصديق والعدو وأدب الاعتدال ......:

إِلقَ صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولاهيبة منهم، وتوقر من غير كِبَر، وكن في جميع أمورك في أوساطها .. و اصغِ الى الكلام الحسن ممن يحدثك بغير إظهار العجب منك ولامسكنة .. وكن معتدلاً في أمورك .. وإذا خاصمت فتوقّر، وتفكر في حجتك .. وإذا هدأ غضبك فتكلم .. وإياك وصديق العافية فإنه أحد الأعداء لك، ولاتجعل مالك أكرم عليك من عرضك ... ولاتظهر لصديقك كل ما يؤذيك(١) ...

وقال ابن سينا في غلبة الخير على الشر : المحاسن إذا قويت انهزمت المساوئ (ص ٨٠) .

– وأخيراً تحدث الحكماء عن مواصفات الحكيم البدنية والعقلية والاجتماعية .. يقول الفارابي :

ينبغي لمن أراد الشروع في علم الحكمة أن يكون شاباً، صحيح المزاج، متأدباً بآداب الأخيار، قد تعلم القرآن واللغة وعلم الشرع أولاً، ويكون صيّناً عفيفاً متحرجاً صدوقاً، معرضاً عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة، ويكون فارغ البال عن مصالح معاشه ويكون مقبلاً على أداء الوظائف الشرعية، غير مخلٍّ بركن من أركان الشريعة، بل غير مخلٍّ بأدب من آداب السنة، يكون معظماً للعلم والعلماء، و لم يكن عنده لشيء قدرٌ إلاّ

---

(١) الغزالي : آخر كتاب المنقذ من الضلال .

للعلم وأهله، ولايتخذ علمه من جملة الحِرَف والمكاسب، وآلة لكسب الأموال، ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زور، وبنهرج، فكما أن الزور لايعدُّ من الكلام الرصين، ولا النبهرج معربة (البهرج) من النقود، فكذلك من كانت أخلاقه خلاف ما ذكرنا لايعد من جملة الحكماء (ص٣٤،٣٥) .

وفي اللذة العقلية الأثيرة يقول :

أبو الفتح الغندورجي معوان ناصح الدولة : من طلب لذة عقلية فليس له أن يطلب لذة حسيّة تمنعه عنها، كي لا يكون كمن باع الذهب بالخزف (ص ١٣٠) .

وفي فضيلة التروي بالأمور :

قال أبو عبد الله المعصومي الحكيم : دأب الحكيم التروية في الجواب بعد استيعاب الفهم .

وقال : ليس بإنسان من تكلم بغير روية سابقة (ص ١٠٣) .

وفي طلب الدليل والحجة قال

الملك العادل علاء الدولة على خراسان سنة (٥١٠) لعمر الخيام : الحكيم يهجِّن كلام غيره بالبرهان، والجدلي السفيه بالوقيعة والبهتان، فاطلب أعلى الدرجتين، ولاتقنع بأخس الرذيلتين . فقام عمر ملجماً بالسكوت (ص ١١٨) .

وذكر الحكماء في وسائل اكتساب الحكمة وتعلمها : فقد قال محمد بن طاهر السجستاني في مخالطة الحكماء :

النظر في أعمال الأخيار وسننهم جلاء العقول (ص ٨٢) .

وفي ضرورة الإكثار من استماع الحكمة قال

الأبردي طبيب السلطان مسعود بن محمد ملكشاه : من أكثر استماع الحكمة أوشك أن يتكلم بها (ص ١٣٤) .

وفي الدراسات الحديثة(١) مواصفات مؤكدة ومقتبسة من الفلاسفة القدامى :

---

(١) نقلت هذه المواصفات مع أقوالها من : المذاهب الاجتماعية، وفي بعضها شطحات .

- فالحكيم يتصرف في الواقع العملي بصورة يحبّ الله فيها عبر الناس، فهو متواضع إزاءهم، ومتسامح (لأنه يعرف الجبرية الكلية التي تجعله يفهم أخطاءهم)، كما أنه لايحمل احتقاراً أو ضغينة، ويخضع دون نقاش ـ من الناحية الاجتماعية ـــ للقوانين السياسية، فهي صدى الضرورة الإلهية طالما أنها لاتقود الناس على الأقل الى الانقسام والحقد (ص ٥٥) .

- وفي السلوك الحكيم يقوم على الإفلات من هذه الدائرة الجهنمية (الآلام التي تتجلى من غيبية الموجودات) .. وذلك عن طريق الفن أولاً، فالفن هو تأمل العالم بصورة مجردة عن الفرص ولكن الطريق الأجدر بالاعتبار هو الرحمة، فهي التخلي عن الذات، أو بتعبير آخر: إدراك التطابق العميق للكائنات (ص ٦٠) .

- وإلى الأعلى من الأخلاق العملية تقع الحياة التأملية التي لايمكن بلوغها إلا للحكيم وحده، وتقوم على الانصراف الى الفكر المحصن، وإلى المعرفة النقيّة من كل شوائب الاعتبارات الأرضية ... وهي الوسيلة التي يقترب بها الإنسان من الإله، و"يخّلد" نفسه ما أمكنه الخلود خلال وجوده على قيد الحياة (ص ٤٢) .

فاتفاق الإرادة مع ذاتها وثباتها الداخلي العقلاني يشكّلان ماهية مايفرق بين الحكيم والشخص العادي البسيط (ص ٤٥) ....

إن حكمة القرآن الجامعة لإنسانيتها خير معلّم للمسلمين وغير المسلمين وفي جميع العصور والأجيال، فهي ذات آثار فكرية وحضارية تألّقت في المصنفات الكثيرة عبر التاريخ، وماتزال آثارها الفكرية والعملية منارات هادية لأرباب العقول والأفهام، ورواد الحضارة الإنسانية على اختلاف وجهاتها ومنطلقاتها ومظاهرها، وبخاصة الركن الأهم في التعامل والعلاقات .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

حكمة الاختبار ... والقرآن

في طبيعة الاختبار وأهميته :

إذا كان في معاهد التعليم اختبار وتقويم، وفي مدارس الحياة امتحان وتقدير فبمقتضى ذلـك لابدّ من أن يكون هنـاك فـائزون وخاسـرون، نـاجحون وراسبون، متفوقـون ومتعـثرون . فالاختبار بالمعنى العام محكُّ المعـارف والمواقـف، وتواصـل في ميـادين التقـدم أو انحطـاط في أرجائه، سواء أدرك الإنسان ذلك أوغفل عنه، ظهـرت لـه حكمتـه أو خفيـت عنـه . ومـن الثابت أنها ليست جميعها تحديات أو صراعات بين الإنسـان والحيـاة يفـوز بعدهـا بوافـر أو قليل من النجاح أو لايفوز . إذ ليست جميعها عقبـات يذللهـا لمصلحتـه، كمـا أنهـا ليسـت محبوبات يرغب فيها ويتشوف الى ممارستها، فهي هذا وذاك . ولكنهـا أيضـاً وبالإضافـة الى ذلك رعايات ومسؤليات يحاسب عليها ويسـأل عنهـا (فكلُّكـمْ راعٍ ومسئولٌ عـنْ رَعيتـهِ) كما جاء في الصحيح، وهي رعاية تتطلب جهداً وصبراً وتحملاً فكرياً وتنفيذياً .

وإذا كان ثمة مواقف مختلفة، بعضها الشديد القوي، وبعضها الخفيف البسـيط فقـد لاتكـون النتيجة حسب الشدة واليسر والقوة والضعف، فإن من البسيط والخفيف ماله أهميـة أخطـر من القوي الشديد . فليست شدة الجذب تابعة لشدة الموقف ولاضعفه أو خفّته مـن ضعـف الموقف وخفّته، فإن وتائرهما تختلـف حسـب طبيعـة الإنسـان وحـاجته أيضـاً . فـإذا شـده بعضها إليها ونفرها بعضها الآخر منهـا فـإن الحكمـة منـارة يتبصـر المـرء مـن معلمهـا متـى ينجذب وأنى يتجاوب، ومتى يعـرض وأنـى يتقـاعس، فـإذا ضـاعت الحكمـة أو افتقـدت، اختلطت المعارف وتعارضت قوى الجذب في كثـير مـن الأحيـان، وعلـى هـذا فـلا بـدّ مـن مقاييس سليمة وموازين صحيحة تزن الأمور بالعدل والحكمة بناء على المقـاصد والمضمـون والغايات، ولابد أن تكون المقاييس محررة من الانحيازية العمياء، والتبعية العصبيـة والمصلحـة المفرقة في الخصوصية . إنها مقاييس القرآن التي صنفها الى حق وباطل وخير وشر، وجمـال وقبح، وطيبات وخبائث .

والافتتان مثل مايقع في الأزمات والمصائب فإنه يقع في الدعة والرخاء، ولكن تختلف ردود الفعل في كلتا الحالتين حتى يمكن أن تكون محفزاً للنشاطات الإيجابية وحذف السلبيات الضارة .

والاختبار ذو صلة قوية (بالخبرة) أو (بالتجربة) فإنها دروس له، وهو رصيد فكري وعملي لها . وبملاحظة أن الاختبار قد تتكرر أحداثه، وتعاد وقائعه فإن صحته وسلامته عميقة الصلة بأخذ العبرة من التجربة التي هي عمل إنساني ونشاط ذهني له، فإن تكرار الخطأ الواحد في الاختبار يضعف قوة التنبه والفطنة ويراكم الأخطاء ويكرسها حتى لاينفع معها إصلاح أو تغيير .

إن طبيعة الاختبار وقد أشرت الى شيء من تحليله تتطلب حكمة في المعالجة وتبصراً في الممارسة وعدلاً في الأخذ والعطاء، وهذا يؤدي الى تفاعل مع أحداثه الخيره وتنكُّب عن أحداثه الشريرة .

فإنَّ ترك الإنسان بدون اختبار هدر لكرامته وتضييع لمسئوليته، وإن وضعه في إطار التأثيم دوماً إتلاف لنشاطاته وتقييد لإبداعاته، ومحياه في إطار الدعة أبداً إضعاف لمقاومته التحديات وإرهاق له في مواجهة الصعاب .

فالاختبار بطبيعته المسئولة متلائم مع طبيعة الإنسان المركبة، ومتناسب مع العوارض التي تحيط به وقد تؤثر في مجرى حياته .

واختيار الإنسان اختباراته نجاح لإنسانيته وإعلاء لمنازع الخير على دواعي الشر وتغليب للعنصر الإداري الحق على عنصر الباطل . أو ليس محك المعارف والمواقف ؟

الاختبار القرآني (المصطلحات والمجالات)

والاختبار القرآني تفسير لأعظم قضية وجودية وحضارية عبرّ عنه القرآن بالفتنة والامتحان والابتلاء حتى إن القرآن نفسه أنزله الله ليعد مادة اختبارية كبرى حسب مواقف الناس منه إيماناً أو إعراضاً، التزاماً أو جحوداً، قبولاً أو رفضاً من حيث أنه منهج نظري وعملي للإصلاح الشامل، ودلالة على هذا القبول أو الرفض .

وقد تكون حالة محددة منه مادة اختبارية أيضاً تعبر عن موقف الاستجابة والشكر أو العصيان والنكران مثل ما عاب الله على جحود كفار مكة وتنظيرهم بمن سبقهم من قصة أصحاب الجنة في مسألة الإنفاق ﴿إِنَّا بَلَوناهُمْ كَما بَلَونَا أَصحابَ الجنَّةِ﴾ (القلم ١٧) ، وهي حال تعددت فيها المواقف والنظرات من إنفاق وإيمان الى إمساك وجحود، وتوقع المحصول الزراعي الوفير في وقت السلم والموادعة، وعلى العكس منه امتحان بالصبر على العطش كابتلاء الله جيش طالوت ونهيهم عن الشرب من مياه الأردن حين بيّن ﴿أَنَّ اللهَ مبتَليكُمْ﴾ (البقرة ٢٤٩) في حالة ووقت عصيبين من حرارة الصحراء وظمئها وبلوى المحاربين لتتجلى بهما مصداقية النفوس واستجاباتها ونجاحها في الاختبار . إنه المحك الفاصل في ظهور نوازع الخير أو الشر والعصيان في مواجهة الترغيب والترهيب .

وفي كلتا الحالتين الكلية والمحددة يذكرنا بتدبير الله وتقديره وأن الإنسان لم يخلق عبثاً ولا لعباً، وأنه لاينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره غير واعٍ ولامدركٍ أنه مخلوق ليُبتلى، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء، وهو لذلك مزود بوسائل المعرفة الذاتية، وبالقدرة على اختيار الطريق، فقد بيّن له الطريق الواصل ثم تركه ليختاره ...

المصطلحات والمجالات : وأشهرها :

- **الفتنة أو الافتتان** ومعناه الاختبار، وهو واحد من أحد عشر وجهاً متشابهة ومختلفة ذكرها صاحب (التصاريف) وإن كان بعضها يدخل في معنى الاختبار دخولاً ظاهراً أو خفياً، وإن كثرة وروده في القرآن من خلال معانيه دليل على تغلغل المادة في مسارب متشعبة من الحياة . كما يطلق القرآن الفتنة على ماهو سبب لها مثل الأموال والأولاد والمصائب والأنفس (الأنفال ٢٨) و (٢٤،٦٣) و(١٠،٨٥) ومن ذلك الشيطان الذي يسمى بالفتّان فلا ينبغي للمسلمين أن يفتتنوا به (الأعراف ٢٧)، ومن ابتكارات القرآن المعنوية نقل (الفتنة) من شيء مادي خاص وهو : تمييز جيد المعدنين من الردئ، الى الابتلاء والاختبار المعنوي المقصود ومظاهره الحسية، ومنذ القدم كان هاروت وماروت يقدّمان في تعليمهما التوجيه السديد بقولهما ﴿إِنَّمَا نَحنُ فِتنةٌ فَلا تَكفُر﴾ (البقرة ١٠٢) إلى المفتونين من الأنبياء مثل داود وسليمان وأيوب (ص ٢١-٤٤) ثم الى الحضّ على الهجرة إلى المدينة

(الأنفال ١١٣)، والى صدق الإيمان قـولاً وعقيـدة وفعـلاً (العنكبـوت ٢-٣) . إنـه اختبـار تمحيصي ينال المؤمنين في كل مكان وزمان ويثبتون لأحداثه اشتدت أو ضعفـت، ويطلبـون من الله أن يعينهم عليه . وبذلك يضرب هـؤلاء المختـبرون المفتونـون أروع المثـل في الصـبر على البلاء لتثبيت قلوب إخوانهم الضعـاف وحفـز متصـل للدعـوة الى الله ولبنـاء حضـارة القرآن .

– **والامتحان** مثل الفتنة والافتتان في معناه المادي الخاص فـإن امتحـان الذهـب والفضـة في تخليصه من الخبث وتصفيته من الشوائب قد نقله القرآن أيضاً الى تنقية النفـس البشـرية مـن الدّعة والتكاسل حيث يتجلى صدق الإيمان ورسـوخ العقيـدة بالامتثـال الى أوامـره والصـبر على المكروه فيها . وفي حالة خاصة إن المؤمنات المهاجرات لابـدّ مـن امتحـانهن في حادثـة الهجرة لمعرفة مدى استعدادهن لأعبائها ومشقاتها .

وإذ هو أول امتحان نسائي تُؤهل المرأة من بعده الى أن تكون أنموذج التربية بـالقول والحـال والتوجيه (الممتحنة ١٠) فإنها وفي حالة بعيدة أخرى تقابل (امتحان) الرجـال الذيـن كـانوا يرفعون أصواتهم بالنداء لرسول الله حين كان بعضهـم يقـول : يـا محمـد اخـرج إلينـا فـإن مدحنا زين، وذمنا شين كما جاء في بعض الروايات . فهـو أدب الخطـاب وتهذيـب النـداء للإقلاع عن عادة الصراخ والصياح، وهي إحدى العادات الجاهلية التي اسـتطاع القـرآن أن ينتزعها منهم، مهما قويت في نفوسهم . ومثل هذا الامتحان الذي يتجـاوز العـادات الباليـة كلها دليل على نجاح أهلـه ﴿الّذيـنَ امتَحـنَ اللهُ قُلوبَهـمْ للتّقـوَى﴾ (الحجـرات ٣) . وهـي حكمة الأدب هنا كما أنه حكمة الأمثولة هناك .

– **والابتلاء** : وهو أقربها وأصرحها وأخصها وأغزرها في بابها من حيث أنه لم يـرد لـه في القرآن معنى أومعانٍ أخـرى، وإذ أنـه اجتمـع مـع (الفتنـة) في الامتحـان بالخـير والشـر معـاً (الأنبياء ٣٥)، فـإن اشـتراكهما في التأثـيرات الماديـة الأليمـة عنـد الأزمـات تذكـر بمواقـف الصمود والصبر من أجل راية الحق والإيمان . ومن وسائل (البلاء) بمعنى الاختبار المخـاوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات (البقـرة ١٥٥)، ومتـاع الصيـد (المـائدة ٩٤) ، ونعمة الاستقرار (النحل ٤٠)، والنصر على الأعداء وكيف يكـون حـالهم عندهـا (الأنفـال

١٧) والصمود في النزال (الأحزاب١١) والوصاية على أموال اليتامى (النساء ٦) . وهو (بلاءٌ عظيمٌ) يتمثل في استعمار فرعون لبني اسرائيل يسومهم سوء العذاب يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم (البقرة ٤٩) و (الأعراف ١٤١) و (ابراهيم ٦) . وهو (بلاءٌ مبينٌ) يتمثل في امتحان ابراهيم بذبح ولده اسماعيل عليهما السلام (الصافات ١٠٦) بعد الابتلاء العام الذي أتمّه ابراهيم ووفّاه (البقرة ١٢٤)، كما يتمثل في الآيات والمعجزات التي أيّد الله بها نبيه موسى في مواجهة الطغيان والتردد الاسرائيلي المستمر (الدخان ٣٣)كما وأنه (بلاءٌ حسنٌ) يتمثل في تصفية نفوس المجاهدين الظافرين من أغراض وشهوات آنية مستغلّة تضر بعملية النصر والجهاد معاً (آل عمران ١٨٦) : ومما سبق يمكن أن نتبين النتائج التالية :

- ابتلاء ات و اختبارات في القضايا الكبرى

فنصاعة الحق وثباته ورسوخه حكمة الحق وقوته، ودمامة الباطل وتلونه وسطحيته حكمة الباطل وضعفه، ومنفعة الخير وإشراقة فضائله وصفاء جوهره حكمة الخير، وضرر الشرّ وإضلال رذائله وتشويه طبيعته حكمة الشر، وجمالية الجمال في الله والكون والإنسان، والمخلوقات المبدعة حكمة البهاء والرواء ، وقباحة القبح في مسخ الأشياء ودميمها حكمة القباحة والدمامة .

وفي الحق والباطل ابتلاء، وفي الخير والشر امتحان، وفي الجمال والقبح اختبار، فمن حكمة الافتتان بالحق والخير والجمال والقيم الأخرى معرفتها والالتزام بها وإشاعتها، ومن حكمة امتحان الخطأ تجاوزه الى الصواب، ومن حكمة ابتلاء الشر استقباح الإنسان له والنفور منه والإعراض عنه . ومن حكمة اختبار الجمال صونه عن العبث وسفساف المواضع والمواضيع. ويمكن القول : إن من حكمة السلبيات بالإضافة الى معرفتها وإدراك أخطائها تجاوزها الى الإيجابيات في رحاب القيم الخالدة وصدق الله العظيم حين قال ﴿ونَبْلُوكُمْ بالشِّرِ والخيرِ فتنةً﴾ (الأنبياء ٣٥) .

- إن الاختبار قديم قدم الإنسانية فما من أمة أو جماعة إلا تعرضت له وكان لها رد فعل عليه، فقد أشرت الى ابتلاءات هاروت وماروت، وبلاء أصحاب الجنة وبني إسرائيل وهؤلاء وغيرهم قد ورد صراحة في مواده القرآنية السابقة . ولكن إذا تأملنا في التاريخ العام

وفي تاريخ الرسل خاصة أدركنا أن أحداث هذا التاريخ وأعراضه الحضارية المسرة والمؤلمة كانت محكّ النجاحات أو الهزائم التي تعد استجابة سلبية أو إيجابية لها، مثلاً ماذا صنعت أمة غنية بثرواتها ؟ وما العوامل التي دمرت حضارة قوم وأشادت بحضارة آخرين ؟

إن القرآن يذكرنا بعبر التاريخ ومواقف أهله من اختبار الله لهم في توظيف قدراتهم وطاقاتهم الحسية والمادية، وبذلك يفيدون دروساً نافعة فينيرون طريقهم ويهديهم الله للتي هي أقوم . ومايزال التاريخ خير معلم راشد لهم منبه لأحوالهم في واقعهم ومستقبلهم .

- وهو اختبار مركوز في فطرة الإنسان منذ تكوينه من أمشاج (الإنسان ٢) فهو المبتلى والممتحن منذ الخلق الأول بعد الأمشاج المكوِّنة للإنسان ولأنها أخلاط من بدنية ونفسية مؤهلة للخير والشر باعتبارهما من مواد الامتحان والبلاء الإلهي، ومع هذا فإن الفطرة السليمة تستجيب مباشرة لمعرفة الله وخالقيته حين تسال من خلقهم، ومن خلق السموات والأرض والشمس والقمر .... (العنكبوت ٦١،٦٣) و (لقمان ٣٥) و (الزمر ٣٨) و (الزخرف ٩،٨٧) وغيرها كثير .

إن في أجهزة الإنسان الحسية والعقلية والعاطفية وسائل ومجالات اختبارية رحبة يسأل عنها المقصرون والمهملون والمجدّون والعاملون .

- وإذ إنها اختبارات بالخير والشر والحق والباطل، وبالحسنات والسيئات (الأعراف ١٦٨) فإنها تستوعب جميع هذه القضايا ومسائلها الاختبارية الأخرى من صحة وحياة وفراغ وشباب وغنى وولد وما يمكن أن تكون وسائل حق وخير إذا كان صاحبها محقاً خيّراً، وما يمكن أن تكون وسائل باطلة وشر إذا كان صاحبها مبطلاً شريراً كما أشرت . ففي إكرام ا لله للإنسان بالنعم ابتلاء، وفي تقديرها وتقتيرها ابتلاء (الفجر ١٥،١٦) ، وقبل ذلك كله فإن في الرسالات الإلهية، مدوَّنة وشفاهية (مواد) اختبارية فمن التزم بها نجا ونجح، ومن جحدها وأعرض عنها خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

- وبالتصريح القرآني فإن الموت والحياة وما فيهما أو يسبقهما من مواقف وأعمال ميدان هام للفتنة والامتحان (الملك ٢) و (الأرض) كلها مجال ابتلاء فكل ما عليها من زينة وما فيها من جمال (يونس ٣٠) ابتلاءات (الكهف ٦) ، وفي الآخرة تنكشف حقائق الأعمال

للإنسان كما هي عليه . إن الاختبار كشّاف صدق عن جواهر النفوس وخفايا الأعمال (الطارق ٩) فلا زيف ولاتمويه ولاتضليل . فإذا كان الله الحكيم (مبتلي) الناس بالخير والشر فإن المؤمنين (المبتلَين) أشد تصميماً على الخير وأكثر نفوراً من الشر . وهي حكمة تنبع من مصدرها الله الحكيم ﴿إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ وَإنْ كُنَّا لمبتَلين﴾ (المؤمنون ٣٠) .

حِكَمٌ جامعة وخاصة :

إن الحكمة الثلاثية الجامعة (الله المبتلي، ومصداقية الحكمة، ونموذجية الإنسان في مواجهة الامتحان والأدبية الخاصة والعامة له) يمكن أن يتفرع منها حكم عامة وخاصة عديدة نكتفي منها بما يلي :

– الشعور الذاتي أن الإنسان ونشاطاته في المجال الاختباري وهذا يؤدي الى حالة من التنبه المستمر لتفعيل حضارة القرآن في العالم، فالمختبر هو ا لله الحكيم، وحكمته مبثوثة في خلقه في عالمي الغيب والشهادة، فيدرك حكمة النعمة وحكمة النقمة، كما يدرك حكمة الخير بالاتباع وحكمة الشر بالامتناع، فيعرف هذه وتلك بشكل محسٌ ظاهر وبصورة ذهنية معلومة، كما يعرف وهو في المجال ذاته الحكمة الخفية في حالات معكوسة ظاهراً، ففيما يحبه قد يكون مكروهاً أو شراً، وفيما يكرهه قد يكون محبوباً أو شراً، فإن حكمة القدر حقيقية سواء ظهرت عياناً، أوخفيت نهائياً أو مؤقتاً ستظهر عن قريب . وكذلك فإن أحداث الإنسان وعطاءاته ونشاطاته هي في المجال الاختباري أيضاً، وبتفاعل الإنسان المختبَر بالأحداث (الاختبارات) تتنامى عطاءاته التي لايغفل أنها في المجال الشعوري الاختباري، وبذلك يوتّر الإرادة مع الرضا الشامل، ويدفع للطموح مع القناعة بما في يديه، ويراقب نفسه بنفسه في مواقفه من الخير والشر والنعمة والنقمة ومواقف الآخرين منه، وهذا يساعد على التخفيف من التوترات الشعورية الحادة والمتعاظمة سواء كانت مفرحة أو محزنة، ومن ثم متابعة النشاطات الإيجابية الحضارية .

– القيمة الاعتبارية للإرادة الإنسانية : وهي نتيجة للتنبه والفعالية بتوجيه طاقات الإنسان المادية والمعنوية ، فإن تكريم العقل وتقدير الحرية، والحرص على المسؤلية من ضمن تكريم الإنسان عموماً وقد تجلى هذا في القدرة على اختيار الامتحان المثمر والاختبار النافع، وهذا

يعني إمكانية تعدد المواقف وفق الاختيار الاختباري، ولو أن الله دفع الإنسان للإيمان دفعاً وألزمه به إلزاماً لما ظهرت حكمة الإنسان، ولا وضحت مواقفه من الخير والشر والحق والباطل . فهي قيمة مبدعة دافعة منظمة حضارية هامة .

- العمق الحكمي النظري والعملي لفهم الدور الحقيقي للإنسان في تأسيس الحضارة وتفعليها : وهذا يعني أولاً ضرورة قيادة علمية فكرية إلى جانب قيادة سياسية راشدة هما النخبة الكفائية للتطور الحضاري لتطبع الأمة آثارها في التاريخ فيفيد منه المعاصرون ومن بعدهم، حيث تحتضن الحكمة في معارفها وفنونها وسياساتها، الحكمة الحقّة وليست حكمة الإعلام والشعارات . فإن المثل الحي والتاريخي والذهني يدفع الى متابعة الآباء والاغتراف المفيد من التاريخ وليس بمجرد التغني بالأمجاد التي قد تعوّد على الاسترخاء والتكاسل، وبهذا يدفع الى القدوة الصالحة، والاحتذاء الواعي، وإذا كان مَثَل المُثل في مصدرية الحكمة، الله فإن تخليص الدوافع من الأغراض وتنزيه النيات والعزائم من المآرب الشخصية البحتة يربي في النفس الضمير الصادق ويحركه في مجالات البرِّ والإحسان ويستخلص منه أعماله ويمحصها للقيم السامية، ويحفزه للبناء الحضاري والعمل النافع لصالحه وصالح مجتمعه، ويطور هذا العمل للأفضل والأكمل .

- ومن العمق النفسي استعداد الإنسان للافتتان في سبيل دينه والذود عن حرماته، وهذا يدلُّ على تفضيل المعنويات على الماديات حين التعارض، وبذل التضحيات عند الضرورات والتحديات، فلابد مما ليس منه بدّ، والإيمان ليس قولاً مجرداً ولا دعوى عريضة وإنما هو تبعة مسؤلة وموقف صادق نابع من العقل والقلب مؤثر في المظهر والسلوك والعلاقات، متحمل لأحداث الاختبار والافتتان حين يصدّ عنه ويقهر عن التزامه في قديم الزمان وحاضره ومستقبله . وسورة العنكبوت جميعها تنوه بهذه التربية الممتحنة وبخاصة في مطلعها (١-٣) وفي نهايتها عند مواطن التربية الجهادية العامة ﴿والّذينَ جَاهَدُوا فينَا لنَهدِينّهمْ سُبلنَا وإنَّ الله لمعَ المحسنينَ﴾ .

- ومن العمق النفسي أيضاً جهاد الاعداء بهذه النفسية الصالحة المصلحة المؤدبة، العقلي، والعاطفي والبدني الخيّر فلا يعتدون ولايظلمون ولايستغلون ولايكرهون، فقد محضّ القرآن

أهدافهم لله، ومحّصت الغزوات الإسلامية نفوسهم من عوامل الخور في الهزيمة وعوامل الاستعلاء والاستكبار في النصر . فقد ابتلى المسلمون في غزوة أحد، وخسروا معركتها من الناحية العسكرية الظاهرة (آل عمران ١٣٩-١٤٢) ولكنهم ربحوا قدرة نفسية فائقة على حبِّ الجهاد وخوض غماره مرات أخرى، وتأييد الله لهم بالنصر وإن كانوا قد زلزلوا كثيراً وابتلوا شديداً في غزوة الأحزاب (الأحزاب ١١) .

إن الجهاد من أدق مواطن الاختبار وألصقها بالنفسيات من قبل أن تكون عمليات قتالية وما قد ينتج عنها من آثار الظفر والهزيمة، فلا يبطر المجاهدون بالنصر ويستغلونه، ولاييأسون من الهزيمة ويذلون، ولايتعاملون مع الآخرين بالمؤثرات القتالية ونتائجها، وهو أقرب أن يكون جهاد دعوة وبيان رسالة من أي اعتبار آخر .

إن حضارة القرآن تعلّم المسلمين كيف يعاملون بعضهم بعضاً ويعاملون غيرهم في السلم والحرب وتغرس في أعماقهم حب الخير وإرادة الحق وتدفعهم الى العمل لخير الإنسانية حتى يفوزوا فيما اختبرهم الله فيه وفيما امتحن قلوبهم للتقوى .

- المحك الناجح بالقيم الثابتة كالحق والخير والجمال والعمل : وهذه نتيجة لماسبق إذ إن الإنسان يصحح مسار حياته وفقها، ويؤسس علاقاته مع الناس على أساسها، وتتميز شخصيته بالتبعية لها وليس للتقليد الأعمى، وتثير في نفسه حوافز صادقة لأن يعمل للحضارة الإنسانية من خلال عمله بالحضارة القرآنية، فيحذف كل مايعاكسها، ولايتعامل مع الباطل ولكنه يوجه المبطلين، ولايوالي الأشرار ولكنه يتعايش معهم يحاول تخليصهم من شرورهم، ولاينحدر مع الهابطين في الجمالية ولكنه يسعى الى تصعيد فنونهم ومدّ آفاقهم وتوسيع ميادين معارفهم . إنه مع العمل المشروع والعمال الشرفاء الذين يبنون المجتمع بعقولهم وسواعدهم، ويرفعون مستوياته بوعيهم وآمالهم، وعندئذ فلا تبقى هذه القيم في إطار نظري فقط وإنما تمثل في واقع الحياة والأشخاص والممارسات، ويصبح الاختبار طاقات متجددة النشاط شامل الأبعاد ممتد الآفاق واقعي الممارسات مقصود الغايات . وهذه العموميات هي مقاييس يمكن أن تقاس بها وعليها معظم المسائل المتفرقة والحوادث اليومية الدائمة .

- إمكانية الصلاح والإصلاح والتغيير وضرورته : فلم يفرض الشر على الإنسان فرضاً ولافرضاً دائماً، ولم يجبر على السوء إجباراً وإجباراً مستمراً فقد رفع الله القلم عن المستكره فلا إصلاح حقيقة مع الإلزام، وإنما هو قبل كل شيء التزام بالرضا والقناعة، ولاتغيير جوهرياً مع البطش والعنف إذ كيف تصلح بواطن النفوس وسرائرها وليس لأحد سلطان عليها؟ وكيف يمكن تشكيل المجتمع حضارياً أفراداً وجماعات وفق الصيغة الإلهية في حالات التقليد والتبعية ؟ إن (التقويم) ثمرة أو ثمرات للاختبار فإذا كان صالحاً صلحت ثمرته وإذا كان فاسداً فسدت ثمرته . وهو ضروري أيضاً لبناء الفرد الأمثل والمجتمع الأفضل، وضرورة حياتية وحضارية تنبئ عن إبداعات تاريخية وواقعية وتواصل مدني عالمي مشترك .

* * * * *

حكمة التجربة والخبرة .... والقرآن

التجربة عامة وخاصة خارجية وذوقية

تعقد اللغة صلة بين الإحكام والحكمة من ناحية وبينها وبين التجربة والخبرة من ناحية أخرى، إذ أنها في حقيقتها تفاعل الإنسان المجرب بالحدَث بصورة عامة، فإن اعتماد العلوم التجريبية ومنها علم النفس التجريبي وعلم الطب التجريبي والعلوم الأخرى على الملاحظة والتجربة أساس لتقدم مدني وثقافي يمكنها أن تسد حاجات مادية وروحية في البناء الاجتماعي .

جاء في المقاييس والمحكَّم : المجرب المنسوب إلى الحكمة، قال طرفة:

ليت المحكَّمَ والموعوظ صوتَكُما تحتَ الترابِ إذا ما الباطلُ انكشفا

أراد بالمحكَّم الشيخ المنسوب إلى الحكمة، وفي الحديث : إن الجنة للمحكَّمين . وهم قومٌ حُكِّموا مخيَّرين بين القتل والثبات على الإسلام وبين الكفر، فاختاروا الثبات على الإسلام مع القتل، فسمُّوا المحكَّمين .

وساق (اللسان) معه حديث كعب : إن في الجنة داراً، ووصفها ، ثم قال : لاينزلها إلا نبي أو صدِّيق أو شهيد أو محكَّم في نفسه كما ذكره ابن الأثير . وقال : أَحكَمَ الأمرَ : أتقنه، وأحكَمَتهُ التجاربُ، ويقال للرجل إذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب، والحكيم : المتقن للأمور ....

وقالوا : المحكّم كالمجرب لفظاً ومعنى، فالمجرِّب : الذي جرَّب الأمور، والمجرَّب الذي جربته الحوادث، وكذلك المحكّم : حكَّم الحوادث وجربها، والمحكَّم حكمته وجربته .

وللتجربة عند الفلاسفة معنيان(١) :

---

(١) المعجم الفلسفي . د/ جميل صليبا (مختارات)

أ- معنى عام :

وهو الاختبار الذي يوسع الفكر ويغنيه، والمجرِّب هو الذي جربته الأمور وأحكمته . قال المتنبي :

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

وهي أيضاً : التغيرات النافعة التي تحصل لملكاتنا، والمكاسب التي تحصل لنفوسنا بتأثير التمرين، أو هي التقدم العقلي الذي تكسبنا إياه الحياة .

والتجربة بهذا المعنى قسمان : تجربة الفرد، وتجربة النوع، وهذه الأخيرة هي التي تنتقل إلينا بالتربية، واللغة، والتقليد، أو بالوراثة النفسية والفيزيولوجية، ولايطلق لفظ التجربة إلاّ على التغيرات النافعة، أما التغيرات الأخرى كالنسيان، وعدم المبالاة، وفساد الأخلاق فلا تسمّى تجارب .

وفي نظرية المعرفة، يطلق لفظ التجربة على المعارف الصحيحة التي يكتسبها العقل بتمرين ملكاته المختلفة، لا باعتبار هذه المعارف داخلة في طبيعة العقل، بل باعتبارها مستمدة من خارجه، والفلاسفة يفرقون بين التجربة الخارجية (بطريق الإدراك الحسي) والتجربة الداخلية (بطريق الشعور) .

ب- ومعنى خاص :

وهو أن يلاحظ العالم ظواهر الطبيعة في شروط معينة، يهيئها بنفسه، ويتصرف فيها بإرادته، ففي كل تجربة ملاحظة، إلاّ أن الفرق الوحيد بينهما هو أن الملاحظ يشاهد الظاهرة كما هي عليه في الطبيعة، في حين أن المجرِّب يشاهدها في ظروف يهيئها بنفسه، وغايته من ذلك الوصول الى قانون يعلل به حوادث الطبيعة .

والتجريب الذهني : مقابل التجريب المادي : وهو أن يتصور المرء بعض المواقف ويركز انتباهه فيها، ويتنبأ بما ينشأ عنها من نتائج، وهذا التجريب لايبلغ غايته إلاّ إذا أمكن تمثل المواقف تمثلاً دقيقاً، وهو أيسر من التجريب المادي، لأن تصوراتنا بأيدينا فواضعو المشروعات وبناة القصور في الخيال والروائيون ومخترعو النظريات السياسية والاجتماعية، والباحثون عن الحقيقة يتصورون جميعاً، والتجربة عند الغزالي التي يستعملها كثيراً معناها :

معرفة خواص الأشياء كما في الطبّ، وبمعنى مشاهدة الإنسان ما في نفسه، وبمعنى تذوق الحقائق بالقلب، وبمعنى نظر الأمر واستنباط الحكم(١) .

وعلى هذا فإن التجربة ذوقية وهي طريق النبوة فإن العلاقة قوية بين الوحي الإلهي وهذه التجربة حتى إن الغزالي يقيم لها شأناً كبيراً خلافاً للمتكلمين والفلاسفة ... فإن أحباب الله يتلقّون علماً لدنيّاً لن يطّلع عليه العلماء الذين يعتمدون على الاستنباط العقلي، ولايرتقي الى ذلك المقام الرفيع في العلم إلا القليل جداً من الناس، وهم فيه يلتقون بالرسل والأنبياء من جميع الأزمنة، ولذلك فإن اتّباعهم واجب على من هم أدنى منهم مرتبة في المعرفة . يقول الغزالي بعد أن يستشهد بقوله : ﴿آتَيناهُ رَحمةً مِن عندِنَا وعلَّمنَاه مِن لدنَّا عِلْمَاً﴾ (الكهف ٦٥) هذه الطريقة لاتفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم، والواجب التصديق بها حتى لاتحرم شعاع سعادتهم(٢) .....

فالتجربة الذوقية عنده ليست خاصة الأنبياء،وهو يستشهد طويلاًعلىصحة الإلهام بالتجارب والحوادث التي وقعت للصحابة والأصفياء(٣) يجدون بها لذة لايعدلها لذة أخرى، إنها فوق التجارب الحسية ووراء التجارب الذهنية الفلسفية مادامت تنبع من القلب بذوقيته العجيبة .

وذكروا في باب التجارب والتأدب بالزمان، قالت الحكماء : كفى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عظة .

وقالوا : كفى بالدهر مؤدباً وبالعقل مرشداً .

وقالوا : كفى بالدهر مخبراً بما مضى عما بقي .

وقالوا : كفى الزمان مخبراً لذوي الألباب ما جرّبوا .

وأقوال كثيرة غيرها .

وذكروا أيضاً في باب **آداب الحكماء والعلماء** العملية في فضيلة الأدب : أوصى بعض الحكماء بنيه فقال : الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة،

---

(١) أبو ريدة في كتاب : الفلسفة في الإسلام ص ٢٣٨ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٢٨ وفي آخره حكم وأمثال كثيرة .

(٣) الإحياء ٤٣/٨ .

ويفيد الرغائب الجليلة، ويعزّ بلا عشيرة، ويكثر الأنصار لغير رزيه، فالبسوه حلّة، وتزينوه خلة، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة .

ومن كلام علي رضي الله عنه : من حلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرياسة صبر على السياسة، ومن أبصر عيب نفسه عمي عن عيب غيره، ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً وقع فيها .

وسأل أنوشروان لميد(العالم بالفارسية) : ما كان أفضل الأشياء ؟ قال : الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالرائحة، ومن العلم بالإشارة، وكما يموت البذر في السباخ كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة .

وقيل لبعض الحكماء : أي شيء أعون للعقل بعد الطبيعة المولّدة ؟ قال : أدب متكسب .

وقال الحكماء : إذا كان الرجل طاهر الأثواب، كثير الآداب، حسن المذهب، تأدب بأدبه، وصلح بصلاحه جميع أهله وولده .

وقالوا : رأس الأدب كله حسن الفهم والتفهم والإصغاء للمتكلم(١) .

خصوصية التجربة وخصوصية المجرب

في المواقف والطبيعة :

إذا كان في التجربة عموماً ما يغني المعارف ويوسع العقل وينمي المدركات والقدرات فإن منها ما لايغني ولايوسع ولاينمي، وإذا وقع في التجربة إجمالاً أنها تحفظ من العثرات والمزالق وتدني من الواقع المعاش وتوجد آفاقاً من الإمكانات لمعالجة المشاكل الطارئة والارتقاء بها الى مستويات النفع والمصلحة فإن منها مالايحفظ ولايقرب ولايوجد،فللتجربة خصوصية في الخبرة والفعالية .

وإذا كان في الإنسان عموماً قدرة على استيعاب غنى التجربة وإمكان عقلي للإفادة منها واستعداد إدراكي للانتفاع بها فإن من الناس من لايقدر ولايتمكن ولاينتفع .

---

(١) الأقوال جميعها من العقد الفريد ١/٣٥٦،٣٥٩ .

وإذا وقع لكثير من الناس أن يتعلموا من تجاربهم ويتحنكوا بما مرَّ معهم من أحداث، فيطوروا معارفهم وعقولهم ومداركهم بالخبرات التي تمر بهم باعتبار أن لديهم القدرة على هذا التعلم والحنكة والتطوّر فإن منهم من لايملك هذه القدرة ومن ليس لديهم الحنكة والتطور . فللأفراد خصوصياتهم أيضاً في تناول الأحداث والتجارب .

ولكن يبدو أن خصوصية الأفراد في الإفادة من التجارب والانتفاع بخيرها أقوى من خصوصية التجربة ببلوغها الموقع المناسب الصحيح في الإنسان، فإن بعض الناس أقدر على الإفادة من التجربة مهما ضؤلت، وعلى التعلم منها مهما ضعفت وعلى اعتبارها من رصيده المعرفي مهما صغرت .

فإن عمق النظرة وأهمية التناول تحيل التجربة الصغيرة الى كبيرة، والهامشية الى أساسية والبسيطة الى معقدة أو مركبة، وعلى العكس فإن تجربة عظيمة النفع غنية الفائدة عميقة الجذور في الحياة قد لاينتفع بها سطحي من الناس، مثل ذلك الإنسان الذي ليست لديه القدرة على تحليل الأحداث وتركيبها والتفاعل معها، وأخذ العبر منها .

التجربة والاختبار : والتجربة ذات صلة قوية بالاختبار فهو في حقيقته عمليات تقتضي تجارب مقصودة يراد منه التنبه الى واقع سيء ينبغي معالجته، وبناء صالح يراد تشييده، فمن المعلوم أن معظم الأمراض الصحية والاجتماعية لاتفاجئ أصحابها بل لاتتعمق في حياتهم حتى تصير جذوراً أو حالات مزمنة، فإذا قام العقلاء والدعاء بالتوعية المناسبة فقد يستطيعون معالجة هذه الأمراض قبل أن تستفحل، والمشكلات قبل أن تتجذر، وعندئذ يمكن أن يتوقى المجتمع من تحكم ظاهرة الشر التي قد تسد عليهم منافذ الخير ويحذرون من رجاء الاستدراج ويسره وبحبوحته الآنية .

وكذلك فإن البناء الاجتماعي الصالح لايتحقق فجأة، ولايشاد مقدراً بأعمار الأفراد القريبة وإنما للعمر الحضاري زمنه المديد وأوقاته الطويلة .

إن الاختبار – وقد سبق الكثير عنه – امتحان القوى النفسية والاجتماعية في وقته الذي لاينبغي أن يتجاوزه، وفي حجمه الذي لايجوز تعاظمه لئلا ينقلب الى مشكلات مستعصية

تغير المفاهيم وتعكس القيم، وعندئذ تشيع البلوى العامة التي تؤذن بالخراب العام والتدمير الشامل .

فالاختبار من سنن الحياة، وتدارك الأخطاء فيه يرفعه من مستوى التخريب الى العمران، وإذ هو عنصر حضاري لايستغنى عنه فإن تجاوز أخطائه ضمن التجارب الناجحة تفيد الحياة المتحضرة بقدر كبير وهام من الخبرات .

وإذ هو سنة عامة في كل جيل وبتكراره للوصول الى الأفضل فإن تجاربه التي تورث الخبرات النافعة هي معالم أو منارات في الطريق السوي، إذا استطعنا أن نفيد من الاختبار ملكات خبيرة تدلنا على خير الأمور وتبعدنا عن شرارها .

والخيبة مرحلة من مراحل الحياة يجب أن يتخطاها الفرد لكي يكون ذا تجربة(١) .

ولايضير هذه القاعدة قول (أوسكار وايلد) إن التجربة هي اللفظة التي اصطلح الناس على تسمية أخطائهم بها ....

وكل نجاح سهل يحصل عليه الإنسان فهو الشق الناقص من حياته وينبغي تكملته، ومن لم يصطرع في حياته تهشم عند أوّل صراع بعد نجاحه، وليس انتحار الموسرين والأصحاء والموهوبين إلاّ لأنهم حازوا أكبر نجاح بأقل خذلان، ولأنهم اصطدموا بالواقع لأول مرة في حياتهم، فقد جاءت الرجة بأقوى مما يتحملون .

ولهذا فلن يكون مما يضير الإنسان الكامل الإنسانية أن يكون خائباً .

إن الخيبة كشعور لاينبغي أن يتحكم في نفسية الفرد حتى تسوَدَّ الدنيا في وجهه وتحبط نفسه ويستسلم لليأس وتنقطع آماله في المستقبل ولكنه كواقع يمكن الاعتبار منه ومجاوزته الى الصواب يفيد منه تجربة واختباراً، وعودةً الى العمل الجادّ ومتابعة الحياة حلوها ومرها .

التجربة وتكرار الخطأ : فإن من الخطأ تكرار الخطأ حيث لايعتبر صاحبه منه فليس من التجربة معاودته،و إن الوقوع في الأخطاء الواحدة بسبب الغفلة أو عدم المبالاة أو العناد يعطل فضيلة الفطنة وبالتالي يفقد صاحبها حكمة التجربة التي تجنب المزالق والسمو الى الخير وهو واقع في تجارب الوثنيين والمشركين في تكرار الخطأ، وإن من ضعف الشخصية مثل هذا

---

(١) من آخر مقال : عبد الوهاب الأمين بعنوان : الخائبون ، الرسالة (٦٩٢) للعام ١٩٤٦ .

العكوف الخاطئ، وأن يدع الإنسان نفسه نهباً للمصائب المعادة سواء تماثل بعضها ببعض أو اختلفت في الصور والأشكال، فإن الحذر مطلوب لا من أجل سلامة العمل ذاته وحسب وإنما من أجل تقويم الشخصية التي لاترتاع ولاتعتبر .

فقد ورد في الصحيح قوله : لايُلدغُ مؤمنٌ منْ جُحرٍ مرتين(١) . قال معاوية : لاحكيم إلاّ ذو تجربة . ووصله أبو بكر بن شيبة في مصنفه، وفي رواية عن معاوية : لاحليم إلاّ ذو تجربة، قالها ثلاثاً : وفي حديث أبي سعيد مرفوعاً : لاحليم إلاّ ذو عثرة، ولاحكيم إلاّ ذو تجربة(٢) .

وجاء في سبب وروده :

كان أبو عزة الجمحي شاعراً، قد أُسر ببدر، فشكى للرسول صلى الله عليه وسلم عائلة وفقراً، فمنّ عليه النبي وأطلقه بغير فداء، فظفر به بأُحُد، فقال : مُنّ عليّ،و ذكر فقره وعياله، فقال: لاتمسح عارضيك بمكة ، تقول : سخرتُ بمحمدٍ، مرتين، وأمر به فقتل ، ثم قال : لايُلدغُ المؤمنُ منْ جحرٍ مرتين .

فليس المؤمن بالخبّ (الخدّاع) ولا الخبّ يخدعه .

قال الطيبي : يعني أنه ليس من شيمة المؤمن الحازم الذي يغضب لله أن ينخدع من الغادر المتمرد فلا يستعمل الحلم في حقه، بل ينتقم منه .

قال ابن حجر : يستفاد من هذا أن الحلم ليس محموداً مطلقاً، كما أن الجود ليس محموداً مطلقاً، وقد وصف الله الصحابة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بينَهُمْ﴾ . فليس من الحكمة وضع الكرم في موضع السيف وبالعكس .

ووضعُ النَّدى في موضعِ السيفِ بالعُلا   مضرٌ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدى

---

(١) البخاري أدب (٦١٣٣) .

(٢) نقله صاحب الفتح عن أحمد وصححه ابن حبان ومعظم الأقوال السابقة من فتح الباري ٥٣٠/١٠ .

وجاء في تفسير الحديث أقوال تنوه بخطر التجربة للعاقل الذي هو وحده يمكن أن يتعلم منها ويتجنب العثرات فيتعلم من طريق الأخطاء مثل ما يتعلم من غيرها . قال ابن الأثير : لايحصل الحلم حتى يرتكب الأمور ويعثر فيها فيعتبر بها ويستبين مواضع الخطأ ويتجنبها .
وقال غيره : لايكون حليماً كاملاً إلاّ من وقع في زلّة وحصل منه خطأ فحينئذ يخجل، فينبغي لمن كان كذلك أن يستر من رآه على عيب فيعفو عنه . وكذلك من جرّب الأمور علِمَ نفعها وضررها فلا يفعل شيئاً إلاّ عن حكمة(١) .
فالتجربة معلّمة الإنسان الكامل الحكيم .
والعاقل وحده هو الذي يفيد من تجاربه فلا يتكرر خطأه ولايتعثر فيه مراراً .
قال الطيبي : ويمكن تخصيص الحليم بذي التجربة للإشارة الى أن غير الحكيم بخلافه، وأن الحكيم الذي ليس له تجربة قد يعثر في مواضع لاينبغي له فيها الحلم بخلاف الحكيم المجرب .
إنه توجيه من الرسول الى الحذر والحزم .
قال الخطابي : هذا لفظه خبر (لايلدغ) ومعناه أمر، أي ليكن المؤمن حازماً حذراً لايؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى، وقد يكون ذلك في أمر الدين كما يكون في أمر الدنيا وهو أولاهما بالحذر .
ففي الحديث تحذير من التغفيل وإشارة الى استعمال الفطنة .
قال أبو عبيد : لاينبغي للمؤمن إذا نكب من وجه أن يعود إليه .
قيل المراد بالمؤمن في هذا الحديث : الكامل الذي قد أوقفته معرفته على غوامض الأمور حتى صار يحذر مما سيقع، وأما المؤمن المغفل فقد يلدغ مراراً .
وهو أدب نبوي يريد منه الرسول تعويد أمته على الفطنة واستخدام الأناة والتبصر قبل الوقوع في الأخطاء . قال ابن بطال : أدب شريف أدّب به النبي صلى الله عليه وسلم أمته ونبههم كيف يحذرون مما يخافون سوء عاقبته، وفي معناه حديث : المؤمنُ كيّسٌ حذرٌ(٢) .

---

(١) الفتح ٥٣٠/١٠

(٢) نقله صاحب الفتح ٥٣٠/١٠ وقال : أخرجه صاحب (مسند الفردوس) من حديث أنس بسند ضعيف

في التجربة والنبوة :

وكذلك كان الأنبياء على غنى كبير في نفوسهم ومواهبهم وقدراتهم باعتبارهم ممن اصطفاهم الله من سائر الخلق وعلى غنى كبير في حياتهم وعلاقاتهم واتصالاتهم بأقوامهم باعتبار أن شمول الإصلاح الديني والاجتماعي الذي يحملونه يتطلب منهم عمق المعرفة بالأشخاص وقوة الصلة بهم، ومباشرة حياتهم لحل مشكلاتهم الحياتية والدينية والاجتماعية.

فلكل فرد من الأشخاص تجربة دعوية في الهداية والضّلال والاستجابة والإعراض، ومدى الهداية والضّلال وقوة الاستجابة والإعراض، وتجربة معاشة تظهر في الغنى والفقر والراحة والتعب، وتجربة اجتماعية تظهر في الاعتبارات الاجتماعية المختلفة .

إن كل فرد هو تجربة واقعية قد تتشابه في بعض النواحي مع فرد آخر، ولكنها تتميز أبداً بخصوصيات أو فرديات من حيث أنه قد يكون عقلانياً أو عاطفياً أو اجتماعياً، ومن حيث أنه قد يكون في أزمات معاشية أومعاناة أسرية واجتماعية .

ولذلك فلا بدّ من أن يقدم الأنبياء ثوابت في العقيدة والشريعة والخلق لتتسق العلاقة بينهم وبين أقوامهم مع مرونة في الأسلوب وطواعية في العرض .

إن كل قصة أو جزء منها من قصص الأنبياء التي أخذت أكبر الحجوم في القرآن مجموعة حافلة من التجارب المختلفة التي كانوا يعانونها من أقوامهم ويقابلونها بحكمة كتبهم وحكمة مواهبهم وأحاديثهم، ولاغرابة في ذلك فإن سوراً كاملة سميت بأسمائهم تبين رسوخ التجارب وأثرها في مسار الدعوات الصالحة .

ومن المشهور ما كان يخص الرسول صلى الله عليه وسلم في معاملته كل فرد حسب مشكلته ومزيته، فيعالجها بحكمة النبوة، وحنكة الفراسة، وبعد النظر والإحاطة بأسرار النفس، وتقديم العلاج الشافي والمقنع المرضي .

والأنبياء مجربون وإن كانت تجربتهم تختلف عن تجارب الأطباء والفلكيين والطبيعيين والحكماء العقليين، فإن تجربة هؤلاء مادية وعقلية حتى وإن كانت في أصغر الأشياء وأبسطها فإن لها خواصها التي كشفوها واستعملوها، وإن لم تحط بها العقول أحياناً (بل

يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها، فإن وزن دانق (٦١١ درهم) من الأفيون سم قاتل لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته .. فلو أخبر طبيعي بهذا و لم يجربه لقال : هذا محال .. وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات مبني على هذا الجنس، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه، وما لم يألفوه قدروا استحالته ... ولو قيل لواحد هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة يوضع في بلدة ليأكل كل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شيئاً من البلدة وما فيها ولايبقى هو في نفسه، لقال هذا محال وهو من جملة الخرافات ... وينبه الغزالي الى جواز وجود خواص في الأوضاع الشرعية (في مداواة القلوب وتصفيتها ما لايدرك بالحكمة العقلية، بل لايبصر ذلك إلا بعين النبوة ...) فكيف إذاً (لايتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين والظهر بأربع والمغرب بثلاث هي لخواص غير معلومة بنظر الحكمة، وسببها اختلاف هذه الأوقات، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .... فيكف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات لم يُعرف قطٌّ بالكذب، فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ورمي الجمار وعدد أركان الحج وسائر تعبدات الشرع، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً، فإن قال : قد جربت شيئاً من النّجوم وشيئاً من الطب، فوجدت بعضه صادقاً فانقدح في ذهني تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته، وهذا لم أجربه؟ .... فأقول : إنك لاتقتصر على تصديق ماجربته، بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك ... ومن نظر في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ورد به من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطّفه في جرِّ النّاس بأنواع الرفق واللطف الى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة الى ما لايصلح إلاّ به دينهم ودنياهم، حصل له علم ضروري بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده(١) ...

ومما تقدم فإن للتجربة خصوصيتها وللمجرب خصوصيته .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٤-٩٩ .

فإذا التقت خصوصية الفرد بخصوصية التجربة فإن حكمة عظيمة تغني صاحبها وتغني المجتمع الذي يعيش فيه وتثري خبراتهم وتنمي قدراتهم، وتصونهم من المزالق، وترقى بهم الى مستويات أفضل . إنهما ضروريتان للإصلاح الشامل والتغيير الكلي .

تجارب وخبرات ووقائع قرآنية حكيمة
(طبيعتها – ألوان منها)

لاندّعي أن التجربة القرآنية وبخاصة فيما يتصل منها بالأنبياء المشفوعة صراحة أو ضمناً بحكمتها يمكن أن تتساوى في مفهومها بالمعنى البشري العام أو بالمعنى التجريبي العلمي الخاص، وإنما هي خبرات ووقائع عن حقائق الكون ومنها حقائق النبوة وفق الحكمة الإلهية تشبه في بعض صورها ما تعارف عليه مباني التجربة في الصيغ والأسلوب التجريبيين، وفي الشكل العام في بعض الأحيان، ولكن لايمكن أن تخضع لعوامل الخطأ أو الصحة أو للتقلبات العرضية في الرفض والقبول أو تتعثر في الوصول الى الحقيقة أو الغرض المطلوب مثل ما هي عليه في التجربة البشرية .

إن التجربة القرآنية إن صح التعبير هي أحداث حقيقية الوجود، يقينية المخبر، حكيمة الغاية والمقصد، وإذ أنها بهذا المفهوم الخاص بالقرآن تؤصّل التاريخ النبوي وقصص الرسل وتثبت الماضي مهما كان غائراً في مجاهيل السنين وتنبه الى الحاضر والمستقبل بإيحاءات الحق والخير الخالدين . ومن نافلة القول أن نبرز ذلك على أنه تلوين بياني وأسلوب تمثيلي يؤكد إعجاز القرآن المبين . و (الخبرة) ألصق بصفات الله التي تليق به وحده فهوالحكيم الخبير، حيث تكررت صفة (الخبير) ٤٥ مرة في مسائل وقضايا كثيرة . وكذلك (الواقعة) ألصق بالفعل الإلهي المتفرد فهو الذي ﴿يُمسِكُ السَّماءَ أنْ تقعَ عَلَى الأرضِ﴾ ومنه : الحق الواقع، والدين الواقع، والواقعة يوم القيامة .... والمهم في هذا وذاك هو ربط الحكمة الإلهية بكل واقعة أو خبرة ربطاً مقصوداً يطمئن النفس ويثلج الصدر ويقنع العقل، وهو أيضاً تعليم لنا ألاّ نكتفي بالحقائق المباشرة والقريبة وإنما نتخذ تجارب نتحقق وراءها من الوقائع المطلوبة أو المتوقعة،

إنها خبرات ووقائع تجريبية تعليمية تضعنا أمام ألوان شتى يمكن تصنيفها الى خارجية وعامة وخاصة وذوقية وفردية ونوعية .....

أولاً : من خلال التاريخ : وهي وإن حدثت عبر التاريخ القديم فإن إمكان وقوع نظائرها متجدد ومحتمل في كل زمان ومكان، ويمكن إبراز ألوان منها فيما يلي :

أ- الخبرة التعليمية الأولى : وهي واضحة في قصة الخليفة الأول آدم عليه السلام حين سألت الملائكة ربَّها عن حكمة خلق الإنسان، ولكي تظهر هذه الحكمة وتنجح الواقعة، أجرى الله له عملية تعليمية واسعة، فعلَّمه الأسماء كلها وحين عجز الملائكة عن معرفة أسماء الأشياء بعد عرضها عليهم أنبأهم بأسمائهم فقال الله لهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعلَمُ غَيبَ السَّموات والأرضِ وأَعلَمُ ما تُبْدونَ وما كُنتُمْ تَكتُمُونَ﴾ (البقرة ٣٠-٣٣)، إن آدم مجال الواقعة أو الخبرة التي ظهرت حكمتها الإنسانية في استعداد الإنسان للتعلم والتعليم ومن ثم لإعداده للخلافة الحقّة .

ب – الواقعة بالقدرة المعجزة : وتظهر بخوارق كثيرة : منها ما طلب الله من إبراهيم عليه السلام أن يأخذ أربعة من الطير يأنس إليها وبعد مزجهن ببعض يجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم قال له ﴿ادْعُهنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٠) فالصورة الظاهرة أقرب ماتكون الى صورة التجربة التي يقع أمثالها ونظراؤها وصفاً وعملاً مع فارق كبير أنها معجزة الله التي يراد من حكمتها التي صرح بها أخيراً أن يطمئن قلبه ويرتاح عقله، فيتأكد له وقوع الايمان باليوم الآخر من خلال تجربة مستقصية . لاحظ الألفاظ : خذ - اجعل على- ادعهن ....(١) وأخيراً وصف فيها الله ذاته بالحكمة في نهاية الآية .

ج – التجربة العسكرية السياسية الخبيرة : وتبدو في تقديم تجربة ملكية بين (زليخا) وسليمان عليه السلام حين أرادت أن تقدم له هدية تجرب بها صموده وثباته من إغرائه وميله، وقالت هكذا بالصراحة القرآنية ﴿وإِنِّي مُرسِلَةٌ إليهِمْ بهَديَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرجِعُ المرسَلُونَ﴾ (النمل ٣٥)، وبالتعبير التجريبي (فَناظرةٌ بِمَ يَرجعُ المرسَلونَ)، وذلك بعد أن

---

(١) وانظر مثلها موقف صاحب القرية من عملية الإحياء في (حماره) التي ضمت عظامه وإكسائها اللحم وإعادة الحياة لها (البقرة ٢٥٩) .

قدمت خلاصة تجاربها الواقعية والتاريخية عن سير الملوك وحياتهم الفاسدة وتجاربهم المختلفة القديمة والمتوقعة ﴿قَالَتْ إِنَّ الملوكَ إِذا دَخَلُوا قرية أفسَدوهَا وجَعَلُوا أَعِزةَ أَهلِهَا أَذِلَّةً وكَذلكَ يَفعلُونَ﴾ (النمل ٣٤) .

د– التجربة العقلية الإيمانية : وإذا خفيت نوعاً ما في تحطيم إبراهيم **أصنام** قومه جذاذاً في معبدهم فإنها أكثر وضوحاً في التجربة العقلية الإيمانية بنفسه حين بدأها برؤية الكوكب الآفل ثم القمر الغائب، ثم الشمس الغاربة، ومن ثم دلته تجربته الحسية المشاهدة في الاعتماد على الفكر السليم، للإيمان الصحيح بالله تعالى خالق الكواكب والقمر والشمس التي لايغيب ولايغرب (الأنعام ٧٤-٧٩) .

هـ– التجربة العاطفية العفّة : وهي التجربة التي خرج منها يوسف عليه السلام نزيهاً برئياً الى سدّة الحكم وذلك على الرغم من مغريات الجمال والجاه وعنفوان الشهوة والشباب والمال . وإذا كانت قبل النبوة فإنها ومن خلال (سورة يوسف) درس بليغ حكيم يوجه الشباب الى العفّة يطلقهم منها الى تعويض رباني أعظم من اللذة العابرة وأبقى لها، الى العفة في كل زمان ومكان . فكل مرحلة في قصته كانت تجربة في ظلال رعاية الله تصونه من المواقف الحرجة التي تكفي واحدة منها لو وقعت الى تغيير مسار حياته .

و – تجارب وخبرات موسوية عجيبة : وهي تلك الأحداث التي وقعت لهذا النبي الكريم في جميع مراحل حياته، فحين التقطه آل فرعون وزوجه في التابوت نهت عن قتله وتركته للتجريب وقالت ﴿لاتَقتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفعنَا أَو نتَّخذَهُ وَلَداً﴾ (القصص ٩) وحين جربت المراضع أن يطعمنه من ألبانهنَّ حرم عليه المراضع، وحين أراد أن يتزوج من ابنة شعيب كان ذلك بعد تجربة ناجحة بشهادة ابنتيه وقولهما ﴿يَا أَبتِ استَأجِرْهُ إنَّ خَيرَ مَن استَأجَرتَ القويُّ الأمينُ﴾ (القصص ٢٦)، وحين ذهب لميقات ربه وخلف أخاه على قومه اتخذوا العجل الذهبي إلهاً حتى قال لهم السامري ﴿هَذا إلهكُمْ و إِلَهُ مُوسَى﴾ (طه ٨٨)، وحين أخذ قومه الى فلسطين ليجرب طاعتهم لله واستجابتهم لشريعته حرَّفوا كلامهم وتنطعوا عند دخول الباب فكانت تجربةً مريرة أن تاهوا في الصحراء أربعين سنة ليتجدد الجيل المعاكس الى جيل مؤمن (المائدة ٢٦)، إن موسى عليه السلام وهو من أولي العزم نبيُّ الصَّبر والقوة

والغيرة على قومه لخلاصهم من طغيان فرعون ومحاولة للاستقرار بهم ولكنهم كانوا دوماً يناهضون ويعارضون .

ز- الخبرة التعليمية الذوقية : وهي أسمى من الخبرة العادية باعتمادها على صفاء النفس ونقاء الضمير وسلامة القلب ولاتحتاج الى شطحات ووثبات خارجة عن موازين الشرع ومقاييس المنطق . وأشهر نماذجها ما وقع لموسى مع الخضر عليهما السلام (في سورة الكهف) . فهي خبرة بصريح قوله (خُبْراً) من : خَبَره، خُبْراً وخِبْرة : بلاه كاختبره (القاموس)، وهي تعليمية بصريح قوله (عَلَى أنْ تُعلّمَنِ مما عُلّمْتَ) فهي خبرة تعلمية وتعليمية . وهي ذوقية بصريح قوله (وعلّمناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً) التي جعلها الغزالي وغيره قاعدة في العلم التجريبي الخاص ، وكذلك بدلالة قوله (رُشْداً) وتكرار المستوى العلمي السامي الذي لايقدر عليه كل أحد (لَنْ تَستطيعَ مَعيَ صَبراً) . وإذ هي قائمة على الحوار قوام النجاح في أية عملية تعليمية فإنها أغنى أسلوب تربوي وأيسره في إيصال الحقائق الفكرية، وبذلك اجتمع لهذه الخبرة : الغنى التربوي والسمو الروحي .

ح - التجربة الوقائية الخالدة : وهي التجربة التي أمسك بها ذو القرنين القائد الحكيم الذي اتسعت فتوحاته شرقاً وغرباً، وفي أعمال الأرض، وآخرها ما قام به من بناء السدّ الواقي الذي يحمي الضعفاء من عدوان الأقوياء، وهو سدٌّ بين مياه بحر قزوين وجبال القوقاز ما تزال آثاره ماثلة للعيان، قد أخضعه للتجربة على أن ينقبوه أو يخترقوه فلم يستطيعوا حينذاك ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَروهُ ومَا استطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ (الكهف ٩٧) ، إن (كوروش) العيلامي باني السد ومن بعده بـ ١٠٠٠ عام (أنوشروان) الذي أمر ببناء جدار التحمَ تماماً بجبال القوقاز يؤكد على متانة هذا السد الذي أقيم لإيقاف القبائل المتوحشة، ينبه الى القدرة الهندسية الفائقة التي حافظت عليه حتى الآن(١) .

ط- التجربة الوالدية العاقلة : وأطلعنا القرآن على نموذج رائد منها وهي تجربة لقمان الحكيم مع ابنه التي سماها القرآن عظة (وهو يعظه) باعتبار أن هذه العظة خلاصة تجارب وخبرات طويلة آثر فيها ابنه، فإذا قدمت هذه التجارب بالأسلوب الواعظ فإنها خير مؤثر

---

(١) انظر فيه تفصيلات وافية في كتابي : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم .

في النفس، وهذا ما وضح في سورة لقمان الآيات (١٢-١٩) وبيَّن القرآن أن عظاته نابعة من الحكمة فهي عظة حكيم مجرب، وذلك على الرغم مما قيل عن لونه وطوله وعمله وبساطة حياته، وإذ كان من (النوبة) فإن تصدير العظات بخطاب ابنه وحده يدلّ على رعاية خاصة واهتمام أبوي كبير سجلت مصنفات الحديث بعضها الى جانب ماذكره الله عنه في سورته .

ثانياً : في العهد النبوي : فمن خلال القرآن أصدق وثيقة تسجيلية حيّة في السيرة النبوية قبل البعثة وبعدها يمكن أن نتعرف على نماذج كثيرة من الخبرات النبوية الاجتهادية وغيرها. وهي في معظمها تقوم على الحوار والشورى يحضُّ الرسول عليها للإفادة منها حتى تكتمل حكمة الإنسان وتجنبه عثراتها، فلا ينبغي أن يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ولا حكمة بغير تجربة،ولاتجربة بغير منفعة .

أ- التجربة والخبرة المتكررة والثابتة : ففي مطلع البعثة أمر الله نبيَّه بإنذار عشيرته الأقربين (الشعراء ٢١٤)، وبعد أن نادى الرسول صلى الله عليه وسلم قومه وسألهم عن نفسه في كل قول وإعلام وبخاصة حين ينذرهم بالخيل الغازية، فأجابوه بتكرار التجربة وإشاعتها : ماجربنا عليك كذباً، هكذا بلفظ (ما جربنا) . ولكن عمَّه أبا لهب اعترضه بقوله : تباً لك ألهذا جمعتنا . فأنزل الله عليه سورة (المسد)(١) .

وحين سأل هرقل أبا سفيان : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا. فقال هرقل فيما بعد : فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله... وفي رواية البخاري أيضاً أنه قال لعظماء الروم حين رأى نفرتهم وأيس من الإيمان ، إني قلت مقالتي آنفاً (أختبر) بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت ....(٢) لاحظ قوله : أعرف - وأختبر - ورأيت ، الدالة على تجارب دينية ودنيوية ومع الناس،ومثلها ولكن بشكل عملي واقعي خبر ذلك اليهودي - وقوله للرسول صلى الله عليه وسلم : إنكم لَمُطْلٌ يا بني

---

(١) البخاري سورة المسد ومسلم إيمان .

(٢) البخاري بدء الوحي .

عبدالمطلب، حتى قال فيما بعد :كل شيء منك قد عرفته من علامات النبوة وبقيت واحدة وهي ألاّ يزيده شدة الجهل عليه إلاّ حلماً، فأردتُ أن أعرفها ... ثم أسلم(١) .

ب – التجربة الفاشلة : وتكون أحياناً تحت الضغط أو الإكراه المؤقت وبقصد التفلت من المسؤلية والتخطيط الماكر لوقت بعيد، كما حدث لثعلبة الذي كان يلحُّ على رسول الله أن يدعو له بالرزق الكثير، وكان يقول (جربني) يارسول الله فدعا له الرسول وآتاه الله المال والأنعام فامتنع ثعلبة عن دفع زكاته واصفاً إياها بأنها كالجزية فامتنع الرسول عن أخذها وأنزل عليه قوله ﴿وَمنهُمْ مَن عَاهدَ اللهَ لئِنْ آتانَا مِن فضْلِهِ لنصّدّقنَّ ولَنَكونَنَّ مِن الصَّالحينَ﴾ (التوبة ٧٥)(٢) .

ج– التجربة الاختبارية المحرجة : وهي موقف العارف المختبر المحرج الذي يقصد تجهيل المسؤل في مسألة قد تكون مصيرية، وهكذا كان يفعل اليهود بدافع حسدهم وبدافع من المشركين الأميين، فقد حاولوا أن يحرجوا الرسول بمعارف فوق المعتاد من حياة العرب ومعارفهم، ومن ذلك سؤالهم عن الروح حين مروا عليه وهو متكئ في حرث بالمدينة فأنزل الله قوله : ﴿وَيَسألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾(٣) .... وسؤالهم عن ذي القرنين وعن شبه الوليد بأبيه وأمه ...

د – التجربة المصلحية المتأرجحة : وهي التي لايقصد منها الوقوف عند الحق ولا اتباعه وإنما مراعاة المصلحة الأنانية، فقد ورد أن أعراباً قدموا على رسول الله بالمدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها ونتجت فرسه مهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته آمن به واطمأن، وقال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلاّ خيراً وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وذهب ماله، وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال : والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلاّ شراً فينقلب عن دينه .

---

(١) زاد المعاد ٤٢/١ وانظر فيه أخباراً أخرى مثلها .

(٢) انظر سبب النزوول مفصلاً للواحدي ١٨٥ ، ط مصر ١٣١٥ هـ .

(٣) البخاري ومسلم وذكره الواحدي ٢٢ .

فأنزل الله قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعبدُ اللهَ عَلى حَرفٍ فَإنْ أَصابَه خيرٌ اطمَأَنَّ بِهِ وإِنْ أَصابَتْهُ فتنةٌ انقلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسرَ الدُّنيَا والآخرةَ ذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ﴾ (الحج ١١)(١) .

هـ- **التجربة السياسية** : وهي عديدة تمثلت في إرسال البعوث داخل الجزيرة وخارجها ومن أشهرها وأقدمها الهجرة الأولى للحبشة وكان في مقدمتها جعفر بن أبي طالب قد عرف منها موقف النجاشي من الطليعة المؤمنة حيث كانت خطبته بين يديه أقدم إعلام دعوي خارجي مؤثر، ومن ثم ردّ النجاشي الخبير بالبعثة النبوية الصادقة وتسفيه عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط حينذاك وإرجاع هدايا مكة إليها حتى نزل قوله ﴿إنَّ أَولَى النَّاسِ بإبراهيمَ للّذينَ اتَّبعوهُ وهَذا النَّبيُّ والّذينَ آمنُوا واللهُ وَليُّ المؤمنينَ﴾ (آل عمران ٦٨)(٢) .

و- **التجربة المالية** : وهي تجربة جاهلية مقترنة بالرعاية وحسن التصرف المالي الذي يراد منه حفظ المال وعدم تبديده وصونه من العبث والطيش مع الحدب على اليتيم ومستقبله، وسماه القرآن ابتلاء (اختباراً) باعتباره واقعاً على اليتامى الى أن يبلغوا الحلم (النساء ٦) وهذا يعني أنه لابدّ من امتحان اليتيم ونجاحه في هذا الامتحان حتى تزول عنه الوصاية القضائية . وبذلك يجتمع حفظ المال وحفظ النفس . روي عن إبراهيم النخعي : حكّم اليتيم كما تحكّم ولدك، أي امنعه من الفساد وأصلحه كما تصلح ولدك وكما تمنعه من الفساد ، ومعناه : حكّمْه في ماله وملكه إذا صلح كما تحكّم ولدك في مِلكه(٣) . على أنه ليس المقصود من حفظ المال الوقوف عليه وحراسته من العوادي وحفظه من التلف وحده وإنما تنميته وتشغيله في أعمال اجتماعية نافعة للجميع وعدم تبديد أصله واستغراق كثير منه في الواجبات الدينية كالزكاة والمعاشية كالنفقات المعتادة . ولابدّ من أن تكون يدُ الوصي عليه يد خبرة في استثمار المال، ويد أمان تصونه أصلاً وربحاً . فإن عائداته عند تشغيله قد يفيد

(١) الواحدي٢٣١ ، وانظر روايات أخرى في ابن كثير عند البخاري وغيره .
(٢) الواحدي مختصراً ٧٥ .
(٣) لسان العرب .

منها الوصي ذاته حين يأكل منه بالمعروف مثل ما يفيد غيره . فإن في حبس المال ضياعاً وهدراً وتبديداً على المدى البعيد. فالتجربة هنا تتناول الوصي واليتيم معاً .

هـ – التجربة الوالدية : وهي تجربة ملحقة بالسيرة النبوية إذ تبين مسؤلية العلاقة الفطرية بالوالدين بما ينبغي لهما من الاحترام والرعاية ماهي جديرة به بشرط ألاّ تتعارض مع مسؤلية أكبر منها . قال سعد بن أبي وقاص : كنت رجلاً برّاً بأمي، فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعَيَّر بي ، فيقال : يا قاتل أمه، قلت لاتفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء فمكثت يوماً لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، قال : فمكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل فأصبحت وقد اشتد جهدها ، قال : فلما رأيت ذلك ، قلت : تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت . فنزل قوله ﴿ووَصَّيْنَا الإنسانَ بوالدَيهِ﴾ (العنكبوت آية ٨ ، ولقمان آية ١٤، والأحقاف آية ١٥)(١) .

وتجارب وخبرات كثيرة تضيء حياة المسلمين وتزود حضارتهم بأصح الأعمال وأقوم التصرفات، وتجنبهم الأخطاء والمزالق وتغني حياتهم بوافر النشاطات الفردية والجماعية المتنوعة .

أهمية المجربات في العلوم الإسلامية

وإذا كان الإسلام يحض على جميع العلوم شرعية وعقلية وتجريبية وبتوجيهات القرآن نصاً وروحاً واستنباطاً فإنه لاريب أن أهمية هذه العلوم لايعد لها شيء سوى أهمية (منهج البحث التجريبي) ودعوته إليه في معظم الآيات للنظر والدرس والعمل .

ومن أجمعها ﴿ولاتَقْفُ ماليسَ لك َبهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمعَ والبَصرَ والفؤادَ كُلُّ أؤلئكَ كانَ عنهُ مسؤلاً﴾ (الإسراء ٣٦) ، الآية التي كانت ومازالت (شواهد) في مواقع كثيرة على العلم التجريبي الإسلامي . ويمكن أن نبرز فيها ثلاثة أصول هي جماع أصول النظر العلمي .

---

(١) الواحدي ٢٥٧ .

أ- ضرورة اتّباع المنهج العلمي القائم على حقائق المعرفة التجريبية ﴿ولاتقفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ﴾ .

ب- وأهمية الإفادة من القدرات الحسية والعقلية والشعورية لتربى على تلقي المعارف للوصول الى الملكات المطلوبة ﴿إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أؤلئكَ كانَ عنهُ مسؤلاً﴾

ج- ومسؤلية الإنسان الدنيوية والأخروية عن استخدامات طاقات العلم الكبرى في ميادين الخير، وهي مسؤلية أدبية وعلمية وقانونية ﴿إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أؤلئكَ كانَ عنهُ مسؤلاً﴾ .

والمجربات فلسفياً كما يقول ابن سينا هي : أمور أوقع التصديق بها الحس بشركة من القياس، وذلك أنه إذا تكرر في إحساسنا وجود شيء لشيء .. تكرر ذلك منا في الذكر، وإذا تكرر منا ذلك في الذكر حدثت لنا منه تجربة بسبب قياس اقترن بالذكر (النجاة ، ص ٩٤-٩٥) فالمجربات هي إذاً (قضايا وأحكام تتبع مشاهدات منا متكررة) (الإشارات) وبدلالتها الفلسفية النظرية والتجريبية العملية نشطت العلوم والمعارف التطبيقية وازدهرت انتاجاتها ووسائلها المادية .

ومثل هذه التوجيهات النظرية والعملية كانت أساس المنهج الاستقرائي عند المسلمين في ابتكار الوسائل والآلات العجيبة، فقد ذكر ابن النديم في فهرسته : الفن الثاني من المقالة السابعة، أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب التي تحتوي على أخبار التعاليم والمهندسين والارثماطيقين (المختصين بعلم الأعداد) والموسيقيين والحسّاب والمنجمين، وصنّاع الآلات وأصحاب الحيل والحركات .

ومنهم إبراهيم الفزاري أول من صنع إسطرلاباً، وأبو معشر الفلكي من علماء الرصد المعروف بتوقعاته الفلكية حسب المفاهيم والحسابات حتى توهم بعض الناس معرفته بشيء من علم الغيب .

ويحيى بن أبي منصور الذي عمل أحد الأرصاد في أيام المأمون وأودع معلوماته العملية في كتب ورسائل عديدة، وعمل الفضل بن حاتم : أحداث الجو للخليفة العباس المعتضد .

وأفرد ابن النديم الكلام على أسماء الصناع فذكر منهم ابن خلف، وغلامه علي بن عيسى، وغلام سيف الدولة (بطولس) وتلميذته (العجيلة) .

وعمل (ابن يونس) في مرصد، وأنشأ (أولغ بك التيموري) مرصداً في سمرقند ١٢٤٨ م الذي عدّ حينذاك إحدى أعاجيب الدنيا .

كما برعوا في فن الحيل (الميكانيك) وموازنة السوائل (الهيدروستاتيكا)، ونظرية الثقل .

والكثافة والروافع ومن كتبها : عمل الآلة التي تطرح البنادق، أرشميدس، وعمل المهندس علَمُ الدين الحنفي (ت١٢٥١) نواعير مدينة (حماة) السورية والكرة السماوية التي ماتزال محفوظة الى اليوم في مدينة نابولي، و(الجزري) الذي عُرف بكتابه : الحيل الهندسية، حيث بيّن في القسم الرابع من الكتاب : إنشاء فوارات المياه في الحياض، وبيّن في القسم الخامس منه، صنع الآلات الرافعة للمياه الضحلة ومياه الأنهار، وعمل إيران : الأشياء المتحركة من ذاتها . إلى جانب ما قام به علماء الطب والفيزياء والجبر من أعمال فكرية وعملية من أمثال: ثابت بن قره ، والرازي ، وابن الهيثم ، والخوارزمي ...

وكان اهتمام النيسابوري محمد بن يحيى بالرياضيات التطبيقية فعمل كتاب : ما يحتاج إليه العمال من صناعة الحساب .

واشتهروا بالطب النفسي والعصبي خاصة كابن سينا، وعرف ابن الهيثم تأثير الموسيقى في الإنسان والحيوان، والكيمياء الحيوية عن جابر بن حيان، وسلكوا المنهج العلمي في نيل الاجازات الطبية والعلمية فقد تقدم (٨٦٠) طبيباً في زمن المقتدر لنيل هذه الاجازات، ولم يوفق الكثير منهم للحصول عليها(١) .

وأعلنوا منهجهم التجريبي في كتبهم ورسائلهم . يقول جابر بن حيان : ويجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواصّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا، وقرأناه بعد أن امتحناه وجربناه، فما صحّ أوردناه، وما بطل رفضناه .

ويقول الحسن بن الهيثم : إن للاعتبار في العلم وظيفتين : إحداهما أنه الوسيلة لاستقراء الحقائق العلمية والأحكام العامة .

---

(١) انظر كتابي : في التراث التربوي .

وثانيتها : أنه الوسيلة للتحقق من نتائج القياس التي تستخرج بالبرهان من تلك الأحكام .
ولا غرو فإن المنطلق الاسلامي في العقيدة المبثوثة في القرآن هو أن المحرك الأكبر لارتقاء المبتكرات الاسلامية وإنجازات المسلمين العلمية المتنوعة لايقف عند حدٍّ ولا زمان، فهم لايتخلون عن (روح) العلم التطبيقي العام ولا انتاجيته المتجددين، فإنهم يملكون القدرات للجمع بين الروح والمادة وبين العلم والإيمان . ويوجهون علومهم وأشياءهم الوجهة الخيرة لإثراء المعارف وتوسيع آفاقها إلى (رحابة الإنسانية) ولكل طالب يريد منهلها والإفادة بحق منها، وبذلك يمكن أن يصلوا الى فهم كلي وعميق للحكمة باعتبارها علماً نافعاً وعملاً فاضلاً وحضارة راقية . وهذا معنى قول بعضهم في دلالة الحكمة أنها إصابة الحق بالعلم والعمل(١).

المجربات وأغنى التجارب

والتجربة التربوية أغنى التجارب بالمنافع في ميدان التكوين والبناء الإنساني والإصلاح الاجتماعي والتغيير العام . ولذا فقد عني تراثنا العلمي والتربوي بالجانب التجريبي أكثر من عنايته بالعلوم النظرية والفلسفية، حتى إن هذه كانت ركناً في البناء التربوي العام في صياغة الإنسان فكراً وسلوكاً، فرداً وجماعة .

وإن تأسيس التراث التربوي على (المجربات)(٢) عموماً يعني فيما يعنيه، بالإضافة الى الاعتماد على الأفكار التي بلورت هذه المجربات، متابعة التجارب التربوية واعتبارها الأساس في الحضارة الإسلامية .

وهكذا فإن التربية الإسلامية في التراث كانت تعتمد بشكل أساسي على المجربات الشخصية والعلمية والتاريخية والواقعية، وقد سبقت أية تربية أخرى في جانبيها التعلّمي والتعليمي ضمن فروعها العلمية، فالزرنوجي الفقيه مثلاً (٥٩٣هـ/١١٩٦م) في كتابه : تعليم المتعلم طرق التعليم ، والذي لم يتجاوز ٨٠ صفحة قد نبّه وتمثل واستشهد بأكثر من ٣٠ موضعاً

(١) التعريفات : ابن كمال ٦٨ ، والمفردات : الراغب الأصفهاني ١٨١ .
(١) مختارات من كتابي : في التراث التربوي ٢٤٤-٢٥١ .

وهو بذلك حلقة وسطى سبقه ولحق به تربويون كانت لهم بحوث مستقلة في المجربات التربوية .

ويمكن إيجاز الكلام على المجربات فيما يلي :

١- **التجربة المنهجية** : مثل ما كانوا يسمونه بـ (السَّبق) وهو مجلس التردد العلمي للمبتدئ الذي يستوعب التحصيل بالإعادة مرتين ويزيد كل يوم كلمة . ومثل التدرج في العلوم واختيار المبسوطات للمبتدئ ومن ثم المطولات ... وفي وقت الدرس ينبهون الى أفضلية وقت الشباب ووقت السحر وما بين العشائين لاستيعاب التحصيل .

٢- **التجربة الصحية** : وفي مقدمتها : الوعي الصحي العام في الأسواق والمطاعم والمجتمعات، والوعي الصحي الخاص الذي يراعي المعالجة الوقائية والدوائية . واشتهر عن الشافعي قوله : العلم علمان : علم الفقه للأديان ، وعلم الطب للأبدان، وماوراء ذلك بلْغة مجلس ... ومن المجربات : السواك وشرب العسل وأكل الكندرة (العلك) مع السكر، والزبيب التي تورث الحفظ، وتشفي من الأسقام . وهذا بلا شك يساعد على النشاط الذهني للدراسة .

٣- **التجارب المكتبية** : وهي الإفادة من كتب الأقدمين وتجاربهم ، حتى قيل إن ما يزيد عن ٣٠٠ حديث نبوي تتحدث عن الأمور الطبية المجربة، ولذا فقد اختصر العلماء بعضها وأضافوا إليها واهتموا فيها وجربوها واستنتجوا منها كثيراً من المنافع العملية .

أضف الى ذلك العامل النفسي ، فإن أقوى أسباب الحفظ كما قالوا : الجدّ والمواظبة، وصفاء النفس وطهارة الخلق والابتعاد عن الذنوب والهموم والأحزان في أمر الدنيا وكثرة الأشغال والعلائق، إلى جانب ضرورة التفرغ الدرسي والاعتماد على الله وتوفيقه فهو فرع من الإحسان والتقوى ....

ويلحق بها التجارب التاريخية الحافلة بالأمثلة والشواهد التربوية، والتجارب الحاضرة التي يمارسونها فيدرسونها ويحللونها بداية من اختيار الأستاذ ونهاية بالحصول على الدرجات العلمية أو الأستاذية التي تؤهله لأن يكون صدراً في العلوم وحبْراً فيها ومرجعاً لها .

إن خطورة التجربة التربوية دفعت علماءنـا الى التصنيـف فيهـا، والى ممارسـتها في حلقـاتهم الدرسية، والى أن تخـدم مؤلفـاتهم في معظـم المعـارف والعلـوم الجوانـب التربويـة في الفكـر والسلوك .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

كل خير يمكن أن يكون حكمة بل لابد أن يكون حكمة أو يؤدي إليها، لأن الخير هو الفضيلة، والفضيلة وسط بين رذيلتين، والتوسط بين الطرفين خير وحكمة .

وكل حكمة يمكن أن تكون حكمة بل لابد أن تكون خيراً وتؤدي إليه، فإذا كانت الأقوال والأحوال والأفعال والعلاقات حكيمة وفي إطار حكيم لا إفراط فيها ولاتفريط فهي من الخير.

فالخير يشمل الحكمة قطعاً، والحكمة من الخير جزماً إن خلا كل منهما من اعتبارات الأهواء وتقلبات الأمزجة والرغبات الملحة الخاصة، وإذا عدمنا الحكمة فقد عدمنا معظم الخير الذي قد ينقلب بتجاوزاته الى الشطط والإفراط البعيدين عن حكمة الخير .

وإذا افتقدنا الخير فقد افتقدنا الحكمة الشاملة التي هي من ناحية أخرى قاعدة الخير ونسقه وتناسبه .

مواقع الوسطية في الخير و الحكمة : تقدم ارتباط الحكمة بالخير ارتباط الحقيقة بمتعلقاتها ومجالاتها .

إن الحكمة والخير متحققان في نصاعة الفضيلة، ونفعية البر، ووسطية التعامل، وقوة الحق وبهاء الجمال واستقامة العمل . ومن جانب آخر ففي الحكمة توسط (عدل)، وفي التوسط حكمة وإلاّ لما كان توسطاً ولاكانت حكمة . ففي التوسط بين الأطراف المتباعدة حكمة، وفي التوفيق بين المتعارضات حكمة . وعلى هذا فالتقارب بين وجهات النظر واتخاذ المواقف الوسط بين المتباعدات، والاعتدال في أمور الحياة والمعاش، وتعديل النقص والهداية الى فضيلة العدل والإحسان وهي الأصلح والأحسن والتي ترسخ حسن الجوار وجمالية المعاملة، صور من الحكمة الواقعية والخير الوارف .

وضرورة الالتزام بالوسط خير وبرٌّ لأن التشدد في الأمور مثل التسيب فيها (فـإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)(١) مثل ضرورة تغلغل الوسطية شعاب الحياة جميعها التي لاتنتظم إلاّ بها ولاتثمر إلاّ في أرومتها الحية، وفي هذا خير عميم شامل .

ومن ناحية ثانية فإن التوسط (العدل) والحكمة متناسبان متناظران متعادلان باعتبار أن العدل في الأشياء يحقق التعادل فيها والموازنة بينها، وعلى هذا فلا بدّ من تعادل بين الحق والواجب، والأخذ والعطاء، والعقوبة والجزاء، وبين العمل وقيمته، وبين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

والوسطية بمعنى العدل أوالتوسط في الأمور قيمة حقوقية حكمية مستوعبة الحق و الخير والجمال والعمل، وهي الحكمة ذاتها التي تأسست عليها قواعد الحياة خلقاً ومنفعة وجمالاً، فبالعدل قامت السموات والأرض، وعلى الحكمة اتسقت أجرامهما وتناسقت نشاطاتهما حياةً وأحياءً .

والوسطية التي تدل على الحكمة تصوراً وعملاً لاتقتصر على الفعاليات الهادئة والنشاطات المسالمة فإن في الثبات على الحق والانتصار له حكمة ووسطية، وفي الحزم عند الأحداث وتجاوز التقلبات والقلاقل حكمة ووسطية أيضاً وذلك لاتخاذ القرار الحاسم في الأزمات بعد المقايسة والمناظرة . ويمتدح كثير من الناس فئات وسياسات الوسط، وإذا إنها فلسفة لهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فإن اتخاذها منجهاً للعمل قائم على تصور نظري في التطلع الى الحل الوسط والموقف الوسط، حتى إن العرف الاجتماعي العام يثني على الإنسان الذي ينهج في حياته أوساط الأمور في العادات والهيئات والعلاقات الشخصية الاجتماعية ويعتبر من الحكماء، ومن ذلك مثلاً الاعتدال في الطعام والشراب والإنفاق والمعاملات، وإسداء الرأي و النصيحة الحكيمة، والتوجه للتوفيق بين الخصوم والمنازعة، إنها

---

(١) مقطع من حديث وتمامه : إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت ... قال المناوي ٥٤٤/٢ : رواه البزار في مسنده عن جابر، قال الهيثمي في المجمع : وفيه يحيى بن المتوكل أو عقيل وهو كذاب . إ.هـ . ورواه البيهقي في السنن من طرق وفيه اضطراب، ورجح البخاري في التاريخ إرساله . أما من حيث المعنى فهو صحيح الدلالة والحكمة .

حكمة واقعية تعتمد على منزع (توسطي) حكيم . وإن توظيف الوسطية والحكمة في شعاب الحياة وماوراء الحياة وفي الدنيا والآخرة يؤكد على دعامات معنوية راقية حكيمة متوسطة في كل مسألة من مسائل الوجود الحاضر والغيبي .

ولأبي يعلى بسند رجاله ثقات :

إن لكل شيء طرفين ووسطاً، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوسط من الأشياء[١] ، ويستشهد السخاوي على صحة المعنى بقول الله ﴿وَلاتَجعلْ يدكَ مَغلولةً إلى عُنقِكَ ولاتَبسطهَا كلَّ البَسطِ﴾ (الإسراء ٢٩) وبقوله ﴿لَمْ يُسرفُوا ولَمْ يَقترُوا وكانَ بينَ ذلكَ قَوَاماً﴾ (الفرقان ٦٧) ، وبقوله ﴿إنَّها بقرةٌ لافارضٌ ولا بِكرٌ﴾ (البقرة ٦٨) وهي الشابة ﴿عوَانٌ بينَ ذَلكَ﴾ . وأنشد بعضهم :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولاتركب ذلولاً ولا صعبا

وقال آخر :

حب التناهي غلط خير الأمور الوسط

وفسر الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : ﴿جَعلناكُمْ أمَّةً وسَطاً﴾، بالعدل[٢] . وقال الطبري: الوسط في كلام العرب الخيار .... ثم قال : الوسط في الآية (البقرة ١٤٣) : الجزء بين الطرفين[٣] .... قال ابن حجر : ولا مغايرة بين الحديث وبين ما دلَّ عليه معنى الآية[٤] .

الوسطية في القرآن :

والقرآن يتحدث عن الوسطية أيضاً، من ثلاثة أركان أو أنحاء متداخلة : الفرد الوسط، والأمة الوسط، والشريعة الوسط .

---

(١) المقاصد الحسنة (٤٥٥) للسخاوي .

(٢) أحمد ٣/٣٢ .

(٣) البخاري تفسير (٤٤٨٧) .

(٤) فتح الباري ٨/١٧٣ .

أولاً : الفرد الوسط أو الأوسط : فإذا كانت الوسطية منهجاً تربوياً يعد الإسلام الأفراد لها تجنباً للإفراط والتفريط والتسيب والتنطع فإن النموذجية الإنسانية تكتمل بالأفراد الوسط في إطار التعاون على الخير والتكامل الاجتماعي .

ويمكن أن نستشف من أمثلة القرآن تلك (الأوسطية) التي ضربها الله عظة وعبرة لكل فرد في المجتمع الإسلامي . فإن (أوسط) أصحاب الجنَّة (القلم ١٧-٣٣)(١) بالأسلوب القصصي تظهر أن حكمة الأوسطية كانت مانعة من غضب الله أن ينزل بجنتهم ويجعلها قاعاً صفصفاً لو أن الباقين استجابوا لحكمته، ولكنهم نالوا الحرمان والخسران بعد فوات الأوان حين أقبلوا (يتلاومون) معترفين بطغيانهم وظلمهم، إنه لعذاب الدنيا ﴿ولعَذابُ الآخرةِ أكبرُ لَوْ كانُوا يَعلَمُون﴾ (القلم ٣٣) .

فهو الأعدل والخير فيما نقله الزمخشري وغيره عن ابن عباس، والأعقل والأحكم فيما ذكره غيره، وقد كان قادراً على حماية الملكية من الضياع والدمار باستعمال الحكمة التي تقي الثروة وتحفظ الأموال . وهذا يعني أن إعطاء الحقوق لله وللناس شطر الحكمة الواقية من الدمار، كما يعني أن الأوسط لايكفي وحده أن يبين وجه الحكمة وضروب الخير، وإنما لابد من الأدوات المنفذة والقادرة على التطبيق الحكيم، فإن بإمكان الحكيم أن يتجنب بنفسه ويجنب الآخرين كثيراً من العثرات، ويتجاوز الأغلاط في حدود تجاربه، والاعتبار بتجارب الآخرين المنزلقات التي قد يقع فيها الغافل أو المتعنت .

ومن النماذج التصويرية التي تفتح أمامنا مجالاً تربوياً هاماً قائماً على الحكمة والوسطية ما كان رسول الله يقوم به من تمثيل رمزي بالرسم أو بالخط للإنسان .

عن ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً وخط وسط ... هذا الخط الأوسط الإنسان، والخطوط إلى جانبه الأعراض تنهشه من كل مكان ... والخط المربع الأجل المحيط به، والخط الخارج البعيد : الأمل(٢) .

---

(١) تقدمت هذه القصة في مواضع، منها : إنسانية الحكمة ...

(١) بخاري رقاق ٤ وانظر فتح الباري ١٣٧/١١ .

ويعلل ابن الأثير الأوسطية بقوله(١) :

كل خصلة محمودة فإن لها طرفين مذمومين، مثل السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه، والتبعد عنه، فكلما ازداد منه بُعداً ازداد منه تعرياً، وأبعد الجهات والأماكن والمقادير من كل طرفين، فإنما هو وسطها، لأن الوسط أبعد الجهات من الأطراف، وهو غاية البعد عنها، فإذا كان في الوسط، فقد تعرّى عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان، فلهذا كان خير الأمور أوساطها .

إن الفرد الوسط قد يعاني من التوازن النفسي والسلوكي حتى تصبح الوسطية ملكة ينشأ عنها الأقوال والأفكار والتصرفات الحكيمة، وهي معاناة غير يسيرة في كثير من الأحيان لأنها تتطلب رياضة نفسية وجهداً كبيراً لوضع الذات في الوسطية الحكيمة، وهي إذ لاتحميه من الطرفية الشائنة وحدها وإنما تدفعه الى أن ينفع الآخرين بها، فكم من سداد رأي كان سبباً في فض الخصومات ونزع الحزازات ورأب الصدع وجمع الشمل، وكم من تصرف حكيم حسن قاد الآخرين الى أحسن النتائج وأفضل العواقب، ولذا فإن حكيماً واحداً قادر على حماية الأفراد من مواطن الزلل، وبإمكانه أيضاً أن يدفعهم الى حسن العلاقات وبناء الأواصر الاجتماعية على أحسن وجه .

ولاريب أن معاناة عديدة أخرى يتحملها في سبيل جمع الكلمة وتصفية النفوس، معاناة مالية ونفسية وزمانية ولكنها قد تبوئه منزلة في قلوب الجميع ويحظى بمكانة خاصة فيهم حتى يصبح مَثَل الجماعة ونموذجها المحتذى .

فالفرد الوسط : موهبة وتجربة وتضحية ووقاية وتقدم .

ثانياً : الأمة الوسط : ووسطية الأمة من وجهة نظر القرآن ليست مجرد مبادئ وتشريعات وآداب مدونة في ثنايا آياته وحدها فإن تمثل هذه المبادئ والتشريعات والآداب في (أمة الوسط) هي مقصد القرآن، فالوسطية أن تقوم أمة الإسلام بها وتتحرك في أطرها وتلتزم بفضائلها، ولذا آثر القرآن الكلام عن هذه الأمة الوسط وليس عن الأحكام مجردة، وعن

---

(١) جامع الأصول ٣١٩/١ (١٠١) .

الإنسان لا عن القضايا والمسائل، فإن دخول هذه في تلك يدل على تمثلها وإبراز النماذج والقدوات في العمل الحي المستمر . إنها أمة الوسط التي تتوزع في علمائها وحكامها وأشخاصها أو هكذا (جعلنا) الله أمة وسطاً عدلاً خياراً في قوله ﴿ وَكذلكَ جَعلناكُمْ أمَّةً وسطًا لتكُونُوا شهداءَ على النَّاسِ﴾ (البقرة ١٤٣) ، فهو أولاً (جعل) يدل على فوقية الحكمة والوسطية أكثر مما يدل على فوقية عنصرية أو نسبية، وهو ثانياً (جعل) (للأمة) في جميع قطاعاتها وشرائحها ونشاطاتها وليس جعلاً لفرد أو لفئة مختارة لاتحقق (الأمية)، وهو ثالثاً (جعل) مشروط بأن يقوم المسلمون (المجعولون) باقتباس الحكمة النظرية والعملية النافعة والدعوة إليها وليس خاصاً بالحكمة العلمية الموضوعية التي اشتهر بها بعض المسلمين من فئة الحكماء المتأثرين عبر عصورهم، ويؤيد هذا أن الله جعل من وسطيتهم حكمة شهود على غيرهم من الأمم التي منها شهادتهم يوم القيامة على جحود الأقوام لأنبيائهم فيما ورد في الصحاح(١) .

إن حكماء المسلمين بالإسلام ديناً وبالقرآن كتاباً وتشريعاً هو الذي يجعل منهم أمة العدل والفضل والخيار والعدل والاعتدال من حيث أن القرآن سجل الحكمة الإلهية ضمناً وصراحة، ومن حيث أن الإسلام وسط الأديان وحكمتها تماماً مثل ما كانوا خير أمة أخرجت للناس بشروطه ومواصفاته .

وإذا صرح القرآن في آية مشابهة (الحج ٧٨) بالاجتباء (هو اجتباكم) وقرنه بيسر الدين ونفي الحرج منه ﴿وَمَا جَعلَ عليكُمْ في الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ (الحج ٧٨) ، فهذا يؤكد التلاحم بين الأمة المسلمة المختارة المصطفاة المعتدلة وبين سلامة الدين من الشدة والتشكيك والضعف المبدئي، واعتداله ووسطيته . يقول ابن الأثير : ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب .

وهو اقتران ملحوظ في ذهن كل متفهم للقرآن مدرك القدرة التغييرية الإصلاحية من الأمة الجاهلة الى الأمة الوسط، فهو اقتران ولزوم بين الأمة الوسط والشريعة الوسط، إذ ليس من

---

(١) انظر حديث البخاري تفسير (٤٤٨٧) وما جاء في فتح الباري ١٧٢/٨ وما بعد وما ساقه ابن كثير من الآثار .

الواقع أن يكون كل فرد حكيماً موهبة فليس هذا بالمقدور عادة ولكن من الضروري تعويده على الوسطية في الكسب والاختيار والتعامل فهذا من مسؤليته وكسبه واختياره، وهي تربية معتدلة بعيدة عن التشدد والميوعة والتسيب، وإذ هو اجتباء واصطفاء فإنه بعيد كل البعد عن اجتباء عنصري واصطفاء عرقي لأنه اجتباء الهداية والإصلاح والتعليم (النحل ١٢١) و (يوسف ٦) و (القلم ٥٠)، وعدّ علماء الأصول الآية قاعدة في صحة (إجماع المسلمين لأنهم عدول،فقد عُدِّلوا بقوله (جعلناكُمْ أمةً وسطاً) أي عدولاً، ومقتضى ذلك أنهم عصموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولاً وفعلاً(١) .

يقول ابن الأثير :

وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم من الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذي غلوا بالترهب وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور الى الله أوساطها .

وأما التأويل، فإنه جاء بأن الوسط : العدل وذلك معنى الخيار لأن الخيار من الناس عدولهم(٢) .... وأكّد ابن حجر السبب ذاته لتوسطهم في الدّين فلم يغلوا كغلو النصارى، ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال(٣) .

ثالثاً : الشريعة الوسط : وجعلوا قاعدتهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم (خير الأمور أوساطها)(٤) .

---

(١) فتح الباري ٣١٧/١٢ .

(٢) جامع الأصول ومرّ أقوال مشابهة عن الطبري وابن حجر .

(٣) فتح الباري ١٧٣/٨ .

(٤) ضعفه في جامع الأصول بسبب جهالة أحد رواته ٣١٩/١ (١٠١) وساق معه روايات أخرى تقوّيه،منها : خير الأعمال أوساطها، ولكن السخاوي كما تقدم نقله عن أبي يعلى بسند رجاله ثقات واستشهد على معناه بالآيات القرآنية .

فقد اتخذ علماؤنا هذا الحديث قاعدة كبرى لوسطية الخير بين طرفي الشر، ومثّلوا لذلك بالفضائل جميعها، فالشجاعة كما أشرت فضيلة بين رذيلتين الجبن والتهوّر، والجود فضيلة بين نقيصتين : الشحّ والإسراف، والزواج فضيلة بين شرّين العزوبة وانتهاك الأعراض والتوحيد فضيلة بين إثمين : الإلحاد والشرك، والعدل فضيلة بين الظلم والتشدد . وبالحقّ فإن الحديث قاعدة أساسية في المقياس الدقيق بين الأمور : في الاعتقاد والشعور والتنظيم والعلاقات والمكان والزمان والمصير فقد جعلهم الله أمة وسطاً في كل شيء وجعل خير الأمور أوساطها .

(أمّةً وَسَطاً) في التصور والاعتقاد، لاتغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي، إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح، وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال .

(أمّةً وَسَطاً) في التفكير والشعور ... لاتجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة .. ولاتتبع كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها الدائم : الحقيقة ضالّة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين .

(أمّةً وَسَطاً) في التنظيم والتنسيق، لاتدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولاتدعها كذلك للتشريع والتأديب، وإنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه أو التهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب، وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس الى سوط السلطان، ولاتكلهم كذلك الى وحي الوجدان، ولكن مزاج من هذا وذاك .

(أمّةً وَسَطاً) في الارتباطات والعلاقات، لاتلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولاتتلاشى شخصية الجماعة أو الدولة، ولاتطلقه كذلك فرداً جشعاً لا همَّ له إلاّ ذاته، إنما تطلق من الدوافع والطاقات مايؤدي الى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه، ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات مايثير رغبة

الفرد في خدمة الجماعة، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق .

(أمّةً وَسَطاً) في المكان، في سرّة الأرض، وفي أوسط بقاعها، وماتزال هذه الأمة التي غمرها أرض الإسلام الى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وماتزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً،و تشهد على الناس جميعاً، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا الى هناك ، وتتحكم في هذه الحركة ماديّها ومعنويّها على السواء .

(أمّةً وَسَطاً) في الزمان تنهى عهد طفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدّها عن الفتنة بالعقل و الهوى، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك (١) ...... ووجه الرسول إلى أعظم أمور الوسطية في الذات والعلاقات حين سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جلساءه : أي عُرى الإسلام أوسط؟ قالوا : الصلاة، قال : حسنة وما هي بها، قالوا: الزكاة، قال : حسنة وما هي بها، قالوا : صيام رمضان، قال : حسن وماهو به، قالوا : الحج، قال : حسن وما هو به، قالوا : الجهاد، قال : حسن وماهو به، قال : إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله(٢) . ووسطية الشريعة عدلاً وخياراً تبوئ أهلها أرفع مكان في الجنة .

... فإذا سألتم الله عز وجل فسلوه الفردوس الأعلى فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوق عرش الرحمن عز وجل، ومنه تفجر أو تنفجر أنهار الجنة(٣) .

---

(١) ظلال القرآن .

(٢) أحمد ٢٨٦/٤ .

(٣) أحمد ٣٣٥/٢، ٣٣٩ .

ويمثل الشاطبي(١) للوسطية بالتكاليف الشرعية المختلفة ويقول مؤكداً على التوازن والاعتدال ومنبهاً الى طرق معرفة الوسطية :

الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لاميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على **موازنة** تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة وغير ذلك ....

فإذا نظرت في كلية شرعية فتأمّلها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً الى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر .

فطرف التشديد - وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر - يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين .

وطرف التخفيف - وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص - يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه والمعقل الذي يلجأ إليه .

وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعتبرين في الدين مَنْ عن التوسط فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقّع في الجهة الأخرى، وعليه يجري النظر في الورع والزهد وأشباههما، وما قابلها .

والتوسط يعرف بالشرع وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء كما في الإسراف والاقتار في النفقات .

الوسطية بين طرفين أو أطراف :

- إن الوسطية خير كما قال الرسول في الأمور ذات الطرفين والوسط، فإذا انعدمت الوسطية وبقي الأمر أو المسألة بطرفين فقط فلا تتعلق الخيرية بوسط معدوم إذ لايتعلق الحكم بالعدم . ومن المسائل أوالقضايا التي لاتوسط فيها القيم المطلقة مثل : الحقّ وله طرف واحد يقابله هو الباطل، والخير له طرف مقابل واحد هو الشر، والجمال طرفه القبح

(٤) الموافقات من ٢/٦٨-١٦٣

طرفه الظلام وهكذا ... ولايقال : هذه المسألة لاهي حق ولاهي باطل فهي بين بين، وهذا الأمر لاهو خير ولا هو شرّ فهو بين بين، ومثله الجمال والنور ... كما لايقال هنا : إن المسألة لايتضح فيها حق صريح ولاباطل صريح، ولاخير خالص وشر محقق بمعنى أنه منزلة بين المنزلتين أو بالتعبير النبوي (وبينهما شبهات لايعلمهنّ كثير من الناس)، لأن هذه المنزلة لاتعدو أن تكون – بعد التحقق – حقاً أو باطلاً وكذلك الشبهة فإنها بعد التمحيص والبحث والاجتهاد تؤول الى حق أو باطل .. وكذلك فليس لهذه المسألة علاقة بتعدد الحق الذي قد يعرف في كثير من المسائل العملية والنظرية .

– وفي القضايا النظرية الكلية لاتوسط فيها، أيضاً، فتعلّق الممكن نظرياً في مجاله حكمة الممكن، وتعلق الواجب بالواجبات حكمة الواجب، وتعلق المستحيل حكمة المستحيل، وهذه الممكنات والواجبات والمستحيلات ليس لها أطراف تقابلها وبالتالي ليس بينها أطراف تتوسطها، فهي خارجة عن (الأمور) الثلاثية الأطرف التي صرح بها الحديث وقِسْ على ذلك (اللانهائية) و(الأزلية) و (المثلية) و(الأبدية) و(المطلقة) وفي مقدمتها صفات الخالق الواجبة فليس لكل منها أطراف متقابلات ، وصفات المخلوق حكمة في حقه، وصفات الخالق حكمة في حقه، فلا توسط في الثانية كما لاعبثية في الأولى ولاتدخل ضمن (الأمور) التي صرح بها الحديث .

– وبالتدقيق في نص الحديث وبخاصة في اسم التفضيل (خير) فإذا كان على بابه أي مفيداً التفاضل والتفاوت فإن الفضل والخيرية في التوسط والأطراف معاً إذ هو قدر مشترك بينها وإنما يفضل الوسط لأنه خيرها وأفضلها .. ولكن أي خير في الامساك والإسراف أمام وسطية الجود ؟ وأي فضيلة في التهور والجبن أمام الشجاعة؟ وإذاً فلا يصح التفاضل هنا بين الثلاثة، واسم التفضيل على غير بابه فإنه يفيد مجرد ثبوت الخير للوسطية والفضل لها .

والنسبية هنا خاطئة ومرفوضة فلا يكون التهور مثلاً عند قوم خيراً وعند قوم شراً، ومثله الجبن والظلم والأنانية وعلى العكس : فلا يصح أن تكون الشجاعة حميدة عند جماعة ... ولاتصح قيمة فاضلة عند أخرى . وفي جميع الأحوال والقيم ليس في طرفي التوسط حكمة ولاخير ، وأن القيم المطلقة هي خير أبداً وعند جميع الناس سوى بعض المتفلسفين المنحرفين،

إذ أي حكمة وخير في التهور والجبن والظلم والجشع والأنانية والانعزالية؟ وكيف ترقى البطالة والقباحة والشر والباطل الى مستويات الفضل والحق والخير والجمال والعمل ؟ إن وزن هذه القيم بموازين النظريات الفلسفية المتطورة الأحادية الطرف لايمكن أن تكسو مقاييسها بالمصداقية الخلقية ولا بالنصاعة النظرية الفكرية، ولابالخيرية الحقّة، فهي مطلقة من الطرفية مبرأة من النسبية كما هو معاين في الواقع، ومعروفٌ في تاريخ الديانات والمثل الكريمة، فالقيم المطلقة فضائل في المقاييس الفكرية والموازين العقلية لدى الجميع .

الوسطية والشهادة :

إن اقتران الوسطية بالشهادة في آية واحدة كما أشرت، واقتراب آيتي الوسطية والشهادة من آية الحكمة في نجم واحد ووصلهما معاً بأداة الصلة (الكاف) (كما أرسلنا ...) يؤكد على تلازم القيم الثلاثة : الوسطية والشهادة والحكمة في رحاب (الخير) الذي يحيط بجماعة المسلمين . والشهادة هنا شهادتان : شهادة الأمة الإسلامية المقدمة، وشهادة الرسول على أمته التي هي متقدمة أيضاً على الحكمة في البيان القرآني والأعراف الاجتماعية، وتزيد المسألة وضوحاً بما سبق من معاني الوسطية والعدل والخيارية والفضل والاعتدال والتوسط بين الأطراف المتباعدة فإنها تدخل في شمولية الحكمة ودلالالتها القيمية بالإضافة الى منهجية الوسطية في الاعتدال الذي يعني الحكمة بذاتها باعتبارها موقفاً حكيماً متحرراً من التطرف والمغالاة والتعنت .

وإذا علمنا أن (الاقتران) صيغ بأسلوب السببية والتعليل بأداته (اللام) (لتكُونوا شهداءَ) (البقرة ١٩٣) فإن المسلمين بهذا الاقتران والاقتراب والإطارية يستحقون أن يكونوا رواد العالم في شمولية الأعمال والأفكار معاً، وأنهم بهذه الشهادة خاصة مؤهلون لشهادة الحق والبصيرة والقيادة والمسؤلية، وهي خلال في الشهادة لاتليق إلا بأمة الوسط .

فالمسلمون يحملون الحق الناصع من خلال الحقيقة الإلهية والكونية والشرعية والأدبية العامة وهو حق رباني إنساني مبرأ من التزييف والانحيازية والتبعية فهم أحق بالشهادة . وهم إذ يدركون قيمة هذا الحق وأهميته في الحضارة فإنهم الأقدر على معرفته وبيانه وترسيخه والحكم به وعليه . والمسلمون يتعاملون مع الكونية على أسس هذا الحق الذي يقول

بمخلوقية الكون وتسخيره لمنفعة الإنسان المخلوق أيضاً والإفادة من طاقاته الظاهرة والباطنة والخاضع لشهادة المسلمين، فهم أدنى صلة بالكونية والإنسانية لأنهم يدركون من كتابهم المقدس ومن كتاب الآيات الكونية أنهما وسيلتهم للعلم التجريبي ومصدر لنعمة الله وشكره، فهم الأصدق بالشهادة والأليق بها لأن ظلال العدالة ينبغي أن يرفَّ على الجميع . والمسلمون بشهادتهم على الأمم عبر التاريخ قادرون على تمييز الأمة بانية الحضارة والأمة المهدمة لها مثل قدرتهم على أخذ العبرة والعظة من الأمتين فهي شهادة الحق عبر الزمان السحيق .

وهي شهادة حقّة عبر المكان الفسيح والواقع الذي يشمل الأرض على رحابتها فيقتبس من خيرها الحكمة لأنهم أجدر بها . والمسلمون يلتزمون بالشرعية التي تضع الحقوق في نصابها، والكونية في مجالاتها، وتحفظ العلاقات السوية بين الأفراد والمجتمعات، وتخاطب العالم بلغة التشريع الحكيم وليس بلغة القوة الطاغية، وبالأنظمة الرائدة وليس بالتعسف والطغيان، والمسلمون إذ يقدّرون أهمية الشهادة في ترسيخ الحق والشرعية يفكرون ما يفكرون ويعملون ما يعملون في إطار المسؤلية التي تتعاظم في نفوسهم وقتاً بعد وقت وحالاً بعد حال، وهم في كل وقت وحال يقدرون عظم التبعات الملقاة عليهم ويتحرجون في أن يتزيدوا فيها لحسابهم وأن يستكثروا منها على حساب الآخرين،والمسلمون بواقع تاريخهم وعالمهم وتصوراتهم أجدر بقيادة العالم المتناثر في أطراف المعمورة والذي يحمل شعارات تطبق أحياناً لمصلحة دولة قوية أولاً لتقوم بوزن الأمور بموازين مختلفة فمرة بميزانين ومرة بأكثر .

إن شهادة دولة أو دول، مهما بلغت قوية عملاقة على سائر الدول مطعون بها لأنها إذ لاتحمل الحق ولا الحقيقة ولا الشرعية ولا المسؤلية فإنها تتربع على قيادة العالم بالسلطان العسكري والمالي والتقني المادي ، ومهما انفردت دولة أو جماعة من الدول بقطبية هذه الشهادة لتدفعها أن تنظر الى الحق بمنظارها وتعمل بالحقيقة لصالحها وتتحمل في ذلك (مسؤليات) مكشوفة فإن هذا يزيدها استعلاء وتمادياً لا من أجل أنها تجذب الى قطبيها دول صغرى وحده وإنما من أجل تزييف الحق والحقيقة وتسخيرهما وفق المصالح والأهواء.

وإن قيادة المسلمين وبمقتضى هذه الشهادة ليست تعاظماً واغتراراً وليست استغلالاً مصلحياً وأنانية، وليست استكباراً في الأرض ولافساداً،و إنما هي قيادة الحق المتمثل في أفكارها، وقيادة الحقيقة المركوز في معارفها، إنها هيمنة التشريع والعدالة والمسؤلية ورقابة الله التي تنشئ الوازع الفردي والاجتماعي، وتربي مظاهرهما وسلوكياتهما وفق الآداب الإسلامية وأخلاقياتها السامية .

فإذا كان المطلوب من الشاهد بالحق وللحق عموماً أن يكون أميناً صادقاً عادلاً ثقة عارفاً بالشهادة فإن شهادة الأمة الإسلامية تأخذ صفات الوعي الدقيق والمعرفة اليقينية، شهادة التمييز الهادف وشهادة الصدق والتقويم، وشهادة الواقع النزيه المستقيم، وشهادة الحقيقة التي يبنى عليها مصائر الأمم الأخرى في الدنيا والآخرة، وهي من وجوه أخرى شهادة الاعتزاز والتمجيد والكرامة والفضل . فأين نحن من هذه الشهادة ؟ وأين منا تلك الصفات السامية التي تبوئنا أن نكون شهداء على الناس ؟

* * * * *

حكمة السخرية ...... والقرآن

إذا كان من أدب القرآن الزجر عن السخرية بقصد التعيير والتحقير فإنه ينبهنا وفق حكمته الى أن مقابلة الساخرين وبخاصة يوم القيامة مشهد بارز فيها ﴿إنْ تَسخرُوا منّا فإنّا نسْخَرُ مِنْكُمْ كمَا تَسخرُون﴾ (هود٣٨) فإن جزاء كل سيئة بمثلها . والسخرية من الآخرين لايقصد بها مجرد الإضحاك منهم لسبب خلْقي وإنما هي لمواقف التعنت والهزء من الدعوة الإسلامية ودعاتها، وإن التشفي من الهازئين المتسلطين بأسلوبهم ونمط تصرفهم حكمة القوة للضعيف، وحكمة العزة للمستذل حتى لايستمر الطاغوت في عنفوانه ولايبقى المستضعف على هوانه وضعفه .

في السخرية فن وفلسفة وأدب : فقد عُرف عن ابن الرومي نظراته الساخرة التشاؤمية ومحاولة إضحاك الناس من صوره الطريفة التي تبرز قباحة بعض الأعضاء لإظهار الشذوذ فيها عن طريق تضخيمها والهزء منها على طريقة الرسم الهزلي (الكاريكاتور)،فإن أجمل ما في الحديث المبتسم يصوّر بالقرد يقهقه أو العجوز تلطم .

وإذا أشارَ محدثاً فكأنَّه   قردٌ يقهقهُ أو عجوزٌ تلطمُ

والأنف الطويل جداً يتجاوز البلدان والبقاع :

لكَ أنفٌ ياحبيبي   أنِفتْ منهُ الأنوفُ
أنتَ في الشامَ تصلّي   وهوَ في البيتِ يطوفُ

والمعري أعمق نظرة وأغنى ثقافة من أبي حيان التوحيدي الذي اقتبس بعض صوره من أستاذه الجاحظ حيث نضح ما في نفسه من التبرم وقلّة ما في اليد، وشقائه في حياته، وعقده النفسية على الآخرين، وقد ظهر ذلك جلياً في كتابه : مثالب الوزيرين : ابن العميد وابن عباد ، فقد وصف التوحيدي ابن عباد على لسان ابن العميد بقوله : أحسب أن عينيه ركبتا من زئبق، وعنقه عمل بلولب ... ثم يقول مستشهداً بصورة قرآنية : كان الصاحب ينشد وهو يلوي رقبته وتجحظ حدقته، وينزي (يدلي) أطراف فكيه ويتسايل ويتمايل كأنه الّذي

يتخبَّطهُ الشَّيطانُ منَ المسِّ[1] .... ومع ذلك فقد قال (مايرهوف) عنـه : إنـه أديـب نحـوي وفقيـه متكلـم أكثر منه فيلسـوف، وسـواء كـان هـذا فنـاً أو فلسـفة أو فنـاً فلسـفياً فـإن (موسوعية) التوحيدي تؤهله لمثل الصور المضحكة من وزير له قيمته السياسـية حينـذاك وفي بلـد عـاج بالثقافـات (الـري وخراسـان) . وقـد يجنـح التوحيـدي في أجوبتـه الى التهكـم والاستهزاء الخفي، ومن ذلك ما رواه عن الصاحب هذا أنه سأله يومـاً، يـا أبـا حيّـان، مـن كنّاك أبا حيان، قلت : أجلُّ الناس في زمانه، وأكبرهم في وقتـه، قـال : ومـن هـو ويلـك ؟ قلت: أنت، قال : ومتى كان ذلك ؟ قلت : حين قلت يا أبـا حيـان ! فـأضْرب عـن هـذا الحديث وأخذ في غيره على كراهة ظهرت عليه[2] .

ويذكرنا فـن التوحيـدي الأدبـي والجـاحظ قبلـه - خاصـة بفلسـفة الضحـك الـتي وصفهـا الفيلسوف (برغسون) بأنها قائمـة علـى فكـرة (التصلـب الآلي) أو إذا شئـت فعلـى فقـدان المرونة الحيوية التي تلزم المرء أن يكيـف تصرفاتـه وحركاتـه حسـب مقتضـى الحـال، وهـذا مايعطي الضحك في رأي برغسون قيمة اجتماعية .. فإن كل نقص في المرونة، وكـل عجـز عن مسايرة الظروف المفاجئة، أو كل تصلب آلي، مدعاة للضحك، والضحك يعـدّ سـلاحاً بيد المجتمع لردّ الناس الى الجادة السوية، ومنبهاً للنشاط الراكد، ورادعاً للشذوذ عـن أنظمـة المجتمع فهو أداة الكمال المطلق[3] ...

ولكنه الجانب الاجتماعي الإصلاحي الذي يغفل الجانب الفردي المتجذر في نفسية العـالم أو الأديب المتشائم الساخر المتبرم من الفقر والعوز والشقاء، إلى جانب ما عرف مـن التعويـض الاجتماعي والسياسي في نفث الفكاهة الساخرة في أوقات الأزمات والشدائد .

فالفكاهة الفكرية الراقية لايمكن أن يأتي بهـا إلاّ الأذكيـاء ولايدركهـا إلاّ الأذكيـاء، ويتفـق الفن مع الفكاهة في أن كليهما متعة وسرور، وفي أنهما لايهدفان إلى غاية اجتماعية ظـاهرة وأن التهذيب بوساطتهما ناشئ من طبيعتهما الاجتماعية، ويرجع السبب في أن عباقرة الفـن

---

(١) رسائل أبي حيان التوحيدي ١٤٦ وما بعد من دراسة د/ إبراهيم الكيلاني في المقدمة .

(٢) مثالب الوزيرين ٢٠٤ .

(٣) من مقال د/الكيلاني السابق في الرسالة (٧٩٠) للعام ١٩٤٨ بتصرف طفيف .

ممن يجيدون الفكاهة أدباً أو تصويراً، إلى أن الفكاهة والفن من معين واحد . وقالوا : الفاكهة ثمرة الأرض والفكاهة ثمرة العقل(١) .

وهي فكاهة تنصب على الجسم عامة وعلى الوجه خاصة مما يذكرنا بسخرية القرآن المقترنة بالتخويف والتنفير من السلوكات المنحرفة حين يتحدث عن المنافقين في جسومهم كأنهم خشب مسندة (المنافقون ٤٥) وعن وجوه الكافرين الغبراء السوداء المرهقة ......

إن السخرية والتندر من عضو وجهي مكبر كما سبقت الإشارة إليه كثير في مجال الوصف والذم والإقذاع، فانظر الى هذه الصورة التي قالها أبو الفرج الأصفهاني : ... ثم خرجت من الخوخة لحية حمراء يتبعها رجل .. ولعل محرر آخر ساعة نظر إلى هذا عندما كتب منذ سنوات طويلة في الحديث عن رجل من رجال السياسة كان معروفاً بطول شاربيه : ثم خرج من السيارة شاربان يتبعهما رجل(٢) .

ثم انظر الى الحركة المتصلة والمستمرة حين :

نقل الأصفهاني عن بعضهم : طلعت علينا عجوز عوراء متكئة على عصا يصفّق أحد لحييها على الآخر .

وتظهر السخرية في المواقف الحرجة وبين يدي كبار المسؤلين الذين يحسن الساخر التخلص منها ومن إحراجات متوقعة : فقد ذكر عن بشار – وهو من الشعراء المقذعين – أنه كان بين يدي المهدي ينشده قصيدة امتدحه فيها، فدخل عليهما يزيد بن منصور الحميري، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد، وكانت فيه غفلة، فقال له : ياشيخ، ما صناعتك؟ فقال : أثقب اللؤلؤ، فضحك المهدي، ثم قال بشار اعزب (ابعد) ويلك، أتتنادر على خالي؟ فقال : ما أصنع به؟ يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته .

وقد يكون التهكم من القصّاص واضعي الحديث، فقد مرّ بشار بالبصرة بواحد منهم قائلاً : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة صحنه ألفا فرسخ في مثلها،

---

(١) السابق للدكتور إبراهيم ناجي .

(٢) من محاضرة د/كامل الكيلاني : الرسالة (٧٧٢) للعام ١٩٤٨ .

وعلوه ألفا فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها . فالتفت بشار الى قائده فقال : بئست والله الدار هذه في كانون الثاني .

وقد تكون السخرية من شكر في غير موضعه، فقد مرّ بشار برجل قد رمحته (رفسته) بغلة وهو يقول : الحمد لله شكراً، فقال له : استزده يَزدْك(١) .

وبمناسبة (الأضرّاء) ذوي البصائر فقد ذكر أن (أبا العيناء) الفكاهي الساخر من ظرفاء العصر العباسي (٢٨٣ هـ)، قد بلغه أن المتوكل قال : لولا أنه ضرير لنادمناه، فلما بلغه ذلك قال : إن أعفاني من رؤية الأهلّة ونقش الفصوص صلحت للمنادمة، وكان هذا باعثاً على إرسال المتوكل في طلبه، وصدق الله العظيم : ﴿فإنّها لاتعمَى الأبصارُ ولكنْ تعمَى القلوبُ الّتي في الصدورِ﴾ (الحج ٤٦)، وكان يتطاول على بعض الوزراء مثل أحمد بن الخصيب الذي ألف في ذمه كتاباً حكى فيه : أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا في مجلس وكل منهم يكره ابن الخصيب لما فيه من الفرامة (عي اللسان وغباوة الفهم) والجهالة والتغفل فتجاذبوا أطراف الملح في ذمه ... حتى قال أبو العيناء آخرهم : كان ابن الخصيب إذا ناظر شغب، وربما رفس من ناظره إذا عجز عن الجواب، وخفي على الصواب، واستولت عليه البلادة، وعري كلامه عن الإفادة، وكان إذا دنوت منه غرّك، وإن بعدت عنه ضرّك، فحياته لاتنفع، وموته لايضر(٢) .

ونقل الأصبهاني عن (السيد) الحميري اسماعيل الشاعر المشهور أن رجلاً متسلطاً مستغلاً مذهبياً منحرفاً جاءه فقال : بلغني أنك تقول بالرجعة، فقال : صدق الذي أخبرك، وهذا ديني، قال: أفتعطيني ديناراً بمئة دينار الى الرجعة؟ قال السيد : نعم وأكثر من ذلك إن وثقت لي بأنك ترجع إنساناً، قال : وأي شيء أرجع ؟ قال : أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً فيذهب مالي . فأفحمه(٣) .

---

(١) الأغاني ج٣ عند ترجمته وانظر أخباراً أخرى .

(٢) نقله د/صبحي الصالح في الرسالة (٧٧٢) للعام ١٩٤٨ م عن معجم الأدباء وتاريخ بغداد .

(٣) الأغاني ج٧ عند ترجمته .

وإن استفزاز الأديب الفكاهي الساخر قد يثير الضحك والإضحاك وذلك بما يقرِّع به ذهن مخاطبه بالتنبيه الى البديهيات . ومن طرائف (جحا) نصر الدين التركي أنه سمع فقيهاً يتلو الآية هكذا (فخرّ عليهمُ السقْفُ منْ تَحتهمْ) فانتفض جحا غاضباً، وصرخ فيه متعجباً : إذا فاتك النص ياهذا فلا يفوتنك الذوق، كيف استقام في ذهنك أن يسقط عليهم السقف من تحت ؟ قلْ : من فوقهم، لا أبا لك(١) .

واشتهر عن فيلسوف السخرية الإنكليزي المعاصر (برناردشو) مثل هذه الإجابات المفحمة في أسلوب السخرية المتفلسفة تتجاوز الاعتبارات المالية والاجتماعية . قال برناردشو لبعض اللوردات وقد قال له : إنك تبغي المال من رواياتك ، قال برناردشو : وماذا تبتغي أنت من أعمالك ؟ قال : الشرف ، قال : كل منا يسعى في طلب ما ينقصه .

وقد تكون السخرية من نفس الإنسان لنفسه بالصورة التي لاتخلو من مبالغة مقبولة ضاحكة، فقد قال الشاعر :

وصرتُ أنسى الطّرس في راحَتي وصرتُ أنسَى أنّني أنسَى

وإذا كان في السخرية فن وأدب و حكمة فلا بد أن يكون أهلها من الحكماء والأدباء والظرفاء وأحياناً من القضاة، ولابد أن ينطقوا بالحكمة الساخرة والجادة وإن غلب على بعضهم الأولى . ومن أشهرهم في فن الظرف والحكمة (الجحوان) .

الأول : دجين بن ثابت اليربوعي البصري، رأى أنساً وروى عن أسلم، وروى عنه عدد منهم ابن المبارك ووكيع وعبد الصمد، كان فتى ظريفاً، وكان له جيران مخنثون يمازحونه ويزيدون عليه، قال عباد بن صهيب : حدثنا أبو الغصن جحا - وما رأيت أعقل منه . وقال كاتبه : لعله كان يمزح أيام الشبيبة، فلما شاخ أقبل على شأنه وأخذ عنه المحدثون(٢).

---

(١) من مقال د/ الكيلاني في الرسالة سابقاً .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/١٥٤ تحقيقي، ومن مصادره : أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي من ص ٢٥، وحياة الحيوان للدميري ١/٢٧٣ والمعاجم اللغوية في مادتي : دجن ، جحا .

فهو جحا المعروف بظرفه وأرومته العربية وأستاذيته لعدد من شيوخ المحدثين غير أن الناس تزيّدوا عليه ووضعوا عليه روايات وأخباراً ملفقة ونسبوا إليه ماكان وما لم يكن مما لايليق به شيخاً عاقلاً محدثاً .

الثاني : الأستاذ نصر الدين التركي الأناضولي ظهر تقريباً في أوائل القرن السابع الهجري في عهد السلطان أورخان وامتدت حياته الى عصر السطان (يليديرم بايزيد) أي (الصاعقة يزيد) . وعاش ٦٠ عاماً أو يزيد الى أن توفي ٦٨٣ . وصحب تيمورلنك الطاغية كما تدل بعض الروايات، وكان فيما يقول مؤرخوه، أمة وحده : كان يتمثله بعض مؤرخي الأتراك فيلسوفاً حكيماً، يمزج الفكاهة بالجد، ويعرف كيف يخاطب الناس على قدر عقولهم، وكان آية من آيات الذكاء وخفة الروح . وكثيراً ماتخللت نصائحه طرائف عالية من الدعابات الحلوة والنكات المستعذبة واللطائف المستملحة، ولكن يكن كما تخيله (العامة) مهرجاً ولامتبذلاً ولا أبله ولا مخبولاً ولا ... كما توهموه ، عاجزاً عن التفريق بين الخير والشر . وكيف يكون ذلك وقد شهد علماء الأناضول أنه كان لهم في العلم إماماً يقتدى به، وعالماً ثبتاً، وقطباً من أقطاب الحكمة والفلسفة ... وكان يحلو له السياحة والتجوال مشياً على قدميه، ولم يعرف عنه ميل الى التزلف، ولا نزوع الى الخبث، ولم تؤثر دعابته ونكاته في مكانته الرفيعة بين معاصريه، ولم تقلل من احترام الأهلين له ومحبتهم إياه وهذا ينطبق على أبي الغصين أيضاً ولكن تاريخ جحا التركي الحربي والسياسي - فيما يقولون - حافل بجلائل الأعمال، وقد ختم بسفارة رسمية سياسية في بلاد الكرد (كردستان) فنجح فيها أيما نجاح . وتدل أخباره أنه لقي من ضروب الامتحان وتعرض لأزمات كثيرة لقيها بثبات وثقة خليقين بأمثاله من كبار النفوس ... وقد ولي القضاء في آق شهر (البلد الأبيض) وملحقاتها، وكان يخطب في (سيوري حصار) وقد عرف عنه أنه كان جريئاً لايتهيب أن يدعو الأمراء والولاة والحكام الى طاعة الله والتمسك بأهداب الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وأقرأ ابن السلطان كتاب (الهداية) ووقفه على دقائقه وجلا له غوامضه . ولن يؤخذ هذا الرجل الصالح بما فرط منه من زلات في جلّ نشاطه ومستهل فتوته، فقد أقلع عنها وتم له التنسك بعد اكتمال عقله ورجولته، وقد ختم حياته بالوعظ

وتدريس علوم الدين . قالوا : وساعدته على ذلك بديهة حاضرة وكياسة نادرة ونكتة مستعذبة ودعابة محببة(١) .

السخرية المعاندة بدلاً من الحجة والبرهان :

- فقد سخر فرعون ومن قبله بالأنبياء وأتباعهم واستضعفوا قواهم حتى كانت السخرية منهم عاملاً قوياً في إضعاف الأتباع وتأليب مرضى القلوب عن دينهم، فيعمد الساخر أن يهزأ بالأفكار الجديدة والتصورات غير المألوفة مثل مايبرر للطغاة في المال والعشيرة احتواء هذه الأفكار والتصورات لئلا تنتشر بين الأتباع وذلك بإضعاف العزائم وتوهين القوى للنضال من أجل الحق وإساءة الفضائل، فكثيراً ما كان المعاندون يسخرون من أنبيائهم بأخذ جوانب الضعف في حياتهم إن كان لها وجود .

والسخرية في مواجهة الحقائق عبث طفولي لايليق بالمعالجات الفكرية الجادة، وباستنفاد الوسائل المجدية يتقدم الساخرون بالأساليب المجدبة التي تحاول تحطيم مسيرة التقدم الفكري والخلقي .

فمنذ عهد نوح تُقابل النبوات بالسخريات من شخص النبي ومما يقدم عليه من وسائل وأعمال، وعندئذ لابد من أن تردّ السخرية بمثلها ﴿وَيَصنعُ الفلكَ وكلّما مرَّ عليهِ ملأٌ مِن قَومِهِ سخِرُوا منهُ قالَ إِنْ تَسْخرُوا منّا فإِنّا نسخرُ منْكُمْ كمَا تَسْخرُونَ﴾ (هود ٣٨) ويلاحظ هنا ومع تكرار السخرية ثلاث مرات أن سخرية المؤمنين هي ردة فعل وليست فعلاً منشأً، كما يلاحظ سفاهة الكفار وجهلهم بعواقب الأمور وتعويض ذلك بضحكات لاتثني المؤمنين عن تصميمهم، حتى وإن تكررت السخريات من قوم بعينهم أو من غيرهم فإن هذا لايوهن من العزائم شيئاً .

والضعف النفسي الذي يظهر من سلوكيات طفلية لايقتصر على قوم نوح وإنما يشمل الكافرين في مواقفهم الفكرية والعقائدية، فبدلاً من أن تقدم حجة ويدحض برهان فإن الوهن النفسي يستعيض عن ذلك بأشياء لاتقدم ولاتؤخر باستثناء شيء واحد وهو إعجابهم بما هم عليه من زينة المال وعظمة الجاه والتزين الخادع العام ﴿زُيِّنَ للّذينَ كَفَرُوا

---

(١) من مقال د/كامل الكيلاني . الرسالة (٦٨٤) للعام ١٩٤٦ .

الحياةُ الدُّنيَا ويَسخَرُونَ مِنَ الَّذينَ آمنُوا والَّذينَ اتَّقَوا فوقَهُمْ يومَ القِيامةِ واللهُ يَرزقُ مَنْ يشَاءُ بغيرِ حِسابٍ﴾ (البقرة ٢١٢)، وقد وجّه القرآن المسلمين الى بطلان هذه القاعدة النفسية وطلب منهم الإعراض عن هذه الترهات والاستجابة لنداء الواجب وبذل المال مهما كان قليلاً فلا يعبأوا بلمزِ الكفار ولابسخريتهم، وحين يعلن القرآن أن الله يسخر منهم فيضع من شأنهم ويذلّ عزّتهم ويضعف شأنهم لرفع شأن المؤمنين وإعزازهم وإعلاء دعوتهم فإن (حكمة) السخرية الإلهية تتجلى في تأييد المؤمنين الفقراء والأغنياء خاصة ﴿الَّذينَ يَلمِزونَ المطَّوِّعينَ منَ المؤمنينَ في الصّدقاتِ والَّذينَ لايجدونَ إلاّ جُهدهُمْ فيسخَرونَ مِنهم سَخرَ اللهُ منهمْ ولهمْ عذابٌ أليمٌ﴾ (التوبة ٧٩)، وهي سخرية تتجاوز الأموال الى مظاهر الرفاه والزينة عموماً والمتغلغلة في الحياة الدنيا التي يعطيها الله للناس بغير حساب (البقرة ٢١٢) .

ويتطاول إفك اليهود على الله فيطرحون عليه أقبح صفاتهم وهي أشنع صورة يمكن أن تصوَّر وتقال (المائدة ٦٤) فالله الذي أعطاهم الكثير هو بنظرهم وإقذاعهم المتطاول بخيل مغلول اليدين، ولكن سوف لايغنيهم مالهم الكثير الذي سيطوقون به يوم القيامة في أقوى صورة منفرة مقابل الصورة اليهودية الآثمة ، (آل عمران ١٨٠) و (النساء ٣٧) ، وبذلك يبررون تهرّبهم من الوفاء بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام . وكذلك بادعاء إفكهم عن الله أنه فقير فالله يسمعهم ويعاقبهم عليه (آل عمران ١٨١) . وهو سوء أدب مع الرسول الذين كانوا يتحاورون معه، وسوء أدب مع الله خالقهم ورازقهم، وكذب في تعلاتهم وتبريراتهم، ومواساة للمؤمنين الصابرين المقلّين .

وهي إذ تعبّر عن ضعف الحجة وفقدان البرهان فإن قدمها ينبئ عن تمسك الإنسان القديم بها . وذلك حين يعوزه المنطق وتضيع منه الحقيقة، وينسحب هذا على كل من أغلق عقله وأوهن حجته فانحرف عن الهداية الى مجرد الهزء والاحتقار (الأنعام ١٠)، ومن أحقر سخريات المعاندين سطحية تفكيرهم في كيفية خلقهم وتطور نشأتهم وحياتهم . إنهم يردون ذلك بالسخرية مع أن المسألة جدّ معجبة، وإن توالي تذكيرهم بالأنعُمِ الأخرى يدعهم يستمرون في العناد ويبالغون بالسخرية بدلاً من أن يتفكروا ويعتبروا ، وفي الأصل فإن أية قضية معجبة تتطلب نشاطاً ذهنياً وعزماً ماضياً، فإذا قوبلت بالهزء فإن المفارقة

واضحة بين السموّ والانحدار، وبين المؤمنين الذي يرتفعون بأمانيهم وقضاياهم والكافرين الذي يسفون ويهبطون ﴿بلْ عَجبتَ ويَسخَرُونَ﴾ (الصافات ١٢) .

وتبعاً لذلك فإن الفعالية النفسية عند هذه القضايا تتحفز للالتزام بها والعمل بمنافعها، أما أن يبالغ الآخرون بالسخرية وليس سوى السخرية فلا يغنيهم ذلك مهما تلونت أساليب السخرية وأوهمت بالقبول والقناعة ﴿وإِذَا رَأَوْا آيةً يَستسْخِرُون﴾ (الصافات ١٤) .

– **الحكمة الساخرة** (عروض ومراجع و أطر)(١) : وهي إعلان الله للجاحدين بأسلوب التشهير والتنكيس والإنكار وإنزالهم منازل المؤمنين في اللفظ الموحي بأنهم ليسوا على شيء، فحين يقال للقاتل مثلاً : ما أسمى جريمتك وما أرقى ما أقدمت عليه وإنك عندنا في مقام عالٍ ومنزلة سامية،فإن في تسخيف مثل هذا المنكر حكمة الردع عن اقترافه بين الناس.

وحين يقال للمهمل أو العاطل عن العمل : ما أنشط عملك، وما أجداه على المجتمع وأنت العنصر الفاعل في تقدمه والمحرك المفيد، فإن في مثل هذا القول حكمة الزجر عن هذه الآفة .

وحين تصف الغبي بالذكاء والبليد بالعبقري فإن في تسخيف هذه الآفات رفعاً لأقدار الأذكياء والعباقرة وتوهيناً لأحوال الأغبياء والبُلد، وإذا وصفت الخائن بالأمين والمرائي المنافق بالمخلص، والجاهل بالعليم، والدخل بالأديب اللامع والعيي بالفصيح فإنك لاتقلب القيم وتعكس المحالّ والألقاب وحسب وإنما تعلن عن بُعد هذه القيم عن مواضعها، وتحث بصورة مباشرة وغير مباشرة على الأمانة والأخلاق والعلم والأدب . ومثل هذه المفارقات تظهر عوار المثالب وتدع الآخرين يسخرون من هذا العبث وقد يضحكون، والقرآن الذي يضع الحق في نصابه فإنه يضع الباطل في نصابه أيضاً، ويزيد في التندر عند إسباغ صفات وأفعال ما يليق إلى مالا يليق، وما يستحق الى ما لا يستحق، إمعاناً في التشفي ودعماً للموقف الضعيف في مسيرة الدعوة الإسلامية .

في العروض :

ففي خطاب الإهانة يذكر العلماء عند قوله :

---

(١) انظر مادة (الضحك) ودلالتها على السخرية في كتابي : الظاهرة الجمالية في القرآن ص ٥٤.

﴿واسْتفزِزْ مَنِ استَطعتَ منهُمْ بصوتِكَ و أجْلِبْ عليهِمْ بخيلِكَ ورَجلِكَ وشاركهُمْ في الأموالِ والأولادِ وعِدْهُمْ وما يَعِدُهمُ الشَّيطانُ إلاّ غُروراً ◆ إنَّ عِبادِي ليسَ لكَ عليهِمْ سلطانٌ وكفَى بربِّكَ وكيلاً﴾ (الإسراء ٦٤،٦٥)، أنه ليس هذا إباحة لإبليس وإنما معناه أن ما يكون منك لايضرّ عباده(١) .

وأضيف أنه إهانة لإبليس أيضاً وإن لوّح بالمغريات وأكثر الوعود وتحقير لقواه وأحابيله أمام قوة المؤمنين وثباتهم، وإهانة للمستجيبين له الذين يقوون به ويغترون بمغرياته ووعوده .

– وفي صيغ التهكم خطاباً وإخباراً بالبشائر المعكوسة والاسترواح القاسي والنزل المنفر القبيح يعرض القرآن جملة من البيان الإلهي العجيب، وغالباً ما يعرض ذلك في صيغة أمر رباني مغاير لمألوف الناس وعادة العربية . فلنتصور هذه الأوامر والإخبارات وقد خرجت عن أساليبها المعتادة لتزيد في العذاب النفسي والمادي وتغلظ القول بالمعنى المضاد وتشفي صدور المؤمنين المستضعفين .

– فمن ذلك :

(البشارة) بالعذاب الأليم في آيات عديدة منها ﴿فبشِّرهمْ بعذابٍ أليمٍ﴾ (التوبة ٣٤) وآكلوا الأموال بالباطل والصادّون عن سبيل الله والكانزون الذهب والفضة لهم البشرى بالنار وإنها لمفاجأة متهكمة شديدة، وقريب منها (النزل) في (الواقعة ٥٦ و ٩٣) فإن (النزل) لغة: هي ما يقدَّم للنازل تكرمة له قبل حضور الضيافة . وقريب منها (ظلال) الحميم (الواقعة ٤٣) لأن الظل من شأنه الاسترواح واللطافة، فنفى هنا، وذلك أنهم لايستأهلون الظل الكريم(٢) .

– ولايقتصر على التهكم بهم والسخرية منهم بالخطاب أو الإخبار وإنما ينكر عليهم مواقفهم ويندد بهم في أسلوب الاستفهام الإنكاري . مثل قوله ﴿وهَلْ نُجازِي إلاّ الكَفورَ﴾ (سبأ ١٧) فجزاء الله واقع بالمعاندين لامحالة .

– وتبلغ السخرية أقصاها حين يقول الله ﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كانُوا يَفعلوُنَ﴾ (المطففين ٣٦) فإذا به (ثواب) كريه مؤلم يسيء صاحبه بإيحاءاته المعبرة أكثر مما يناله من العذاب

---

(١) (٢) البرهان في علوم القرآن ٢/٢٣١-٢٣٣ .

المهين الشديد، وهي صورة ساخرة للذين كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين ويتغامزون بهم .

قضايا ومراجع وأطر ساخرة :

وإذا تتبعنا المسلك القرآني في التلميح عن حكمة الحياة والأحياء، وحكمة الأعمال والمصائر، وحكمة المواقف والعواقب وأخيراً حكمة الحكمة فإننا نجد رصيداً كبيراً في التلوين الخطابي لمراعاة مقتضى أحوال الناس قاطبة ومنهم المكذبون والجاحدون وهم شريحة خطيرة في المجتمع تتطلب معالجات متنوعة حكيمة، ومنها :

الحواس المعطلة والمنحرفة موضوع للسخرية :

- إن تقدير القرآن للعقل والتفكير لايعدله شيء سوى تقديره لمنافذهما ووسائلهما التي أخذت تفصيلاتها حيزاً كبيراً منه، فهي من أغزر المواد القرآنية وبخاصة الوجوه والرؤوس أشكالاً وأنواعاً من حيث أن فطرتها نعمة بل ونعم لايجوز تعطيلها ولا انحراف صاحبها بها. ولخطورة مسؤليتها جعلها الشاهدة على صاحبها يوم القيامة (النور ٢٤) ولذا فقد استحق المعطلون سخرية القرآن لأنهم حرموا من حكمة خلقها ومنافع استخداماتها، والسخرية اللافتة للنظر هي وجود هذه الحواس وعدم وجودها معاً فهي موجودة خِلْقَة ومهيأة للخير وظيفة ولكنها معدومة الفعالية بحيث تقرّبها من العدمية . فاليد الباطشة والرجل الماشية والعين العمياء والأذن الصماء والصوت الناعق تقرّب أصحابها من البهائم فإذا بها تصوت من غير إدراك وتحس من غير تفكير (البقرة ١٧١) ، هكذا في صورة عجماوية خرساء صماء تثير الضحك والسخرية الى جانب ما تنبه فيه الى انحطاط صاحبها الى دركات البهيمية . وإن شبه هذه القدرات بالحواس الحيوانية مثير في النداء والخطاب والعلاقات لمزيج من التبكيت والإسفاف والحيوانية حتى أضحوا ﴿كَأَنَّهمْ حُمُرٌ مُستنفِرَةٌ ◆ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المدثر ٥١،٥٢) وأشبهوا بالكلاب إن تحمل عليها تلهث أو تتركها تلهث (الأعراف ١٧٦) وإذ إن السخرية قلبُ الإنسان الى حيوان من جهة التغيير الوظيفي للقدرات الإنسانية فإنها أيضاً الإعجاب الحسي بجماليته الحيوية أبهى من الإعجاب المادي

بجماليته الباردة الجامدة (المنافقون ٤) فهي خشب مسندة معطلة المواهب الحية والقدرات الإنسانية المميزة .

الهداية الى جهنم :

- أوَ لا يبلغ التحقير شأوه المرّ ومقصده الكريه حين يحصر هداية الله للكافرين بطريق جهنم خالدين فيها أبداً ؟ وهل من الحكمة هداية هؤلاء بسبب ظلمهم وكفرهم ؟ حتى وإن ورد ذلك بصيغة الأمر بالهداية ﴿اهدُوهُمْ إِلى صِراطِ الجَحيمِ﴾ (الصافات ٢٣) فإن ذلك على طريقة الاستخفاف وأسلوب السخرية .

ماذا تنقمون منا ؟

- إن الفضيلة كرامة الإنسان والرذيلة انحطاط بهذه الكرامة فإذا رفع المسلمون لواء الفضيلة وعاب أهل الكتاب ذلك عليهم وأظهروا كراهيتهم لهم فإن مثل هذه النقمة لامحل لها فهي نابية في مقياس الفضائل والرذائل، فالإيمان لأيُعاب صاحبه ولا ينقم على معتنقه فكيف يتجرأ الآخرون على التعيير والتعييب ﴿قُلْ يا أهلَ الكِتابِ هلْ تنقِمُونَ منَّا إلاّ أَن آمنَّا با للهِ ومَا أُنزلَ إِلينَا ومَا أُنزلَ مِنْ قَبلُ وأَنَّ أكثرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة ٥٩) والمشكلة أن النقمة صادرة من (أهل الكتاب) الذين علمهم الله الفصل بين الفضيلة والرذيلة والإيمان والكفر، ومع ذلك فإن أكثرهم فاسقون، ومن أكثرهم شراً وأعظمهم وزراً أولئك اليهود الذين لعنهم الله وغضب عليهم حتى جعل عملهم هذا في (ثواب) خاص بهم (مثوبةً عندَ اللهِ) (المائدة ٦٠) إنها قلبٌ للحقائق وتنكيس شائن للقيم وإعلاء للباطل (المثاب عليه) .

نفاق على نفاق :

ومثلهم المنافقون الذي (ما عابوا على الإسلام شيئاً إلا لأن الله والرسول أغنى المؤمنين) بسببه ومن فضله حيث أغدق عليهم من الغنائم (التوبة ٧٤) . فالاستزادة من الخير خير وتعقب خيراً، ومن الشر شرٌ وتعقب شراً، فهي في الخير تكامل له واستشراف لمواقعه وتأثير طيب في نفسية صاحبه، أما الاستزادة من الشر فهي مزيد من الطغيان والكفر والاستعلاء . هذا هو الأصل وهذه هي الفطرة أما أن تنقلب الأمور وتنعكس الأحوال فهو سقمٌ في الطبيعة البشرية ومرض نفسي ينبغي علاجه . فالمطلوب من أهل الكتاب إقامة التوراة

والإنجيل في حياتهم والعمل به طبقاً لما أنزله الله، وكل آية قرآنية ينبغي أن تنمي إيمانهم وتثري أعمالهم أما أن تزيدهم إثماً وشراً فهو أقصى الانحراف وأشد التأثيم، ولذا يستحقون الحزن والإشفاق ﴿وليَزيدَنَّ كَثيراً منهمْ طُغياناً وكُفراً﴾ (المائدة ٦٨) إن تراكم السوء يبعد صاحبه عن ينابيع الخير وأصالة البرّ، ويجعله في مستنقع الرذيلة يستمرئها ويعتادها وينغمس فيها .

الموسرون والمجهدون :

– وهكذا فقد أعقب الله المنافقين ﴿نِفاقاً في قُلوبِهمْ إلى يومِ يَلقَوْنَهُ بمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وبِمَا كانُوا يكْذِبُون﴾ (التوبة ٧٧) فاستحقوه بسبب تعييبهم للمتبرعين بأموالهم إن كانوا أغنياء و بالنزر من أموالهم إن كانوا فقراء مجهدين، وبسبب ما كانوا ينالونه من هؤلاء وهؤلاء من جريح القول والفعل والغمز واللمز والاستهزاء ، وأن يسخر الله منهم ويجازيهم، وأن يكشف أحوالهم ويفضح سترهم ويعرّيهم أمام الناس أخيارهم وأشرارهم ﴿الَّذينَ يَلمزُونَ المطَّوِّعينَ منَ المؤمنينَ في الصَّدقاتِ والَّذينَ لايجدونَ إلاّ جُهدهُمْ فَيسخرونَ منهمْ سَخِرَ اللهُ منهمْ ولهمْ عذابٌ أَليمٌ﴾ (التوبة ٧٩)، فالقيمة في روح البذل والعطاء أكثر من كميته وحجمه، فإن القيمة في التضحية والفداء أبقى من التكاثر والتفاخر (التوبة ٩٧-٩٩) إنها الأمثولة الخالصة من شائبة الجنوح المادي ومشاركة وجدانية وعملية للمقلّين والمكثرين في التضحية والفداء .

المطر والغيث :

– والمطر في اللغة : ماء السحاب .. ويوم مُمْطِر، ومَاطر ومَطِر : ذو مطر ، ولكن حيث يرد : أمطرهم الله فلا يقال إلا في العذاب كما ذكر صاحب القاموس . و(الغيث) وهو خير السماء في التعبير القرآني الأثير ينقلب إلى عذاب مصبوب في الوقت الذي يتطلعون فيه الى رحمة الله بإنزال (المطر) عليهم وعلى زروعهم ودوابهم . فقد أهلك الله (هوداً) بإمطار الحجارة السجيل (الأعراف ٨٤) و (هود ٨٣) وغيرها ... وخصّ القرآن بالذكر قريتهم سدوم (الفرقان ٤٠)، وخصّ تعطشهم لرحمة الغيث حين رأوا سحابة فظنوها ممطرة بالرحمة والخير (الأحقاف ٢٤)، وفي هذا تحذير شديد للكفار المتجبرين في أيام الرسول الذين طلبوا

منه أن يكون مطرهم حجارة قاتلة هازئين بقولهم إن كان القرآن حقاً، (الأنفال ٢٢) فالعذاب لا يأتيهم بطلبهم ولا وفق أهوائهم .

نتائج غير متوقعة :

- ففي الأصل إن وقوع الخير يتوقع منه الخير، وهذا مما يطمئن النفس، ولكن حين يتحول هذا التوقع الى الحزن والعداوة فإن ذلك مما يورث الإحباط واليأس المرير، وعلى الأقل يربك الآخرين ويحيرهم في وقت وحال يفتقر فيهما الى الرحمة والطمأنينة، وهذا ما وقع لفرعون وزوجه حين وجدا موسى في تابوته، وكان قد عزم على قتل الصبيان في سنته، فكانت العاقبة على غير ما توقعا ﴿فَالتقطَهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهمْ عَدواً وحَزناً إنَّ فِرعونَ وهَامانَ وجنودَهمَا كانُوا خَاطئينَ﴾ (القصص ٨) وذلك حين واجههم موسى فيما بعد بالدين التوراتي الجديد، وأضحى رمزاً لصراع الحق مع باطل فرعون . وقريب منه في المعنى والزمان ما كان يسخر أهل (مدين) بشعيب في وصفهم له بالحلم والرشد (هود ٨٧) فكانوا لايتوقعون منه غير الأناة والعقل والحكمة ما عاش فيهم وفي حمايتهم ومنعتهم (هود ٩١) . وكذلك صالح أخو ثمود بعد أن طلب منهم عبادة الله وحده وذكّرهم بنعمة الإنشاء من الأرض واستعمارهم فيها، فإنه كان (مرجوّاً) بين قومه قبل دعوته (هود ٦١).

<u>طلبات وأوامر غير مألوفة ولا معقولة :</u>

- فقد أمر الله بالكفر تهديداً، والتمتع بالزينة استدراجاً (العنكبوت ٦٦) و (الروم ٣٤) والعمل بأقصى ما يمكن للكائدين أن يعملوا ويكيدوا فإنه فاشل (الزمر ٣٩) و (فصلت ٤٠) وقبلهما (الأنعام ١٢١-١٢٢) بالنسبة لخطاب قوم الرسول، و (هود ٩٣) بالنسبة لأصحاب مدين كما أشرت، وهو لايفترق كثيراً عن طلب الكفار من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن يعمل على دينه وهم يعملون على دينهم، أو يعمل على إبطال أمرهم وهم يعملون على إبطال أمره ﴿فاعمَلْ إنّنَا عَاملُونَ﴾ (فصلت ٥) وفي كلا الأمرين تهديد ووعيد يقصد منه الإقلاع عن الكفر ولزوم الاستقامة والعمل على خير الناس، وهو قريب أيضاً من الصورة الترددية التي عرضها القرآن في حوار الرسول مع قومه في الهداية أو الضلال ﴿وإِنّا أو إِيَّاكُمْ لعلَى هُدىً أوْ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ (سبأ ٢٤) . إن أمر الله بالكفر تهديد منه،

وتلميح أن الكفار لايأمرون إلاّ بالكفر، وإن أشد مكر الخائنين ومكائدهم هي في علم الله وقوته وقدرته، وأن الإقلاع عن هذا وذاك يرسخ قيم التوحيد في الحضارة المثلى .

وعد ووعد! :

- وللتمكين في الأرض سنن، ولتدمير الحضارة عوامل، وهي ليست على مزاج شخص أو فئة، ولاحسب دعوى إنسان أو وعوده، فالله لايمكّن للمؤمنين إلا بعد ترسيخ معاني العبودية ومظاهرها في الله وحده، وتجذير معاني الحرية والاختيار في النظر والقول والتصرف المشروع، وهذا لايتحقق بالقول والشعار والإعلام، وكذلك فإن تخريب العمران لايقع إلا بعد الفساد المستشري والإذلال المزري ونكوص القوى المبدعة، ومهما تعجّل بعض الناس العذابَ المدمّر فإنه لابدّ من أن يأتي في سننه لايتخلف عن ذلك (الحج ٤٧) وقريب منها (يونس ٥١) و(العنكبوت ٥٣) وغيرها . وهو وعد بسوء العاقبة وطرد المنافقين والمنافقات والكفار من رحمة الله (التوبة٦٨) في مقابل وعد قريب للمؤمنين بالجنة الخالدة والرضوان الأكبر لهم (التوبة ٧١) .

ألوان من الاستمتاع :

إن استعجال المكذبين العذاب سخرية به وهزءاً بالرسول يدعهم يظلون يأكلون ويتمتعون ويلههم الأمل وينسيهم استغراقهم بالمفاسد ذكر الحق وقول الحق، وعندئذ يقع عليهم الدمار ﴿مَاتَسبِقُ مِنْ أمَّةٍ أجلَها ومَا يَستأْخِرُونَ﴾ (الحجر ٥) فالعاقبة الحسنى (عاقبةُ الدارِ) بالتعبير القرآني لابد من أن تكون في علم الإنسان والتاريخ (الأنعام ١٣٥)، وفي ذلك العظة والعبرة، وفي التهديد به حكمة الله ورحمته بالناس عموماً وبالمسلمين خصوصاً ﴿إنَّهُ لايُفلِحُ الظّالمونَ﴾ الآية السابقة . وإن التمتع المغرور والتلذذ السراب والإغراق في زخرف النعيم تغليب الماديات على الروحيات، وإخلال بتوازن العناصر الحضارية وأسسها وأنشطتها، وشلّ لفعالية التمكين والتثبيت، فقد صرّح القرآن بالتمتع المنسي ذكر الله حتى كان أصحابه قوماً بوراً (الفرقان ١٨)، وهو تمتع (بهيمي) قائم على إشباع الحاجات الدنيا (محمد ١٢)، وتمتع زعامي ﴿استمتعَ بعضُنا ببعضٍ وبَلغْنا أَجَلَنا الَّذي أَجَّلْتَ لَنا) (الأنعام ١٢٨)، واستمتاع آبائي أبنائي (الزخرف ٢٩) و (الأنبياء ٤٤) واستمتاع أممي (هود ٤٨)

واستمتاع بالكفر (الزمر ٨) واستمتاع بالجهل والغفلة (المؤمنون ٥٤) . إنها متع ضالّة ولذاذات منفعة لا تغنيهم عند الله بشيء (الشعراء ٢٠٧) ومهما أمر الله بها ودعاهم إليها فإنها متع زائلة ولذاذات الى حين وعندئذ تصبح الحياة كل الحياة (متاعاً) قليلاً (آل عمران ١٨٥-١٩٧)، بينما يمنّ الله على المسلمين بالمتاع الحسن بعد الإقلاع عن الذنوب (هود ٣) متاع بالأرض وما عليها وبالبحر وما فيه، متاع الحضر والسفر، متاع الرزق والخيرات (المائدة ٩٦) و (النحل ٨٠) و (النازعات ٣٣) و (عبس ٣٢) وغيرها .

إن حكمة الله تقتضي في استمتاع الناس بالنعم السماوية والأرضية التي تزيد في تمكنهم وتقوي من عزائمهم وترفع مستوى بصائرهم الى خالق النعم والعزائم .

الإمداد والإمهال والإملاء :

- وقد يكون الاستمتاع محدوداً ولكنه غني بعناصر القوة المادية المؤقتة كما أسلفت فإن الله يمهل الضالّ ولايهمله، ويستدرجه ولايستأثر به مهما استحوذ على إمدادات الضلالة ﴿قُلْ مَن كانَ في الضَّلالةِ فَليَمدُدْ لهُ الرَّحمنُ مَدًّا﴾ (مريم ٧٥) وعندئذ يحب المستمتعون ما يكرهه الله ويظنون أنه الخير ويكرهون ما يحبه الله ويظنون أنه الشر، فالإكثار من المال والأولاد ليس وحده مسارعة في الخيرات دائماً ولاحظوة وحيدة لهم عند واهب المال والأولاد وإنما هو فقدان الإحساس بحكمة الإمداد والإمهال وانعدام الشعور بالمستقبل المظلم الذي ينتظرهم من حيث يشعرون ولايشعرون ﴿أيحسبُونَ أنَّمَا نَمُدّهمْ بهِ مِن مَالٍ وبنينَ ◆ نُسارعُ لهمْ في الخَيراتِ بلْ لايشعرونَ﴾ (المؤمنون ٥٥-٥٦) .

إن قدر الله يضحك منهم ويسخر بهم ويتخذ منهم ضحكة وهزءاً مهما اشتدوا وطغوا وأُمدوا ﴿اللهُ يَستهزئُ بِهمْ ويَمدّهمْ في طُغيانِهمْ يَعمَهُونَ﴾ (البقرة ١٥) وهو يترك لهم فرص العودة إليه والأوبة الى رحابه فلا تفجأهم إنذاراته ومصائبه . أما المؤمنون فهم الذين ﴿يُسارِعونَ في الخيراتِ وهُمْ لهَا سَابقُونَ﴾ (المؤمنون ٦١) وهكذا تصب إنذارات الله ومصائبه فيهم فلا تغنيهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً .

- وارتبط (الإمهال) والوعيد خاصة بأوائل السور المكية، فقد طلبت سورة (المزمل) الصبر على قول المكذبين وهجرانهم هجراً جميلاً، وقريب منه ما صرحت به سورة الطارق بفشل

كيدهم وإحاطة الله تعالى بهم والطلب من الرسول بإمهالهم قليلاً (الطارق ١٧) بينما استمر (الإملاء) في حملته الشعواء في السور المكية والمدنية معاً، وربطه بالكيد المتين في (القلم ٤٥) و (الأعراف ١٨٣) وعدّه (سنة) غابرة للرسل وأممهم، ومن ثم عاقبته المحققة في الإهلاك السريع الخاطف الذي لايبقي ولايذر (الرعد ٣٢) ونبّه الى تأثير الشيطان في التسويف القاتل (محمد ٢٥) بالنسبة لمعاصري النبي صلى الله عليه وسلم ولمن سبقهم الذين تجرؤوا على رسلهم ودعواتهم (الحج ٤٤) فهو إهلاك بعد إنذار، وخراب بعد استشراء الظلم، وإذ هو سنة عامة لجميع القرى المتأبية عن الهداية، الواغلة في الجحود والعداء فإنه (أخذ) شديد ودمار شامل (الحج ٤٨) . وإن مثل هذه الصراحة المنذرة المتوعدة لابد أن تنفي من أذهانهم شبه رعاية الله لهم بالخيرية الموهمة، فإن كل ما يحيط بهم من مرافق النعمة والرخاء يغدو نقمة وشدة، وحسبهم ذلك عظة وعبرة (آل عمران ١٧٨) ، إنهم لايستحقون أن يوقظهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء فلا يريد بهم خيراً وقد اشتروا الكفر بالإيمان، وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه فلم يستحقوا أن يوقظهم الله من هذه الغمرة - غمرة النعمة والسلطان - بالابتلاء . (ولهمْ عذابٌ مهينٌ) فالإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء وهي أبلغ موقف السخرية التي تبعدهم عن إنسانيتهم التالفة وعقولهم المغلولة.

<u>تهكم في المراجع (الله، الكتاب، العهود)</u>

وهو تهكّم يعرض بغير تعقيد ولاتركيب، وإنما يفحمهم بطرح سؤال تلو سؤال عن مصدر عنادهم وجحودهم وسخريتهم في أسلوب لا جوابي، أو ليس له إلا جواب واحد، إنه أسلوب لفظي نفسي يبرز انقطاع التواصل الفكري المقنع في تراكيب ساخرة اللفظ حكيمة المضمون، فهو يتهكم (بالحكم) الصادر من الحاكم (يونس ٣٥) الذي يتطلع الى عدالته الناسُ عادة فإذا به فاسد المظهر والمخبر والقرار، و(بالكتاب) المدروس الذي يعكف عليه الباحثون والدارسون ليكشفوا عن أسراره وفوائده ومراميه ولكن الحقيقة لادراسة ولا دارسين . وكذلك تهكم (بالعهود) الموثقة التي أخذها الجاحدون من الله أن يعينهم على المؤمنين ويقويهم عليهم ويجعل مصيرهم كدنياهم مترعة بالسعادة والنعيم من غير أن يفكروا

أن هذا مناقض للعدالة الربانية والجزاء العادل (البقرة ٨٠) و (يس ٦٠)، و (بالمشاركين) من الناس الذين (يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه .. ويعني أن أحداً لا يسلّم لهم هذا ولايساعدهم فيه، كما أنه لاكتاب لهم ينطق به و لاعهد لهم به عند الله، ولازعيم يقوم به) كما قال الكشاف (القلم ٣٦-٤٧) .

ويقول الظلال :

والسؤال الاستنكاري (في آيات القلم) ﴿أَفَنجعلُ المسلمينَ كالمجرِمِينَ﴾ .. هو سؤال ليس له إلا جواب واحد .... لا لايكون .... ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر ﴿مَالَكمْ كيفَ تَحكمُونَ﴾ ماذا بكم، وعلام تبنون أحكامكم، وكيف تزِنون القيم والأقدار حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون . ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل الى التهكم بهم والسخرية منهم ﴿أَمْ لكمْ كتَابٌ فيهِ تَدرسوُنَ ♦ إِنَّ لَكمْ فيهِ لَمَا تَخيَّرُونَ﴾ فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه، هو الذي يستمدّون منه مثل ذلك الحكم الذي لايقبله عقل ولاعدل وهو الذي يقول لهم إن المسلمين كالمجرمين، إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون، وهو لا يرتكن الى حق ولا إلى عدل ولا إلى معقول ولا إلى معروف ... فإن لايكن ذلك فهو أن تكون لهم مواثيق على الله، سارية الى يوم القيامة مقتضاها أن لهم ما يحكمون، وما يختارون وفق ما يشتهون، وليس من هذا في شيء فلا عهود لهم عند ا لله ولا مواثيق ...

وكل ذلك ضمن مراحل (الاستدراج) الذي ينبه واحدهم الى العواقب الوخيمة مهما كان العطاء وفيراً ، إذ متى كان الإمداد رعاية والعطاء له حباً وكرامة ؟

إن خيانة المراجع المتقدمة وقلبها عن صلاحيتها يبعدهم عن الحكم الصالح والكتاب المدروس والعهود الموثقة والمشاركين الذي التحق كثير منهم بالإسلام، وعندئذ تتحول هذه المراجع الأمينة الى مصادر السخرية والإضحاك منهم وهم مغلوبون على أمرهم محبطون في تصورهم وأعمالهم، منهزمون في نفوسهم وقدراتهم .

رؤوس الكفر محقّرون :

وأخيراً فإن مثل هذه الصيغ المفاجئة يمكن أن تطال رؤوس الكفر وصناديده متجاوزة القوى المادية التي كانوا يعيشون فيها من وفرة مال وكثرة أولاد وسلطان عشيرة، ومتجاوزة الواقع الضعيف البائس الذي كانت تحياه الدعوة الإسلامية والمؤمنون المهانون .

فها هو أبو جهل المرعب المزبد المنتفخ الذي كان يقول : ما بين جبليها – يعني مكة – أعز و لا أكرم مني ... تنقلب عزته الى ذلة، وكرامته الى مهانة فيذوق نار جهنم مخاطباً بذلك من الله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أنتَ العَزيزُ الكَريمُ﴾ (الدخان ٥٠) فهل شيء أقبح ذوقاً من العذاب لمن كان عزيزاً كريماً أو يظن نفسه ذلك ؟

وحتى أبو لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم نسباً ولكنه من أشدهم ضراوة وعداوة لايستطيع أن يفلت من تهكم القرآن الى يوم القيامة . إن اسمه عبد العزى وكنيته أبو عتيبة وإنما سُمي أبا لهب لإشراق وجهه، فحين يكنيه الله بهذه الصفة التهكمية ويدعو عليه أو يخبر عنه إزدراء وتنقصاً بقول ﴿تَبَّتْ يَدا أَبي لهبٍ وَتَبَّ﴾ فإن حكمة التعبير تبلغ مداها وفعاليتها ، فما أقسى خسارته وخيبة مسعاه وضلال عمله وهو ذو الوجه النضر والإشراقة الوردية اللماعة.

في أطر الحكمة الساخرة وأهدافها :

إن عرض حقائق الهداية والمسؤليات ووسائل التبصر والإدراك والقوى العقلية والروحية، ومن ثم مصائر الناس في أساليب معكوسة وخطابات مضادة، للسخرية بالقوى الطاغية والضحك من عنفوانها وسطوة أصحابها تتحرك في أطر أربعة : فهي تؤذن بعدمية هذه القيم في نفوس المخاطبين، وتلمح الى أنهم لايستحقون أن يخاطبوا بكريم القول ولطيف الخطاب، والأهم من ذلك تصوير مواقفهم المغرورة وشخصياتهم المتعالية بما يضحك حيناً ويتحسر عليها حيناً آخر، فليس لهم حظوة الطائعين المنيبين، وأهم من هذا وذاك تنفير المؤمنين من مثل غرورهم وصلفهم، وحثّ لهم على التماس القيم الإنسانية النبيلة التي يستحقون به الخطاب التكليفي الكريم في الوقت الذي يقدم القرآن بلسماً لجراحات المستضعفين المكلومين لتطييب قلوبهم وتسلية عذابهم وتحفيز لهم وصبرهم على إيذاءات

الشرك والمشركين . وهذا واضح بأن السخرية ليست من أجل السخرية، والإضحاك لايقصد به مجرد الإضحاك وإنما هو تربية بانية للمسلمين للإعراض عن سخافات المشركين وتهافتهم ومن ثم إقدارهم على الالتزام بالفضائل، وإرسائها في مجتمعهم من غير أن يعيروا انتباهاً الى تعطيل المستهزئين وتوهين فعالياتهم .

إن صور المكذبين والمنكرين والمنافقين، وتصوير المؤمنين من خلال الرؤية الكافرة والمقالة المكذبة تعرض في مشهدين كبيرين أو على مسرحين رحبين، مشهد الحياة ومسرحها الساخر الكبير الذي تشخّص فيه المعايير والأشخاص لابقصد الإضحاك والتحقير وتنكيس الشخصيات بقدر ما يقصد منه الدرس النافع والإقلاع عن الفاسد، والتوجيه السديد في أسلوب التهكم والإهانة والتوبيخ، وهو ذو أثر فعال بهم مثل أثره الأعظم على المستضعفين من المسلمين، ومشهد أكبر في مسرح الحياة الآخرة الأرحب حيث تنتهي إليها المشاهد كلها فلا يكتفى أن تعرض أحداث الخزي وصور أشخاصها أمام المسلمين الباهتة الواهنة وإنما تضاد المواقف وتنقلب المشاهد فيمكّن الله للمؤمنين الذي يهزئون بالكافرين كما هزئوا بهم معلنين ذلك ﴿... فَإِنَّا نَسخرُ مِنكمْ كمَا تَسخرُونَ﴾ (هود ٣٨) ، وهو عذاب نفسي قد يفوق عذاب الجسم، وتذكير لهم بمهانة المصير بعد أن ساهموا في تثبيط العزائم وتحقير المواهب من الجانب السلبي، وإعلاء معنويات المسلمين وتجاوز المعوقات للبناء الحضاري من الجانب الإيجابي الذي يستقي المسلمون له نشاطاتهم وفعالياتهم الحضارية من كتابهم الحكيم المجيد .

* * * * *

حكمة التعليل والسببية .... والقرآن(*)

ألوان من مسالك الحكمة والتعليل والسببية

تمتزج الحكمة بالتعليل كما أشرت، إذ تشتمل العلل والأسباب حِكَماً ظاهرة أو ضمنية في المسائل التشريعية والفكرية، حتى يصعب التمييز أو التفريق في مسائل كثيرة من الحياة والأحياء، أهي حِكَم أو علل وأسباب، وهي مسألة هامة جداً تضعنا أمام اختيارات القرآن التعليلية الحكمية الجديرة بأن تفرد بالدراسة المستفيضة . ولا أدلَّ على ذلك من صراحة القرآن بالِحكَم المقترنة بأدوات التعليل وطرق العلة ومسالكها، أو تلاؤم الحكمة مع موضوعها والتعليل مع معلوله والسبب مع مسببه حتى يتخذ القرآن لذلك أسماء كالمصادر التي تدل على (المفاعيل له) مثل : تذكرة، وحذر، وقياماً، وخوفاً، وطمعاً ... إلى جانب حروف المعاني وأدوات التعليل : مثل فاء السببية ولام التعليل، وكي ، ومن أجل ... ونبرز أربعة مواطن (طرق) استخدمها القرآن معللة ومحكمة ثم نفرد فصلاً خاصاً بأدوات السببية والتعليل المتضمنة الحِكَم الصريحة والخفية .

أولاً : حكم وتعليلات في مشروعية الصوم : وآيته (البقرة ١٨٥)

فقد جمعت هذه الآية أكثر مما جمعته آية أخرى من الحكم والتعليلات في مسالك عدة ضمن مقاطع حكمية جزئية وكلية مجردة من حروف التعليل .

- فمن الحكم لأهمية رمضان سوى نزول القرآن فيه أنه هداية للناس كل الناس الى الخير، ودليلهم الى النور فهو (هدى) للناس، وهو أيضاً بيّن الخير واضح المنافع جلي النور، مفرق الحق عن الباطل، إنه (بينات) من الهدى والفرقان، فلا تأويل بهدايته ولا محاجة بفرقانه، وفي مشروعيته صوماً عزيمة، وإفطاراً رخصة يسر وسهولة وسماحة واستشعار برحمة الله بعباده فهو يريد بهم (اليسر) ولايريد بهم العسر .

(*) أخّرنا هذا النوع من الحكمة لارتباطه النحوي والبلاغي وأصول الفقه بأرباب الاختصاص، فله خصوصيته .

- ومن التعليلات بالفاء قوله ﴿فَمنْ شَهدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَليصمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَو عَلى سفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أَيامٍ أُخَرٍ﴾ فهي ثلاث فاءات تفيد السببية والتعليل، فإذا كان رمضان شهر القرآن هدى وبينات فلا بدّ من صومه في الفاء الأولى والثانية، وإذا مرض المسلم أو سافر فله الرخصة في الثالثة . فما قبل الفاءات أسباب وعلل وما بعدها مسبَّبات ومعلولات، وواضح أن علّة الفطر في رمضان بسبب السفر وليس بسبب المشقة، مثل الإباحة بالفطر بسبب المرض، كما صرح به العلماء .

- ومن التعليلات (باللام) قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فهما لاما التعليل تفيدان السببية والتعليل أيضاً كما هو واضح، فالمفطر رمضان عذراً لابد له من أن يكمل فيما بعد عدة صومه، فلا يضيع عليه أجرها، وهذا من أجل تعظيم ا لله وتكبيره وتقديره حق قدره، وهو مقصد من مقاصد التشريع عموماً، إذ أن قدر ا لله العظيم يتجلى فيما يتجلى في التشريع العظيم الذي يستوفي حاجات الإنسان الدنيوية والأخروية .

- ومن التعليلات الأخرى بـ (على -لعل) وهي غايات ومقاصد تشريعية عامة نص الله عليها في قوله (عَلَى مَا هَدَاكُمْ) أي بسبب هدايته إياكم، ومثلها في (الزمر ٥٦) ﴿ياحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ أي بسبب ما فرطت وقصّرت في واجبات الله، وكذلك الرجاء المعلل في قوله (ولعلَّكمْ تَشكُرُونَ﴾ فتشريع الصوم نعمة تستحق الشكر وتؤدي إليه مثل ما تستحق التكبير وتؤدي إليه .

- ومن الحكم العامة في التشريع كما أشرت إرادة التيسير والسهولة والسماحة، فهي غاية تشريعية كبرى وإن وردت عقب مسألة الصوم فإنها القاعدة العامة والمقصد الشامل الذي غيّا الله به الإسلام كله فهو ميسر لهم لا عسر فيه، وأحكامه محكمة بالسماحة التي تطبع حياة المسلم في كل مجالاتها باليسر والتخفيف وليس بالتعقيد والتشديد، حتى في التشريعات التي تبدو فيها مشقّات مثل الصوم والجهاد والحج فإن فيها من التيسير ما يمكنها أن تستظل بظلها الرحيم الوارف .

إن حُكْماً واحداً هو الصوم في آية واحـدة أخـذ حِكَماً خاصـة وعامـة وتعليـلات بـأدوات متعددة لإقناع العقل بأحقّيته وتربية النفس على استيعابه والالتزام به تربية جامعة بين الفكـر والعاطفة والعمل .

ثانياً : حكم وتعليلات في مسائل عديدة وباسم واحد :

وهو غالباً(مصدر)تبدو منه الحكمة أو السبب باعتبـاره (مفعـولاً لـه) ، ومـن ذلـك (التذكّـر والذكرى)، الذي يرتبط بمسائل إلهية وبشرية في ممارسة الإنسان لحرياته واختياراته لمواجهـة الدعوات والعقائد وفي أعقاب التاريخ وأحداثه الـتي هـي خـير العبر والتذكـير، وبخاصـة في إنشاء الحضارات وهدمها، وهذا يعني تنبيه الذهن البشـري الى المـاضي والحـاضر والمستقبل والإفادة من دائرة الزمـان والمكـان المترامية . إن الارتباطـات التذكيريـة في صميـم الظـاهرة القرآنية ومهمات الرسل ودعوة الرسول خاصة، معالم الطريق الحق الذي اختاره الله هدايـة للناس، وهذا يعني أن كل حدث لابد له من مقصد حكيم وعلـة تُظهـر جديـة الحيـاة الدنيـا لمواصلة المسيرة الحضارية من غير مثبطات أو معوقات . وفي البداية لابدّ من تقديم ملاحظـة هامة هي أن (الذكريات) غالباً ما وقعـت أو عـبّرت عـن الحكمـة والتعليـل أو عـن حكمـة التعليل، بذاتها بوضعها التركيبي الجملي وكما اصطلح عليه النحاة . فـالمفعول لـه أو لأجلـه أو من أجله يصاغ من المصدر الذي يشعر بالعلّية، ومن شروطه كونه علة لأنه الباعث على الفعل سواء كان المفعول له منصوبـاً حـين استيفاء شـروطه الخمسـة أو جُـرَّ بحـرف الجـر الخاص بالتعليل مثل (من) في قوله ﴿ولاتَقْتُلُوا أَولادَكُمْ مِن إِملاقٍ﴾ (الأنعام ١٥١)، والنـهي عن الوهن في ابتغاء القوم (النساء ١٠٤)، وهبوط الحجارة من خشـية الله ولأجلـه (البقـرة ٧٤) والتعليل واضح في سورة (قريش) من مطلعهـا، فـإن التصريـح ﴿لإِيـلافِ قُريـشٍ﴾ في رحلتين أظهرت فضل الله عليهم حتى طلـب الله منهـم ﴿فَلَيَعبـدُوا رَبَّ هَـذا البيـتِ الَّـذي أَطعمَهمْ مِن جُوعٍ وَآمَنهمْ مِن خَوفٍ﴾ والمعنى كما ذكر صاحب التصريح(١) : إن نِعَم الله لاتحصى فإن لم يعبدوه لسائر نِعمِه فليعبدوه لأجـل إيلافهـم رحلـة الشتـاء والصيـف اللتـين

(١) التصريح ١/٢٣٤ وما بعد

كانوا محترمين فيهما لأنهم خَدَمة بيت الله بخلاف غيرهم فإنهم يُخاف عليهم من القطاع والمنتهبين .

– وفي الرسل عليهم السلام الذين أكثرَ القرآنُ من قصصهم ومواقفهم الدعوية وقيادتهم الإنسانية الى الخير كانوا حَمَلة هذا الحوار والإقناع فكانوا يبشرون وينذرون ويذكّرون، وإن جميع قصصهم ومواقفهم (تذكير) لهم ولمن يأتي بعدهم، حتى في إهلاك الله المعاندين (الشعراء ٢٠٩)، وإذا خلّصهم الله من النقائص ونقّاهم من العيوب فصرفوا جميع جهودهم في طاعة الله والدعوة إليه، فإن (ذكرى) الآخرة والعمل لها تؤكد هذا الخلاص والنقاء،فهم المصطفون الأخيار (ص ٤٦،٤٧) ، وخصّ (أيوب) عليه السلام بالتذكير لأولي الألباب باعتباره قدوة في الصبر الجميل الذي يتوقع منه الفَرَج (ص ٤٣) . وكان بنو إسرائيل وارثي التوراة التي تذكرهم بنِعَم الله وتهديهم صراطه المستقيم (غافر ٥٤) فنكلوا وجحدوا كما نكل أجدادهم من قوم نوح فجعل الله غرقهم بالطوفان ﴿تَذكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (الحاقّة ١٢) .

– وفي الرسول محمد عليه الصلاة والسلام تبدو عملية التذكير قطب الإسلام ورحاه ومهمته في الدعوة والتبليغ، وإن أمر الله له بالتذكير الذي ينفع المؤمنين (الذاريات ٥٥) وخصّه في أزمان النفع وحالاته (الأعلى ٩) يرتبط أعظم الارتباط بتربية الله وتأديبه له أن يحسن لقاء ابن أم مكتوم في أسلوب يجمع بين التهذيب والعتاب (عبس ٤)، وإذا وضع الله رسوله في إطار التذكير ووصفه أنه المذكّر وأن الإسلام تذكرة للمؤمنين فإنه أراد أن يصون العقول من طغيان الأهواء وظلم المتجبرين .

– ومن أجمل (الذكريات) ما ارتبط منها بالأرض التي يعيش عليها الإنسان ويمرُّ بها فيتأمل مجاليها ويتذوق جمالياتها . فقد كانت مشاهد الطبيعة الآسرة وبدائع أحداثها خير تذكير وتنبيه للدوافع الجمالية التي تتجلى في إنزال الأمطار ومسالك الينابيع، وإخراج النبات مختلفاً ألوانه نابضاً بالحياة ثم يذبل ويصفر وييبس، ثم يتفتت في دورات متكاملة متلاحقة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (الزمر ٣١) . وهو خطاب للرسول (أَلَمْ تَرَ) ولكن آيات (ق ٦–٨) تعاتب الناس جميعاً وتحثهم (أَفَلَمْ يَنظُرُوا) وتوسع آفاق النظر حتى يشمل بناء السماء

وتزيينها، ومدّ الأرض وإرساءها وإنبات الأصناف البهيجة(ق ٨) ﴿تبصِرَةً وذِكْرَى لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾ . إن القرآن نوّع العروض والحجج (ليذكّروا) (الإسراء ٤١) و (الفرقان ٥٠)، وهو إذ يخاطب عقولهم تذكيراً فإنه يضع أعظم قاعدة في الحوار الديني البنّاء في كتاب أنزله الله على رسوله، ولذا فلا ينبغي أن يتحرّج الرسول منه فهو لأجل إنذار المعرضين وذكرى للمؤمنين (الأعراف ٢) ، إنه التلاوة الأولى فلم يتلُ الرسول من قبله من كتاب و لم يخطّه، وهو البينات في صدور الذين أُتوا العلم، وهو الردّ الفكري على المتعنتين الطالبين آيات ومعجزات مادية، إنه رحمة ﴿وذِكرَى لِقومٍ يُؤمنُونَ﴾ (العنكبوت ٥١) فقد نزل ﴿تذكِرَةً لمنْ يخشَى﴾ (طه ٣) وللمتقين (الحاقّة ٤٨) ولذا فيعجب القرآن من إعراضهم (المدثر ٤٩). والذكرى أو التذكير في الاطار العقلي إذ تكرم العقول فإن وصف القرآن بها نقلة كبيرة في آفاق المنطق والحكمة والحوار .

ثالثاً : تعليلات في الأسماء : وتشتمل على المصادر (المفاعيل له) وبعض المشتقات كاسم الفاعل والصفة المشبهة .

١- المصادر : وهي إذ تأخذ صور المفاعيل له فإنها قادرة على ضغط حالات نفسية وعقدية واجتماعية وتشريعية في لفظة واحدة حتى تبرز في صيغ القوة في الأداء والمضمون الدالة على جملة من المعاني المتشابكة .

ومن المصادر الواردة في سياق الحكمة والتعليل (افتراء) (الأنعام ١٣٨) في مسالة الذبائح وغيرها ، و(تضرعاً وخُفْيةً) (الأنعام ٦٣) و (الأعراف ٥٥) في مقام الدعاء لله الآني، و(تضرعاً وخِفَيةً) (الأعراف ٢٠٥) في مقام ذكر الله ومراقبته ، و(بطراً ورئاءَ النَّاسِ) (الأنفال٤٧) في مقام التربية العسكرية والتوعية النفسية المبرأة من حظوظ المادة ورغبة الثناء، و(تبصرةً وذكرَى) (ق ٨) في مقام التفكير العلمي والجمالي المطلوبين بعد إيجاد مواقع العلم والجمال ووسائلهما و(قياماً للنَّاسِ) (المائدة ٩٧) في خصوصية البيت الحرام حيث كان سبباً لقيام مصالح الناس الذين يجاورونه أو يحجّون إليه ، و(حياة) (البقرة ١٧٩) في الآثار الحميدة لإقامة الحدود من الأمن ورعاية الحقوق وإحقاق العدل والنصفة ، و(خوفاً وطمعاً) (الأعراف ٥٦) توجيه من الله ألاّ يفسد الناس في الأرض بعد إصلاحها وأن يدعوا الله

خائفين من عذابه طامعين في رحمته، ويستجيب المؤمنون لهذا التوجيه فيلتزمون بعبادته في أوقات ترغب الأبدان فيها إلى الخلود الى الراحة والنوم داعين الله، و(خوفاً وطمعاً) (السجدة١٦)(١) ، في آية ثانية تنبيه للأحداث الكونية الكبيرة كالبرق والرعد فإنهم بين الرجاء والحذر والرغبة والرهبة والخوف والطمع (الرعد ١٢) و (الروم ٢٤) . وهو الذي يسوق الرياح ويرسلها (بشرى) بين يدي رحمته (الأعراف ٥٦) و(الفرقان ٤٨) و(النمل ٦٣) وغيرها و﴿تِبياناً لكلِّ شيءٍ وهُدىً ورَحمةً وبُشرَى﴾ (النحل ٨٩) و ﴿لِيُثبِّتَ الَّذين آمنُوا وهُدى وبُشرَى للمسلمينَ﴾ أربع صفات جامعة للقرآن، ومنها صفة (بشرى) للرياح والأمطار السابقة، وردت في أسلوب التعليل والحكمة دالّة على أنه من وحي الله لتحقيق الغايات المثلى من إصلاح الناس وإشادة الحضارة على أسس أخلاقية ونفسية وعملية سامية.

٢- ومن المشتقات : تلك الألفاظ التي تستوعب معانٍ تحتاج إلى إمعان النظر في استخراج دلالات التعليل حيث تحمل المشتقات معاني السببية والعلّية في اللفظة ذاتها من غير أداة السببية أو التعليل، ومن تلك المشتقات التي تدل على معنى الجنايات وعقوبتها قوله ﴿الزَّانِيةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ مِنهمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور ٢) فإن في المعنى المأخوذ من الوصف المشتق حكمة الحكم الموجب للجلد الزاجر، وفي ذلك حكمة فردية واجتماعية في حفظ الأبدان والأعراض والتماس الزواج المشروع، ولذا فقد كانت العقوبة زاجرة ربطتها الآية بفاء السببية والتعليل، وقالوا عن السرقة إنها ترتب الحكم على الوصف بفاء التعقيب والتسبّب، ﴿والسَّارقُ والسَّارقةُ فَاقْطَعُوا أَيدِيَهُمَا﴾(٢) (المائدة ٣٨) . ومن ذلك منع الزواج من النساء الكافرات باستثناء الكتابيات بسبب معنى الكفر في اسم الفاعل الذي يخشى منه على الذرية ﴿ولا تُمْسكُوا بِعصَمِ الكَوافِرِ﴾ (الممتحنة ١١) .

وعموماً فإن مدار الحِلِّ والحرمة على (الطيّب والخبيث) من الأشياء والمطعومات والأعمال فقد كانت الطيبات شرعة الأنبياء السابقين الذين طلب الله منهم أن يأكلوا منها (المؤمنون ٥١) وإذ هي مقترنة بجمالية الصور الخالقية للناس لما فيها من الجمالية الحسية والمعنوية (غافر

---

(١) ورد (الطمع) في مجال الثناء .

(٢) الآمدي في الاحكام ٣/٤٧ .

٦٤) فإنه ينعي على من يحرمها (المائدة ٨٧) باعتبار أنها قرينة الزينة التي أخرجها الله لعباده (الأعراف ٣٢) . ومادام التحريم والتحليل الشرعي بيد الله فإنه يفْصل في الحكم ويشير الى الحكمة من خلال ما تحمله من مضمون الطيب والخبيث، ولذا وصف يوم الإسلام العظيم لتحليل الطيبات (المائدة ٥) وأعلن أن صفات الرسول ودعوته أنه النبي الأمي المُبَشّر به في التوراة والإنجيل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الذي ﴿يُحِلُّ لهمُ الطَّيباتِ ويُحرِّمُ عليهمُ الخبائثَ﴾ (الأعراف ١٥٧) . ومن خلال كثرة الآيات الواردة في الطيبات وقلتها في الخبائث تشير الى غلبة الطيبات حتى تعدّ الأصل في التشريع المسكوت عنه، بينما لابدّ من التنصيص على الخبيثات على قلتها لنفور الفطرة منها .

رابعاً : حِكَمٌ وتعليلات في سورة الفتح : فمن المعروف أن موضوع السورة الوحيد هو صلح الحديبية في العام الهجري السادس الذي سماه الله به في أول آية منها (فتحاً مبيناً) . ونبادر بالقول : إن السورة صرَّحت بالحكمة منسوبة الى الله مع صفتي العزة والعلم ثلاث مرات ﴿وكانَ اللهُ عَليماً حَكيماً﴾ مرة ، ﴿وكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً﴾ مرتين بينما تضمنت آياتها جميعاً الحكمة في الأسباب والأحداث والآثار والنتائج فلا تخلو آية أو جملة منها من حكمة ضمنية أرست الطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين، مما لا نعهد مثله في أية سورة أخرى بمثل حجمها وموضوعها .

ويمكن تقسيم الحكمة في السورة (المصالحة) الى الأقسام التالية مع تداخلها وتشابك بعضها ببعض وهي : حكمة الرسول، وحكمة المسلمين، وحكمة الصلة بين الرسول والمسلمين والمنافقين، وحكمة الآثار والنتائج، ومع التصريح بحكمة الله في الأقسام الثلاثة الأخيرة كما أشرت فإنها ومن خلال ذلك كله تنوه الآيات بالسنن الكونية العديدة والحكم العديدة الخاصة والعامة .

- **حكمة الرسول** : وهي بصراحة التعليل باللام والعطف عليها أربع حكم واضحة في قوله ﴿لِيغْفِرَ لكَ اللهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ ومَا تَأَخرَّ﴾ فهي من خصوصياته . يقول ابن كثير: وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة

والتي لم ينلها بشرٌ سواه، وهو أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ويتبعها حكمة النعمة التامة كل نعمة ومنها الفتح المبين ﴿ويتمَّ نِعمَتَهُ عَليكَ﴾ وحكمة ثالثة هي استمرار الهداية في حالات السلم والحرب والموادعة ﴿ويَهديَكَ صِراطَاً مُستقيماً﴾، ورابعة يؤيدك الله بها دوماً (وينصرك) ففي صلح الحديبية غفران شامل ونعمة تامة وهداية مستمرة ونصر مؤزر . وهي حكم قيادية من حيث الأسوة والمسؤلية والممارسة .

– **حكمة المسلمين** : وإذ كانوا وقتها ١٤٠٠ معتمر لاينوون قتالاً، و لم يستعدوا له نفسياً ولا جاهزية، إنهم لزيارة البيت الحرام والطواف حول كعبته، فهي (سكينة) للقلوب وتثبيت للنفوس وطمأنينة ورحمة (ليزدادوا إيماناً) فهو مصدر لزيادة الإيمان وقوته مما يرغب فيه المؤمنون وبخاصة في مثل هذه الأحوال، و﴿لِيُدخلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنَّاتٍ﴾ فلنتصور أهمية هذا الصلح في زيادة الإيمان ودخول الجنة المتلازمين مع تكفير الذنوب ﴿ويُكَفِّرَ عنهمْ سيئاتِهمْ﴾ والمقترنتين بميزان العدل الإلهي في تعذيب أعدائهم ﴿ويعذِّبَ المنافقينَ﴾ ، ففي صلح الحديبية أيضاً، تثبيت وطمأنينة وزيادة إيمان ودخول الجنة وتعذيب الأعداء .. .وهي حِكم شاملة لحياتهم الدينية والدنيوية . ومن خلال هذه الحكم فإن الله شرع لهم (الجهاد والقتال لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة) كما قال ابن كثير، و(حكمته وهو علمه تسير الأمور وفقهما كما يريد) و (عن العلم والحكمة أنزل السكينة ... ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث وهو مجازاة المنافقين ...) كما قال الظلال .

– **حكمة صلة الرسول مع المسلمين والمنافقين** : فالرسول (شاهد) مبلغ كما طلب الله منه، فكان من الناس المؤمنون والكافرون، والمصلحون والمفسدون وكان أداؤه للرسالةبشارة بالخير والمغفرة للمؤمنين وإنذاراً للكافرين بسوء المصير . فالصفات النبوية الثلاث: الشهادة والبشارة والإنذار (لتؤمنُوا باللهِ ورسولِهِ) فالصلة محكمة بينها وبين إيمانهم (وتعزّروه) فهو تضحية بالنفس لنصر دينه وإعلاء شريعته (وتوقّروه) تعظيماً لقدر في نفوسهم وإكباراً لمنزلته فيهم (وتسبّحوه) تنزيهاً له وتسبيحاً بحمده مادامت القلوب متصلة به في كل حين . أما

المنافقون المتخلفون عن الجهاد فقد خسروا كل شيء : خسروا فضيلة الجهاد، ونعمة الفتوحات ورسوخ الإيمان والثبات على المبدأ ... وثواب الآخرة .

– **حكم في الآثار والنتائج** : وهي كثيرة : عامة وخاصة، منها بيعة الرضوان التي رضي الله فيها عن المتبايعين ونتائجها القريبة والبعيدة، والفتوحات الخطيرة : في خيبر ومكة وحنين واليرموك ... وكفّ أذى المشركين عنهم وحفظهم من السوء – وتحقيق سنة الله الأزلية السرمدية في نصر المؤمنين حين تكون المجابهة بين الكفر و الإيمان – وتحريرهم من حميّة الجاهلية وأهلها – وإظهار دينه على سائر الملل – ونشر النبوة بعد الإعلان عنها بصفاتها وسموها وأصالتها وارتقاء المؤمنين وأكرم صفاتهم وأعمالهم وعلاقاتهم في التوراة والإنجيل – ومن أجلّ الحِكم وأخلدها وأكثرها تشعّباً وعمقاً رفع الحرج في التكليف وبخاصة عن المعاقين وأصحاب العاهات : كالأعمى والأعرج والمريض . أوَ ليس هو الفتح المبين ؟

روى ابن مسعود وغيره أنه قال : إنكم تعدّون الفتح فتح مكة، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية . وقال جابر : ما كنا نعدّ الفتح إلاّ يوم الحديبية . وأقوال أخرى تظهر أهمية هذا الصلح مقتبسة من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيح : نزل عليّ البارحة سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها ﴿إنَّا فَتَحْنَا لكَ فَتْحاً مُبِينَـاً﴾ ، وفي رواية أحمد بسنده : لقد أُنزلت عليّ الليلة آية أحبّ إليّ مما على الأرض ثم قرأها . ويعقب ابن كثير على الروايات السابقة : فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان ...

ومن حيث انتشار الإسلام نقل ابن هشام عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية في ١٤٠٠، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف . وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص (ولاريب في أن هذا الصلح ... من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها، فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة ...) ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام

النبي صلى الله عليه وسلم فيما فعل وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه، إذ قووا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب الى الاعتذار، وإزداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفِدون على النبي صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام، وإذ صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة إذ جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً ....)(١) .

إنه حدث خاص اكتسى حِكَماً خاصة وعامة ذات دلالات قيمة ومنافع هامة في موازين السلم والحرب في ربط محكم بين الأسباب والأحداث والقيادة وعامة المسلمين .

خامساً : في الأدوات : وهي على كثرتها لابدّ من أن نعيرها مزيداً من الاهتمام والتفصيل.

فالتسبب في العطف(٢) (بالفاء) أن يكون بها متسبباً عن المعطوف عليه إن كان المعطوف بها جملة مثل ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فقَضَى عَلَيهِ﴾ (القصص ١٥) أو كان صفة مثل ﴿لآكلونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ• فَمالِئُونَ مِنهَا البطُونَ• فشَارِبُونَ عليهِ مِنَ الحَمِيمِ﴾ (الواقعة ٥٢-٥٤). وغالباً ما تقع في القصص باعتبار أن أحداثها متعاقبة مرتّبة مثل قصة الإنسان الأول مع الملائكة (البقرة ٣٠-٣٩) وقصص بني إسرائيل في (البقرة ٥٠-٧٤) وقصة مريم في ولادة عيسى (آل عمران ٣٥-٤٣) وقبلها تلك الخصومة القاتلة في نبأ ابني آدم (المائدة ٢٧-٣١) ثم القصص في سور يونس وهود ويوسف ومريم وغيرها .

والأغلب أنها تقع أيضاً في الأحكام سبباً وتفريعاً ففي سورة (البقرة) تشريع القبلة (١٤٤-١٥٠) وشعائر الله في الصفا والمروة (١٥٨) وأحكام الوصية (١٨٠-١٨٢) وإلى جوارها أحكام الصوم ورمضان مع أدوات أخرى كما أشرت (البقرة ١٨٧) والمعاشرة الزوجية في حالات الطمث والطهر (البقرة ٢٢٢-٢٢٣) وأحكام الربا المتشددة (البقرة ٢٧٩-٢٨٠)

---

(١) عبد الله دراز : سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم ٢/٢٩٢-٢٩٣ .

(٢) التصريح ٢/١٣٨ .

إلى جانب آيتي المداينة وما بعدهما (البقرة ٢٨٢-٢٨٣) ، وأصرحها جميعاً عمومية الحكمة للناس جميعاً، وهبتها من الله لهم، وخيرها الكثير عليهم (البقرة ٢٦٩) ولكن تكاد سورة النساء ثم التوبة تستأثر بفاءات السببية في معظم آياتها التي تدل على الأحكام والقصص أكثر من السور الأخرى ، خُذْ لذلك مثلاً من سورة النساء جواز التعدد عند العدل بين النساء الآية (٣) ووجوب صداق الزوجة (٤) ومعاملة اليتامى والتصرف بأموالهم بالحكمة (٦) وآية المواريث (١٠) وتشريع الزواج بالعفيفات ونظام التسري (٢٤-٢٥) وآية الطهارة (٤٣) .

وتكثر (الفاءات) أيضاً في سور أخرى مثل المائدة والأنفال والتحريم والفتح، وعموماً فإن الفاءات أخذت مواقعها الكثيرة بدءاً من قصة آدم في السورة الأولى بعد الفاتحة إلى آخر السور مثل (الصافّات ١٤٨) و (الأعلى ٦) ، وأخيراً سورة (الكوثر ١، ٢) .

ومن الآيات الجامعة لثلاث فاءات مترابطة سببية قوله ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ (الأعراف ١٧٥) فهي تعبر عن مراحل سريعة متعاقبة، فما أهمل المفسد الآيات وتركها حتى لزمه الشيطان فكان من المفسدين الفاسدين ... وقوله في عملية تنظيم النفير للجهاد والعلم، حيث إن للعمل العسكري وقته وظرفه، وللجهاد العلمي أوقاته وظروفه، ولكلٍ أهله ورجاله فلا ينبغي أن يختلط الأمر، فينفرد جميعهم للجهاد العسكري ويهملوا الجهاد الآخر (التوبة ١٢٢) .. وجماع ذلك كله الوحي القرآني المنزل بالحق الذي يترتب عليه أن يخلص الرسول العبادة لله وحده،فبه تتم الدينونة له(فَاعبُدِ اللهَ) (الزمر٢) ... إن (الفاء) هي الأداة الطيعة المؤداة بهذا الحرف الواحد ليظلل كثيراً من الأحوال والتشريعات والمصائر في ظلال المعقولية والسببية والحكمية .

اللام – لئلا

واللام برشاقة لفظها وخفة كتابتها أوضح في الدلالة على التعليل والحكمة من الفاء، ولذا فيمكن أن تشترك في جميع الموضوعات والمسائل المطروحة والقابلة للطرح، وهي بكثرة مداخلاتها وبثها في الآيات والسور تعد من أعظم الروابط السببية والعلية والحكمية وهي نوعان : لام التعليل الفعلية، ولام التعليل الجارة الاسمية .

أولاً : لام التعليل الفعلية : وهي التي تأتي قبل الفعل فتفيده السببية والتعليل في مواضع كثيرة، وفي مقدمتها : الدلالة على قدم العبادة والنسك، وارتفاعها بذكر الله عبر التاريخ السحيق، مثل (لِيَذْكُرُوا) (الحج ٣٤) . وأخطرها تعليل الخلق والإيجاد بالعبودية الخالصة لله التي تعني الحرية والنظام والنشاطات العملية النافعة (لِيَعْبُدُون) (الذاريات ٥٦) أي من أجل العبادة، فإذا لم تتحقق هذه العبودية فكراً وعملاً فلا مبرر لهذا الخلق . والقرآن هو الذي يرشد الى صحة هذه العبودية وأحقيتها وما على المسلمين إلاّ أن يدبّروا آياته ويتخلّقوا بآدابه فهو الكتاب المنزل وحياً من عند الله وذكرى لأولي الألباب (لِيَدَّبَّرُوا) و (لِيَتَذَكَّروا) (ص ٢٩)، قال الحسن البصري : والله ما تدبرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولاعمل (كما نقله ابن كثير) وتبسط (اللام) جناحيها في مواقع أخرى منها : العالمية وهي من أروع الحكم والتعليلات في علاقات الناس والأمم بعضهم ببعض ، أو ينبغي أن تتحقق بأعظم قاعدة عملية أخلاقية هي (التعارف) في قوله (لِتَعَارَفُوا) ومسؤولياته (الحجرات ١٣) ، ومنها الكونية حيث جعلها في بسط الأرض للنقل المريح ﴿لِتَسْلُكُو مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجَاً﴾ (نوح ٢٠) ، ومنها : الإلهية تتعلق بعلم الله وحده بالغيب الذي قد يطْلع بعض رسله على بعضه، وحفظاً للوحي الإلهي من أن يتسرب إليه دخيل (المزمل ٢٨) (لِيَسْتَيْقِنَ) المؤمنون بأن الملائكة قد بلّغوا الرسول وحي الله فيزدادون إيماناً ويرتاب الكافرون والمنافقون (المدثر٣١) ويتجاوزها الى إعلاء الحق وإبطال الباطل في جميع الأمور (لِيُحِقَّ الحَقَّ) (الأنفال ٨) مع الإصلاح الديني والاجتماعي والحكمي في بعثة الأنبياء وإنزال الكتب السماوية مهم بالحق (لِيَحْكُمَ) به كل منهم (البقرة ٢١٣) ، ويتبع ذلك مصائر الأقوام الدنيوية في تدمير الحضارات وإهلاك أهلها بسبب ضلالهم، وأخذ العبرة والعظات منهم ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ (الحاقّة١١،١٢) و (نوح ١٨) ، ومنها مايتصل بالسيرة النبوية باعتبارها النموذج الممثّل للقرآن والقدوة العملية للناس المشاركة وجدانياً وعملياً لحياتهم ومعاناتهم، والمستوعبة لهمومهم ومشاكلهم في كثير من الآيات والسور وبخاصة سورة (الفتح) كما تقدم والتي ضمت حوالي (١٥) موضعاً معللاً، موزعة على الرسول وعلى المؤمنين في صلح الحديبية وبصورة خاصة إظهار شريعة الإسلام على

الدين كله (الفتح٢٨) لأنها رسالة الهدى والدين الصحيح ليعلو الله به على سائر الشرائع والديانات . وتتجاوز (اللام) المواقع السابقة الى بداية الخليقة والخلافة والعبودية، فإن إخراج أبوينا ﴿مِنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ (الأعراف ٢٧) إلى جانب التعليلات الظاهرة (بالفاء) في (البقرة ٣٥،٣٦) ، ومن ثم إهباطهما إلى الأرض لتحمل المسؤلية، هي لأجل الخلافة الحقّة (البقرة ٣٨)، ومن ثم (لِيَنْظُرَ) في عمل الخلفاء وتحققها (يونس ١٤) بعد أن جهزهم الله بالاستعداد للمعارف والعلوم وفي مقدمتها علم الطبيعة والحساب عن طريق خلق الكواكب ومنفعتها في قوله ﴿لِتَعْلَمُوْا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ﴾ (يونس ٥) . إن مثل هذه المسائل الخطيرة تتطلب (نفيراً) علمياً جماعياً محدداً (لِيَنْفِرُوا) فهو من التفقه في الدين ولايحسن أن ينصرفوا الى العمل العسكري وحده كما أشرت (التوبة ١٢٢) في أوضح آية للرحلات العلمية المباركة، حيث جمع الله لها أربع تعليلات وحكم باللام وغيرها . ومن أشدها التصاقاً بالمعاملات ما يتخذه المبطلون مبرراً لهم في أكل الأموال بالباطل ويدفعونها رشوة للحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم (البقرة ١٨٨) وجسامة خطر الفساد والإفساد الفردي والاجتماعي من فئة المنافقين ﴿لِيُفْسِدَ فِيْهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ (البقرة ٢٠٥) . والابتلاء والتمحيص في الأزمات العامة والأزمات العسكرية (آل عمران ١٥٢،١٥٤) و(الأنعام ١٦٥) و(الأنفال ١٧) والتطهير البدني والنفسي في هذه الأزمات للتخلص من إحراجاتها واستعصاءاتها ، فيربط الله على القلوب ويثبت به الأقدام (الأنفال ١١) ، ومن ثم (لِيَجْعَلَ) الكافرين في حسرات الهزيمة النفسية قبل كل شيء فهي حسرة في قلوبهم (آل عمران ١٥) (وَلِيَعْلَمَ) المنافقون بذلك (آل عمران ١٦٦،١٦٧) فيزدادون إثماً وحسرة (آل عمران ١٧٨) وتتحقق حكمة الله في ضلالهم وانحرافهم (الأنعام ١٤٤) ويوضح التمايز والفصل بين فئات الناس على قواعد الإيمان والسلوك (الأنفال ٣٧) وعندئذ لا مجال لاعتراض المعترضين على الحكمة الإلهية في هلاك المعاندين وحياة الطائعين فإن ذلك واقع على بينة ووضوح (الأنفال ٤٢،٤٤) وعندئذ يجازى كل فريق حسب ما قدّم (يونس ٤) . وهذا واضح أيضاً في نظافة المسلم ظاهراً وباطناً بالوضوء والغسل مع طهارة النفوس فإن ذلك من تمام النعمة الإسلامية عليه (المائدة

٦) في قوله (لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ) . إن الإسلام (نورُ اللهِ) ولايستطيع الأعداء إطفاء نوره الذي يتمه، وهوظاهر على الأديان ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ﴾ (الصف ٨،٩) .

ويحتضن القرآن كل هذا وغيره من ألوان التعليل والحكم في مضامينه وأساليبه وتربيته، فقد أنزله الله جامعاً للخير محقاً للحق داعياً الى الجمال والعمل ناطقاً بالحكمة علاجاً وبناءً و لم يكن شقاءً ونَصَبَاً وإعناتاً (طه ٢) . إنه الكتاب المنزل بالحق ليحكم به الرسول في الحياة (النساء ١٠٥) ومع الحكم به لابدّ أولاً من تبليغه وإنذار الناس به (الأنعام ١٩) و (الأعراف ٢) ومع الإبلاغ والإنذار لابدّ من بيان أحكامه وتفسير آيه مادام منزلاً بالحق ثابت الأصول (النحل ٤٤) . والحكمية الحكيمة (لِيَحْكُمُوْا) هي القضية الضابطة للحياة الاجتماعية والاقتصادية (البقرة ٢١٣) و(آل عمران ٢٣) و(النور ٤٨-٥١) فقد صرح القرآن بسببية الحكم وعلّيته مع ما صرح به من أهمية ممارسته باعتبار أن الحكم الحكيم من أخطر أركان حضارة القرآن، فهي مسألة من أعظم مسائل القرآن والحكم والتبليغ معاً حتى يقطع الخلافات العميقة الموهنة (النحل ٦٤) ، أليس القرآن مرجع المسلمين وحكمتهم ؟ أليس مصدقاً لكتب الله ﴿لِسَانَاً عَرَبِيَّاً لِيُنْذِرَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِيْنَ﴾ (الأحقاف ١٢) ؟

ثانياً : لام التعليل الجارّة للاسم : وهي على قلتها بالنسبة الى اللام الأولى فإنها من أجمل البيان القرآني وأدقه الذي يفطن له الباحثون وحدهم، وهي على خفتها ورشاقتها تبرز معاني التعليل والسببية المؤطرتين بالحكمة الإلهية في مواطن الفطرة والقدرة والتسخير والتحرر من التحيز . ومن الآيات التي نصَّ العلماء على تعليلها وحكمتها باللام قوله : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيْدٌ﴾ (العاديات ٨) قال الخطابي : في بيان إعجاز القرآن ٤٤: لأجل حبّ الخير، وكذلك الزركشي في الإتقان ٤/٣٤٠، والسيوطي في معترك الأقران ٢/٢٣٩ ، فمن طبيعة الإنسان حرصه على التملك والمال الذي وصفه الله بالخير(١) .

﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ﴾ (الزمر ١٢) جعل الإسكافي معناها : لأجل أن يفعل أولاً ما أُمر به ثم يحمل الناس على مثله . فهو القدوة للإيمان الذي لاينبغي أن يترفع عنه القادة .

---

(١) التعليقات غير المعزوة من كتابتي .

و ﴿خَلقَ لَكـمْ مـا في الأرضِ جَميعـاً﴾ (البقـرة ٢٩) أنهـا لام لأجـل، فنعمـة الخلـق جميعـه مسخرات لجميع الناس .

و ﴿سُقْنَاهُ لِبلدٍ ميّتٍ﴾ لأجل بلد ، الزركشي : البرهان ٤/٣٤٠ ، ففي الماء حيـاة، وسـوقه نعمة ربانية تحيي الأرض وتنفـع النـاس، فمـن الضـروري العنايـة بـالمخزون المـائي وتنظيمـه وترشيده .

و ﴿وَلاتَكـنْ للخـائنينَ خَصيمـاً﴾ (النسـاء ١٠٥) ، أي لاتخـاصم النـاس لأجـل الخـائنين ، فالقضاء ينبغي أن يتميز بالاستقامة والتحرر من التحيز النفسي والمادي .

واللام بمعنى (كي) كثيرة الوقوع .

إنها تعليلات في أعماق الوجود وفي صميم الحقائق وجذور الحياة .

(لئلا) وتعللات مرفوضة

<u>ولئلا</u> : مقطع من ثلاثة حروف : لام التعليل ، وأن المصدرية الناصبـة ، ولا النافيـة ، وهـي على وضوح العلية والحكمـة في وضعهـا اللغـوي فـإن القـرآن يخـص دخولهـا علـى معـاني (الحجة) أو البرهان المتوهم الذي يساق في أسلوب الحجة الدامغة، بينمـا يـراد مـن العلـة أو الحكمة هي نفي الباطل منها والتماس الحقيقة، فأهل الكتاب أو المشـركون كـانوا يسـوقون دعاواهم على الرسول في تحويل القبلة مـن المسـجد الأقصـى الى المسـجد الحـرام : مـرة بمـا يذكرون بأن من صفات الرسول في التوراة أن قبلتـه الى مكـة، ومـرة في إعـلان الكفـار أن قبلته هي قبلة أبيهم إبراهيم وإسماعيل ، فلئلا يحتج هؤلاء وهؤلاء علـى ثبـات الرسـول علـى قبلة الأقصى اقتضت حكمة الله بالتحويل ﴿لِئلاّ يكونَ للنَّاسِ عَليكُمْ حُجَّةٌ﴾ (البقرة ١٥٠) ويدعم هذا تأكيد الله لهم في الآية بعدها علىحكمـة الرسـول الـذي يعلمهـم إياهـا ، فهـو ﴿يُعلِّمُهمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ﴾ (البقـرة ١٢١) . ومثلهـا ولكـن علـى نطـاق عـالمي : بعـثُ الرسل مبشرين ومنذرين لتنقطع حجة الكافرين بأنهم لم يعرفوا رسلهم و لم يبلّغوا دعواتهم، فما كان الله ليعذب قوماً حتى يرسل إليهم رسولاً يبشرهم وينذرهم، فلا عذر لهم حينذاك مهما تفننوا في الحجاج والبرهان . وإذا كرر الله هنا نـص التعليـل السـابق في هـذه المسـألة بقوله : ﴿لِئَلاّ يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجةٌ بعدَ الرّسلِ﴾ (النساء ١٦٥) فإنه أكد معناهـا في

نهايتها بعزة الله وحكمته ﴿وكانَ اللهُ عَزيـزاً حَكيمـا﴾ ، وقريـب منـه مـا ذكـره الله من حقيقة ربانية هي عجز المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم عن التحكم بفضل الله وإحسـانه، فإن وراء ذلك حكمة خفية أو ظاهرة في التصرف الإلهي في كـل شـيء لأنـه مصـدر العلـم المطلق والتدبير الحكيم . فالحكمة أو العلة هي ضرورة تحققهم من حدود معرفتهـم البشـرية بالمسائل الإلهية ألاّ يتجاوزوها ﴿لِئلاّ يَعْلَمَ أهلُ الكتـابِ ألاّ يَقـدرونَ عَلـى شـيءٍ مِـنْ فَضْـلِ اللهِ﴾ (الحديد ٢٩) . قال ابن كثير : إنهم لايقدرون على رد ما أعطاه الله و لا إعطـاء مـا منع الله(١) .

اللام المضمرة :

وقد تضمر لام التعليل وبعدها (لا) أو تحذفـان ويفهمـان مـن موقعهمـا في السـياق وعندئـذ تقترب (اللام) في اتصالها من الأعذار الواهية التي يقطعها القرآن على الكافرين أوالمعتذريـن، فأي قول من هذا النوع مردود عليهم، وأية حجة تساق لمثل هذا التدبـير باطلـة ، ففـي آيـة (المائدة ١٩) ﴿أنْ تَقولُوا مَا جاءَنا مِنْ بَشيرٍ ولا نَذيرٍ فَقدْ جاءَكمْ بَشيرٌ ونَذيرٌ﴾ عـرض الله على أهل الكتاب خاصة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل لئلا يتعللوا بقولهـم ما جاءنا من بشير ونذير وهم كاذبون في قولهـم إذ كيـف يمكنهـم إنكـار إجمـاع النـاس في الإيمان ودحض التاريخ أوطمسه من الوجـود ؟ إن خصوصيـة الرسـول وأهـل الكتـاب هنـا يؤكدها ما صرح به القرآن هناك من التعللات الباطلة لمكذبي الرسل عمومـاً كمـا سـبق في آيـات (النسـاء ١٦٥) وغيرهـا . وفي آيـتي (الأنعـام ١٥٦-١٥٧) ﴿أنْ تقولُـوا إنَّمَـا أُنـزلَ

---

(١) قال ابن جرير الطبري : لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جَحْدٌ غير مصرح .

وقال الزمخشري : (لئلا يعلم) ليعلم، و(لا) مزيدة و (ألاّ يقدرون) أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لايقدرون .

وهذا يعني : كما قال الشيخ عبد الجليل عيسى في (المصحف الميسر) أن العرب تجي (بلا) هذه في مثل هذا المقام لتأكيد نفي سابق، أو للتمهيد لنفي لاحق مع تأكيده في المعنى كما هنا، والمراد أخبركم الصادق في جميع أخباره وهو الله سبحانه بما سبق ليعلم أهل الكتاب نفي قدرتهم على تصريف فضل الله نفياً مؤكداً .

الكتابُ عَلى طَائِفَتينِ مِنْ قبلِنَا وإنْ كنَّا عَن دِراستِهِمْ لَغافلينَ ◆ أَوْ تقوُلوا لَو أَنَّـا أُنـزِلَ عَلينَـا الكِتابُ لَكنَّا أَهْدَى مِنهمْ ... ﴾ طلبٌ الله من الناس عموماً ومن كفار قريش خصوصـاً أن يتبعوا القرآن الكتاب المنزل المبارك ويتقوا الله ليرحمهم و(لئلا) يقولوا : إن الكتب السماوية التي أُنزلت على اليهود والنصارى لم نكن نعلمها وإنما كنا غافلين عن دراستها و (لئلا) يقولوا أيضاً : نتمنى نزول كتاب آخر حتى نكون أهدى منهم، مع أن الله أنزل القرآن بينة وهدى ورحمة . إ نها اعتذارات مرفوضة لاتدل على نبل المقصد وصدقه وإنما هي محـاولات واهية للتخلص مما وقعوا فيه من القلق والاضطراب ومواجهة العذاب، ومثلها آيتا (الأعراف ١٧٢،١٧٣) اللتين تحزمان الأمر وتردان على الغافلين يوم القيامة فلا يقبل قولهـم ولاتسمع لحجتهم . فالله فطر الناس على الإيمان وأخذه عهداً عليهم حـين كـانوا في عـالم الـذر لئـلا يحتجوا على الله يوم القيامة أنهم غير مستعدين للإيمان وليست نفوسهم مهيأة لـه، ثـم لئـلا يحتجوا بشرك آبائهم وضلال أجدادهم بأنهم من ذرية المشركين وأولادهم وأحفادهم[1] .

إنها تعللات واهية وتعليلات مرفوضة أبرزها البيان الحكيم .

والباء : المفردة القوية المعبرة عن أمور مجتمعة وأشياء متعاقبـة، وهـي إذ يغلـب عليهـا ذلـك فإنها الأداة التي تكثر ورودها في أسباب الزجـر والشـدة وبخاصـة في علاقـات بـني إسـرائيل وكشـف نواياهم وإبراز نفوسـهم المنحرفـة الناكثـة للعهـود والمواثيـق . وإذ إنهـا الأداة المتخصصة عموماً في حالات السوء والجحود فإنها الجامعة لارتباطاتهم الخائنة مع غيرهم . فقد شنع الله عليهم ولعنهم ، وذلك بسبب نقض العهود ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثـاقَهمْ وكُفرِهـمْ بآياتِ اللهِ وقَتلِهِمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ وقَولِهِمْ قلوبُنا غُلـفٌ بَـلْ طَبـعَ اللهُ عَليهَـا بِكفرِهـمْ فَـلا يُؤمنونَ إلاّ قَليلاً ◆ وَبِكُفرِهِمْ وقولِهِمْ عَلى مَريمَ بُهتانـاً عَظيمـاً ◆ وَقولِهـمْ إنَّـا قَتلْنَـا المسيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رسولَ اللهِ ومَا قَتَلُوهُ وما صَلَبوهُ ولكنْ شُبِّهَ لهمْ وإنَّ الّذينَ اختَلفُوا فيهِ لَفِـي

(١) قال الطبري في الآية : (أن تقولوا ....) : لئلا تقولوا، وقال الزمخشري : كراهة أن تقولوا ... مفعول له ... وهما متقاربان .

شكٍ منهُ مالهمْ بهِ منْ علمٍ إلاّ اتّباعَ الظَّنّ وما قتَلُـوهُ يَقيناً ◆ بَـلْ رَفعهُ اللهُ إليـهِ وكـانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً﴾ (النساء ١٥٥-١٥٨) في خمسة بنود خانوا فيها الميثاق الربـاني والإنسـاني، الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وادعاؤهم بامتناع قلوبهم عن الهدايـة، وافـتراؤهم على حرمة مريم، وادعاؤهم قتل المسيح . ومع ملاحظة وصـف الله نفسه بالحكمـة عقب جرائمهم المرتكبة فإن تعاليهم بطلب أن يروا الله جهرة واتخـاذهم العجـل ربَّـاً اسـتحقوا أن تأخذهم الصاعقة بسبب ظلمهم ومجاوزتهم الحدود البشرية، فقد استمرؤوا الظلـم واشـتطّوا في المحرمات فمنع الله عنهم الطيبات، وكذلك بسبب صدهم عن سـبيل الله وأكلهـم الربـا وأكلهم أموال الناس بالباطل . ويستثنى أولئك الراسخون في العلم والمؤمنون منهم ﴿أُولئِكَ سَنُؤتيهِمْ أَجراً عَظيمـاً﴾ (النسـاء ١٦٢) ومثـل هـذه السـببية البائيـة البائسـة المبئسـة نجدهـا ملتصقـة بهـم في آيـات وسـوره عديـدة مثـل (المـائدة ١٣) و (الأنعـام ١٣٨) و(الأعــراف ١٣٧،١٦٣،١٦٥،١٧٣) وغيرها .

والتعبير ذاتـه في كفّـار قريـش الذيـن عـادوا الله وحـاربوا دينـه فاسـتحقوا القتـال والجهـاد (الأنفال ١٢) . والتعبير ذاته في كل عاصٍ غـافل تذكّـره الأحـداث المفزعـة بربـه (الإسـراء ٦٩) . وفيما عدا ذلك نجد الباء وردت قليلاً في حالات الطاعة والإيمان والصـبر الـتي كـان اليهود يتصفون بها وبسببها في مواجهة طغيان فرعـون (الأعـراف ١٣٧)، وعـرض أحسـن القصص القرآني على الرسول بسبب ما أطلعه الله من خلاله علـى التـاريخ وبخاصـة تـاريخ الأنبياء (يوسف ٢) .

وقال العلماء في الآيات :

﴿وكَانُوا بِشركائِهمْ كَافرِينَ﴾ (الروم ١٣) مـن أجـل شـركائهم (الثعـالبي) (فقـه اللغـة ص ٥١٦) ﴿هُمْ بربِّهمْ لايُشركونَ﴾ (المؤمنون ٥٩) من أجله .

﴿ولَمْ أَكنْ بدعَائِكَ رَبّ شَـقيّاً﴾ (مريـم ٤) لأجـل دعـائك أو معـانٍ أخـرى في الآمـدي : الاحكام ص ٨٥ .

﴿وَإذْ فَرقْنا بِكمُ البَحرَ﴾ (البقرة ٥٠) بمعنى اللام قاله ابن الجوزي (منتخب قرة العيون ٨٢) أن فلق البحر من أعظم المعجزات وأكبر النعم لأجل نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون .

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمتُمْ أَنْفُسكُمْ بَاتخاذِكُمُ العجلَ﴾ (البقرة ٥٤) فعبادة العجل سبب الظلم النفسي البغيض (وهي حكمة عظيمة) .

﴿فأخذَهمُ اللهُ بذنوبِهِمْ﴾ (آل عمران ١١) .

﴿فَكُلاً أخذْنا بِذنبِهِ﴾ (العنكبوت ٤٠) فالذنوب ونتائجها المرضية سبب في الإهلاك والتدمير .

والكاف : وهي قليلة الورود لأنها أقرب الى التصوير والتشبيه ومثل لها العلماء بقوله :

﴿اجْعلْ لنَا إِلهاً كَمَا لَهمْ آلهةٌ﴾ (الأعراف ١٣٨) نقلاً عن الزركشي في البرهان ٤/٣١٠ .

إن الاعتقاد بتعدد الألوهية ليس مبرراً ولا سبباً لأن يطلبوا إلهاً غير الله وإنما ينبغي الرجوع الى الحق والإقلاع عن الشرك .

﴿كَمَا أَرْسلنَا فِيكُمْ رَسُولاً﴾ (البقرة ١٥١) قال الأخفش : أي لأجل إرسالي فيكم رسولاً منكم فاذكروني (البرهان ٤/٣١٠) .

﴿واذْكُروهُ كَما هَدَاكُمْ﴾ فالمؤمنون ينبغي لهم أن يذكروا الله لأنه هداهم وأصلح أحوالهم .

وبقي علينا أن نذكر الأدوات التعليلية المكونة من أكثر من حرف، ومنها :

من : وهي على قلة ورودها فإنها تحتاج الى إمعان نظر في الفهم من خلال سياق الآية، فقد أغرق الله قوم نوح بالطوفان بسبب استكبارهم على الحق، وصرح القرآن به حين قال :

﴿مِمَّا خَطيئاتِهمْ أُغرِقُوا﴾ (نوح ٢٥) (زركشي برهان ٤/٤١٩ والسيوطي معترك ٢/٥٥٥) قدمت العلة على المعلول للاختصاص . وقوله :

﴿أَنْ يخرجُوا منهَا مِنْ غَمٍّ﴾ (الحج ٢٢) أي لغمٍّ (زركشي برهان ٣/٩٥) فهي غموم متراكبة متلاحقة . ويمكن إضافة قوله ﴿تَفيضُ أَعينُهمْ منَ الدَّمعِ مِمَّا عَرفُوا﴾ (المائدة ٨٣) فإن عرفانهم بالله الحق محبة وخشية سبب في دمع عيونهم وخشوع قلوبهم .

و **عن** : القليلة الورود أيضاً وتشبه الأداة (من) في أنها تتطلب إمعان النظر في دلالتها التعليلية ومثل العلماء لها ﴿ومَا كانَ استغفارُ إِبراهيمَ لأبيهِ إلاّ عَنْ مَوعدةٍ وعدَها إياهُ﴾ (التوبة ١١٤) أي لأجلٍ، كما ذكره (الزركشي والسيوطي) (اتقان ٤/٢٨٧) . إن سبب استغفار إبراهيم لأبيه هو ما وعده أبوه بالإنابة الى الله وحده .

وقوله : ﴿ومانحنُ بتاركي آلهتِنا عَنْ قَولِكَ﴾ (هود ٥٣) أي لقولك (السيوطي) السابق . إن العناد قد يستبد بصاحبه فيحجم عن اتباع الحق .

و **في** : وهي أقل وروداً من سابقاتها وهي إذ تشعر بظرفيتها المتضمنة معنى السببية فإنها دلَّت على السببية في حدثين متشابهين على امتداد الزمان والمكان . ففي عصر النبوة حين افترى اليهود على بيت النبوة وقذفوا عائشة رضي الله عنها، فكانت رجَّة كبيرة أصابت المسلمين تلطف الله بهم مع أن بعضهم خاضوا في القذف والبهتان ﴿ولَوْ لا فَضلُ اللهِ عليكُمْ ورحمتُه في الدُّنيَا والآخرةِ لمسَّكُمْ فيمَا أفضْتُمْ فيهِ عذابٌ عظيمٌ﴾ (النور ١٤) أي لمسكم عذاب عظيم بسبب ماخضتم فيه، وحدث متقدم هو مراودة (زليخا) ليوسف وإشهار النسوة له . ﴿قالتْ فَذَلكنَّ الَّذي لُمتُنَّني فِيهِ﴾ (يوسف ٣٢) كما ذكره الزركشي والسيوطي، فقد أرادت أن تبرر للنسوة مراودة يوسف عن نفسه ولكنه استعصم، وإذاً فلا مجال للوصال من وجهة نظرها .

ومن الأدوات المؤلفة من أكثر من حرفين :

لعل : وهي أ كثر وروداً في كتاب الله حيث، يضمنها معنى الرجاء أو يضمن الرجاء معنى السببية والتعليل غالباً، وكثيراً ما تنتهي الآيات القرآنية بها فيما يشبه اللازمة التي تجمع بين نعومة الرجاء ولطفه وقوة التعليل وأسره . ومن الآيات التي مثل لها العلماء (برهان ٤/٣٩٤) .

﴿فَاتَّبعُوهُ واتَّقُوا لعلَّكمْ تُرحَمُونَ﴾ (الأنعام ١٥٥) إن اتباع القرآن وتقوى الله سبب رحمته إذ لا رحمة في الإعراض عنه .

﴿وَأنهَاراً وَسُبُلاً لعلَّكُمْ تَهتَدُون﴾ (النحل ١٥) أي كي، فقد سخر الله الأنهار للسقي، والسبل للنقل لكي نهتدي الى خير الدنيا والآخرة .

﴿لَعلَّهُ يَتذَكَّر﴾ (طه ٤٤) أي (كي) حكاه عنه صاحب المحكم، فالحوار سبب التذكرة والهداية . و(لعل) من أكثر الأدوات في القرآن وأقتصر منها على سورة (البقرة) وحدها في نهايات آياتها الكثيرة .

فمن أجل التقوى ورجائها يطلب من الناس أن يعبدوا الله خالقهم وخالق من كان قبلهم (٢١) ، ومن أجلهما أيضاً يطلب من بين إسرائيل أن يعملوا بالتوراة بقوة (٦٣) . ومن أجل إسباغ الحياة الآمنة على الناس لابدّ من إقامة القصاص العادل (١٧٩) ، ومن أجلهما أيضاً فرض الله علينا الصيام كما فرضه على الأمم السابقة (١٨٣) ، ومن أجل إعمال العقل وعدم هدره يبين تشريع صلاة الخوف وأحكام الأسرة وشيء من أدبها (٢٤٢) وكذلك العبر العقلية عبر التاريخ اليهودي وتنظير البعيد على القريب والغائب على الشاهد وبالعكس، وبطبيعة الحال فإن أول المخاطبين به هم اليهود أنفسهم المعاصرون للرسول عن تاريخ آبائهم (٧٠) ، ومن أجل العمق العقلي والنشاط الذهني والتفكير الدائب يطلب من المؤمنين أن يوازنوا بين أضرار الخمر والميسر ونفعهما إن وجدا، ومن ثم سحب هذه الموازنة لتسليط الضوء على حكم التحريم والتحليل في سائر المسائل بموازنة النفع والضرر وغلبة أحدهما على الآخر (٢١٩) ومن أجله ورجائه أيضاً لابدّ من السعي في مصلحة الإنسان ولايجري في شقائه وهلاكه وتدمير ماله (٢٦٦) ، وهكذا في التعليلات والرجاءات الأخرى (لعلكم تشكرون) (٥٢،٥٦،١٨٥) ، و(لعلكم تهتدون) (٥٣،١٥٠) التي تزدحم بها سائر السور القرآنية دالّة على إشاعة الحكمة والسببية والرجاء، وأخصها ربط الله بها العقل بالبيان القرآني علّة وتعليلاً ورجاء .

كي كيلا – لكيلا وهي نص صريح في التعليل مقتصرة عليه فإن ما بعدها سبب وعلة لما قبلها، سبب نفسي وفطري وحياتي وفي كل منها حكمة ظاهرة واضحة رائدة ومعلمة . فالأولى وردت في قصة أم موسى ذات القلب الفارغ لإرجاع رضيعها إليها وفي ذلك طمأنينة نفسية ليس لها نظير (طه ٤٠) و (القصص ١٣) وفي مساعدة هارون لأخيه موسى في الدعوة دعم للدعوة والداعين تقتضي تسبيح الله وذكره (طه ٢٣) ، وفي الثانية لطرد الحزن المرير الذي أصاب المسلمين في غزوة أُحد حيث أصيبوا (بالغم) الشديد بسبب مخالفتهم توجيهات الرسول العسكرية وأنه ينبغي لهم أن يتجاوزا الغم وألاّ يقفوا عنده (آل عمران ١٥٣) ، وفي الثالثة في بيت النبوة، إذ لابدّ أن يكون البيان واضحاً فإن زواج الرسول من ابنة خالته زينب ﴿لِكيلا يكُونَ عَلى المؤمِنينَ حرجٌ في أزواجِ أَدعيائِهِمْ﴾

(الأحزاب ٣٧) في الأداة الثالثة فإن نفي الحرج حكمة عامة وحل التزوج للرسول مسألة واحدة خاصة من مسائل رفع الحرج ﴿لِكَيلا يكُونَ عليكَ حَرَجٌ﴾ (الأحزاب ٥٠) .

ومن جهة ثانية فإن وصول الإنسان إلى المرحلة الأخيرة من العمر قد تنتهي به إلى أن تشبه حياته بدايتها، فقد بدأها وانتهى لها بغير علم، فلا مجال للعلم في هاتين المرحلتين الواهنتين ﴿لِكيلا يَعْلَمَ بعدَ عِلمٍ شَيئاً﴾ (النحل ٧٠) و (الحج ٥) وكذلك فإن حكمة القدر صريحة واضحة هي ألاّ يبالغ في الفرح عند النعمة، ولايفقده اليأس عند المصيبة، وهي حكمة تحرك الإنسان على العمل وتدفعه الى ممارسة نشاطاته الدينية والدنيوية (الحديد ٢٣). وأخيراً فإن من حكمة توزيع الثروات العامة على الناس المستحقين منفعة واضحة وصريحة في منع تجميعها في أيدي الأغنياء وحدهم لما ينشأ عن ذلك من طغيانهم وفسادهم ﴿كَي لايكُونَ دُولةً بينَ الأغنياءِ منْكُمْ﴾ (الحشر ٧) .

وهكذا فإن هذه الأداة الصريحة في التعليل قد وقعت كلها أو معظمها في مواقع الحِكم المتشعبة في عالم السلم والحرب والمال والاجتماع ....

من أجل : وهي بكثرة حروفها وصراحتها التعليلية وحيدة في القرآن ساقها في أعظم حق من حقوق الإنسان وهوحق الحياة (المائدة ٣٢)، وبإضافتها الى اسم الإشارة (من أجل ذلك) الجامع لعديد من التعليلات والحكم وتخصيص بني إسرائيل بالذكر والمشروعية لما عرف من طبائعهم الحسد والبخل (النساء ٥٤) وقتل الأنبياء (البقرة ٩١) وغيرها، فإن أهميتها لفت الذهن البشري الى بشاعة جريمة القتل وردعهم عنها وإسباغ الحياة الآمنة على الناس جميعاً بإحياء نفس واحدة ودفعهم إليه . وإن مركزية القاتل أو المتسبب بالقتل إماتة لجميع الناس، وصلة المحيي أو المتسبب بالحياة أعظم مما يتصوره أي إنسان فهي الحياة كل الحياة، إنها واحدة عند جميع الناس بالإحياء والاعتداء قال في الظلال : (من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين الذين لايريدون شرّاً ولاعدواناً .. ومن أجل أن الموعظة والتحذير لايجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر، وأن المسالمة والموادعة لاتكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس ... من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل

الناس جميعاً، وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً .... فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته، الحق الذي تشترك فيه كل النفوسن كذلك دفع القتل عن نفس واستحياؤها بهذا الدفع - سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها، أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى - هو استحياء للنفوس جميعاً، لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً) .

علّة التشريع وحكمة التشريع

(في كل علة تشريعية حكمة)

يأخذ التشريع حيزاً واسعاً في القرآن حتى إنه ليشمل جميع أغراضه من قصص وأمثال ومشاهد الدنيا والآخرة وآداب خاصة وعامة بالإضافة الى كلياته وجزئياته في الحلال والحرام وعمومياته وتفصيلاته التشريعية الأخرى .

وإذا كان التشريع لا يتأتي اعتباطاً ولا عبثاً فإن من الملاحظ إقامته على الأسباب والدوافع والبواعث والمقاصد، و(العلة) وإن لم تكن مصطلحاً قرآنياً على عكس الحكمة فإن اللغويين وعلماء الأصول استنبطوها من أدواتها ومن مرادفاتها مثل السبب والباعث ... حتى تجاوزت غيرها . ويلاحظ أن معظمهم عرّفوا العلة بتعاريف تتضمن الحكمة وتستوعبها(١) .

العلة (أسماء وحكم) : لابدّ للعلة من حكمة، فالعلة تشتمل على المصالح وإلاّ لما صحّ أن تعلل بها الأحكام والمسائل، والعلة لغة اسم لما يتغير الشيء بحصوله أخذاً من العلة التي هي المرض لأن تأثيرها في الحكم كتأثير العلة في ذات المريض .... وفي الاصطلاح على أقوال

---

(١) يشنّع ابن حزم على القائلين بالتعليل في القرآن في فصول عدة من كتاب الإحكام في أصول الأحكام، منها فصل إبطال القول بالعلل في شيء من الشرائع ٩٧/٨، وفصل في بيان ما في القرآن من النهي عن القول بالعلل ١١١/٨، وفصل في تناقض العلماء في التعليل ١١٤/٨ .

منها : المعرفة للحكم بأن جعلت عَلماً على الحكم إن وجد المعنى وجد الحكم، أو هي الباعث على التشريع بمعنى أنه لابدّ أن يكون الوصف مشتملاً على مصلحة صالحة لأن تكون مقصودة للشارع من شرع الحكم(١) ...

والعلة أيضاً ما يجب به الحكم . (أو كما قال الشيرازي : هي المعنى الذي يقتضي الحكم)(٢) أو ما جعلت علامة على حكم النص ... (وهي أمارة على الحكم ودلالة عليه، أو موجبة للحكم) .

والعلة أيضاً : ما يؤثر في غيره ويقابل المعلول . وينفي بعضهم التأثير العلي ويعرفونها : بأنها مقابلة للمعلول، ويردّ أن في التعريف جهالة وإحالة الى جهالة .

وآثر الفلاسفة المسلمون لفظ (علة) واستعمل الغزالي والمتكلمون لفظ (سبب) وهو ماجرى به العرف الآن . ومن دلالاتها :

(أ) تنقسم العلل عند أرسطو إلى أربعة أقسام : فاعلة كالنجار الذي يصنع الكرسي، ومادية: وهي الخشب والحديد الذي يصنع منه، وصورية وهي الهيئة التي يتم عليها شكله، وغائية : وهي الجلوس عليه، وقدر لهذه النظرية نجاح كبير في القرون الوسطى ومنها أخذت العلة الأولى، وعلة العلل وتطلق على الله وحده .

(**ب**) وعند المحدثين : اقتصر الأمر على العلة الفاعلة، وتسمى السبب، وهو مايترتب عليه مسبب عقلاً أو واقعاً، فالمقدمات سبب صدق النتيجة، أو بعض الظواهر الطبيعية سبب ظواهر أخرى، وهذا هو المعنى العلمي السائد اليوم .

والعلة الفاعلة : العامل المباشر في إحداث أثر أو معلول ما .

والعلة المتعدية : علّة لايقف أثرها عند مجرد إيجاد معلولها بل قد يمتد الى أشياء أخرى . والمصطلح مدرسي .

والمعلول : ما يحدث عن علة ويقابلها تماماً، وهو أحد طرفي العلاقة النفسية بين العلة

---

(١) الشوكاني في إرشاد الفحول ٢٠٧ .

(٢) اللمع في أصول الفقه ٦١ .

والمعلول، وقد تسمى أيضاً العلاقة السببية من السبب والمسبب(١) .

وقد وسع (ديكارت) معنى العلة فأطلقه على العلاقات الطبيعية والعلاقات المنطقية معاً، فإذا قلت إن (آ) علة (ب) عنيت بذلك أن وجود (آ) يستلزم وجود (ب) اضطراراً .

وعند (كانت) إن العلة تدل على تركيب خاص قوامه أن شيئاً مثل (آ) يوجب أن ينضاف إليه وفقاً لقاعدة ما شيء آخر مثل (ب) مختلف عنه تماماً، ومعنى ذلك أن علاقة العلة بالمعلول ليست تركيباً تجريبياً وإنما هو تركيب عقلي(٢) .

والعلة ترادف السبب إلاّ أنها قد تغايره، فيراد بالعلة المؤثر وبالسبب ما يفضي إلى الشيء في الجملة، أو ما يكون باعثاً عليه، وقد قيل : السبب ما يتوصل به إلى الحكم من غير أن يثبت به، أما العلة فهي ما يثبت به الحكم . والعلة الذاتية عند المدرسيين ما لاعلة له، وعند (اسبينوزا) مالا يتصور عدمه، وتطلق عندهم على الله، لأن الله علة وجود جميع الأشياء وعلة وجود نفسه، ونعني بقولنا : لا علة له، إن علته ذاتية، وإنه كما قال (ابن سينا) واجب الوجود بنفسه(٣) . ولكن وصف الله بالعلة الذاتية أو بعلة الوجود مرفوض شكلاً ومضموناً ولايوصف الله إلاّ بما وصف به ذاته .

ويقال لها أيضاً السبب والأمارة والداعي والمستدعي والباعث والحامل والمناط والدليل والمقتضى والموجب والمؤثر (٤) ....

ويجوز أن تكون العلة حكماً كقولنا : بطل بيع الخمر لأنه حرم الانتفاع به ولأنه نجس، وغلط من قال : إن الحكم أيضاً يحتاج الى علة فلا يعلل به، ويجوز أن يكون وصفاً محسوساً عارضاً كالشدة، أو لازماً كالطعم والنقدية والصغر، أو من أفعال المكلفين كالقتل والسرقة، أو وصفاً مجرداً أو مركباً من أوصاف، ولافرق بين أن يكون نفياً أو إثباتاً(٥) .

---

(١) المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ، القاهرة .

(٢) المعجم الفلسفي د/صليبا .

(٣) السابق .

(٤) الشوكاني في إرشاد الفحول ٢٠٧ .

(٥) الغزالي في المستصفى ٢/٢٣٥

- ومن شروطها أن تكون وصفاً ضابطاً بأن يكون تأخيرها لحكمة مقصودة للشارع لا حكمة مجردة لخفائها فلا يظهر إلحاق غيرها بها(١) .

- فمن أسمائها أيضاً : المناسبة ويعبر عنها بالإخالة وبالمصلحة وبالاستدلال وبرعاية المقاصد.... ومعنى المناسبة : هي تعيين العلة بمجرد إبداء المناسبة مع السلامة عن القوادح لا بنص ولا غيره، ومن معانيها : الملاءمة لأفعال العقلاء في العادات فإنه يقال : هذه اللؤلؤة تناسب هذه اللؤلؤة في الجمع بينهما في سلك واحد متلائم .

واحتج إمام الحرمين على إفادتها للعلية بتمسك الصحابة بها فإنهم يُلحقون غير المنصوص بالمنصوص إذا غلب على ظنهم أنه يضاهيه بالمعنى أو يشبهه(٢) .

ونقل الآمدي تعريف **(المناسب)** الذي يمكن أن توصف به الحكمة والعلة معاً(٣) ..

قال أبو زيد : المناسب عبارة عما لو عرض على العقول تلقته بالقبول .

وعدله الآمدي بقوله :

المناسب : عبارة عن وصف ظاهر منضبط يلزم من ترتب الحكم على وِفْقه حصول مايصلح أن يكون مقصوداً من شرع ذلك الحكم، وسواء كان الحكم نفياً أو إثباتاً، وسواء كان ذلك المقصود جلب مصلحة أو دفع مفسدة(٣) .

ومنها رعاية المقاصد والمصالح : فقد شرع الحلال والحرام لمصلحة الناس ودرء المفاسد عنهم وهي مصالح بدنية واجتماعية وأسرية . فالمقصود من شرع الحكم إما جلب مصلحة، أو دفع مضرة، أو مجموع الأمرين بالنسبة الى العبد لتعالي الرب تعالى عن الضرر والانتفاع، وربما كان ذلك مقصوداً للعبد لأنه ملائم له، وموافق لنفسه، ولذلك إذا خيّر العاقل بين وجود ذلك وعدمه اختار وجوده على عدمه، وإذا عرف أن المقصود من شرع الحكم إنما هو تحصيل المصلحة أو دفع المضرة، فذلك إما أن يكون في الدنيا أو في الآخرة .

---

(١) الشوكاني السابق ص ٢٠٧ وص ٢١٩ وذكر فيه (٢٤) شرطاً للعلة .

(٢) الشوكاني السابق ص ٢٠٧ .

(٣) الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام ٤٦/٣ .

ويمثل للدنيا بالمعاملات كالبيع والإجارة، والجنايات كالقتل وإيجاب القصاص، و أما في الأخرى فالمقصود العائد إليها من شرع الحكم لايخرج عن جلب الثواب، ودفع العقاب، فالأول كالحكم بإيجاب الطاعات وأفعال العبادات لإفضائه الى نيل الثواب ورفع الدرجات. والثاني فكالحكم بتحريم أفعال المعاصي، وشرع الزواجر عليها وفقاً لمحذور العقاب المرتب عليها(١) .

- ومن **الاستدلال** ما جاء في فصل إقامة الدلالة على أن المناسبة والاعتبار دليل كون الوصف علة . وهذا يعني أن الأحكام إنما شرعت لمقاصد العباد، أما إنها مشروعة لمقاصد وحِكم فيدل عليه الإجماع والمعقول . أما الإجماع فهو أن أئمة الفقه مجمعة على أن أحكام الله تعالى لاتخلو عن حكمة ومقصود .. وأما المعقول فهو أن الله تعالى حكيم في صنعه(٢).

- **وكذلك فإن من أسمائها الباعث** : فالمختار أنه لابدّ وأن تكون العلة في الأصل بمعنى الباعث أي مشتملة على حكمة صالحة أن تكون مقصودة للشارع من شرع الحكم وإلاّ فلو كانت وصفاً طردياً لاحكمة فيه بل أمارة مجردة فالتعليل بها في الأصل ممتنع لوجهين : الأول أنه لافائدة من الإفادة ..... والثاني أن علة الأصل مستنبطة من حكم الأصل، ومتفرعة عنه، فلو كانت معرفة لحكم الأصل لكان متوقفاً عليها ومتفرعاً عنها وهو دور ممتنع .

- ومن ذلك ما عبروا به عن الحكمة الضابطة التي تماثل العلة القادحة أيضاً .

والمختار إذا كانت الحكمة ظاهرة منضبطة بنفسها غير مضطربة فلأنّا أجمعنا على أن الحكم إذا اقترن بوصف ظاهر منضبط مشتمل على حكمة غير منضبطة بنفسها أنه يصح التعليل به ... وأما إذا كانت الحكمة خفية غير منضبطة فيمتنع التعليل بها(٣) ....

ومن أشهر أسمائها أيضاً :

---

(١) السابق ٤٧/٣ وذكر فيه (١٧) شبهة في خلو الأحكام من الحِكم ورد عليها، ومنها : لاحرج في ربط الأحكام بالحكم إذا كانت منضبطة بأنفسها أو بأوصاف ظاهرة ضابطة لها لعدم العسر في معرفتها .

(٢)(٣) الإحكام السابق ١٢/٣ ، ٤٨/٣و٥٤ .

السبب : وهو ما يترتب عليه مسبب عقلاً أو واقعاً، فالمقدمات الصادقة سبب صدق النتيجة، وبعض الظواهر الطبيعية سبب ظواهر أخرى، وهذا هو المعنى العلمي السائد اليوم.

وعند الجرجاني : في اللغة اسم لما يتوصل به الى المقصود .

وفي الشريعة : عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه .

وعند المناوي : قيل ما ظهر الحكم لأجله، هبه شرطاً أو دليلاً أو علة(١) .

والسبب مرادف للعلة إلاّ أن النظار يفرقون بينهما من وجهين : أحدهما أن السبب ما يحصل الشيء عنده لا به ، والعلة ما يحصل به، والثاني : أن المعلول ينشأ عن علته بلا واسطة بينهما ولاشرط/ على حين أن السبب يفضي الى الشيء بواسطة أو بوسائط، ولذلك يتراخى الحكم عنه حتى توجد الشرائط وتنتفي الموانع، أما العلة فلا يتراخى الحكم عنها إذ لاشرط لها بل متى وجدت أوجبت وجود المعلول، ومعنى ذلك أن السبب أعم من العلة لأن كل علة سبب(٢) .

والسببية : العلاقة بين السبب والمسبب، ومبدأ السببية أحد مبادئ العقل، ويعبرون عنه بقولهم : لكل ظاهرة سبب أو علة، فما من شيء إلاّ كان لوجوده سبب أي مبدأ يفسر وجوده(٢) .

- فالأحكام الشرعية(٣) إنما شرعت لجلب المصالح أو درء المفاسد وهي مسبباتها قطعاً فإذا كنا نعلم أن الأسباب إنما شرعت لأجل المسببات لزم القصد إلى القصد الى الأسباب القصد إلى المسببات .

(و) السبب المشروع لحكمة لايخلو أن يعلم أو يظَن وقوع الحكمة به، أو لا، فإن علم أو ظن ذلك فلا إشكال في المشروعية، وأصل السبب قد فرض لحكمة بناء على قاعدة إثبات المصالح .

والمراد من السبب : ماوضع شرعاً لحكم، لحكمة يقتضيها ذلك الحكم .

---

(١) المعجم الفلسفي للمجمع السابق نقلاً وقد تقدم شيء منه .

(٢) المعجم الفلسفي د/ صليبا نقلاً، قارن بما ذكره سابقاً ص ٢١٦ في الفرق بين السبب والعلة .

(٣) الموافقات ١/٢٥٠،٢٦٥ الشاطبي . هذه عبارته ، على غير عادته .

كما كان حصول النصاب سبباً في وجوب الزكاة، والزوال في وجوب الصلاة ....

وأما **العلة** فالمراد بها الحكم والمصالح التي تعلقت بها الأوامر، أو الإباحة، والمفاسد التي تعلقت بها النواهي، فالمشقة علة في إباحة القصر والفطر في السفر، والسفر هو السبب الموضوع سبباً للإباحة .... على أنه قد يطلق هنا السبب على نفس العلة لارتباط ما بينهما. إن الشاطبي إذ يسوّي بين الحكمة والسبب فإنه يبرز المصالح البشرية في التشريع الديني والدنيوي وإن تعددت الأسباب والحكم باستلهامات الباحثين والمجتهدين، وهذا لايوجب استمرار السببية أو الحكمية في جميع الأحكام والمسائل، فقد يتخلفان في بعضها، وعندئذ لاتتجرد منهما . فالكليات الثلاث (الحاجية والضرورية والتحسينية) إذا كانت قد شرعت للمصالح الخاصة بها فلا يرفعها تخلف آحاد الجزئيات ولذلك أمثلة : أما في الضروريات فإن العقوبات مشروعة للازدجار مع أنّا نجد من يعاقب فلا يزدجر عما عوقب عليه، وأما في الحاجيات فكالقصر في السفر، مشروع للتخفيف وللحوق المشقة، والملك المترفه لامشقة له، والقصر في حقه مشروع، والقرض أُجيز للرفق بالمحتاج مع أنه جائز أيضاً في عدم الحاجة . وأما في التحسينات فإن الطهارة شرعت للنظافة على الجملة مع أن بعضها على خلاف النظافة كالتيمم . فكل هذا غير قادح في أصل المشروعية لأن الأمر الكلي إذا ثبت فتخلف بعض الجزئيات عن مقتضى الكلي لايخرجه عن كونه كلياً(١) .

ومقاصد الشارع في بث المصالح في التشريع أن تكون مطلقة عامة، لاتختص بباب دون باب ولابمحل دون محل(١) .....

فروق بين العلة والحكمة

إن اقتراب الحكمة من العلة وأحياناً تماثلهما كما سبق وسيأتي نماذج منه لايلغي فروقاً يمكن ملاحظتها وتأملها، ومنها :

– العلة لاتتخلف والحكمة قد تتخلّف، وهذا ما عبروا عنه بالدوران . قال الشوكاني(٢) :

---

(١) الموافقات السابق ٥٤،٥٣/٢ يقول الشارح : لايخفى عليك أنه يستعمل كلمة (العلة) في كتابه بمعنى الحكمة . وأقول : سبق تعليل الفقهاء بالسفر علة للإفطار .

(٢) في : إرشاد الفحول ص ٢٢١ السابق .

الدوران هو أن يوجد الحكم عند وجود الوصف ويرتفع بارتفاعه في صورة واحدة كالتحريم مع السكر في العصير، فإنه لما لم يكن مسكراً لم يكن حراماً، فلما حدث السكر وجدت الحرمة ثم لما زال السكر بصيرورته خلاً زال التحريم فدل على أن العلة السكر.

– العلة معنى خاص والحكمة معنى أو مفهوم خاص وعام، ولذا فإن الحكمة أشمل من العلة فهي تعمّ، التشريع والطبيعيات والكونيات والإنسانيات في حكمة النظام والتنسيق تدل على الحكمة الإلهية في الصنع والتدبير، فالحكمة العامة من حكيم خبير .

– العلة مرتبطة بالاجتهاد في معرفة الفرع والأصل والوصف المناسب لهما، وهذا يعني ارتباطهما بالقياس والقائس، بينما الحكمة مرتبطة بمشروعية المصالح وبضرورات الأشياء والحاجيات والتحسينات عموماً سواء كانت في الأمور التفصيلية المعاشية أو كانت في المقاصد العامة الشاملة .

– العلة سبب في الحكم و أمارة فيه فلا يدرك الحكم حلاً أو حرمة، وجوباً أو كراهة إلاّ بمعرفة علته ظاهرة كانت أو مضمرة، وبناء على هذه المعرفة لابدّ من القيام بمقتضى العلة إيجاباً أو سلباً، بينما تتبع الحكمة مقصد الحكم الذي قصد الى تشريعه علمت الحكمة أو لم تعلم، وغاية المشرع منه بناء على المصلحة أو درء المفسدة .

– ويستأنس في التفريق بينهما عن طريق السؤال فيقال جواباً للعلة لماذا ؟ أو ما العلة أو ما السبب ؟ ويسأل عن جواب الحكمة : ما الغاية ؟ ما المقصد ؟ ما الحكمة ... مع أنه قد تختلط التساؤلات وإجاباتها أحياناً .

يقول شاكر الحنبلي أيضاً(١) .... فيكون الفرق بين حكمة الحكم وعلته أن الأولى هي السبب الموجب للتشريع، والغاية المقصودة منه لما تضمنت من المنفعة التي قصد إليها الشارع، وأن الثانية أي العلة هي الأمر الظاهر المنضبط الذي بنى حكم الأصل عليه، وربط به وجوداً وعدماً، مثال ذلك أن حكمة قصر الصلاة الرباعية للمسافر التخفيف، لأن السفر مظنة المشقة وهي أمر تقديري غير منضبط لايصح بناء الحكم عليه وجوداً وعدماً، ولذلك لم يرخص للحمّال المشقوق عليه في الحضر بقصر الصلاة وإن ظهر أن مشقته تزيد على

(١) في كتابه : أصول الفقه الإسلامي ٣٠٦ .

مشقة المسافر، وأبيح للمسافر أن يفطر لوجود علة الإباحة وهي السفر ولوكان مرفّهاً لايجد في سفره مشقة، لأن المشقة أمر لاينضبط ويؤدي الى الاضطراب، فاعتبر السفر علة للحكم ولم تعتبر المشقة لأن السفر أمر ظاهر منضبط، وفي اعتباره علة للحكم مظنة تحقيق حكمته بالنظر لاقترانه غالباً بالمشقة والتعب ...

فالحكم الشرعي يوجد حيث توجد علته ولو لم تظهر حكمته، وينتفي حيث تنتفي علته، ولو وجدت حكمته، لأن الحكمة تخفى في بعض الأحكام، ولايمكن ضبطها في البعض الآخر، فلا يصح أن تتخذ دليلاً على وجود الحكم أو عدمه .

وخلاصة البحث أن الأحكام الشرعية تدور وجوداً وعدماً مع عللها لا مع حكمتها .

وقد تكون الفروق ملغاة : فإن مسائل قرآنية كثيرة صرح بحكمتها فقط ولكنها بالتأمل تشمل على علتها التي استنبطها الفقهاء والأصوليون . ومع هذه الفروق الدقيقة فكثيراً ما تمتزج العلة بالحكمة أو تساق متضمنة حكمتها، أو تبرز الحكمة بصراحة العلة حتى يصعب التفريق والتمييز بينهما كما أشرت . فقد قالوا : إن العلة في تحريم الخمر الإسكار المتضمن بيان الله بالأضرار الاجتماعية والدينية الصريحة (المائدة ٩١) ، وترددت أقوال العلماء في علة تحريم الربا : النقدية أو المطعومية، أو الكيلية .... الشامل معنيين صُرحا بحكمة التحريم وهما : وجود الظلم والطغيان من المرابين والمستغلين، وتراكم الأموال الربوية لإضعافها ومضاعفاتها، وعندئذ فلا يحل لهم في المعنى الأول إلاّ أخذ رؤوس أموالهم ﴿لاتَظلِمونَ ولاتُظلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٧٩) وهذا متعلق بالتعامل الربوي أصلاً حيث إنهم قاسوا الربا على البيع قياساً فاسداً (البقرة ٢٧٥) . ومن غير شك فإن هذا يؤدي الى الإثراء الفاحش المحرم، وقد أشار القرآن إليه بلفظتين ﴿الَّذينَ يأكُلونَ الرِّبا﴾ فهم على دوام أكله، وقوله بعدها ﴿.. كَالَّذي يَتَخبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المسِّ﴾ (البقرة ٢٧٥) وهي حالة مرضية مزمنة وعنيفة تغلب على أولئك المرابين الذين يوزعون أموالهم على الناس ويطلبون عليها أضعافاً مضاعفة وبخاصة حين تنقص أو تقل عما لهثوا به من أطماعهم وشراهة نفوسهم .

والمعنى الثاني : إرساء القاعدة الاجتماعية الاقتصادية المعتدلة وهو مرتبط بالأول حيث إن اللهث على استحواذ المال طمعاً واستغلالاً لابدّ أن يؤول الى تضخيم رؤوس أموال فئة

المرابين المستغلين وتضخيم أوضاع الفقر والحرمان لغالبية الناس وجماهيرهم . وهذا يعني تكريس الطبقية الطاغية الظالمة وإعطائها مكاسب لاتستحقها وليست أهلاً لها (آل عمران ١٣٠-١٣٤) ، وإذا نعى الله على المرابين المقلّين كما سبق فإن القرآن وضع هنا ومن أجل الإقلاع عن الاستكثار الربوي قاعدة الفلاح والنجاح الاجتماعي والاقتصادي حكمة عظيمة مقترنة بالزواجر والمخوفات مرغبة بالإنفاق في السراء والضراء ... إنه تحريم قاطع بعيد النظر يتجاوز مصلحة فرد أو فئة مرابية مستغلة الى نقاء المجتمع وبنائه السليم ومصالحه العامة، وتحريره من الإضرار المتعدد ودفعه الى مكانه اللائق به من الحضارة الإسلامية السامية. وفي تنظيم (المداينة) المشروعة (البقرة ٢٨٢) كتابة وشهوداً تصريح بحكمة المدين المحلي، والإشهاد من الرجلين أو الرجل والمرأتين، وضرورة كتابة الدين صغيراً أو كبيراً إلى أجله بالأكثر إقساطاً، والأقوم للشهادة ونفي الشك الى اليقين، حكم صرح بها وتشتمل على عللها . وفي مشروعية الجهاد الإسلامي ليكون في سبيل الله وليس في سبيل الطاغوت (النساء ٧٦) ومن أجل المستضعفين في الأرض المضطهدين في دينهم وأرواحهم وأموالهم (النساء ٧٥) وفي سبيل الدفاع عن حرمات المقدسات من بيوت العبادة (الحج ٣٩) وهي حكم مصرح بها أيضاً تشتمل على تعليلاتها . وفي العبادات عموماً فإنها شرعت لتحقيق العبودية (لِيَعْبُدُون) (الذاريات ٥٦) ولكل منها حكمها الخاصة بها كما صرحت آيات الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت ٤٥) والزكاة التي تطهر النفوس والأموال (التوبة ١٠٣) والصوم لتربية النفوس على التقوى وضبطها، والاستعلاء الروحي (البقرة ١٨٣) والحج ليشهد المؤمنون منافع دينية ودنيوية ويذكروا اسم الله في أيام معلومات (الحج ٢٨) و ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَاهَدَاكُمْ﴾ (البقرة ١٨٥) و (الحج ٣٧) .

وفي العلاقات الخارجية (الممتحنة ٨-٩) لابد من مسالمة الآخرين وبرّهم والإقساط في معاملتهم، والحكمة في ذلك هي أن هؤلاء لايعادون المسلمين ولايحاربونهم في دينهم وأرضهم، فالحفاظ على الدين والأرض منهم هي حكمة برّهم وعلته، وهذا لا يتنافى مع الاحتفاظ بأسرار المسلمين وأسس دولتهم فلا يوالون أعداءهم ولايعطونهم هذه الأسرار والخصوصيات مهما أبدوا من مظاهر الألفة والصداقة والمداخلة فإن لهم حدودهم ومواقعهم

وقد يكونون من المنافقين الذي يعيشون مع المسلمين فهم أعداؤهم باطناً المسالمون لهم ظاهراً، فالمسلمون متيقظون لأوضاعهم عاملون بجدٍ لإعادتهم الى المجتمع بصدق وفعالية وإخلاص، فالنفاق (مرض) بالتعبير القرآني يجب معالجته بالتدريج إذ لا بدّ من استئصاله أو بتر عوامله الناشطة حرصاً على سلامة المجتمع وقوته وعزته، وتمشياً مع السياسة الشرعية الحكيمة. حتى إن قواعد الحكمة الكلية مثل رفع الحرج وجلب المقاصد، ومشروعية التيسير يمكن أن تستوعب جميع المسائل التي تتضمن العلل والمعلولات والأسباب والمسببات، فلا تكاد مسألة في العقائد والعبادات تخلو منها وحدها أو بالاقتران مع الحكم المتنوعة .

وغالباً ما يستفيد القضاة والمجتهدون من استنباط العلل لصحة القضاء وسلامة الاجتهاد، ويستفيد المنظّرون والدارسون من استنباط الحكم في مقارنة المسائل وإثبات صحتها وعقلانيتها وبيان منفعتها الفكرية والاجتماعية . وعلى ذلك فلا غنى للثقافة عن معرفة الحكم ولا غنى للحياة العملية عن إدراك العلل التي تساهم في تنظيم الحياة العملية وتوطيد العلاقة السليمة بشكل كبير، فلا يستغنى بإحداهما عن الأخرى . والمهم هو إعمال الفكر للمختصين لإدراك أسرار الأشياء وتطبيقها، على أحسن وجه وبالجهد العقلي الأصلح سواء كان ذلك باستنباط العلل أو الحِكم لأنهما مدار الخير والشر في الحياة .

شمولية في التعليل الحكيم

إن تقعيد القواعد العامة في التعليل الحكيم لمسائل جامعة لحكمة التشريع وعلّة التشريع تدل على فهم كلي، ونظرة معرفية شاملة، يبدو فيها إعمال العقل برسم صورة كاملة عن التشريع .

ونحن أمام نموذج تراثي من نماذج كثيرة تحمل النظرة الكلية، والفهم الشامل للشريعة فقهاً وتعليلاً وحكماً آثرنا على طوله أن يكون أمام وعي القارئ ليدرك سبق علمائنا إلى إبراز هذه الشمولية، ومن ثم لننفي وبالدليل المقروء شبهة رُوِّج لها هي اتهام المسلمين بالعقل التحليلي الجزئي الذي لايعرف المفاهيم العقلية الشاملة . ومثل هذا الاتجاه إذ يقترب العلماء فيه من أصول الفقه أحد العلوم الإسلامية الخاصة فإنه أكثر شمولية وأغنى مسائل وأعمق

نظرة واتساعاً . وهو نص من كتاب : فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت : محمد بن نظام الدين الأنصاري (٢/٢٦٠) يدفع الى متابعته : (إنه سبحانه لما كان حكيماً لابدّ لأفعاله وأحكامه غايات تترتب عليها، ولما كان جواداً محضاً رحماناً رحيماً اقتضى وجود رحمته أن يراعي مصالح مخلوقاته، فلا جرم حكم على ما هو مقتضى المصالح، فالأحكام المتعلقة باقتضاء المصالح فرع حكمته وجوده ورحمته ومن لوازمه، فرعاية المصالح فرع لكماله .

إنه لما اقتضى سبحانه من عنايته التي اقتضتها الرحمة والحكمة السعادة الأبدية للناس في الدراين ناطها بأحكام معقولة التناسب على ما اقتضته حكمته، وذلك أنه لما أوجدهم أجساماً عقلاء أوجب عليهم المعرفة بذاته وصفاته وسائر الاعتقادات تكميلاً لقوتهم العقلية، وفرض عليهم العبادات البدنية تعظيماً لنفسه وتكميلاً للقوة العملية، وإذ مَنّ عليهم بالأموال النامية كلفهم بالغرامات المالية كالزكاة وصدقة الفطر والعشر وغير ذلك شكراً لما أعطاه إياهم، وإذ قد خُلقوا ضعفاء جعل الأنساب بينهم حقاً تحصيلاً للولاية حتى يبلغوا أشدهم، ولو لم تكن الأنساب لما حصل التربية ووقع الفتور في العيش، فسنّ المناكحات وجاءت أحكامها مما يترتب عليه ويشترط له، ولما كانوا مدنية الطباع لاتتم معيشتهم إلاّ مع بني نوعهم شرع بينهم العقود والفسوخ من البيع والإقالة والإجارة والطلاق والعتاق ونحوها، انتظاماً لأمر معاشهم، ثم للأشياء المذكورة مكملات ومحسنات فاستحسن اعتبارها تتميماً لمقاصدهم وحاجاتهم وأخلاقهم ولها عرض عريض، وبعضها ألصق من بعض، ثم (إن) الهداية إليها لما كانت لاتتيسر إلاّ بتوقيف منه سبحانه بعث أنبياء ورسلاً صلوات الله وسلامه عليهم، فهدوا بها على مقتضى أحوالهم، وختمهم ببعث سيد الأولين والآخرين ليتمم مكارم الأخلاق، ولما كانت الوقائع متعذرة تفاصيلها جعل في أمته علماء يستخرجون حكم واقعة مثل أحكام الوقائع المنصوصة في تحصيل المصالح . (وقد قسم العلماء العلة) من جهة المقاصد ومن جهة ترتيبها ومن جهة اعتبار الشارع (ثلاثة أقسام) : الأول المقاصد ضرورية (التي) انتهت الحاجة إليها الى حدّ الضرورة كالكليات الخمس التي اعتبرت في كل ملة وهي حفظ الدين بالجهاد، فإن التضاد فيه يقتضي التدافع فيفضي الى مفاسد كثيرة،

فالشافعية عللوا الجهاد بالكفر، والحنفية عللوا بالحرابة وهو الحق فإن كفر الغير لايضر المؤمن إلاّ حرابته فهي الموجبة لقتلهم وجهادهم، ومن ثم لايقتل من لايحارب من الرهبان والنساء ونحوهم كالشيخ الذي لايقدر على القتال . وحفظ النفس بالقصاص لأنه أنفى للقتل، وحفظ العقل بحدّ السُّكْر، وحفظ النسب بحدّ الزنا، وحفظ المال بحدّ السارق والمحارب، ويلحق بهذه الضروريات مكملاتها كحدّ قليل الخمر لأن قليلها يدعو الى كثيرها، فتحريم الدواعي الى الحرام معقول، وكحد القذف فإنه مكمل لحفظ النفس فإن جراحة اللسان ربما أفضت إلى جراحة السنان، فتؤدي الى المقاتلة .

الثاني : حاجية غير واصلة الى حدّ الضرورة، كالبيع والإجارة والمضاربة والمساقاة، فإنها لولاها لم يفت واحد من الخمس الضرورية، ولكن يحتاج إليها الإنسان في المعيشة، (ويستثنى) جزئيات بعض العقود، فإنها بفواتها يفوت واحد من الضرورية كاستئجار المرضعة للطفل مثلاً، إذ لو لم يشرع تلف نفس الولد فوصل الى ضرورة حفظ النفس، وكذا شراء مقدار القوت واللباس يتقى به من الحر والبرد وأمثالها .

(وللحاجيات) مكملات أيضاً، كوجوب رعاية الكفاءة، ومهر المثل على الولي في تزويج الصغيرة ....

الثالث : تحسينية (وهي) من قبيل اختيار الأحسن والأولى كتحريم الخبائث من القاذورات والسباع حثاً على مكارم الأخلاق فإنها منشأ الأخلاق السيئة . وأكثر مسائل الاستحسان مستخرجة منها .

والتقسيم الثاني المقصود من شرع الحكم، (وهو) إما أن يحصل بحصوله يقيناً كالبيع شرع للملك، أو يحصل ظناً كالقصاص (الذي) شرع للانزجار عن ارتكاب القتل وهو يحصل به غالباً، فإن الممتنعين عن القتل أكثر من المرتكبين، أو يحصل شكاً ويمثل بحدّ الخمر، فإن المساواة بين الشاربين والممتنعين محل منع، أو يحصل وهماً كنكاح الآيسة، فإن عدم النسل منها أرجح (بينما) شرع النكاح للنسل .

(ويتفرع عن ذلك) مناسبة الوصف للحكم بمفسدة راجحة أو مساوية (فإنها باطلة الحكم) وإن اعتبار مصلحة مع لزوم مفسدة أبعد من الحكيم كل البعد . وأما عدم اعتبار المفسدة

المرجوحة فلشدة الاهتمام برعاية المصالح دونها، إذ ليس من شأن الحكيم إهدار خير كثير لشر قليل .....

* * * * *

حكمة بالغة(١)

هي حكمة في (حِكَم) الماضي والحاضر والمستقبل .

ففيها حكمة التاريخ، وحكمة المعجزات والحقائق الكونية، وحكمة الآخرة ومافيها من مشاهد المؤمنين والمكذبين بالاعتماد فيها على الحياة المعاصرة والواقع المعاش . فأمّا حكمة التاريخ فهي (الأنباء) المروعة الزاجرة التي ينبغي أن تبلغ بعبرها ودروسها القلوب فيرتدع المعاندون الذين ربما يتوقعون مصيراً كمصائر الأمم الغابرة . وهذه الحكمة إذ توضح أهمية التاريخ الفكري والسلوكي والحضاري للأجيال الحاضرة والمستقبلية فإن شواهده لأصدقُ بياناً وأروع إيقاعاً . ويؤيد هذا العروض التاريخية السريعة التي ذكرتها آيات كثيرة جمع بعضها أقواماً في مصائب مهولة مذهلة تعدّ إنذارات لمن كان الرسول يخاطبهم بقوله ﴿يَاقومِ لايَجرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ (هود ٨٩)، بيد أن الحكمة (البالغة) خصت صراحة بسورة (القمر) فيما بعد، فهي وإن كانت من قصار السور المتوسطة فقد عرضت عدداً من قصص الأنبياء ومعجزاتهم وأشكال مصائر أقوامهم في خطف سريع ومكرر معقباً على كل عرض بإثارة الذهن الى التذكر والعبرة ﴿فَكيفَ كانَ عذَابي ونُذُرِ﴾ باعتبار أن القرآن مصدرها ومواقع تذكارها ﴿ولقَدْ يَسَّرنَا القرآنَ للذِّكْرِ فَهلْ مِنْ مُدَّكِرْ﴾، فَقدْ ﴿كَذَّبتْ قَبلَهُمْ قومُ نُوحٍ ..﴾ ففتح الله عليهم ﴿أبوابَ السَّماءِ بماءٍ منْهَمِرٍ﴾ وفجر ﴿الأرضَ عُيوناً فَالتَقَى الماءُ عَلَى أَمرٍ قَدْ قُدِرِ﴾ إنه لقاء ماء السماء بماء الأرض من أجل نفاذ أمره وتقديره بإيقاع الطوفان المدمر. وكذبت عاد فأرسل الله ﴿عَليهمْ رِيحاً صَرْصَراً في يومِ نحسٍ مُستمرّ﴾ يوم الشؤم الذي كان يقلعهم ويصرعهم على رؤوسهم مثلما تقتلع أصول النخل ﴿كَأَنَّهمْ أَعجازُ نَخْلٍ مُنقَعرٍ﴾، فتنكفئ رأساً على عقب . و﴿كذَّبتْ ثمودُ بالنّذرِ﴾ وهي التحذيرات المنذرة التي يمكن أن تقع أمثالها لقريش وكفارها، إنها ناقة النبي صالح (فتنةً لهمْ) ولكنهم عقروها فأهلكهم الله

---

(١) (القمر ٥) وتتمتها (فما تغن النذر) وهي محور السورة كلها .

بصيحة واحدة ﴿فكَانُوا كَهشيمِ المحتَظِرِ﴾ هي عيدان يابسة يعملها (المحتظر) للغنم بعد أن دِيسَت وفتّتت وصارت كالتراب .

و﴿كذَّبتْ قومُ لوطٍ بالنُّذرِ﴾ أيضاً وقد عرفوا بشذوذهم فأرسل الله عليهم ريحاً حصباء ترميهم بالحجارة في عذاب باكر مستقر .

وفرعون وآله المكذبون الجبابرة لم يغنهم تكذيبهم ولاجبروتهم فأخذهم الله بالغرق وكانوا عبرة خالدة ﴿فأخَذناهُمْ أخذَ عَزيزٍ مُقتدرٍ﴾ .

هذا التاريخ المرير العصيب وقائع دنيوية مثيرة فما بالك بمصائرهم يوم الدين ﴿إنَّ المجرمينَ في ضلالٍ وسُعرٍ ◆ يومَ يُسحبونَ في النَّارِ عَلى وُجوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ .

وقد جمعتها وغيرها آية العنكبوت ﴿فَمنهُمْ مَنْ أَرْسلنَا عَليهِ حَاصبَاً ومِنهمْ مَنْ أَخذتْهُ الصيحةُ ومنهمْ مَنْ خَسفنَا بِهِ الأرضَ ومَنْهمْ مَنْ أَغرقنَا﴾ (العنكبوت ٤٠) .

- إنها إنذارات تاريخية لأعتى الأمم في تاريخ الأنبياء سقطت من بعدها حضارات شهيرة وزالت معها معالم المكتسبات البشرية وزال معها صناعها وأهلوها . ولذا فإن (النذر) المرتبطة بـ (الحكمة البالغة) قد تكررت في السورة (اثنتي عشرة) مرة مع أن القوم المنذرين لم يتجاوزا أربعة أقوام مضافاً لهم مجرمو مكة والمعاندون من العرب .

وبينما كانت الإنذارات تتوالى قارعة الأسماع والقلوب كانت فرص (التذكر) و (التنبه) و(الاتعاظ) الواردة (ست) مرات كافية لأن ينتفعوا بذكراهم ويفيدوا من تنبههم واتعاظهم، وبالحكمة البالغة من عبر التاريخ ودروسه، ولكن ﴿فَمَا تُغنِ النُّذُرُ﴾ لهذا الزجر التاريخي الأهم في عروضه السريعة الأخاذة القوية وبصراحة الإنذارات والعظات من الحكمة البالغة .

وأما الحكمة الآخرة البالغة فقد تداخل معظمها بأحداث التاريخ وحضارات الأقوام المعاندة، ولكنها الساعة ﴿مَوعدُهُمْ والسَّاعةُ أدهَى وأَمَرُّ﴾ وعندئذ يسحب المجرمون على وجوههم في النار التي تهلك بمسِّها، فكيف بدخولها والخلود فيها ؟ إنهم يستحقون المصير الأخروي بسبب ما قدموا من انحرافات قد سجلتها لهم حفظة الملائكة وسطرتها في صحائفهم السوداء . فمن لم تنفعه (إنذارات) الدنيا فلم لاينتفع بإنذارات الآخرة ؟، ومن لم يتعظ بحكمة التاريخ فلم لايتعظ بمصير البشرية المحتوم ؟ إنهاحكمة كاملة تبلغ النفوس وتؤثر في

القلوب ولكن ﴿فمَا تُغنِ النُّذرُ﴾ . وإذ إنها حكمة المصير فإنها تنبّه الى وجهها المشرق وجانبها الجميل الوضيء . إنه مصير المتقين في الظلال والأنهار وفي مكان شريف كريم ﴿في مَقْعَدِ صِدقٍ عِندَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ .

إن من يعتبر بالمستقبل الدائم بعد أن أفاد من الماضي القريب والبعيد فقد تمسك بالحكمة البالغة التي تدل على قيم إنسانية رفيعة في الإفادة من القوى الإنسانية عبر التاريخ .

وأما حكمة المعجزات والحقائق الكونية فقد قدم الله القول فيها من أول السورة وهي في حقيقتها إنذارات وعبر لابدّ للعقلاء من الانتفاع بها، وبخاصة ما وقع من انشقاق القمر فلقتين، الحادثة التي تواترت الأخبار الصحيحة على وقوعها وصدّقها الرصد الفلكي الحديث وهي حادثة كونية عجيبة مفزعة كانت في مرأى المؤمنين والكافرين حينذاك . وهي إلى أنها خارقة للنواميس النظامية الظاهرة فإنها من النواميس الكونية الخفية التي أكرم الله بها رسوله لترهب المعاندين في كل آن .

وإذا أحكم الله نظام الكون بالحكمة الإلهية والتقدير المتقن فإن المعجزات نظام إلهي آخر وقانون رباني يسخرها مبدع النظام ومقدر القانون في كلتا الحالتين . وهذا التقدير العام والخاص هو الذي أعلنه الله في السورة نفسها ﴿إنّا كُلَّ شيءٍ خَلقْناهُ بِقَدرٍ﴾ فإن من الحكمة البالغة الكشف عن أسرار الخلق وإبداع النظام والتقدير المحكم لخلق الإنسان والكون وفق القدرة والحكمة الإلهيين . فقد (استقرت) الأمور، وثبتت الأحوال ضمن النظام الرباني البعيد عن أهواء الجحود ومزاجات أصحابه . وسواء بدأ الكون في فوضى هائلة كما تقول بعض النظريات أو لم يبدأ بذلك فإن استقرار الأمور فيما بعد وثبات الأوضاع (ظاهرة) الخلق السماوي والأرضي والإنساني، الفلكية والرياضية و الفيزيائية .

فاقتراب الساعة وانشقاق القمر ورؤية آيات الله في الطبيعة والكون والإنسان عبر تاريخ الطبيعة والكون والإنسان حكمة بالغة لاينبغي أن تقابل بالعناد الدائم والنفور الشديد والاستبشاع المرّ ﴿ويقولُوا سِحْرٌ مُستمرّ﴾ .

- يقول الرازي : ﴿وَلَقدْ جاءَهمْ مِنَ الأنباءِ مَا فيهِ مُزدَجَر﴾ إشارة الى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة وأقام الدليل على صدقه وإمكان قيام

الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية لأن من يكذب بها لايصدق بشيء من الآيات فكذبوا بهاواتبعوا الأباطيل الذاهبة،وذكروا الأقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم . وهذا هو الترتيب الحكمي ولهذا قال بعد الآيات : حكمة بالغة .

ثم يتابع القول في أحد وجوه التفسير : هذا الترتيب الذي في إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بما مضى من القرون وانقضى حكمةٌ بالغة ...

بينما أبرز ابن كثير عدم إغناء النذر لمن طبع الله على قلبه حيث قال : ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأنبَاءِ﴾ من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل وما حلّ بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿مَا فيهِ مُزدجَر﴾ واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذب . و(حكمةٌ بالغةٌ) في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فمَا تُغنِ النُّذرُ﴾ أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه ؟ فمن ذا الذي يهديه ؟

ويجمع (القاسمي) بين التاريخ والحقائق الكونية فيقول : ﴿ولَقَدْ جاءَهمْ مِنَ الأنباءِ﴾ أي عن القرون الخالية والحقائق الكونية مما يستحيل أن يأتي به أميٌّ غيره ﴿ما فيهِ مُزدجَر﴾ أي مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو، (حكمةٌ بالغةٌ) أي بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة(١) .

ولكن أليست حكمة تستوعب أنواع (الحِكَم) للنبوات خاصة والتاريخ عامة، ومن ثم تستوعب حكم الإنذارات التي كان من المفروض أن يكون فيها (مزدجر) للمعاندين إذ هي كمال الحكمة الإنذارية التي عاقب الله بها أعتى الحضارات السالفة ؟

وإذا إنها لاتقتصر على أقوام الأنبياء وإنما تشمل سائر البشر الذين قدَّم الله لنا نماذج منهم وفي صراع الحق والباطل وتحديات الشر أمام الخير فإنها وبانقطاعها اللفظي عما سبقها حكمة تامة كاملة لا نقص فيها من حيث جوهرها ولانقص فيها من حيث مظاهرها وآثارها .

---

(١) انظر علاقة الآية : حكمة بالغة .. بـ (ما تغني) النافية أو الاستفهامية في كتب التفسير.

إنها حكمة متغلغلة في أعماق التاريخ والكون قائمة على فعالية الحضارات في الفكر والسلوك والإنجازات الفردية والجماعية وهو مفهوم (مبدع) عن أي مفهوم آخر للحكمة في المعارف العلمية والعملية من خلال الأطر الفلسفية وغير الفلسفية .

و (الحكمة البالغة) واقعة في العالم الحاضر أيضاً ما دامت إنذاراتها من زلازل وفيضانات وأعاصير أرضية تترى، وعلى مسمع ومرأى منا، فإن الاعتبار بها أكثر خطورة وأبلغ آثاراً من اعتبارات الماضي والتاريخ، والمسألة تتعاظم ملايين وملايين المرات في الأحداث الفضائية والكونية، فهناك مذنبات وكويكبات اصطدمت بالكواكب مثل عطارد والأرض، وتركت آثارها في حفر هائلة في كل مكان، .... ويمكن للشمس أن تكون في طريقها الى استنفاد طاقتها، كما أن نجوماً تنفجر بما قد يهدد كوكبنا، بل إن الفضاء نفسه فيه ما يدل على عدم استقراره، وأن الكون هشٌّ ومتفجر يمكن أن تكون به نهاية العالم(١) . ومن هذه الاعتبارات المحاولات الممكنة للتخفيف من وقع الإنذارات ومصائبها إن لم يكن الخلاص منها، وأخذ الحيطة العلمية والعملية اللازمة للإفادة من القوى الطبيعية الهائلة لمصالح الإنسان، والتعاون البيئي الأممي في دفع شرورها وويلاتها وآثارها، وضرورة إبراز الجانب الإلهي الوعظي من الحوادث الكونية المدمرة للأوبة الى خالق هذه الحوادث ومن ثم للعمل من قبل ومن بعد على احتوائها إن أمكن بالقيام بمنشآت وقائية وأخرى علاجية وثالثة بنائية . وإن توجيه الرسول للأعرابي (اعقلها وتوكل) من الحكمة البالغة التي تعد قاعدة دينية وحضارية . فالمحافظة على المؤسسات الدينية والدنيوية من الدمار الواقع والمتوقع من الحكمة البالغة التي أمر الله أن يدفع (الناسَ بعضَهم ببعضٍ) . وازدهار الاقتصاد الإسلامي وقوة المسلمين مدنياً وعسكرياً من خلال علومهم ومعارفهم المتقدمة من الحكمة البالغة التي توجّه المسلمين الى (المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ منَ المؤمنِ الضَّعيفِ) . ففي الحكمة البالغة قوى سالبة لابدّ من أن تتجنب أو يخفف من شرها وفيها قوى إيجابية لابدّ أن تساهم في بناء الحاضر والمستقبل . وإلاّ فإن تضييع هذه الحكمة فقدان للعقول الحكيمة والنفوس المدبرة، وإسهام في تراكم التواكل والتقصير وتعطيل للقدرات الفاعلة المبدعة .

---

(١) النهاية : كلوز بتصرف طفيف .

الحكمة سبيل إلى الحكمة

﴿ادْعُ إِلى سبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمةِ والموعِظةِ الحسَنةِ وجَادِلهُمْ بالتي هي أَحسنُ﴾ (النحل ١٢٥)

فإذا تحقق في الحكمة الفضيلة الخلقية والفكرية كقيمة ذاتية فإنها أيضاً فضيلة منهجية وأسلوبية تتجلى في العرض الحسن والأداء الحكيم، وقد يفضل الأداء والعرض على الأصل والجوهر، فإن تزيين الفضيلة وتجميل عرضها مما يجلب لها الأنظار، وتنبه لفوائدها العقول وتلفت لمحاسنها القلوب وبخاصة أولئك الذين تعجبهم الزينة ويتأثرون بالجمالية وهم الأغلب في فطر الناس الذي يسرّون بالعروض الجميلة . وهذا ما كان عليه القرآن مضموناً ومنهجاً وأسلوباً .

وإذا كان تزيين الشرِّ إطاراً وعرضه بالأسلوب الجذاب رواجاً له وإن كلّف صاحبه المال والشباب والوقت، واقتضى دعماً مشبوهاً لسعة انتشاره، فما بالك بالحق إذا عرض بالحكمة والموعظة الحسنة والتزيين المناسب، وهذا ينبه الى مسؤلية الدعاة الذين يريدون بحق وإخلاص الإصلاح والتغيير، فهناك جمال الحق والخير، وجمال العرض والأسلوب والدعوة التي تتطلب وسائل علمية وقدرات وهيبية، إنها بحاجة الى الاطلاع على علم النفس والاجتماع والأخلاق ودراسة التيارات والمذاهب الفكرية القديمة والمعاصرة إلى جانب التزام الداعي بصفات الداعية الموفق العامة، فهي إذاً دعوة مطلوبة مأمور بها معمقة تأثيرية حسب مقتضى الحال، ملونة بأساليب مجدية تتعرف في أغوار النفس البشرية على اختلاف طبائعها وخصائصها ومعارفها . وهي بفرديتها وجماعيتها ورسميتها وشعبيتها من مهمات الدولة والأفراد والمؤسسات أكثر من أنها حرفة أو وظيفة دينية خاصة ، ومن نافلة القول : أن الدعوة لاتقتصر على البيان الحكيم الذي قدم له القرآن بقوله (ادعُ) فإنها تشمل القدوة الفاضلة والريادة الحسنة والفعل المعتدل الملائم مستفيداً من الإنجازات العلمية المادية والجمالية النافعة .

وسأعرض لثلاثة مواقف لعلماء تنوعت مواهبهم وتلونت معارفهم حول الآية السابقة : الزمخشري،والغزالي،والرازي. الذين اتفقت بينهم النظرات الواقعية في تلوين الدعوة وفقهها.

- فالزمخشري في تفسيره يذكر وسائل فكرية عديدة في الدعوة الحكيمة مثل : المقالة المحكمة، والمناصحة الحكيمة، وقصد النفع، والدعوة الى القرآن بالقرآن، إلى جانب توصيف الطريقة بالرفق واللين .... يقول :

(إِلى سبيلِ ربِّكَ) إلى الإسلام (بالحكمة) بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة (والموعظةِ الحسنةِ) وهي التي لايخفى عليك أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فيها ، ويجوز أن يريد : القرآن أي ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة. ﴿وجَادِلهمْ بالتي هي أَحسنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف .

- والغزالي يرسم صورة متكاملة عن المنهج العملي للدعوة أو منهجه العملي في الدعوة حيث يصرح بقوله : أدعو، ألاّ أتعصب أرفق، أجادل ....

وبينما يؤكد على ضرورة تناسب الدعوة لمختلف الناس لئلا تنقلب المنافع إلى أضرار، وتنعكس الفوائد الى مثالب فإنه يهتم بالطباع والنفسيات أكثر من اهتمامه بالثقافة والتحصيل، إلى جانب اعتبار المجادلين صنفاً يمكن دعوتهم مع سائر الأصناف، وأما البُلْه وهم جميع العوام، وهم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق، فأدعو هؤلاء إلى الله بالموعظة، كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة وأدعو أهل الشغب بالمجادلة، وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة في آية واحدة حيث قال ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحكْمَةِ والمَوعِظةِ الحسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بالتي هي أَحسَنُ﴾ .

فعلم أن المدعو الى الله بالحكمة قوم، وبالموعظة قوم، وبالمجادلة قوم، فإن الحكمة إن غذي بها أهل الموعظة أضرت بهم، كما تضرّ بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير .

وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوي من الارتضاع بلبن الآدمي .

وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال، لا بالطريق الأحسن، كما تعلم من القرآن، كان كمن غذى البدوي بخبز البر، وهو لم يألف إلاّ التمر، أو البلدي بالتمر وهو لم يألف إلاّ البرّ.

وأما أهل الجدال فهم طائفة فيهم كياسة، ترقّوا بها عن العوام، ولكن كياستهم ناقصة، إذ كانت الفطرة كاملة، ولكن في باطنهم خبث وعناد، وتعصب وتقليد، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق، وتكون هذه الصفات أكنّة على قلوبهم أن يفقهوه، وفي آذنهم وقراً .
وإني أدعوهم بالتلطف، ألاّ أتعصب عليهم ولاأعنفهم، ولكن أرفق وأجادل بالتي هي أحسن(١) .

- والرازي في تفسيره يفلسف المسألة متأثراً بأسلوب المنطق الصوري ويربط الدعوة بنوعية الدليل والبيان حسب مقتضى الحال، وبينما يفصل بعض الشيء عن الجدل وأهله ومنزلته من أصناف الناس المدعوين باعتبارهم صنفاً خارجاً يقصد منه الإفحام وليس الدعوة والتأكيد على كمالية الحكماء فإنه يصنف الناس وفق دعامتين : الثقافة والطباع، وأن الدعوة ينبغي أن تتناسب مع هاتين الدعامتين، يقول :
انحصار الحجج في الأقسام الثلاثة : أولها الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينيّة، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فقدْ أُوتِيَ خَيراً كَثيراً﴾ (البقرة ٢٦٩) ، وثانيها الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية، وهي الموعظة الحسنة، وثالثها : الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل . ثم هذا الجدل على قسمين :
الأول : أن يكون دليلاً مركباً من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن .
الثاني : أن يكون ذلك الدليل مركباً من مقدمات باطلة فاسدة إلاّ أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب، والحيل الباطلة، والطرق الفاسدة، وهذا القسم لايليق بأهل الفضل .

إذا عرفت هذا فنقول : أهل العلم ثلاث طوائف : الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة مع هؤلاء لاتمكن إلاّ بالدلائل القطعية اليقينية، وهي الحكمة .
والقسم الثاني : الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لاطلب المعرفة الحقيقية

---

(١) الغزالي في : القسطاس المستقيم ونقله د/سليمان دنيا في : تهافت التهافت لابن رشد ص ٢٦ .

والعلوم اليقينية، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام، وهـذان القسـمان هما الطرفان . فالأول : هو طرف الكمال، والثاني : طرف النقصان وأما القسـم الثـالث : فهو الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمـال الى حـدّ الحكمـاء المحققـين، وفي النقصـان إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعـارف الحكميـة، والمكالمـة مـع هـؤلاء لاتمكـن إلاّ بالموعظة الحسنة، وأدناها المجادلة . وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون، وأوسطهم عامة الخلق، وهم أرباب السلامة وفيهم الكثرة والغلبة، وأدنى المراتب الذيـن جبلـوا علـى طبيعـة المنازعة والمخاصمة ... ومن لطـائف هـذه الآيـة أنـه قـال ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّـكَ بالحكْمـةِ والموعِظةِ الحسَنةِ﴾ فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين لأن الدعـوة إن كـانت بـالدلائل القطعية فهي الحكمة، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة، أما الجدل فليس مـن باب الدعوة، فالمقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلـزام والإفحـام، فلهـذا لم يقـل ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطـع الجـدل عـن بـاب الدعوة تنبيهاً على أنه لا يحصل بالدعوة، وإنما الغرض منه شيء آخر .... إن اهتمام العلمـاء بحكمة الأسلوب يستوعب معان جلّى : فهو يوظـف معـارفهم المتعمقـة في التبليـغ، ويحثّهـم دوماً على إرادة الإصلاح والتغيير بأفضل الطرق، ويدفعهم الى الدفـاع عـن الشريعة والـرد على مناوئيها وردّ الأباطيل عنها إلىجانب البناء الإنساني الأفضل متفيئين ظلال آية الدعـوة التي ترسم منهجاً حكيماً متسقاً مع حكمة القرآن العامة للإفادة من أدبها وتوجيهها في بنـاء حضـارة القـرآن، ومـادامت مواصفـات الدعـوة عامـة فـإن الإفـادة مـن التقانـة الحديثـة لهـا واستخدام وسائلها الجذابة من مسؤليات الدعاة . فإن تقريب المبادئ وتزيين القيم بأحدثهـا وأحكمها من أجلّ الأعمال التي يمكن أن تبعد الشباب عـن الملهيـات المغرية وتحبـب إليهـم فضائل الحق والخير ومُثلَ الإسلام، فإن هذه الوسائل ذات أهمية بالغة في مستجدات العصـر ومغرياته .

الحكمة والمستشرقون

يقول (هيوار) في (دائرة المعارف الإسلامية) :

حكمة (بالعبرية : حُخْما، وبالسريانية : حِخمتا) أطلق هذا اللفظ في السور المكية على تعاليم الرسول (انظر سورة النحل الآية ١٢٥) ، (سورة القمر ٥) ثم استعمل مرادفاً للكتاب المنزل (آل عمران ٤٨، ٨١، ١٦٤) و (النساء ٥٤) و (المائدة ١١٠) و (الإسراء ٣٩) . وانظر كذلك الإنجيل (الإصحاح ٤٣ آية ٦٣) واستعمل أيضاً للدلالة على القرآن نفسه (البقرة ٢٥٢) و (النساء ١٢٣) و(الأحزاب ٣٤) و (سبأ ٢) .

واستعمل لفظ (الحكمة) في معناه الأصلي في (البقرة ٢٦٩، ٢٥١) و (ص ٢٠) و (لقمان ١٢) ، وقد وصف لقمان بالحكمة وفسر الطبري الحكمة في هذه الآية بالفقه في الدين والعقل والإصابة في القول (انظر تفسير الطبري ٣٩/٢ وفسرها البضاوي ١١٢/١٢ س ٣ بقوله : الحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها . ونجد معنى الحكمة على هذا الوضع أيضاً في نقوش (قتبان) إذ فيها حـ - ك - م صفة من صفات الإلة القمر .

ويفسر علماء اللغة الحكمة بأنها معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم (اللسان ص ٣٠) وكذلك العدل في القضاء والعلم بحقائق الأشياء على ماهي عليه والعمل بمقتضاها (تاج العروس) .

ويطلق علماء الكيمياء اسم الحكمة كذلك (انظر مفاتيح العلوم ص ٢٥٦)، دائرة المعارف الإسلامية (هيوار) .

المصادر :

الغزالي : إحياء علوم الدين ط ١٢٨٩ هـ ٨٧/١

كشاف اصطلاحات الفنون ط شبرنجر ٣٧٠/١

المجلة الآسيوية مج ٩ ج ١٩ ، ١٩٠٢ . انتهى كلامه .

أقول : يمكن تحليل كلام هيوار إلى :

١- الأصل اللغوي : فهو متقارب بين العبرية والسريانية والعربية مما يعني قِدَم (الحكمة) في العربية واقتباس اللغات الأخرى منها باعتبارها أصل الآرامية كما ثبت في الدراسات الحديثة، حيث أن الجزيرة العربية أو أطرافها كانت الموطن الأصليّ للخليقة الأولى، وأن (عرب) و(عبر) أصل السامية التي (عبرت) موجاتها منها وإليها، وأن لسانها أقدم اللغات واللهجات بما فيها العبرية والسريانية، وإن قصد كاتب المادة العكس تماماً . ونحن لا يعنينا من الخلاف اللغوي الأصلي سوى أن (الحكمة) لفظ عربي كان متداولاً في الأدب الجاهلي وشائع الاستعمال في الأشخاص والشعراء كما سبق . واستخدمه القرآن والحديث كثيراً بعد أن نقله من دلالته المادية من حَكَمة الدابة الأصلي . وعروبة هذا اللفظ لاتتأثر بالتأثرات اللغوية الأخرى حتى وإن كان (مستعرباً) أو لاحقاً لأصل سابق، فإن استخدام القرآن والحديث له بمثل هذا الحجم والتوسع الكبير في دلالاته مع تنوع تعلقاته بالله والرسل والكتاب والأشخاص العاديين من ناحية وتعلقه بقيم الرسالات ومضامين القرآن خاصة وبالانتاج المعرفي العام يجعل منه لفظة قرآنية حديثية بالاستخدام والأصل معاً . ويؤكد هذا أنه وجد في آثار عربية عريقة . وقد اعتاد بعض المستشرقين أن يلحقوا العربية بالعبرية والسريانية وغيرها، ويربطوا ألفاظ القرآن الهامة بها مثل الصوم والصلاة والحج والرحمن والشريعة ..... ليثبتوا شبهة تبعية القرآن بالكتب السماوية السابقة واقتباس الإسلام من الأديان قبله وإن ابتعدوا عن المنهجية والموضوعية متأثرين برواسب كنسية أو تلمودية زائفة. ويذكر (هيوار) الحكمة في القرآن ويفسرها من ثلاثة جوانب : التفسير المكي، والمدني والأصلي، بالإضافة الى تأثر الصوفية بها .

٢- التفسير المكي للحكمة : فالمستشرق (هيوار) يرى أن هذا اللفظ (الحكمة) أطلق على تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم في سورتين مكيتين : (النحل ١٢٥) و(القمر ٥) ، ومع أنه لم يذكر ماهية هذه التعاليم، ومع أنه نسبها للرسول نسبة مشكوكة و لم ينسبها لله تعالى، فإن آية النحل تبيّن (أسلوب) الدعوة أكثر مما تبين (التعاليم) كما أشار الى ذلك كثير من المفسرين، فهي توضح هذا الأسلوب بأنه ينبغي أن يكون حكيماً وواعظاً حسناً فهي ﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحكمَةِ والمَوْعِظةِ الحسَنةِ﴾ (النحل ١٢٥) وإلاّ فيكون المعنى بنظر (هيوار):

ادع الى التعاليم بالتعاليم .... وهذا على خلاف المراد في التنزيل المكي خاصة حيث إن المطلوب من الرسول البيان الحكيم والموعظة الحسنة ليتم الإقلاع عن العادات والعقائد الجاهلية بالقناعة والرضا . وكذلك فإن آية (القمر ٥) وهي ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ تحذير قوي للعرب من مغبّة الاستمرار على الضلال الديني والفساد الاجتماعي، بما وقع للأمم المجاورة التي هي خير (مزدجر) لهم، وأفضل عبرة لحياتهم . فصلةُ الحكمة بالتعاليم بعيدة حسب سياقها في السورة لأن ما قبلها وما بعدها ينبه الى حكمة التاريخ وعبره ودروسه . وبقي أن نشير إلى أنه ذكر فيما بعد في (التفسير المدني للحكمة) سورة (سبأ ٢) مع أنها مكية ولاتوجد فيها لفظ الحكمة أصلاً كما أشار الى ذلك المعلق . أضف الى ذلك أنه لم يعلّق (هيوار) بشيء على لفظ (الحكمة) في سور مكية أخرى مثل (الزخرف ٦٣)، فلم تستوف المادة من جميع سورها وآياتها المكية .

٣- التفسير المدني للحكمة : وهو وإن لم يصرح بـ (المدني) إلاّ أنه أشار إليه بعد أن ذكر التفسير المكي بقوله : ثم استعمل مرادفاً للكتاب المنزل .... وساق معه السور المدنية الموجودة فيها . وإذ إنه لايقصد الدلالة المكية السابقة وجمع لذلك سوراً مدنية ومكية وخلط بينها كما سبقت الإشارة إليه فإنه يفهم من قوله الكتاب المنزل أنه غير القرآن وغير الكتب مثل الإنجيل - التوراة كما سيأتي، ومن خلال ذلك يمكن إيضاح مايلي :

أ- الحكمة مرادفة للكتاب المنزل في (آل عمران ٤٨،٨١،١٦٤) ... وهذا ليس دقيقاً في آيات وليس صحيحاً في آيات أخرى، وفي ذلك تفصيل :

- إن آية (آل عمران٤٨) تتحدث عن عيسى عليه السلام الذي ﴿يُعلِّمهُ الكتابَ والحكْمةَ والتوراةَ والإنجيلَ﴾ ولا علاقة لها بالقرآن وهو زيادة عن التوراة والإنجيل . وكذلك (آية ٨١) فإنها تتحدث عن الأنبياء وكتبهم وميثاق الله لهم ﴿لَمَا آتَيتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وحِكْمةٍ﴾، وأما (آية ١٦٤) فهي خاصة بالرسول ﴿ويُعلِّمُهمُ الكتابَ والحِكمَةَ﴾ وليس جزماً أن تكون مرادفاً للكتاب فيحتمل وهو الأرجح أن الله علّمه السنّة أو شيئاً آخر مع تعليمه الكتاب كما أشار الى ذلك كثير من المفسرين .

- وآية (النساء ٥٤) هي إخبار عن إبراهيم وآله كما صرحت الآية وليست عن الرسول محمد، و(الحكمة) فيها وإن اقترنت بالكتاب فليس من الضروري أن تكون مرادفاً له فيصحّ أن الله آتاه الكتاب وأعطاه الحكمة مما هو معروف من رجاحة عقله وحكمة قوله وتصرفه فهي من عطايا الله وهباته .

- وكذلك آية (المائدة ١١٠) فهي تتحدث عن عيسى عليه السلام وفضائله في العطاء الإلهي من تعليمه الكتب والخوارق .

- أما آية (الإسراء ٣٩) فإنها (المكية) التي تبين أن الحكمة من وحي الله التي يصح أن تطلق على القرآن أو على آيات منه .

ب - الحكمة هي القرآن : وفي نظر (هيوار) أن هذه الدلالة موجودة في (البقرة ٢٥٢) و(النساء ١٢٣) ... وفي ذلك تفصيل :

- فآية (البقرة ٢٥٢) لايوجد فيها لفظ الحكمة كما قال المعلق وإنما هي في (الآية ٢٥١)، ولكن دلالتها على الحكمة التي آتاها الله لداود عليه السلام وليس لها علاقة بالقرآن من قريب أو بعيد، وهي غالباً تشير الى الزبور الذي لم يذكر هنا أصلاً .

- وآية (النساء ١٢٣) لايوجد فيها لفظ الحكمة أيضاً كما قال المعلق وإنما هي (الآية ١١٣) في قوله ﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكِتابَ والحكمَةَ وعلَّمَكَ مَا لَمْ تَكنْ تَعلم﴾ فقد خوطب بها الرسول عليه الصلاة السلام وليست نصاً في دلالتها أن الكتاب المنزل هو القرآن، فهي مستقلة ومعطوفة على الكتاب والأولى أن معناها هو المقدرة على تحرّي الحق والصواب، وكل ما يأتي من عند الله يعبر عنه بأنه منزل منه سبحانه (انظر الأعراف ٢٦) و (الحديد ٢٥) ففي (الأعراف) أنزل الله علينا اللباس الساتر والزينة، وفي (الحديد) أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس .

- وآية (الأحزاب ٣٤) وحدها تدل على القرآن وعلى آيات منه كما صرح بذلك قوله (واذْكرنَ مَا يُتلَى في بُيوتِكنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحِكمةِ﴾ وهذا صحيح .

ج - الحكمة بالمعنى الأصلي : يقول (هيوار) : واستعمل لفظ (الحكمة) في معناها الأصلي في (البقرة ٢٦٩) ...

- ففي آيتي (البقرة ٢٥١) و (ص ٢٠) يتحدث الله عن حكمة داود عليه السلام، وإذا لم يبين (هيوار) معنى الحكمة فإن الأقرب أن تدلا على كتاب (الزبور) باعتبار انفراد الآية بهما من غير التصريح بالكتاب، فالله يقول في آية البقرة : ﴿وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكمةَ﴾ وقريب منها آية (ص)، فإن (الزبور) مشتمل على معرفة أسرار الشريعة ومنها مزامير داود المعروفة.

- أما آيتا (البقرة ٢٦٩) و (لقمان ١٢) وليس (لقمان ٢) كما ذكر، فإن دلالتها عامة يخص الله بها من يشاء من عباده ومنهم لقمان الحكيم . فهي تدل على حسن التصرف ووضع الشيء في موضعه وحكمة القول والغوص في أسرار الأشياء .

د - **الحكمة والعلوم** : اقتصر (هيوار) على علم واحد هو الكيمياء الذي أطلق عليه الحكمة مع أن الغزالي الذي كان أحد مراجعه في كتابه (الإحياء) قد ذكر (اطلاقات) عديدة للحكمة على علوم كثيرة[1] .

ومن ناحية أخرى فإنه اقتصر في تفسير الحكمة على الطبري والبيضاوي في آية (لقمان) وحدها، وفي هذا نقص لم يستوف معانيها من معظم المراجع في علم التفسير ومثله في اللغة إن لم نقل جميعها .

٤- **النظرة النقدية العامة** : فإلى ما تقدم من الملاحظات والتعقيبات يمكن التنبيه إلى الأمور التالية :

أ - اطلاعات (هيوار) العامة عند كتابة هذه المادة على أنواع محددة من المصادر اللغوية والعلمية والفلسفية والدينية ومقارنتها بالآثار القديمة وإن لم تتطلب المادة مثل هذه المقارنات أحياناً ، وبأسلوب بعيد عن التحيز والتزييف صراحة .

ب - أغلاط ونقص وضعف العزو والمرجعية : فقد وقعت أغلاط عديدة في رقم الآيات وحيث لم يصح سوى ١٦/٢ منها بما فيها (٣) مواضع غير موجودة أصلاً، وكذلك في تعيين المطلوب منها كما سبق الى جانب قلة المراجع التي اعتمد عليها الباحث وإغفال المراجع المتخصصة الأخرى كالمناوي وابن مسكويه والخوارزمي، وينتج عن ذلك ضعف البحث ومحدوديته إجمالاً .

---

(١) انظرها في الإحياء ٨٨/١ ، الغزالي ، انظرها في ص ١٣ من هذا الكتاب .

ج - ترتيب السور خاطئ : فقد جعل سورة (الإسراء) متأخراً وحقها التقديم، والترتيب الصحيح هو : القمر - الإسراء - النحل .

د - المعالجة الخاطئة : وهي مسألة خارجة عن : حكمة القرآن . ومع ذلك ففيها أغلاط، فقد خطّأ (بوير) ماذكره (هيوار) عن الحكمة المشرقية، وسأثبت كلاً من الكلامين .

يقول هيوار : حكمة الإشراق وهي نوع من تصوف الأفلاطونية الحديثة، فهي الفلسفة المشرقية التي ظهرت في أيام ابن سينا وصنف فيها رسالة سماها (الحكمة المشرقية)، وكان لها في ذلك الوقت طابع من الإبهام تحررت منه بعد ذلك .

ويرد عليه (بوير) (وهو من الآباء الرهبان اليسوعيين) (ولد ١٨٦٩ م) قائلاً :

هذا وليس صحيحاً أن كلمة الإشراق كانت تسمى أيضاً الحكمة المشرقية، وأن ابن سينا كتب رسالة فيها ، وقد كتب (تللينو) مقالاً بيّن فيه على أساس فلسفي صحيح أن ابن سينا صنف كتاباً جامعاً في الفلسفة الشرقية - أي الحكمة المشرقية . طبع أحد أجزائه وهو المتعلق بالمنطق في القاهرة سنة ١٩١٠ بعنوان منطق المشرقيين (كتبت المُشْرقيين خطأ في مادة (ابن سينا) ويقال : إن هذا الكتاب يختلف عن غيره من مؤلفات ابن سينا التي غلب عليها طابع الفلسفة المشائية . وعلى هذا ينبغي تصحيح ما ورد في صدر مادة (الإشراقيون) من المعلومات .

وهناك اتباع لحكمة الإشراق كما علمها السهروردي المقتول، وجوهرها التوفيق بين الآراء المختلفة، وقد بينت في إيجاز أصل هذه الحكمة في مقال كتبته تحت عنوان (فلسفة) في دائرة معارف الدين والأخلاق، شرحت فيه بنوع خاص الإلهيات في الفلسفة الإشراقية .

دائرة المعارف الإسلامية السابقة ده بور TJ. De Boer .

هـ - **الضعف العام** : وهو نتيجة عامة لما سبق . فإن (الحكمة) في القرآن تعد بـ (٢٠) مرة، وبلفظ (الحُكْم) الدال على الحكمة (١٢) مرة، وفي كلٍ منهما دلالات هامة غير ما ذكر مما يضعف تناوله المادة في موسوعة كدائرة المعارف الإسلامية، أضف الى ذلك خلو معالجة (الحكمة) في الحديث النبوي المفسر للقرآن في أحيان كثيرة، مع أن (هيوار) تطرق الى الحكمة المشرقية فيما بعد، وكان من المناسب إبراز الفروق بين الحكمة الإسلامية

والفلسفة الإسلامية والإغريقية لمعرفة مدى تأثر الفكر الإسلامي بهـا بالإضافـة الى سـطحية الدلالات وإغفال معناها الأصلي المادي المشتق منه . وهذا وغـيره أوقـع الكـاتب في معالجـة جزئية ضعيفة قصرت عن الصفحة الواحدة مع أن المادة من أغنى المواد في الثقافة الإسـلامية وفي مقدمتها القرآن والسنة والتاريخ[١] .

* * * * *

---

(١) قارن على سبيل المثال بحث : علي زيور في الموسوعة الفلسفية ، وإن اختزل الكلام في حكمة القرآن .

الخاتمة

(لماذا حكمة القرآن)

ماهية الحكمة القرآنية

خصائص الحكمة القرآنية

جمالية الحكمة القرآنية

النتائج الحضارية والآثار للحكمة القرآنية

الخاتمة

(لماذا حكمة القرآن)*

ماهية(١) الحكمة القرآنية

إذا كانت الحكمة عموماً نتاج رؤية أو تصور عقلي عام أو جزئي نابع من مزيج من الثقافة والتجربة تؤدّى بلغة موجزة فصلة ومنها (الأمثال) عموماً ، فإن الحكمة القرآنية صيغٌ لفظية صريحة، ومستنبطات فيه، شاملة العلة والسبب، متعمقة في المجالات الفردية والاجتماعية والعالمية، معتدلة وسطية يراعى فيها أهداف عملية موزونة ومقاصد مهتمة برعاية المصالح في جلب المنافع ودرء المفاسد مستوعبة القضايا الإلهية والكونية والإنسانية في عالمي الغيب والشهادة، إلهية المصدر معجزة الأسلوب وإنسانية المنحى والاتجاه .

إن ماهية الحكمة السابقة تشمل مايلي :

١- صفات الحكمة القرآنية المتميزة عن أية حكمة بشرية أخرى بداية من مصدرها الإلهي ونهاية بجامعيتها وشمولها الإنساني والكوني حاملة أسمى الصفات والمعايير النظرية والعملية ذات الأهداف العملية النافعة كالوسطية، والتجريبية، والعلمية، والانسانية .

٢- الصيغ اللفظية الصريحة التي تشمل مصطلحي : الحكمة والحكم خاصة، وما وصف الله به ذاته في مواطن كثيرة وما وصف به بعض الناس الذين آتاهم الحكمة .

---

* راجع أيضاً : القرآن الحكيم .... ولماذا . ص ٦٦ .

(١) الماهية هي الحقيقة، ويمكن أن يشملها التفسير والتعريف، وقد سبقت لها تعاريف وبيان المراد منها .

٣- عبارات ومقاطع فصلة من جوامع الكلم القرآني تنضح بالحكمة المأثورة السائرة في الميادين والمجالات المتعددة .

٤- حكمة المشروعية وحكمة الأدبية من مسائل الحلال والحرام والتوجيهات الأدبية في إطار الحكمة والسببية، فالأحكام معللة والأسباب محكمة روعي فيها مصالح الناس، سواء اقترنت بأدوات التعليل المعروفة أو تجردت منها بقصد تنبيه النظر الى اعتبارها مثل ﴿مَاجَعلَ عليكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج ٧٨) و ﴿يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسرَ ولايُريدُ بِكُمُ العُسرَ﴾ (البقرة ١٨٥) و ﴿يُريدُ اللهُ أَنْ يخفِّفَ عنْكُم﴾ (النساء ٨) .

٥- التناسب الإعجازي اللفظي والمعنوي الذي فصله البلاغيون والأدباء وصنفوا فيه، وتابعوه في آي القرآن وسوره في اختبار علمي ذوقي بيّنوا فيه علاقة الآيات والسور بعضها ببعض منوهين بلطائف البيان الإلهي في انتقاء المفردات القرآنية وتراكيبه وصوره الرائعة .

٦- ذخائر الناس التاريخية الغنية من تاريخ البشرية وبخاصة زعماؤها وكبراءها وقصص الأنبياء مصرحاً بحكمة العبرة الموحية المثيرة في بعضها بينما تستنبط الدروس والعظات من أحداثها من بعضها الآخر لتصير تجارب وعظات حكيمة في حياتهم .

خصائص الحكمة القرآنية ومزاياها

١- وحدة المذهب القرآني : وهي ثمرة أو نتيجة من وحدة الدين الإلهي، وبينما نجد صراعات فلسفية مذهبية متطرفة ومتعارضة في الأصول والفروع وعلى مدى العصر الواحد والعصور المختلفة ترسخ الوحدة المذهبية القرآنية دعائمها في البنية البشرية العامة، ولا أَدلَّ على ذلك من (إفراد) المصطلحات المذهبية الواحدة . فإن من الملاحظات الظاهرة إفراد (الرسالة) والمراد بها جميع (الرسالات) (الأنعام ١٢٤)، وإفراد (الكتاب) الذي يدل على (الكتب) السماوية جميعها، وهو كثير أخص منها الآيات (آل عمران ٨١) المقترنة بالحكمة و(الأنعام ٨٩) المقترنة أيضاً بالحكم بمعنى الحكمة، وإذ هو كتاب منير (فاطر ٢٥) فإنه مقترن بالميزان ليقوم الناس بالقسط (الحديد ٢٥)، وكذلك إفراد القرآن (النبوة) في ثلاث

آيات اقترنت الأولى بالكتاب والحكم بمعنى الحكمة (آل عمران ٧٩) ومثلها في الآية الثانية تماماً (الأنعام ٨٩) واقترنت الثالثة بالكتاب وحده باعتبار أن النبوة هبة لذرية اسحاق ويعقوب (العنكبوت ٢٩) . فالأنبياء أبناء علات واحدة والرسول هو اللبنة الأخيرة التي أكمل الله بها البنيان كما جاء في الأحاديث الصحيحة .

إن وحدة المذهب القرآني لاتمنع أبداً من تعدد الشرائع، في الحضارة القرآنية فإنه تنوع ينال الرضى والقبول ويضع التعددية في مكانها اللائق الذي لايعني (التعارض) في المذهبية الواحدة وإنما يعني التكامل فيما بينها والإيمان بها واعتبارها من مصدرها الإلهي الواحد إنها وحدة تتضمن تنوعات وتعددات .

٢- **الواقعية الفاضلة** : فلم يعش الأنبياء في مُثلٍ خيالية وأبراج عاجية، ولا في مدن (فاضلة) مثل ما صورها الفلاسفة في شطحات خيالاتهم أو ربما في طموحاتهم وآمالهم ولكن كما قال القرآن عن عيسى وأمه مثلاً ﴿وأُمُّهُ صِدّيقةٌ كانَا يَأكلانِ الطَّعامَ﴾ (المائدة ٧٥) وقوم (عاد) الذين كانوا يأنفون من رسالة هود لهم بسبب واقعيته وأنه كان ﴿يَأكلُ مِمّا تَأكلونَ مِنهُ ويَشربُ مِمّا تَشربونَ﴾ (المؤمنون ٣٣) ، فالإيمان فطرة النفوس والتوحيد من دواعي العقول السليمة وهما أول الدين الواقعي، وتحرر المجتمعات من المفاسد وإرساء الفضائل السامية والممكنة معاً من الواقعية الصالحة . ونقل المجتمع من الجاهلية الى الإسلام ومن البداوة الفكرية والأمية الحضارية الى السمو الفكري والغنى الحضاري مما يتعايش فيه الناس استجابة لفطرهم وتحسناً لواقعهم وإصلاحاً لحياتهم، وعموماً فإن ألصق شيء بالواقعية الصالحة هو التذكير والتأكيد دوماً على بشرية الأنبياء في طرفيها الكبيرين : الحياة والموت وأعراضهما التي كانوا يعانونها ﴿هَلْ كنتُ إلاّ بَشراً رَسُولاً﴾ (الإسراء ٩٣) فهي بشرية فاضلة تدل على واقعية صالحة . وإن إعلان (شعيب) عليه السلام عن الغاية من نبوته بالإصلاح ما هو إلاّ نموذج لغايات الأنبياء جميعاً (هود ٨٨) ، حتى إن (إصلاح الأعمال) غاية الإيمان والتقوى التي يطلبها الله من المسلمين (الأحزاب ٦٩،٧٠) . وليس من الواقعية ما تدعية الرواقية أن (من هو غير حكيم فهو مجنون) فإن الناس متفاوتون في القوى المعنوية والمادية والعالم لايحتضن الفلاسفة وحدهم وإنما يعج بمختلف الناس ومختلف القدرات ،

وليس من الواقعية ما قاله سقراط : طريق السعادة والحكمة واضح ... ويقوم على نبذ المظاهر المحسوسة والفوضى المادية والجسدية لأجل العودة بالروح الى طبيعتها الأصلية وتحقيق السيادة (في داخل الروح وفي المجتمع) للفضيلة(١) .

وعلى الأقل فإن نبذ المظاهر المحسوسة ليس من الواقعية في شيء حتى وإن التزم هو وأمثاله بشظف العيش والزهد في الملذات .

وليس من الواقعية ما قاله دي ميستر في طائفة الكاثوليك يعمم به الطوائف والأديان .

وتقوم الحكمة الوحيدة على التقبل الأعمى للقيم الأخلاقية - الاجتماعية في السنة الكاثوليكية(٢) .

وليس من الواقعية الصالحة الإمساك عن الطعام أبداً في عبادة الصوم ولا التهجد الدائم بحيث يعجز عن المعاش والمسؤليات في النهار ولا الترهب عن الزواج قطعاً للنسل والمكاثرة كما حدّث بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .... بالإضافة إلى أنه تقبّل بصير وليس بأعمى .

وهي واقعية منطقية ضمن فعاليات العقول السليمة لأنها من مصدر الحكمة ... من حكيم خبير، وواقعية معاشة تضع في حسبانها عامة الناس، وواقعية فطرية لاتستبعد المظاهر المحسوسة، فلا تتناقض مع الرغبات الأساسية في الزواج والملكية والحفاظ على الحياة والأموال ... وتحضّ على الزينة والطيبات ....

٣- الجامعة الفاعلة : فهي تتجاوز (الوجودية) الضيقة و(الاقتصادية) المادية (والتفاؤلية) المفْرطة و(التشاؤمية المفَرّطة) حول الإنسان وحده بما فيها الفلسفة الحسية المحدودة والمثالية الخيالية، والعقلانية المجردة، والواقعية المنحرفة ... الى الوجود الواجب والجائز في تتبع فعال للأواصر والعلاقات بين الألوهية والبشرية والكونية . وعن مثل هذا التصور الكلي العام تنبثق حكمة كلية عامة شاملة تستوعب الحياتين والعالمين في توازن وتناسق وتكامل ضمن الفعاليات السببية والغائية المقبولة مما يميزها عن التصورات الجامعة الأخرى بما فيها من سلبيات ومزاجات وتمييزات وجدليات وتناقضات .

---

(١) عن سقراط : المذاهب الاجتماعية ٣٨ .

(٢) عن دي ميستر، المصدر السابق ١٠١ .

فحكمة الإنسان : التأصيل والتكريم والخصوصية الروحية والعقلية، وأنه الأساس في عملية التحضير والعمران .

وحكمة العلم : متابعة تفاعل النظر العقلي والخلقي بالتجربة الحسية، و(الإبداع) وسيلة أكثر منه غاية .

وحكمة العقيدة : الثبات المبدئي والتنبه النفسي، والتوهج الصوري العملي، مجتمعة في التحرر من الوثنيات الخفية والظاهرة .

وحكمة التشريع : العدل والإحسان، والمرونة والاجتهاد وقابلية التطبيق .

وحكمة المجتمع : التعارف والتعاون والتكامل والمسؤلية الاجتماعية والحركة الجماعية نحو الخير .

وحكمة البشرية : وحدة الخلق والأصل ووحدة المصير، والتعدد في تفاوتها واختلافها يؤكد على هذه الوحدة والدعوة العمومية .

وحكمة التاريخ : العظة والعبرة والتربية الحاضرة والمستقبلة الراشدة، واستبيان السنن التاريخية للهدم والبناء ضمن البحث في المبادئ العامة التي تخضع لها تطور المجتمعات سواء كانت بشرية أو إلهية .

وحكمة الأنبياء : الإصلاح والتغيير (الهداية) وقيادة البشرية والتاريخ الى الإفضل ومؤاخاة رسالاتها .

وحكمة الحياة والموت : الابتلاء وإذكاء حالات التنبه واليقظة الدائمة، والتبصر بالعواقب، والرقابة الدائمة على العمل الفردي والاجتماعي والحضاري .

إن التصور الجامع للحكمة الشاملة من أعظم مزايا الإسلام . وهي بتركيبها الإلهي والإنساني والكوني منابع القوى والحق والخير والجمال والعمل ليس بين وحداتها التركيبية وحدها وإنما مع شمولية القوى العالمية والعلاقات الإنسانية الأخرى .

٤- تعلم الحكمة وتعليمها و (تساؤلات) : وهي خاصية أو مزية تربوية تثقيفية تشمل تأسيس الشخصية وتكميلها حسب نوعية الحكمة المقدمة، وقد برزت الناحية التعليمية في معظم الآيات التي صرحت بالحكمة التي تعلّمها الرسل من الله وطلب منهم تبليغها للناس،

فالله علَّمها رسله لأنه العليم الحكيم، والرسل علموها أقوامهم لأنهم مبلغون عن الله وحكمته ومنهم الحكماء، والعلماء والمربون يعلمون الناس الحكمة والعلم لأنهم ورثة الأنبياء، وإذ إن فروقاً بين حكمة الله وحكمة الآخرين فإنها تلتقي جميعاً أنها من الله هبة وكسب، وتشترك كلها في أنها العلم النافع والعلم مع العمل، ولكن هل الحكمة مادة تعليمية ؟ وهل لها برنامج تعليمي خاص بها ؟

ويتقدم هنا سؤالان : ما الحكمة التي يبلِّغها الأنبياء أقوامهم من حيث إنها إحدى مهمات النبوة ؟ وما الحكمة التي ينبغي أن يعلِّمها فيما بعد الحكماء - علماء وأدباء واجتماعيون - للناس من حيث إنها المهمة التعليمية التي تساهم جذرياً في العملية الحضارية ؟

وللإجابة على السؤال الأول يمكن القول : إذا كانت رسالة النبي وشريعته هي الحكمة - وهي كذلك - والتي بعث الله بها نبيه أساساً فإنه لايني عنها ولايتهاون في تبليغها حتى وإن كلفه ذلك حياته وتهجيره وبذل كل ما هو نفيس، فهو يعلمهم عماد الحكمة بتوحيد الله الخالص من شائبة الوثنية والشرك وإقامة حياتهم عليه، بالإضافة الى تعليمهم حكم المعارف وتأسيس هذه المعارف على الحكمة الإلهية العامة والتقدير الموزون، وذلك بالتأكيد على العلم النافع مثل ما جاء في (الأحزاب ٣٣) . وإذا كانت الحكمة شيئاً آخر غير الرسالة أو تفسيراً لها أو ملحقات بها - وهذا مايشير إليه التعاطف النصي الذي يصرح بأن الرسول يبلغ قومه الكتاب (والحكمة) فإنها تقتضي حكمة نبوية قائمة على الصفاء الذهني والفعالية الفكرية والنظافة الخلقية والتجربة الواعظة والإمامة النبوية التي تجدد آثارها العملية في الناس: حكمة التصرف والتعامل، وسمو العلاقات، إلى جانب حكمة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في صورتيها البشرية والنبوية معاً .

وللإجابة على السؤال الثاني يمكن القول : إن أسس الحكمة الدينية هي أصل التعليم وأساسه ولاخير في تعليم مبتور منه، وهو إلى وجهة الضرر والإيذاء أقرب منه الى الخير والنفع . وهو أيضاً تعليم مستمر لاينبغي أن ينقطع في أية مرحلة من مراحل العمر، ولابدّ من مراعاة العمر الزمني والعقلي في الإيجاز والتفصيل والعمق والسطحية وإرواء الحاجات الذهنية والشعورية بمعارفه وفضائله . ومع تعليم هذه الأسس أو عقبها فمن الحكمة أن يتعلم

الناشئة ما يُصلح عقولهم وأرواحهم وعواطفهم الذاتية، ومنها يتعلمون ما ينفعهم في دنياهم من المصالح والمهن التي تأخذ في التطوير على أكتاف الأجيال، إذ ليس من الحكمة تكريس الجهود لتعليم الماهر بيده علوماً عقلية، ولا المتفوق ذهنياً أن ينصب في تعلم المهن اليدوية إلاّ ما يجوز الجمع من غير تعارض بين علمين عقلي وحسي في بعض الأحيان .

جمالية الحكمة القرآنية

وإذ إنها من الخصائص والمزايا فإن هذه الجمالية تتكون من أربعة عناصر : الموضوعات، والجوهر، والعلاقات، والأشكال والصور وسأخص الكلام على العناصر الثلاثة الأولى . حيث فصّل البلاغيون طويلاً العنصر الرابع الذي يتعلق بأسلوب القرآن الحكيم يرجع إليه .

١- الموضوعات الجمالية الحكيمة : ومنها العام والخاص، والعقلي والحسي والوجداني، ومنها الواقعي والتراثي ومنها الأرضي والسماوي ... ويمكن حصرها في القضايا الكبرى مثل الحق والخير والجمال والعمل .... ومن ذلك : الله ، الإنسان ، الكون ، النفس ، الطبيعة ، النبوة ، الخلق، الرجل، المرأة، الطفل ، السببية ، المال ، اللون ، الزمان والمكان ، التحرير والاستقامة والتأمل والفضائل الاجتماعية : كالنصحية والتعاون والشورى، والفضائل التشريعية والتربوية، ومنها موضوعات تتصل بالإبداع البشري الصناعي، وموضوعات مادون الإنسان كالطعام والماء والحدائق ذات البهجة والشجرة الطيبة والملعونة .... وموضوعات في الحيوان والأشياء، وموضوعات تنفيرية زجرية كالكِبَر والبطر والتسلط والفرعونية، والجاهلية والتعديات على الحياة والأموال والأعراض والعقول، ....

لقد جمعت هذه الموضوعات وغيرها الحكمة والجمال معاً، فإنها موضوعات جمالية بطبيعتها وبأسلوب التعبير عنها، والفنون المختلفة قديماً وحديثاً تتخذها أو تتخذ بعضها موضوعات فنية لاتتجاوزها مما يجعلها إنسانية المنزع وعالمية التناول . وكذلك فإن قيمها فضائل عامة والإنسان يرغب أن يلتزم بها فكراً وسلوكاً بينما يضعها الفن العالمي النظيف في دوائر نشاطاته باعتبارها حاجات جمالية وفنية .

وكذلك فإنها ذات آفاق رحبة لاتخص أمة ولا قوماً، فإن الإنسان عموماً والفنان خصوصاً يتطلع إليها ويتناولها بأدواته الفنية محاولاً الإبداع فيها ما استطاع .

وهي أيضاً ليست قاصرة على جانب من الحياة ولا على موضوعات محددة فيها وإنما هي جامعة بين الروحية والمادية، حتى إن المادية تؤسس على معانٍ روحية سامية، وأن الموضوعات الروحية والمعنوية تمثل بصور محسوسة تقرب المجردات وتكيف المعنويات، ومن طبيعة الإنسان عموماً والفنان خصوصاً أن يستكمل وجوده الروحي والحسي في أشواقه العليا وممارساته العادية المعاشة ومشتهياته النظيفة، وهي أخيراً خصبة العطاء ثرّة الفكر خالدة الأثر متنوعة المنافع حيوية الموضوعات .

٢- **جمالية الجوهر** : فالجوهرية خاصة يمكن أن نطلق عليها (حكمة الحكمة)، فإن في ذاتية الحكمة فضيلة والفضيلة جمال والرذيلة قبح، وفي تكوينها الطبيعي جمالاً وفي تركيبها الجوهري رونقاً وبهاءً ، فلا يرى الجمال المعنوي إلاّ بظواهر الحكمة وثمار العدل، وإذ إنها قرآنية صراحة وضمناً فإنها الجامعة للفضائل : فضيلة عقلية ، لأنها من مفردات الحق، وفضيلة خلقية أدبية لأنها موئل الخير، وفضيلة عملية لأنها من النشاطات البشرية العادلة، وفضيلة جمالية لأنها تتسم ذاتياً بالاتساق والتناسب . وإذ إنها من حكمة الله وتدبيره فإنها تبدو قيمة سامية، يثنى على صاحبها باعتباره قد اقتبس فضيلتها من الله الذي يهبها لمن يشاء من عباده ﴿وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثيراً﴾ (البقرة ٢٦٩) وإذا تضمنت الحكمة قيمة ذاتية وفضيلة جوهرية فإن صاحبها الحكيم متميز عن سائر الناس في كل زمان ومكان، وفي حظوة خاصة وإن اختلفت الأعراق واللغات .

إن هذا التركيب الجمعي للحكمة يبوّئها مكانة عالية في القرآن حيث إن القرآن ذاته حكمة الله الحكيمة الجامعة لأنواع الحكم، وبسبب قرآنيتها دفعت العلماء للتأليف فيها ولبيان جوهرها وإظهار جمالها . أو لم يقل بعضهم : إن الفلسفة محبة الحكمة وقال آخرون : إنها أصل العلوم والمعارف ؟

٣- **جمالية العلاقات** : ومنها :

أ- **التناسبية** : وهي حكمة الملاءمة والمناسبة تربط الحكمة بمسألتها والعلة بمعلولها والسبب بمسببه واللازم بملزومه من حيث إنها تنبهنا الى تعلقات خاصة بعينها . إذ لو لم تكن الحكمة كذلك لما ارتبطت بمسائلها الخاصة بها، وهو تعلق عقلي محض،و عقلي محسوس فإن جمالية التناسب الظاهر والضمني يتملاه العقل بإدراكه، ويتذوقه الوجدان بإحساسه، وإذا كان للمعلول أو المحكوم أكثر من علة وحكمة أو بالعكس ازداد إدراكاً وتألقاً، يستوعب الواجبات والممكنات والمستحيلات وبخاصة حين يكون عقلياً محساً مثل جمالية الموجودات التي تسري فيها حكمة الله فإن التناسب بين أجرامها تجعل الموجودات تنطق برواء التناسب والتناسق والإبداع .

إن أبرز العناصر الجمالية هي التناسب بين الأشياء في الألوان والأحجام والمقاييس، وهي وإن توزعتها الأشياء والأجرام فإن ذوقيتها العقلية والوجدانية قادرة على إدراك هذه الجمالية. إذ لاتقل الجماليات العقلية ومنها التجريدية روعة وبهاءً عن الجماليات الذوقية والطبيعية التشكيلية، وإذا كانت حكمة التناسب مسألة واحدة من (علم المناسبة) فإنها القاعدة الأساسية لإدراك العلاقة العقلية، ومن ثم التأثر والتأثير الجماليين، ذلك أن اضطراد الصلة المعنوية بحيث تتلاءم ولاتتنافر، وتتضام ولاتتباين يمنح (انشراحاً) عقلياً إقناعياً و(استحباباً) نفسياً متولداً عن هذا الانشراح، و(ارتياحاً) حياتياً ناشئاً عن الانشراح والاستحباب .

وعموماً فالجمال الفكري في رأي (هيغل) (١٨٣١) هو بروز الفكرة المحسوسة، والفكرة هي مضمون الفن، والتصوير المحسوس التخييلي شكله، وهو ينشد عقلانية الواقع الداخلية، ويصل الى مستوى الذهن المطلق ...

وإذا كان (بول سوريو) في مقدمة الجماليين في كتابه : الجمال العقلي فإنه يظهر إعجابه بالآثار القديمة ويشغف بالجمال الذي يعده كشف المدركات الإلهية . .

وسبق علماؤنا ومنهم البلاغيون الى تعريف وتقويم (التناسب) عموماً فقال ابن القيم(١) : هو ترتيب المعاني التي تتلاءم ولاتتنافر ... ثم يقول : والقرآن العظيم كله متناسب لاتنافر فيه وتباين . بينما فصّل بعضهم روابط التناسب العقلية والحسية والخيالية التي تكشف عن التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين . كما قال السيوطي وغيره في علوم القرآن (٢) :

وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط ويصير التآلف، ويشبهه بالبناء المحكم المتلائم الأجزاء ....

ب – والمعقولية : ويقصد بها خضوع الرابطة بين الحكمة ومسألتها للعمل العقلي وأنها دائرة في المجال الإدراكي متحررة من استبدادية المسألة وسيطرتها التقليدية فيما لو فصلت عن حكمتها، كما يقصد بها ملاحظة التطابق العقلي بين الحكمة ومسألتها، فإذا وقع تنافر بينهما أو أخضعت المسألة لغير حكمتها لسبب دعائي إعلامي يراد منه تمرير المسالة على عامة الناس، فإن هذا استخفاف بالعقول والأفهام . فكل مسألة مقترنة بحكمتها تبدو منسجمة معقولة، ويدل عليه تساؤل العقل عن صحة المسألة عند عدم التصريح بها مما يسمح أن تبرز نظرات وحكماً متعددة لمسألة واحدة، والحكم عليها حسب تفاوت العقول التي تظل عاملة في حالات خفاء الحكمة لاستنباط المناسب منها قريباً من عملها في حالات التصريح بها، وذلك من أجل القناعة بصحتها ثم بالقياس عليها فيما بعد . فالرابطة بين المسألة وحكمتها عقلية قريبة من معقولية الحكمة ذاتها سواء كانت هذه المسألة حسية أو معنوية وعندئذ يتم اتساق عقلي خالص أو عقلي حسي، وبخاصة حين تعرض الحكمة بشكل مبدئي (عام) يمكن تحقيقه وقياسه في مسائل عديدة مشابهة . مثلاً : رخص الله الإفطار في رمضان للمسافر والمريض وقرنه بحكمة التخفيف والتيسير التي صاغها بالشمولية المبدئية حين قال ﴿يُريدُ اللهُ بِكمُ اليُسرَ ولايُريدُ بِكمُ العُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥)، وذلك بعد أن خضع هذا الحكم وحكمته : لمجال القناعة التي تبعث على الطمأنينة النفسية في جمالية

---

(١) ابن القيم : القوائد الى علوم القرآن ٢٨٧ .

(٢) انظر فصولاً في : الاتقان للسيوطي ١٠٨/٢-١١٠ ، والبرهان للزركشي .

جامعة بين المسألة المادية وحكمتها العقلية، ومثله تلك (الحياة) الآمنة العادلة المستقرة المحافظة على الدماء ثم حقوق الناس عموماً في قوله في القصاص ﴿وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فإن شمولية جميع ألوان الحياة الصالحة تتحقق في حكم القصاص . وإذ إنه ربط الحكمة المعقولة بمسألتها حين يتأملها الناس فإنه عقب عليها بقوله ﴿يا أُولي الألبَابِ﴾ ثم في حكمة تالية هي الوقاية من فوضى الدماء وعبث المستغلين وتسلط الظالمين ﴿لَعلَّكُمْ تَتَّقون﴾ هكذا في شمول التقوى المنفر من أعنف جريمة يرتكبها منحرف، والمنفر من غيرها من الجرائم تبعاً .

وإذا كانت معقولية الجمال تنفي العبثية والفوضوية بسبب طرح مسائل أو أحكام غير معللة أو تنفي مثل هذا التفسير المرفوض والذي يؤدي الى جمود الوقائع المجردة فإن من أهم وضعها المعقول نفي التسلط العرفي في خضوع الإنسان لأقوال أو آراء من غير أن يتعرف على أسبابها وحكمتها حتى يقع فريسة التقليد الآبائي المتعسف، بينما تمنحنا تراكيبها متسقة مقنعة ملبية للوجدان الجمالي . ولذا فإن إعلان هذه الحكم مسألة حضارية تقصد إقناع الناس بالنظام أو القانون وليس عرفاً قَبَلياً يجبر الأفراد على قبوله والعمل به معطلين عقولهم وإحساسهم الجمالي بها وبمنفعتها واتساقها .

ج- **والحيوية** : وهي ثمرة أو نتيجة للتناسبية والمعقولية، وتبدو في وجوه ومسائل عديدة : إنها ظاهرة في رغبة المتحاكم بالحكم وإن حجبت أحياناً بالعناد، وفي تفيء المسائل المشابهة بظلالها وتأثرها بحكمتها وإن غيبها أو غيب بعض مسائلها متحيزون، وفي تجاوز البيئة المحدودة الى عالم أكثر اتساعاً وإن جحدها مغرضون، وأخيراً فإنها تتغلغل في الحياة الفكرية والقانونية لمن يعرفون قيمتها، حتى إن البسطاء من الناس تحيا معهم بمعقوليتها ومنفعتها فيحرصون عليها أكثر مما لو لم يطلعوا عليها أو لم تدخل في حياتهم وتقنع بها عقولهم .

فأية مسألة لاتنبض بالحياة إلاّ مع حكمتها أو علتها ، ولاتتحرك في النفس قبولاً أو رفضاً إذا أجبرت عليها الإرادة وقسرت لها الحرية . فالنظافة في القرآن تشمل النواحي الحسية والمعنوية وهي حكمة لكل منهما ليست للبيئة العربية متنزل آيه وحدها، وإن ظهرت فيها بأجلى روعتها، و إنما هي للإنسان عامة يتحرر بسببها من درنه وأخطائه، فالصدقة لتطهير

المتصدق من البخل والذنوب (التوبة ١٠٣) و ﴿إِنَّ اللهَ يحبُّ التَّوَّابينَ ويحبُّ المَتطهِّرين﴾ (البقرة ٢٢٢) وهي مع حكمة النعمة التامة وشكره تعالى في طهارة الوضوء والغسل، هكذا في جمع عجيب لحكم خاصة وعامة سلبية وإيجابية ﴿مَايُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عليكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولكنْ يُريدُ لِيطهِّرَكُمْ وليتمَّ نِعْمَتَهُ عليكُمْ لَعلَّكُمْ تَشكُرون﴾ (المائدة ٦) ، فهل في أي سجل وضعي أوكتاب سماوي ما يحضّ على النظافة كل النظافة مثل ما حثت عليه هذه الآية بحكمها الحية المتعددة وأسلوبها الشائق ؟ وكيف تقوم حضارة في مجتمع ينغمس أفراده في أوحال الخطايا وأقذار الوساخة ؟ ولماذا لايتأدب المسلمون بأمثال هذه الحكمة الحضارية فيحيون حياة نظيفة في الظاهر والباطن ؟

إن حيوية الحكمة تضفي على مسائلها حركة الإدراك وحركة المشاعر والرضى أو حركة الاشمئزاز والنفور، وتمنحه نشاطاً خاصاً للتعامل معها في عالم يعج بالمادة بينما يتطلع كثير من أفراده الى الغنى الروحي والنظافة المعنوية .

إن عناصر الجمالية في الحكمة القرآنية بوأت القرآن أخطر مجال حضاري وأسماه وأغناه .

النتائج الحضارية والآثار

وهي تجمع النتائج والآثار التاريخية التي رفعت قواعد الحضارة الإسلامية ورسخت مبانيها ومعانيها، والضرورات الحضارية المعاصرة في عصر حوار الحضارات العالمية وتنافسها واحتكاكاتها السلبية والإيجابية، السلمية والعسكرية .

وإذا تبين لنا أفضلية الحكمة القرآنية التي يدخل كل جانب فيه مجالاً حضارياً في إطار الضرورة الجزئية فإن قيام حضارة القرآن من خلال تجميع وتفاعل (ضرورات) الحكمة المتعمقة والمتشعبة تكسب خاصتين لاغنى للعمران عنهما : وضع الأمور في نصابها الصحيح حتى يتم التناسق والتكامل بين أجزاء البناء، وصيرورة التفاعل التناسقي التكاملي في المسار السليم المتوازي الذي يراد له الديمومة والمصداقية متحرراً من المعوقات والمثبطات .

وهكذا فإن من الآثار الماضية والضرورات الحالية :

- اعتبار المسلمين أن القرآن ينبوع الحكمة ومرجعها من ثلاثة جوانب : فهو من أحكم الحاكمين، ودعوته الصريحة والضمنية الى الحكمة العامة الشاملة، وأنه داع الى الاستنارة والإفادة من الحكم خارجه مما كان ويكون له آثاره العلمية والعملية والحضارية .

- تغليب فهم وتفهيم القرآن على أنه حكمة الله من حيث مسائله التشريعية في الحلال والحرام ونظمه وقضاياه وتاريخه وجمالياته وعرض السنة النبوية على أنها حكمة الرسول وهي من حكمة الله أيضاً، وإبراز هاتين الحكمتين من خلال الحكمة العالمية المعاصرة .

- وضرورة ربط حكمتي القرآن والسنة بالعلل والمنافع التشريعية المستجدة ضمن الغايات والمقاصد الخاصة والعامة في مختلف الضرورات والحاجيات والكماليات، واستثمارها لإضفاء مزيد من الحيوية والشمولية على الفكر التشريعي الاستنباطي في النشاطات الإنسانية الحقوقية والاجتماعية والعلمية والعملية والتربوية، واعتبار ذلك كله من الحكمة الكونية .

- إقامة الصرح العلمي على أساسين عمليين :

الاهتمام المستمر بالمعارف والعلوم الإبداعية التي تنطوي على الحكمة وتبعث على الحكمة وتوظف في طرق الحكمة، وضرورة العمق المعرفي لمعرفة أسرار المعارف والعلوم في مناهج البحث المبتكر بداية من العلوم التطبيقية الشرعية والكونية ونهاية بالمعارف العقلية والاجتماعية المنتقاة مما دفع ويدفع المعنيّين من مسؤلين ومؤسسات ثقافية الى الإكثار من مكتبات الحكم العامة .

- اعتبار التاريخ العلمي والعملي للمسلمين ثمرات للحكمة القرآنية والنبوية، وذلك بالمؤلفات الطبية والرياضية والهندسية والفيزيائية والفلكية وما يتبعها من مخابر ومراصد وأجهزة ومشافي ومعاهد تنافس الحكام في إنشائها مما كان له آثاره العمرانية في النهضة المدنية الغربية . وتمثل (بيت الحكمة) خاصة معلماً ثقافياً رسمياً وهاماً يعبر عن هذه الثمرات(١) . وإذا أضفنا إليها دور الحكمة المنتشرة في أقطار العالم الإسلامي وإن لم تسمَّ

---

(١) كانت (بيت الحكمة) أو (دار الحكمة) التي أنشأها (الرشيد مجمعاً علمياً راقياً أودع فيه خزانة واسعة للكتب جمع فيها كتباً في علوم مختلفة بلغات مختلفة هي مما جمعها جده المنصور وأبوه المهدي ومما عثر عليه هو في أثناء حروبه في إنقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم

رسمياً بها أدركنا اهتمام المسلمين الحضاري بتطبيق الحكمة القرآنية في الواقع، شأنها شأن (المجربات) الأخرى التي تمثل ظاهرة الحكمة باعتبارها أيضاً قاعدة شاملة في حضارة القرآن الحالية والمستقبلية .

– وهذا يعني الإفادة من التجربة الحكيمة الفردية للأفراد والجماعة، ومن التجربة الحكيمة الجماعية للجماعات والأفراد أيضاً نابعة من الذوات ومستفيدة من الآخرين، وهذا يعني التخلص من استمرارية المجتمع المسلم المتلقي دوماً والمستقبل أبداً وإنما ياخذ من الحكمة

وكان يجتمع في هذا المعهد العلمي المترجمون والعلماء والكتاب والأدباء كل يوم للترجمة والمطالعة والمناظرة . وقد ترجمت فيه كتب كثيرة في علوم مختلفة . وقد وسع المأمون بناية هذا المعهد فصار دار الحكمة حقاً، وأفرد فيها لكل عالم رواقاً، فازدحمت في عهده عليها العلماء وكبار المترجمين ورجال التأليف . ومن المترجمين المشهورين "يوحنا بن البطريق الترجمان" مولى المأمون ، قال القفطي : " كان أميناً على الترجمة حسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب وهو تولى ترجمة كتب أرسطوطاليس خاصة وترجم من كتب بقراط، مثل حنين بن إسحاق وغيره " وذكر القفطي أيضاً أن ابن البطريق هذا ترجم كتاب الحيوان من لغة اليونان من تآليف أرسطوطاليس في "تسع عشرة مقالة" وكان المأمون يشاركهم ويناقشهم في مختلف المواضيع العلمية والأدبية، وقد أنشأ مرصداً فلكياً وعهد بإدراته الى سند بن علي اليهودي الذي قيل إنه أسلم على يد المأمون والى يحيى بن أبي منصور، وكان يعرف سند بن علي المنجم المأموني وقد ندبه المأمون الى إصلاح آلات الرصد والرصد بالشماسية ببغداد، ففعل ذلك وامتحن مواضع الكواكب، وابن هارون يتولى إدارة المعهد وكان أيضاً يشرف على تنظيم خزانة كتب المأمون الخاصة، وقيل إن يحيى بن أبي منصور الموصلي ومحمد بن موسى الخوارزمي كانا من خزنة دار الحكمة المأمونية كما كان الصنوبري الحلبي والفضل بن نوبخت وعلاّن الشعوبي وأبناء شاكر وغيرهم يترددون الى هذه الدار للمطالعة أو النسخ والترجمة أو التأليف . وقد روي أن المأمون بعث الى حاكم صقلية يطلب مكتبة صقلية الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية ليضمها الى خزانة بيت الحكمة فأرسل الحاكم بها الى المأمون على حسب طلبه، وذكر أن المأمون نقل من خراسان الى بغداد حمل مئة بعير من الكتب الخطية النفيسة فضمها الى خزانة كتب بيت الحكمة) . باختصار من كتاب : بغداد ص ١٣١ د/مصطفى جواد و د/أحمد سوسه ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٢٨هـ/١٩٥٨ م . و اخترنا التعليق على دار الحكمة لما بينها وبينها من التشابه اللفظي والمعنوي . وانظر مؤسسات حكمية كثيرة أخرى في كتابي : التراث التربوي .

ويبتدع فيها بما ينتفع منها ضمن إطار الحكمة، ويستلزم هذا أيضاً البحث عن الحكمة وليس البحث عن قائلها، وطلب المعارف بغض النظر عن شهرة أصحابها فإن الحكمة لاتتوقف على قائلها ولا على كاتبها بقدر ما تتوقف على جوهرها وماهيتها ومنافعها .

– ضرورة التمييز بين الحكمة الثابتة في الحق والخير والقيم المطلقة وتجذير الحضارة القرآنية وتأصيل قيمها والحفاظ عليها واستقائها من المنابع الإسلامية، وبين الحكمة القابلة للإفادة منها ضمن المستجدات النافعة في جميع المجالات .

– إن المواقف لاتبرر حكمتها إلاّ إذا كانت حكيمة، والحالات لاتسوغ صلاحيتها إلاّ أن تكون صالحة، والمسائل لاتشرع إلاّ أن تكون مشروعة وهذا يعني سبق الحكمة للمواقف والحالات والمسائل، ويعني أيضاً ألاّ نكسو الحكمة أي موقف وحالة ومسألة مالم تتوضح المصلحة فيها، ويعني أخيراً أن التعامل مع الأمم لابد أن يكون بالحكمة فتحزم وقت الحزم وتلين في حالة اللين، وممارسة الحكمة من خلال المقاصد والمصالح الحكيمة وذلك بوزن الأمور بالميزان العادل المتوسط الحكيم .

– وفي المجال التخصصي : فإذا كانت الحكمة العلمية زيادة في المعرفة وإضافة إليها فقد ازدهرت في العصور الإسلامية وكثرت كتبها المستقلة ومن خلال الأبواب والفصول الملحقة بها والتابعة لها، وهذا يحصن الأفكار من غزو الحكمة بمعنى الفلسفة الغازية في العقيدة والخلق في إطار المذاهب والنظريات المعاصرة وبخاصة تلك التيارات الملحدة والتنصيرية والتلمودية وذلك بعد فرز فئة من كبار العلماء للردّ عليها والطعن في طعونها ودحض شبهاتها ومفترياتها .

– وأخيرا فلابدّ من أربع حكم :

فمن الحكمة الاهتمام بالبناء والتطوير أكثر من الاهتمام بالجدل المذهبي الفلسفي، والعناية بالأعمال والنشاطات الإيجابية أكثر من العناية بالنظريات والأقوال وإن كان وضع المناهج البنائية العملية لايعدو الانتفاع من المنطلقات النظرية في إطار الحكمة العملية والنظرية والتجريبية معاً، ومن الحكمة أيضاً عدم الاقتصار على مجالات الضرورات أو الحاجيات

وحدها وإنما متابعة التحسينات والكماليات معها ولكن بأولويات الحكمة وأفضليات التوازن التي يقدرها العدول وأصحاب الحكمة والرأي .

ومن الحكمة تصريف الأمور وتدبير الأحوال ومعالجة المشكلات وعموماً التعامل مع السلبيات بحنكة الحكمة بحيث لا تنسينا إحكام العمل والبناء والتقدم ، فإن من أعقد الأشياء أن نفكر بحكمة ونعالج بحكمة ونبني بحكمة .

ومن الحكمة أيضاً الإفادة من الماضي للحاضر وتسلسل الأمجاد المعاصرة بالأمجاد التاريخية وألاّ نكون أمة التاريخ المجيد وحده وإنما أمة الواقع والمستقبل أيضاً وأخشى ما يخشاه المفكرون أن يدور المسلمون في فلك التراث وحده مكتفين بطول التغني والتمني منعزلين ومعزولين ومتواكلين .

إن المسلمين أمة القرآن، وإذاً فهم أمة الحكمة ورعاتها وروادها، وهم بالقرآن الحكيم أمة العدل والحق والخير، بعيدون عن الطيش والتهور والأباطيل والشرور، إنهم أمة الشعائر أكثر من أنهم أمة الشعارات .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الدراسة : مقدمة في أهمية البحث، وصعوبته، والحاجة إليه	٥–٨
المدخل إلى عموميات الحكمة والفلسفة	٩–٦٥
الحكمة لغة واصطلاحاً وتطوراً	١٠–١٧
الحكمة والفلسفة (في القديم – الحديث)	١٧–٣٧
الحكمة مرادفة للفلسفة	١٩
الحكمة هي الاسم الأقدم للفلسفة	٢٣
الحكمة والعلوم (في التاريخ – في العصر الحديث)	٢٥
تعارض الفلسفة واختلافاتها	٣٢
١– التعارض المذهبي العام	٣٢
٢– التعارض المذهبي الخاص	٣٥
الحكمة الإسلامية والفلسفة الإسلامية	٣٨–٥١
الجانب العقلي والجانب الإلهي	٣٨
حكماء الفلاسفة يحاولون التوفيق بين الشريعة والفلسفة	٤٢
علماء مسلمون يكتبون في الحكمة ويردون على الفلاسفة المسلمين	٤٦
الإلهام والحكمة والنبوة	٥٢–٦٤
أولاً : الإلهام والنبوة (كل نبي ملهم وليس كل ملهم نبياً)	٥٢
ثانياً : الحكمة والنبوة (كل نبي حكيم وليس كل حكيم نبياً)	٥٨
الموضوعات	٦٥–٢٩١
القرآن الحكيم ..... ولماذا ؟	٦٦–٨٢
لماذا يعتبر القرآن حكيماً ؟	٦٦
مواقع الحكمة في القرآن وتعليقات العلماء	٦٦
علماؤنا والباحثون المعاصرون وحكمة القرآن (استيعاب وطروحات)	٦٧

الموضوع	الصفحة
مجالان في تصنيف الحكمة القرآنية	٧٥
سياقات الحكمة ودلالتها العامة	٧٥
القرآن حكمة وحُكْم وحكيم	٨٠
الحُكْم بمعنى الحكمة والسياسة ... والقرآن	**٨٣-٩٤**
أولاً : الحكم بمعنى الحكمة	٨٣
ثانياً : الحكم بالمعنى السياسي الشائع (أربع مسائل حضارية هامة)	٨٨
- حكم الله الحكيم	٨٩
- في سياسة الحكام وحكمهم	٩٠
- حكمة الكتب الحاكمة	٩١
- في حكم الناس	٩٢
أحكم الحاكمين .... والقرآن	**٩٥-١١٠**
- (الحكيم) الصفة الثابتة في القرآن لله تعالى	٩٥
- الله المتصف بالحكمة يستحق وحده العبادة	٩٦
- نقتبس من حكمة الله نظراً وعملاً ...	٩٧
- القرآن ساق الحكمة بأسلوب الثبوت والدوام	٩٧
- الحكمة تالية ومتأخرة عن صفات إلهية أخرى	٩٨
- الحكمة الإلهية تزيد على صفات إلهية أخرى	٩٩
حكمة الله وصفات أخرى مشابهة	١٠١
الحق - الرب (الربّي والربانيّ)	١٠١
القيوم - المحيط - بديع السموات والأرض - نور السموات والأرض	١٠٢
تجليات الحكمة الإلهية	١٠٤
في الله وصفاته وأفعاله - في الإنسان	١٠٤
في الرسول محمد والرسل عليهم السلام - في التشريع- في حكمة التاريخ - المصائر	١٠٥
نماذج من المسائل الحكيمة - حكمة الكون	١٠٦
الدخول في السلم كافة	١٠٧
البيت المسلم والحكمة	١٠٨

الموضوع	الصفحة
مشيئة الانسان وحكمة الله	١٠٩
حكمة الأنبياء .... والقرآن	**١١١-١٢٧**
فضائل في حكمة النبوات	١١١
ميثاق الأنبياء والحكمة	١١٣
أنبياء حكماء بالنص القرآني	١١٥
حِكَم في (صحف إبراهيم وموسى)	١١٩
حِكَم من التوراة	١٢٢
من حِكَم عيسى للحواريين - وللعامة	١٢٤
حِكَم من الإنجيل (استنتاجات)	١٢٥
محمد صلى الله عليه وسلم رسول الحكمة ومعلمها .... والقرآن	**١٢٨-١٥١**
الرسول صلى الله عليه وسلم دعوة إبراهيم	١٢٨
الرسول صلى الله عليه وسلم متعلماً	١٢٩
الرسول صلى الله عليه وسلم معلماً (المصادر والسمات)	١٣١
تعليم العلم والحكمة من خارج القرآن	١٣٤
الحكمة وجوامع الكلم	١٤٠
أولاً : أحاديث جامعة مرسلة	١٤٠
ثانياً : أحاديث جامعة حكيمة	١٤٣
جيل المعلمين والمتعلمين والحكمة	١٤٦
إنسانية الحكمة .... والقرآن	**١٥٢-١٧١**
مواقع الحكمة القرآنية الإنسانية : أولاً : الذات الإنسانية	١٥٢
- الأصل الترابي المائي الواحد	١٥٣
- والقيم الإنسانية واحدة	١٥٣
- وأعراض الناس واحدة أو متقاربة	١٥٤
- والناس أمة واحدة	١٥٥
- خصوصية الحكمة وعموميتها	١٥٧
ثانياً : عمومية الكون	١٥٨

الموضوع	الصفحة
نماذج من الحكمة الإنسانية في القرآن	١٦٢
حكم ثابتة – متوقعة – غيبية – استسلامية – إعجازية – مؤجلة – حية	
– في حكم الداعية القدوة	١٦٥
نماذج من الحكمة والحكماء عموماً	١٦٦
– من وصايا الحكماء	١٦٨
حكمة الاختبار .... والقرآن	**١٧٢–١٨١**
في طبيعة الاختبار وأهميته	١٧٢
الاختبار القرآني (المصطلحات والمجالات)	١٧٣
الفتنة والافتتان – الامتحان – الابتلاء	١٧٤
حِكم جامعة وخاصة	١٧٨
حكمة التجربة والخبرة .... والقرآن	**١٨٢–٢٠٤**
التجربة عامة وخاصة خارجية وذوقية	١٨٢
خصوصية التجربة وخصوصية المجرب	١٨٥
في المواقف والطبيعة	١٨٥
التجربة والاختبار	١٨٦
التجربة وتكرار الخطأ	١٨٧
في التجربة والنبوة	١٩٠
تجارب وخبرات ووقائع قرآنية حكيمة	١٩٢
أولاً : من خلال التاريخ	١٩٣
ثانياً : في العهد النبوي	١٩٦
أهمية المجربات في العلوم الإسلامية	١٩٩
المجربات وأغنى التجارب	٢٠٢
الحكمة والوسطية .... والقرآن	**٢٠٥–٢١٨**
مواقع الوسطية في الخير والحكمة	٢٠٥
الوسطية في القرآن	٢٠٧
أولاً : الفرد الوسط أو الأوسط	٢٠٨

الموضوع	الصفحة

ثانياً : الأمة الوسط ٢٠٩

ثالثاً : الشريعة الوسط ٢١١

الوسطية والشهادة ٢١٦

حكمة السخرية .....والقرآن ٢١٩-٢٣٨

في السخرية فن فلسفة وأدب (شخصيات فكاهية ساخرة) ٢١٩

السخرية المعاندة بدلاً من الحجة والبرهان ٢٢٥

الحكمة الساخرة – في العروض ٢٢٧

قضايا ومراجع وأطر ساخرة ٢٢٩

الحواس المعطلة والمنحرفة موضوع للسخرية ٢٢٩

طلبات وأوامر غير مألوفة ولامعقولة ٢٣٢

تهكم في المراجع (الله ، الكتاب ، العهود) !! ٢٣٥

في أطر الحكمة وأهدافها ٢٣٧

حكمة التعليل والسببية ... والقرآن ٢٣٩-٢٧٤

أولاً : حِكَم وتعليلات في مشروعية الصوم ٢٣٩

ثانياً : حِكَم وتعليلات في مسائل عديدة وباسم واحد ٢٤١

ثالثاً : تعليلات في الأسماء ١- من المصادر ٢٤٣

٢- من المشتقات ٢٤٤

رابعاً : حِكَم وتعليلات في سورة الفتح ٢٤٥

خامساً : في الأدوات : الفاء – اللام – لئلا – اللام المضمرة – الكاف – لعل كي – كيلا – لكيلا – من أجل ٢٤٨

علة التشريع وحكمة التشريع ٢٦١

(في كل علةٍ حكمةٌ تشريعية)

من أسماء العلة ما ينبه الى الحكمة ٢٦٤

فروق بين العلة والحكمة ٢٦٧

وقد تكون الفروق ملغاة ٢٦٩

شمولية في التعليل الحكيم ٢٧١

الموضوع	الصفحة
حكمة بالغة	**٢٧٥-٢٧٩**
الحكمة سبيل الى الحكمة	**٢٨٠-٢٨٣**
الحكمة والمستشرقون	**٢٨٤-٢٩٠**
الخاتمة (لماذا حكمة القرآن)	**٢٩٢-٣٠٧**
ماهية الحكمة القرآنية	٢٩٢
خصائص الحكمة القرآنية ومزاياها	٢٩٣
جمالية الحكمة القرآنية	٢٩٨
النتائج الحضارية والآثار للحكمة القرآنية	٣٠٣
الفهرس	**٣٠٨**

تنضــــيد
مركز النووي للكمبيوتر
دمشق - برامكة (هندسة)